[redacted]
الجمالى ،حافظ
دروس علم النفس
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01001888

DATE DUE

JAFET LIB.
23 MAY 2002
Circulation Dept.3

JAFET LIB.
19 MAY 2004
Circulation Dept. 5

MAR 1987

150
J27dA
c.1

دروس
علم النفس

تأليف

حافظ الجمالي
عضو في لجنة التربية والتعليم

هدية المؤلفين والناشر

الطبعة الثالثة منقحة

68554

مكتبة العلوم والآداب للطباعة والنشر
لأصحابها
هاشمي اخوان

☎ : ٤٢ — ٣٠

طبع في مطبعة العلوم والآداب بدمشق . سنة ١٩٤٨ — ١٩٤٩

Gift Publisher 1949

LIBRARY

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد طبع هذا الكتاب مرتين ، قبل هذه الطبعة الثالثة ، وكنت ألاحظ في كل مرة ، انه يحتاج الى شيء من التعديل والتحوير ، ويضيق بي الوقت فلا استطيع التصحيح ولا التنقيح ، ويبقى الكتاب في حالته الاولى .

الا انني استطعت التفرغ ، في هذه المرة ، بعض الشيء ، وساعدتني ملاحظات فريق من الزملاء الكرام ، فحورت فيه وعدلت ، وحاولت ان اجعله اقرب متناولا ، واوضح اسلوبا ، واوفى بحثا ، واضيق حجما في الوقت نفسه ، ولا اظنني ـ مع ذلك ـ وفقت الى كل ما اردت . وسيبقى علي ان اطبعه مرات كثيرة اخرى ، قبل أن ارضى عنه كل الرضى او بعضه .

ولا شك ان طلاب الشهادة الثانوية ، الاعزاء ، سوف يجدون فيه ما يجب ان يعرفوه في علم النفس ، ولكني اذكر ، مرة اخرى ، انه لا يمكن الاكتفاء في مثل هذا العلم ، بمطالعة كتاب وحيد ، مهما

تكن قيمة هذا الكتاب ، ومهما يرتفع في افق العلم ، ذلك ان الثقافة لا تقنن كما تقنن بطاقات الاعاشة والتموين ، ولا يجوز ان ينظر اليها بهذا المنظار ابداً .

ولن احاول في هذا الكتاب اي ادعاء : فكل ما فيه جهد متواضع احاول ان يكون نافعا ومفيداً ، فان استطاع ان يكون كذلك فذاك ما رجوت ، والا فمن الله العون والتوفيق .

حافظ الجمالي

الفصل الاول

مفاهيم علم النفس وطرائقه

خلاصة البحث :

آ — وجهة النظر التقليدية

١ — تعريف علم النفس
٢ — موضوعه
٣ — طريقته
٤ — اتجاه التفكير فيه

ب — وجهة النظر الحديثة

١ — نقد التعريف
٢ — نقد الموضوع
٣ — نقد الطريقة
٤ — تحول اتجاه التفكير

ح — خلاصة عامة

آ — وجهة النظر التقليدية

تعريف علم النفس : عرف القدماء هذا العلم . وعرفوه باسمه . فقالوا انه علم النفس ، وكان هذا التعريف وحده يغري باتجاه البحث إلى النواحي الميتافيزيكية أكثر مما يبعث على البحث من وجهة موضوعية .

واذا اردنا ايضاح ذلك ، فانه يمكننا ان نأخذ حالة نفسية معينة ، كالذاكرة مثلاً . فالذاكرة موضوع معقد جداً : يمكنك ان تبحث فيه من وجهات مختلفة ، لعل أهم ناحية فيها أن تتساءل عن مكان الذكريات ، وأين تحفظ ، وكيف تغيب حتى نخال انها نسيت نسياناً تاماً . وكيف تعود حتى لكأنها لم تغب ابداً . غير أن البحث في هذه النواحي جميعها لا يمكنه الا ان يكون ميتافيزيكياً خالصاً ، أذ انه لن ينتهي إلا إلى فرضيات لا يمكن اثباتها .

وعلى هذا نقول ان هذا العلم عرف قديماً بانه « علم النفس » ولكن البحث فيه لم يكن بحثاً علمياً دقيقاً . بل كان أقرب إلى الابحاث الميتافيزيكية .

٢ — موضوعه لكل علم موضوع : فالاجسام المادية على إختلافها موضوع لعلم الكيمياء . والقوى الطبيعية وما يجري في الطبيعة من حادثات موضوع لعلم الفيزياء . فما هو إذن موضوع علم النفس ؟

إن القدماء يقولون بأن « النفس » هي الموضوع . ولكن ما هي النفس . هل هي جوهر روحي ، أو هي حادثة طبيعية ؟ إن الجواب على ذلك ، في رأي القدماء ، واضح لا شك فيه : فالنفس جوهر روحي ، أو هي قبس من الوجود الالهي ، ولهذا يرون أنها خالدة لا تفنى وباقية لا تزول ، حتى ولو زال الجسد ، وصار الى الفناء .

وإذا كانت النفس هي الموضوع ، وكانت هذه النفس جوهراً روحياً ، فانه يبقى ان تتساءل : من اية ناحية كانوا يبحثون في هذه النفس ؟ والجواب على ذلك أيضاً أنهم كانوا يبحثون أحياناً — كما نبحث نحن الآن — فيما يجري في هذه النفس من حوادث ، وفيما يختلف عليها من الوان الشعور ، وكانوا ايضاً يبحثون في صلة هذه الحوادث بجوهر النفس ، وصلة هذا الجوهر بجواهر ميتافيزيكية أخرى .

ولهذا كله نقول : إن موضوع علم النفس — قديماً — هو النفس وما يجري فيها من حوادث ، وما يتصل بها من جواهر ميتافيزيكية .

ولا ريب ان هذا الموضوع كبير جداً ، وعويص . جداً ، لان البحث في الجواهر الميتافيزيكية امر لا ينتهي ، واذا انتهى فانه لا ينتهي لغير الفرضيات . والفرضيات في العلم لا تغني ولا تسمن من جوع .

وعلى هذا فانه يمكن القول بان المفهوم القديم لعلم النفس كان واسع المطامع .

٣ — طريقته : ويبقى ان نتساءل عن الطريقة التي كان يبحث بها هذا الموضوع . ما هي ، وما هي وجوهها ؟

والجواب على ذلك انها طريقة داخلية ، يتأمل فيها الانسان ذاته . ويصف ما يجري فيها من الحوادث ، ولهذا كانوا يسمونها طريقة «التأمل الباطني» او طريقة « الاستبطان» Introspection اذ أن على الانسان فيها ان يتأمل الباطن النفسي ، لا العالم الخارجي .

ولكن هل يستطيع كل انسان ان يلاحظ نفسه ، وان يصف ما يجري فيها بدقة ، وهل الحادثة التي يصفها واحدة عند الجميع لا تتغير مهما تغيرت النفوس ، صغراً وكبراً صحة ومرضاً ، جهلاً وثقافة ؟ ان كل هذه الاسئلة لم تكن موضوع بحث عند القدماء . وكانوا يفكرون ، بسذاجة ، ان ملاحظة الانسان لنفسه ، او تأمله لما يجري في باطنه شيء كاف لانشاء علم النفس .

ولهذا نقول : ان آلة البحث (او طريقته) في هذا المفهوم آلة متواضعة .

٤ — اتجاه التفكير في المفهوم القديم : يتميز البحث العلمي الآن عن غيره من الابحاث الميتافيزيكية او الخلقية تميزاً واضحاً اذ ان احكام العلم احكام وجود من ناحية اولى : وهي احكام على الظاهر من ناحية اخرى . ومعنى ذلك ان علم الكيمياء عندما يبحث في مولد الحموضة ، فانه يبحث عنه ، لينتهي بحثه الى احكام تنبيء عن وجود مولد الحموضة ، وعن احوال هذا الوجود في الواقع .

وهذه الاحكام التي ينتهي اليها علم الكيمياء في هذا البحث انما هي احكام على ظاهر مولد الحموضة ، لا على باطنه ، والظاهر هنا ما تدركه الحواس من وجود هذا الجسم لا ما يفرضه العقل في باطن وجوده . اما الابحاث الخلقية فانها احكام وجوب تنتهي الى الواجب ، لا الى الواقع ، ولهذا نقول في الاخلاق ، انه يجب على الانسان ان يكون شريفاً ونزيهاً ، ولا نقول في العلم : انه يجب ان يكون مولد الحموضة غازاً . والفرق واضح بين الوجود والوجوب .

وبالرغم من ان الابحاث الميتافيزيكية تنتهي احياناً الى احكام وجودية ، فانه يبقى الفرق واضحاً بينها وبين المباحث العلمية . ذلك ان هذه المباحث العلمية لا تنتهي الى قرضيات وتخمينات لا يمكن اثباتها . بل انها تنتهي الى حقائق لا مجال للشك فيها ، في

حين ان الابحاث الميتافيزيكية لا تنتهي قط الا الى الفرضيات وحدها ، والفرق واضح بين الفرضية التي لم يبرهن عليها وبين الحقيقة التي تم اثباتها .

ولما كان التفكير القديم لا يفصل بصورة واضحة بين هذه الانواع المختلفة من الابحاث فانه كان من الضروري ان تختلط المباحث النفسية العلمية بكل الاعتبارات الخلقية والميتافيزيكية .

والحق ان المباحث النفسية القديمة لم تخل قط من الاتجاه الى الاخلاق تارة ، والى « الميتافيزيك » تارة اخرى . فافلاطون ، الذي يقسم النفس بين ثلاث نفوس : واحدة عاقلة ، وثانية غضبية ، وثالثة شهوانية ، لا ينسى ان يلاحظ ان من الواجب ان تتحكم النفس العاقلة الاولى في النفسين الثانيتين ، حتى يصبح الانسان نموذجاً اخلاقياً كاملا . وهذا ارسطو ايضاً في كتاب النفس ، لا ينسى ان يدخل في بحث الادراك طريقته الفلسفية المعروفة في قسمة الموجودات الى موجود بالقوة وموجود بالفعل — بل لقد نقل عن ديكارت انه كان يشك — في الذاكرة ، مستنداً في ذلك الى رأيه الخاص في طبيعة الزمان ، لا الى اخطاء الذاكرة ، الواقعية ، ونقل عن « ليبنز » انه ينكر تأثير النفوس بعضها في بعض لاعتقاده الفلسفي بان الجواهر الروحية التي يتركب منها كل شيء (اي المونادات) مستقلة بذاتها ، ولا يمكن تداخلها .

والخلاصة ان اتجاه التفكير في علم النفس — قديماً — انما هو اتجاه فلسفي ميتافيزيكي اولا ، ووجوبي اخلاقي ثانياً .

ولهذا كله يمكننا القول : بان وجهة النظر التقليدية في علم النفس . تذهب في بحثها في النفس مذهباً خاصاً ، اهم ما يميزه انه واسع المطامع ، ضعيف الوسائل . وذلك لانه يريد الوصول الى غايات علمية وفلسفية وخلقية بآن واحد ، مع انه لا يتشبث بطريقة اخرى ، غير الطريقة الداخلية المتواضعة بكل ما في هذه الطريقة من عفوية ، وثقة ساذجة .

ب — وجهة النظر الحديثة

ولم يخلص علم النفس من شوائب المفهوم القديم الا بعد جهود طويلة وبطيئة ساهم في بذلها فلاسفة كثيرون من اوطان مختلفة .

ولقد انتهت كل هذه الجهود الى مفهوم جديد لعلم النفس قام على نقد المفهوم القديم ،

وتصحيح اخطائه ، ولنبحث الان في كل وجهة من وجهات هذا النقد .

١ — **نقد التعريف** : يعرف القدماء هذا العلم بقولهم : انه علم النفس : ولكنهم لم يبينوا ماهية النفس بطريقة علمية ، وعجزوا عن بيان الفرق بين النفس والروح والعقل ، بياناً يقبله العلم التجريبي . أضف الى ذلك انهم سكتوا عن ذكر قيد او قيود في التعريف تبين خاصة ذلك العلم ، وتحصر مباحثه بانواع محدودة من نواحي النفس او العقل ، فلم يكن التعريف مانعاً من شمول علم النفس غيره من العلوم العقلية كعلم المنطق.

والشيء الهام في هذا النقد ان تعريف هذا العلم بقولنا : هو علم النفس ، يذهب بنا الى الاعتقاد ، بان هنالك — جوهراً نفسياً — خاصاً ، تنشأ عنه الاعراض النفسية ، وان علينا ان ندرس الجوهر الميتافيزيكي ، قبل كل شيء ، زاهدين بقدر الامكان ، بالاعراض الظاهرية .

إلا ان النظرة العلمية الحديثة تعكس هذا الاتجاه تماما ، لتدرس الاعراض ، قبل كل شيء ، زاهدة ، بقدر الامكان ، بالجوهر الداخلي ، ولهذا عرف علم النفس بقولهم هو : دراسة حوادث النفس : وكما ان الفيزيولوجيا (او علم وظائف الاعضاء) تدرس حوادث الجسد وتحاول تفسيرها ، فكذلك علم النفس يصف حوادث النفس من حركات وصور وافكار وعواطف ، ويحاول تفسيرها .

ولقد بالغ فريق من العلماء في الحيطة والحذر من التعرض للمباحث « الجوهرية » الفلسفية ، فقصروا علم النفس على دراسة السلوك البشري ، وزعموا بان مهمة العالم النفسي ليست شيئاً آخر غير وصف اعمال الجنس البشري بصورة دقيقة ، مثله في ذلك مثل عالم الحيوان الذي يصف سلوك النمل مثلا .

ومن الواضح ان بين هذين التعريفين ، على ما بينهما — من تضاد — صلة حقيقية : اذ ان معرفة الحالة النفسية لفرد من الافراد ، ضرورية جداً لفهم سلوكه ، كما ان الاهتمام بما يجري في النفس البشرية ليست له غاية أخرى غير تفسير ردود الفعل الخارجية والاجتماعية والتنبؤ بها .

ولهذا كله ، تنتهي الى القول بان التعريف القديم لهذا العلم يعزى بالاتجاه الى بحث ، الجواهر اكثر من الاعراض ، في حين ان التعريف الجديد يركز الدراسة في الاعراض

دون الجواهر ، ولهذا لانقول ان هذا العلم هو « علم النفس » بل نقول انه « علم دراسة حوادث النفس » .

٢ — نقد الموضوع : ولقد رأينا بان الموضوع في هذا العلم ، انما هو النفس وما يجري فيها من حوادث ، وما يتصل بها من جواهر ميتافيزيكية . ولكن هذا الموضوع قسمان مختلفان ، او ثلاثة اقسام ايضاً . فاما النفس فدراستها مسألة ميتافيزيكية لاتمت الى العلم الوصفي بصلة . واما مايتصل بهذه النفس من جواهر ميتافيزيكية ، فمسألتها ميتافيزيكية ايضاً . ولا يبقى بعد ذلك الا دراسة مايجري في النفس من حوادث ، كالعواطف والافكار والنزعات على اختلافها ، وهذه امور يمكن دراستها علميا .

ويتبين من ذلك ان موضوع علم النفس لم يكن من طبيعة واحدة وان اجزاءه ليست متجانسة تجانسا كافيا لدراستها معا في علم واحد . وهكذا كان العلم وما وراء العلم يجتمعان في صعيد واحد .

ومن ناحية اخرى ، نجد الفلسفة القديمة امام خطأ آخر : فهي تدرس الحوادث النفسية — اذا درستها — في الانسان وحده ، اما الحيوان فمجرد عن النفس تماما . وهذه النظرة الخاصة للانسان ، ليست بالنظرة العلمية حقاً ... لان الانسان جزء من هذه الطبيعة ، ولم ينحدر الا عنها ، ولهذا لاتمكن معرفته الا بمعرفتها ، غير ان القدماء ظنوا ان الانسان ينحدر من الآلهة وحدها . فوصلوا بين دراسته ودراستها ، وفصلوا هذه الدراسة عن كل دراسة طبيعية اخرى ، متجاهلين هذه الصلة الحقيقية القائمة بين الانسان وغيره من الحيوانات . والحق ان لهذه الحيوانات نفوساً تشبه نفس الانسان ، من بعض النواحي على الاقل ، وهي بسيطة ، ونفس الانسان معقدة ، والعلم يرتقي من البسيط الى المعقد ، ولهذا كان لابد من دراسة نفسية الحيوان للاستفادة منها في دراسة نفسية الانسان .

يخلص لنا مما تقدم ان الفلاسفة القدماء كانوا على شيء من الضيق ، في نظرتهم الى النفس على انها ميزة خاصة للانسان ، وليس لغيره مثلها ، ولهذا كانوا لايدرسون نفسية الحيوان ولا يقرون بوجودها . وهذه حالة فريدة في ضيق النظر ، لانه ليس هنالك علم يقتصر على دراسة موضوعة ، في ناحية خاصة من نواحي الوجود . فعلم التشريح مثلا لايدرس الحجيرة الحية في الانسان وحده ، ولكنه يدرسها في الانسان وفي الحيوان وفي النبات ، وفي كل كائن حي ممكن .

ولذلك كان على علم النفس ان يوسع نظرته الى موضوعه ، ليدرس الحوادث النفسية في اي كائن وجدها ، دون ان يراعي في ذلك اي اعتبار من الاعتبارات الفلسفية الخاصة .

٣ — **نقد الطريقة** : ان الطريقة القديمة ، في الدراسات النفسية ، هي الطريقة الداخلية وحدها تقريبا — كما قدمنا — ولكن هذه الطريقة تبدو غير كافية من نواح عديدة .

ا) واول ما يبدو للناظر أن هذه الطريقة تصبح عقيمة جداً او مستحيلة في بعض انواع الدراسات النفسية ، كدراسة نفسية الحيوانات والاطفال مثلا . ومن الطبيعي ان يستطيع الانسان وصف مايجري في نفسه ببعض الدقة ، اذا انعطف عليها وتأمل مايجري فيها غير انه ليس من الطبيعي ان يصف نفسية الحيوان بهذه الطريقة نفسها . واذا وصفها على هذه الطريقة ، فيكون وصفه خيالياً لا واقعياً .

ب) والامر كذلك في دراسة الاحوال اللاشعورية : فانه يستحيل ان نطلع بالشعور على ماهو غير شعوري ، ولقد ظن القدماء ان النفس والشعور شيء واحد وهذا غير صحيح لان الاحوال النفسية اللاشعورية او الضعيفة الشعور كثيرة جداً .

ج) والمحذور الثالث ينشأ عن ضرورة الموضوعية في العلم . ومعنى هذه الموضوعية الآن ، ان تكون الحقائق النفسية صحيحة في كل الظروف وبالنسبة الى كل انسان ، ولكن الطريقة الداخلية قاصرة عن ابلاغنا مثل هذه الموضوعية .

ذلك ان من يلاحظ حالة نفسية معينة في نفسه ، كالغضب مثلا ، لايستطيع ان يقول ان وصفه لغضبه الحاضر ، سينطبق على وصفه لغضبه في كل مرة . وذلك لان احوال الانسان تتغير تغيراً كبيراً ، وما هو صحيح في الطفولة ليس صحيحا في الرجولة ، وليس صحيحاً في الكهولة ، وبين الكهولة والرجولة فروق كما بين هذه والطفولة ، ولهذا كان من الخطأ الاعتماد على وصف معين لحالة نفسية خاصة ، في عمر معين وثقافة معينة ، وتعميم صحة هذا الوصف على كل حالة نفسية مشابهة ، في عمر آخر ، وفي ثقافة اخرى .

واذا اردنا تعبيراً اخر ، قلنا ان الاحوال النفسية متعلقة اشد التعلق بالاحوال الجسمية او باطوار الحياة بصورة عامة . والحياة تتطور من طفولة الى شباب الى رجولة الى كهولة ، الى شيخوخة . وهي تتطور ايضاً بين الصحة والمرض وبين المجتمع والاخر . واذا وصف الانسان حالة نفسية من احواله ، فانه لا يستطيع ان يقول ان وصفه هـــذا سيصح في الاحوال الاخرى ، ومعنى ذلك ان شرط الموضوعية العلمية لا يمكن ان يتوفر في اية

دراسة خاصة ، وان علينا ، في سبيل الموضوعية ، ان ندرس الحالة النفسيـــة في كل اطوار الحياة ، وفي كل ظروف الحياة . وبدون ذلك لا نستطيع تحقيق الموضوعية .

د) ويأتي بعد ذلك سبب رابع يجعلنا نحكم على الطريقة الداخلية بالضيق والضعف . وينحصر هذا السبب في ان الاحوال النفسية العفوية شيء ، والاحوال النفسية الملاحظة والمراقبة شيء آخر ، فمن ينتبه الى شيء من الاشياء بصورة عفوية ، يكون في حال ومن ينتبه الى هـــذا الشيء ، ويراقب انتبـــاهه (ليدرسه) يكون في حال أخرى ، فالحالة النفسية اذن تتغير بمجرد الانتباه اليها . وعلى هـذا يصعب ان يكون الملاحظ والملاحظ نفساً واحدة . ولا بد لصحة الدراسة من ان يكون الملاحظ غير الملاحظ .

وخلاصة ذلك انه لا يمكن للطاقة العقلية ان تنقسم قسمين . احدهما ملاحظ ، والآخر ملاحظ . واذا امكن ذلك ، فانه ينشأ عنه ضعف في كل من القسمين ، واضطراب . أو لا ترى أنك « اذا حاولت ان تعرف كيف تكتب . او كيف تمشي أو كيف تلقي خطاباً ، وانت تقوم بهذه الاعمال لاعتراك اضطراب في اعصابك فتتشوه كتابتك وتتعثر في مشيتك ، وتتلعثم في خطبتك . وكذلك اذا حاولت مراقبة نفسك في حالة الفرح ، أو تأملتها في حالة الحزن ، فان هذه الملاحظة تضيع مزية الفرح ، وتذهب بحدة الحزن.

وعلى الرغم مما يؤخذ على هذه الملاحظة من تحفظات مختلفة ، تبطل بعض قيمتها ، فانه يبقى أنها نقد قوي لطريقة الملاحظة الداخلية .

ولهذا كله نقول بأن الطريقة الداخلية في دراسة علم النفس ، ليست بالطريقة الكافية ، ولا هي بالطريقة العلميـة الصحيحة ، فلا بد اذن من التوسل بطريقة أخرى ، هي طريقة «الملاحظة الخارجية» التي تنظر الى الحوادث النفسية من خارج وتدرسها كما يدرس عالم النبات نباتاً ، او عالم الحيوان حيواناً ، اوعالم الكيمياء مادة من المواد الكيماوية .

ومعنى ذلك ان المفهوم الحديث لعلم النفس قد أدخل تطوراً كبيراً في طريقة البحث اذ وسع ، من ناحية أولى ، حدود الطريقة الداخلية ، وأضاف اليها الطريقة الخارجية .

٤ — **نقد اتجاه التفكير** : أما اتجاه التفكير في علم النفس القـديم ، فكان يتوخى الوصول الى غايات اخلاقية وفلسفية في آن واحد ، على نحو ما قـــدمنا في الفقرات السابقـــة .

ومن الحق ان نعترف الآن بانه قد تقادم العهد على مثل هذه الغايات وبانه من الواجب

ان يستقل العلم عن الاخلاق والفلسفة معاً : فعلم النفس شيء والاخلاق شيء آخر، والعلم الذي يبحث عن المظاهر والحوادث شيء ، والفلسفة التي تبحث عن الاعماق والجواهر شيء آخر .

ولهذا فقد اصبحت الدراسات النفسية الحديثة مقتصرة على تقرير الواقع وحده . دون الاهتمام بالغايات الخلقية ، والعالم النفسي الآن يدرس الميول والاهواء كما هي ولا يهتم بتفضيل بعضها على بعض من الوجهة الخلقية . وهو يدرس الحوادث النفسية وأسبابها وقوانينها ، الظاهرة ، ولا يهتم بما يمكن ان يوجد بينها من علاقات ميتافيزيكية لابطالها البحث العلمي .

والخلاصة : ان اتجاه التفكير القديم الى الغايات الخلقية والميتافيزيكية . باتجاه التفكير الحديث الى الغايات العلمية وحدها . من حيث الاقتصار على دراسة الواقع دون الواجب ، والمظاهر الواضحة دون الجواهر الكامنة .

ج — خلاصة عامة

يبدو لنا من كل ما تقدم ان المفهوم الحديث يتميز عن المفهوم القديم في نواح كثيرة :

أ — واول هذه النواحي . ناحية موضوع علم النفس ، فلم يعد هذا الموضوع جوهر النفس الخفي ، بل مظاهرها الخارجية وما يعرض لها من حوادث . ولم يعد هذا الموضوع مقتصراً على حوادث النفس البشرية ، بل اصبح يبحث في الحوادث النفسية في جميع صورها ، بشرية كانت او غير بشرية ، (اي حيوانية)

ولنلاحظ ان الموضوع الهام بالنسبة الى علم النفس القديم ، انما هو « النفس البشرية الواعية ، ذات الجسم الابيض ، والحضارة الغربية ، في حين ان الموضوع الجديد ، انما هو حوادث النفس بصورة مطلقة دون تعيين لخصائص المكان والزمان واللون ، والجنس والحضارة ، والوعي .

فكأنما يتجلى في هذا التطور اتجاه الارستقراطية القلسفية الى الديمقراطية العلمية .

ب — والناحية الثانية هي ناحية الطريقة : فلم تعد طريقة التأمل الداخلي كافية ولم تعد تعتبر صحيحة النتائج ، وأني لنا ان ندرس نفسية الطفل والحزين والمجنون والحيوان

بمثل هذه الطريقة ، ولهذا كان لا بد من الاخذ بطريقة الملاحظة الخارجية . وسنرى في الفصل المقبل كيف تنوعت هذه الطريقة ، وكيف وسعت حدود الطريقة الاولى

ج — اما الناحية الثالثة . فهي تطور باتجاه التفكير : فلقد كانوا يبحثون في النفس لتقرير حقيقتها الميتافيزيكية وتعيين واجبها الخلقي . أما الآن فانهم يبحثون في النفس لمعرفة حوادثها وتفسير علاقات هذه الحوادث بعضها ببعض أي لمعرفة حقيقتها المطربة ، بعض النظر عن الواجب الخلقي

ويدل هذا التطور كله على انتصار النزعة الوضعية في العلم (١) وعلى تضاؤل او زوال النظرات الفلسفية القديمة .

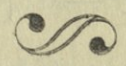

(١) راجع صفات المعرفة العلمية في كتابنا « الوسيط في المنطق » وفي كتابنا « موجز المنطق »

الفصل الثاني

الحوادث النفسية وطرائق دراستها

آ — الحوادث النفسية : وصف وامثلة

١ — صفاتها العامة : أ) داخلية . ب) زمانية لامكانية . ج) كيفية لا كمية
٢ — كيفية دراستها : أ) وصفها . ب) تفسيرها

ب — طرائق البحث :

١ ـ الطريقة الداخلية ووجوهها المختلفة
٢ ـ الطريقة الخارجية وانواعها

جـ — تصنيفها

١ ـ التصنيف التقليدي
٢ ـ فكرة عن التصانيف الحديثة
٣ ـ التصنيف الذي نأخذ به

د — خلاصة عامة

آ — الحوادث النفسية

عندما تطير النحلة وتنتقل من زهرة الى زهرة ، ثم تعود الى خلاياها لتضع العسل ، فاننا نقول : انها تفعل ذلك بحكم الغريزة . وعندما ترى القطة قطعة من اللحم في يد سيدها وتقبل عليه ، فاننا نقول : انها تفعل ذلك بحكم نوع من العادة وعندما نرى الاسد

او الفيل يقوم ببعض الالعاب الرياضية ، فاننا نقول انه يفعل ذلك بحكم التدريب والعادة وعندما نرى الفأرة تهرب من القطة ، نقول انها تهرب بحكم الخوف ، ولقد يفكر الانسان بمصاعب الحياة فيحزن . ولقد يفكر بمباهج العيش ومسراته ، فيفرح . وبالرغم من اختلاف هذه الحيوانات . واختلاف سلوكها الخارجي او الداخلي ، فاننا نسمي غريزة النحل وعادة القطة والفيل ، وهرب الفأرة . وتفكير الانسان بامور الحياة ، وحزنه وفرحه بنتائج تأملاته ... كل هذه نسميها : حوادث نفسية .

واذا ضيقنا ساحة الملاحظة قليلا وقصرناها على الانسان وحده . قلنا ان الحوادث النفسية في هذا الموضوع الخاص . انما هي حياة لاشعورية او شعورية غنية جداً : فيها كل مايسر الانسان او يؤلمه . وكل مايفكر به او يخطر في باله ، وكل ماتتجه اليه نزعاته او ارادته . فاللذة والالم والهيجان والهوى . والادراك والذاكرة والحكم والمحاكمة والخيال ، والغريزة ، والعادة والارادة وما تقتضيه من ميول ، كل هذه حوادث نفسية ،

١ — صفات الحوادث النفسية

وتتميز هذه الحوادث عن غيرها مما يجري في العالم الخارجي بصفات ثلاث رئيسية :

ا) فهي داخلية لاخارجية . ومعنى ذلك ان محيطها الطبيعي هو « المحيط النفسي » اي هو هذا المحيط العضوي الحي الذي يتمتع من مظاهر الحياة بالحس والحركة .

والمحيط النفسي محيط مغلق . فلا يستطيع احد غير صاحبه الاطلاع على مايجري فيه على عكس المحيط الخارجي الذي يعرض حوادثه على كل مشاهد او ملاحظ . واذا استطاع احد من الناس ان يعرف مايجري في نفسي . فلا يكون ذلك الا عن طريق الحدس او التخمين او المقارنة ، أو تأويل المظاهر والملامح . ومن المعلوم ان لكل حادثة نفسية مظهراً خارجيا (قويا أو ضعيفاً) يدل عليها او يساعد بعض الشيء على معرفتها . ومن خلال هذه المظاهر يستطيع الآخرون ان يعرفوا الى حد ما ، بعض مايجري في نفوس غريبة .

والخلاصة ان الحادث النفسي حادث داخلي ، يقع في محيط مغلق ، فلا يدركه مباشرة الا صاحبه . اما الآخرون فانهم قد يدركونه بصورة غير مباشرة .

ب) والحوادث النفسية زمانية لامكانية : وهذه صفة تتميز بها الاشياء المعنوية من الاشياء المادية ، وكما ان للاشياء المادية حيزاً مكانياً تشغله وتملؤه ، فكذلك للحوادث

النفسية زمان تشغله وتملؤه ، وعبثاً نبحث للحوادث النفسية عن مكان تشغله ، لانه لامحل لليأس ، ولا مكان للأمل ، وليس الاول على يمين الثاني ، وليس الثاني فوق الاول او تحته ... وكل هذه التعابير غير صحيحة بالنسبة الى العالم النفسي واذا قال قائل بان الفكر يقع في الرأس او في الدماغ ، فاننا نقول له ان هذه العلاقة المكانية غامضة جداً ، وليس من الواضح قط ان الفكر تسكن في الحجيرات الدماغية ، كما يسكن الناس في غرف الفنادق .

والزمان الذي تجري فيه الحوادث النفسية ليس زمانا رياضياً ، تتساوى هنيهاته المختلفة . بل هو زمان نفسي يطول في حالات الالم والقلق ، ويقصر في حالات اللذة والفرح ، وربما استطعت ان تجد لكل حادثة نفسية زمانا خاصاً بها . مطبوعاً بطابعها . فزمن التفكير الذاتي ، غير زمان الانتباه الى موضوع خارجي . وزمن الفعل غير زمان الانفعال .

ثم إنك لاتستطيع أن تقول: إن لكل حادث نفسية زماناً تستقل به ، وتنفصل فيه عن غيرها . بل كثيراً ماتجتمع الحوادث النفسية المختلفة في زمن واحد . وهكذا ترى الانسان يفكر وهو يتألم . وينتبه وهو يتلذذ ومثل ذلك كثير .

وبهذا المعنى استطاع الفلاسفة الحديثون (مثل برغسون ووليم جيمس) التحدث عن تيار نفسي حركي . تطفو فوقه بعض الحوادث الخاصة ، من دون ان تنفصل . او من دون ان ينقطع التيار النفسي الذي يصل بينها ويجعلها متصلة او متداخلة . وسنرى — فيما بعد — ان هذه الحركة وهذا الاتصال وهذا التداخل من ابرز الصفات التي تميز التيار — النفسي الحي ، الدائم الحركة .

ج) والحوادث النفسية اخيراً ، كيفية لا كمية ، او هي من عالم « الكيف » لامن عالم « الكم » ومعنى ذلك انها لاتقبل القياس . واذا صح قولهم بان الحزن اليوم اشد من حزن الامس فانه لايصح القول ، بان الحزن اليوم ضعف او نصف الحزن بالامس وكل المحاولات التي ارادت قياس الحوادث النفسية ، كالانتباه والذاكرة والاحساس لم تقس الا آثار هذه الحوادث لاذواتها . فلقد يقاس الانتباه مثلاً ، وذلك بتكليف الانسان الانتباه الى كلمة او حرف في صفحة ، والضرب عليه او عليها كلما وجدها ، واحصاء عدد الثغرات بعد ذلك . ومن الواضح ان هذا القياس هو لآثار فعالية الانتباه ، وليس للانتباه بالذات .

واستحالة القياس امر طبيعي في هذا الموضوع ، لانه لاقياس الا للمكان وفي المكان او لما يمكن تأويله وقلبه الى لغة مكانية . ولكن الحادث النفسي حادث زماني بحت ، لامكان له . ولهذا لايمكن قياسه .

٢ — كيفية دراستها : ونريد الآن ان نبين المعنى الواضح لدراسة الحوادث النفسية فما هو هذا المعنى بالضبط ؟

أ — ان الدراسة هنا تعني الوصف : ونريد ان نقول انه اذا كنا امام حادثة نفسية معينة كالخوف مثلا ، فان علينا ان نصفها وصفاً علمياً دقيقاً ، ولا يتم ذلك بوصف شعري او عاطفي او خيالي ، بل بالوصف الذي يحلل الحادثة الى عناصرها او يردها الى بسائطها ، وكما يميز عالم النبات في الزهرة كأساً وتويجاً ومبيضا واعضاء تذكير واعضاء تأنيث . فكذلك يميز العالم النفسي في الخوف مظاهره الداخلية والخارجية واسبابه ونتائجه . والامر كذلك في كل الحوادث النفسية الاخرى .

ب — ثم ان الدراسة هنا تعني التفسير والتعليل : فانه لا علم الا بالتعليل ومعنى التعليل (كما رأينا في المنطق) هو ان نحاول معرفة الاسباب ، او معرفة القوانين : ويمكننا في هذا المثال ان نتساءل : ما هي اسباب الخوف ، او ما هي قوانينه . فاذا استطعنا تعيينها ، فقد تمت دراستنا العلمية ، والا فانها تظل ناقصة .

واذا بحثنا عن اسباب حادثة نفسية معينة ، او عن قوانينها ، فان معنى ذلك ان نصل وجودها بوجود عناصر اخرى وتغيرها بتغير هذه العناصر ، ولكن ما هي العناصر العامة التي ترتبط بها الحوادث النفسية ؟

١ — ان اول شيء هو العضوية او هو العناصر العضوية او الفيزيولوجية . ان الحادثة النفسية لا تجري الا في محيط عضوي — كما قدمنا — ومن المعقول ان يكون بين الجسم والنفس صلات اكيدة . ووشائج عديدة ، لما بينهما من تلازم واتصال . هذا اذا امكن ان نفرض انفصالهما واستقلال احدهما بالوجود عن الآخر ولا ريب أن هذه فرضية ميتافيزيكية لا يمكن اتباعها .

الا ان الواقع يدل دلالة صريحة على تأثر الحوادث النفسية بالحوادث الفيزيولجية اذ لا وجود للاولى ، الا بوجود عضوية فيها جملة عصبية . ومن ناحية اخرى تبرهن الوقائع على ان نمو الحياة العقلية يتبع نمو الجملة العصبية وكذلك نلاحظ ان الفعالية النفسية مقترنة دوماً ، في صعودها ، وهبوطها ، في صحتها وفي مرضها ، بعوامل فيزيولوجية ، كارتفاع الحرارة في الرأس ، وتغير كهربائية الجسم ، عند التفكير ، وكتشحم الحجيرات الدماغية ، او تفسخها او فسادها في الامراض العقلية وهذا كله يبرهن برهاناً كافياً على

العلاقة الكائنة بين ما هو نفسي وبين ما هو عضوي ، ولهذا سنحاول عند البحث عن كل حادثة نفسية ان نصلها بشروطها العضوية .

٢ — والشيء الثاني هو المجتمع . والحق ان النفس ليست مقترنة بالجسم وحده تلازمه في الحياة ويلازمها ، ولكنها ايضاً محاطة في حياتها بحياة اجتماعية غنية او فقيرة ومهما تكن هذه الحياة الاجتماعية فقيرة ، فانها تؤثر في النفس في حدود كبيرة: اذ عنها تأخذ النفس عاداتها وتقاليدها ، ومنها تقتبس معتقداتها وطقوسها ، وثقافتها واهواءها وآمالها ولا يكاد المرء ينفرد بشيء يتميز به عن المجتمع الذي يعيش فيه ، حتى ليصح القول ان كل ما تحملة النفس من افكار ومفاهيم هو من نتاج الجماعة ، ولهذا ايضاً سنحاول ان ان نصل كل حادثة نفسية بشروطها الاجتماعية .

٣ — والشيء الثالث الذي يستعمل في التعليل انما هو تعليل المركبات النفسية ببسائطها : مثال ذلك ان نعلل الفعل المنعكس الشرطي ، بالفعل المنعكس العادي وبالذاكرة الحيوية وان ترد الغريزة الى العادة ، والهوى الى الميل ، والادراك الى الاحساس والذاكرة .

ومن شأن العلم أن يرد المركب الى البسيط ، فلا حرج على علم النفس اذا هو اتبع هذه الطريقة .

٤ — واخيراً يمكن تعليل بعض الحوادث النفسية العالية ، بفعالية نفسية خاصة كفعالية التحليل او التركيب مثلا . وسنرى ان هذه العوامل النفسية الخالصة من العناصر التي لا يستغنى عنها في بحث مثل الحكم او المحاكمة او الخيال المبدع او الارادة

والخلاصة ان معنى دراسة الحوادث النفسية هو وصفها اولا بصفاتها البارزة وهو ، ثانياً : محاولة تعليلها ببيان اسبابها او قوانينها .

ولقد رأينا ان الحوادث النفسية متصلة بالحوادث الفيزيولوجية والاجتماعية من ناحية اولى ، كما انها متصلة بعضها ببعض وبفعالية نفسية خاصة من ناحية اخرى . ولهذا سنحاول ان نبحث عن عوامل كل حادثة نفسية ، من هذه الوجهات المختلفة .

ب — طرائق البحث

والآن ما هي آلاتنا في الدراسة ؟ ان هذه الآلات هي طرائق البحث . وهي التي

تهدينا الى غايتنا فيه . فما هي طرائق البحث في علم النفس ؟

Introspective.

١ — الطريقة الداخلية

ان الجواب بسيط نسبياً : فلنفرض مثلا اننا نريد دراسة حالة خاصة من احوالنا النفسية : كالفرح او الغضب فماذا نفعل ؟ ان الجواب هو ان علينا ان نلاحظ هذه الحادثة ملاحظة داخلية ، فنميز بدايتها وتطوراتها ونهايتها ، ثم نعيد الملاحظة مرة واخرى وثالثة لنتأكد من صحة وصفنا ... وهذه الطريقة هي الطريقة الداخلية التي اشرنا اليها في ابحاثنا السابقة .

ولهذه الطريقة وجوه نذكر منها الوجوه الآتية :

ا) فالوجه الاول هو الملاحظة النفسية العفوية ، وهو نوع من التأمل الباطني العفوي ويتميز بسرعته وغموضه وعدم كفايته لانشاء العلم . شأنه في ذلك شأن كل ملاحظة عفوية او عامية .

ب) والوجه الثاني هو الملاحظة النفسية الارادية . وهي تأمل باطني مقصود . يوجه فيه الانسان انتباهه الى حادثة من حوادث نفسه ، فيتأملها ويدقق فيها ، ويمعن النظر في دوافعها واسبابها وصورة جريانها ، ويحاول استقصاء عناصرها ، وتقريبها من غيرها من الحوادث ، وتعيين قوانينها او علاقاتها بغيرها . وهذا التأمل الباطني المقصود هو الوجه الصحيح لدراسة النفس على الطريقة الداخلية .

ج) والوجه الثالث هو ان نعتمد في الدراسة ، على نتائج ملاحظة الآخرين لانفسهم . كأن نطرح سؤالا في ناحية معينة على عدد كبير من الناس ، وننتظر منهم جوابا ، ثم نحلل اجوبتهم ونقارن بعضها ببعض لنخلص منها الى العناصر المشتركة بينها . وقد اتبعت هذه الطريقة بنجاح غير قليل . في اواسط مختلفة ، فاعتمد عليها مثلا : ريبو ، والفرد بينه ومدرسة — فورزبورغ — الالمانية .

ولقد عيبت هذه الطريقة بعيوب مختلفة رأينا بعضها في الفصل السابق : وكل هذه المآخذ تنحل الى مأخذ واحد ، هو ضعف قيمتها الموضوعية ، اي ضعف

قدرتها على انتاج النتائج العلمية الموثوقة .

والحق ان الانسان اذا حاول ملاحظة نفسه . فانه لايتيسر له ان يلاحظها دوما لان حالات الهيجان وما فيها من اضطراب لاتتناسب مع ضرورات الملاحظة العلمية وماتقتضيه من هدوء وسكون .

واذا امكنت الملاحظة الداخلية ، فانها على كل حال تقسم الفعالية النفسية بين قسمين : احداهما يراقب والآخر يراقب . وفي هذا تشويه او اضعاف للحادثة النفسية التي نريد دراستها .

واذا قيل : ان الفعالية النفسية لاتنقسم قسمين : قسم يراقب وآخر يراقب ، بل ان العقل يقوم بكليته بكل عمل على حدة ، فهو يراقب مايجري حيناً ، وينقطع عن المراقبة ليترك للحادثة النفسية حرية الجريان . او قيل بان الانسان يستطيع ان يدرس حوادثه بعد وقوعها ، بالاستعانة بالذاكرة . قلنا ان الذاكرة مهما اقتربت من موضوعها ، لاتستطيع ان تعكسه عكساً صحيحاً .

واذا امكنت الملاحظة الداخلية واستطعنا بها وصف حادثة معينة فاننا لانستطيع الوثوق بان وصفنا سينطبق على الحالات الاخرى المماثلة وذلك لسرعة تغير الحوادث النفسية ، وشدة اختلاف عناصرها .

وهذه كلها عيوب الطريقة الداخلية عندما تكون ممكنة .

غير اننا نلاحظ استحالة استعمالها في ملاحظة الاطفال والحزين والمرضى ، وبصورة عامة ، كل من هو غيرنا وكل ماهو غير شعوري فينا ... فلا بد اذن من الاعتماد على طريقة اخرى .

٢ — الطريقة الخارجية

لنفرض الآن أننا نريد البحث عن حالة نفسية معينة من حالات الطفولة ، كقوة التقليد ، او من حالات الحيوان ، كالغريزة ، او من حالاتنا اللاشعورية ، كالعادة والميل فماذا نفعل عندئذ ؟ اننا لانستطيع استعمال الطريقة الداخلية ، لاننا لا نستطيع تقمص شخصية الطفل ، ولا نفسية الحيوان ، ولا أن نشعر بما هو غير شعوري . وإذن فلا بد من الملاحظة الخارجية

والملاحظة الخارجية عندئذ إنما هي الانتباه الى سلوك هذا الطفل او هذا الحيوان ، من خلال الناحية التي عيناها موضوعا لدراستنا . وهي تنحصر في ان يتأمل الانسان افعال غيره ، صغيراً كان او كبيراً ، انساناً كان او حيوانا . ثم يحاول ان يفسر هذه الاعمال من الوجهة النفسية ، مضيفاً نتائج تأمله الى نتائج غيره من الباحثين ، فتزداد بذلك حقائق علم النفس وقواعده .

ولهذه الطريقة وجوه عديدة نذكر منها مايلي :

أ — **ملاحظة الحياة النفسية** في ادوارها المختلفة : في الطفولة والشباب والرجولة والكهولة . وقد اتسعت حدود الاختصاص في هذه المواضيع ،فاصبح الباحث يقتصر على دراسة دور خاص من هذه الادوار . دون ان يهتم بغيره .

ب — **ملاحظة الحياة النفسية** للمرضى ، ولهذه الدراسة اهمية كبيرة لانها تكون بمثابة آلة تحليل . تضخم بعض الحوادث او بعض الفعاليات ، فتظهر اثرها واضحاً ، وتعدم بعض الفعاليات الاخرى ، فتبدي بذلك قيمة وجودها .

ج — **وهنالك ملاحظة للحيوانات** وما يعرض لها من الاحوال النفسية . وهذه الدراسة هامة جداً لانها تستطيع ان تطلعنا على البسيط من الحادثات النفسية وذلك يفيدنا في معرفة المركب منها

د — وهناك اخيراً **ملاحظة لتجربة نفسية** يثير العالم النفسي ظروفها ويهيء وجودها . ولقد تطور هذا المنهج التجريبي في علم النفس تطوراً كبيراً واستعملت فيه الآلات . ويطول بنا الشرح اذا اردنا تعداد وجوه الملاحظة الخارجية وانواعها . فلنكتف اذن بالقول ان جميع انواع هذه الملاحظة تنحل الى نوعين رئيسيين :

١ — الاول منها هو **ملاحظة الحادثة النفسية** — بصورة خارجية — **والبحث عن شروطها الفيزيولوجية** . او مقارناتها العضوية ومن الطبيعي ان تستدعي هذه المعرفة ملاحظة الحيوانات المختلفة ، والاعمار المختلفة التي يمر عليها الانسان وأحوال الصحة والمرض التي يكون فيها هذا الانسان ، بل انها لتستدعي ايضاً ان تدرس الانواع البشرية المختلفة ، وكل ذلك في سبيل معرفة العلاقة بين درجة التطور العضوي ، ودرجة التطور النفسي .

٢ — وأما النوع الثاني، **فهو ملاحظة الحادثة النفسية** بصورة خارجية دوما — **والبحث عن شروطها الاجتماعية**. ومما لا شك فيه ان السلوك الفردي، ودرجة التطور النفسي يتعلقان الى حد كبير بالحياة الاجتماعية التي يفرض على بعض الحيوانات وعلى الانسان أن يعيش فيها. وطبيعي ان تشمل هذه الدراسة، ملاحظة الحياة الاجتماعية من ابسط درجاتها الى اعلاها. وتنطوي تحتها دراسة الجماعات الحيوانية، والانسانية الابتدائية، والجماعات الانسانية في مختلف درجات تطورها.

غير ان هذه الطريقة التي يعتمد عليها علماء النفس على اختلاف نزعاتهم، ليست بالطريقة المثالية، الخالية من المآخذ والعيوب. ومن اهم عيوبها هذه:

ا) **ان المظاهر قد تغر الملاحظ وتضلله**، فيستنبط منها نتائج فاسدة. هذا الى ان بعض الناس قد يتظاهرون بما ليس فيهم، لدرجة يصبح معها من الصعب على العالم النفسي القليل التجارب ان يصل الى اعماق نفوسهم، ويتوصل الى خبايا عقولهم.

ب) **ثم ان الانسان كثيرا ما يصدر حكمه على غيره متأثرا في ذلك بميوله وعواطفه وتجاربه السابقة**، فالانسان في الغالب ينحاز الى ابناء جنسه ووطنه وشركائه عند الحكم عليهم. ويميل لقبول ما كان موافقاً لارائه. وتشويه ما كان مخالفاً لمذهبه او لتحويره ليتفق مع رأيه، والرجل يفهم عقلية الرجل اكثر مما يفهم عقلية الطفل أو المرأة.

ومن الواضح ان هذا النقد يصح على الملاحظة الخارجية كما يصح على الملاحظة الداخلية اذ ان الانسان عندما يتأمل نفسه ليصف حالة من احوالها، فانه لابد ان يبالغ في ذكر فضائله، وان يطفف في ذكر رذائله. بل لابد له ايضاً من ان يستقبل كل جديد من احواله النفسية، بنفس قديمة لها افكارها السابقة، ولها اتجاهاتها الخاصة، ولا بد وان يتأثر وصفه بكل هذه النزعات الخاصة.

ج) **ثم ان الملاحظة الخارجية لا تطلع الباحث الا على الوجه الخارجي للحادثة النفسية اي على المظهر وحده**، ولكن مظهر الحادثة ليس كل شيء فيها، ولذلك كان

لا بد من اضافة الطريقة الداخلية الى الطريقة الخارجية والانتفاع بنتائجها معا .

د) وآخر صعوبة في هذا الموضوع ، هي انتخاب لغة ملائمة للتعبير عن الحوادث النفسية وقد اشار برغسون الى ان اللغة التي نستعملها عادة هي لغة مصنوعة على مثال المكان ومنسوجه في جملة مفاهيمها ، على حسب اقيسته ، فاذا استعملناها في العالم النفسي لم نزد على ان نضع للعالم النفسي ، صفات العالم المادي وخصائصه ، وهذا يعني اننا نفقده الحياة العفوية والحرية ، ونلبسه الموت والعطالة والجمود . ومهما يكن في هذا الرأي من مبالغة ، فانه يشير على كل حال الى ضرورة الاتفاق على مفردات واحدة تقابل مفاهيم نفسية واحدة وهذا ليس بالامر السهل ، ولا هو بالهين اليسير .

ج) تصنيف الحوادث النفسية

لقد عرفنا حتى الان ماهي الحوادث النفسية ، وماهي طرائق دراستها ، ولكن بقي علينا — اذا اردنا دراستها — ان نعرف باي منها نبدأ ، وبأي منها ننتهي . اي ان علينا ان نعرف الترتيب الذي يجب ان نتبعه في دراستها ، فهل نبحث في اللذة والالم قبل البحث في الادراك والذاكرة مثلا . أو يجب ان نقدم هذين في الدراسة على غيرهما ؟ ان هذه المسألة هي مسألة تصنيف الحوادث النفسية .

والحق ان على العلم ان يبدأ بالبسيط لينتهي الى المركب ، واذن فمن المهم ان نعرف أي الحوادث النفسية بسيط وايها مركب ، ولا يكون التصنيف ناجحا حقا الا على هذا الاساس وحده .

فلنجرب الان ان نستعرض بعض التصانيف القديمة والحديثة لنصل بعدئذ الى التصنيف الذي سنأخذ به في هذا الكتاب .

١ — التصنيف التقليدي

عندما نحلل حادثة نفسية ما ، كالغضب مثلا ، فاننا نلاحظ بسهولة ان في هذا الهيجان عنصراً عاطفياً قويا يبدو ، في صورة توتر عصبي هائل يطغى على الجسم كله ، غير ان في الغضب ايضاً بعض العناصر العقلية ، التي هي اسبابه ، او من جملة اسبابه . وفي غالب الاحيان ، يتجلى الغضب على صورة نزعة الى فعل معين ، اي انه يوجه القوى الفاعلة في الانسان الى ناحية معينة ، كأن يريد الغاضب الهجوم على عدوه او ضربه باليد ، او الفتك

به على حال من الاحوال. وهكذا يحمل الغضب بعض العناصر الفاعلة بالاضافة الى العناصر العقلية والعاطفية السابقة.

ومن الواضح ان العنصر العاطفي في الغضب اقوى وجوداً من سائر العناصر الاخرى ولكن لو اننا حللنا حادثة اخرى، كاسترجاع احدى الذكريات المنسية، لوجدنا فيها مجموعة العناصر السابقة، غير اننا سنلاحظ غلبة العنصر العقلي على غيره من العناصر الاخرى. ولو اننا حللنا حادثة نفسية ثالثة، كالعادة أو الغريزة، لوجدنا «العنصر الفاعل» اقوى من غيره حتما.

وهكذا يبدو لنا ان الحياة النفسية في كل جزء من اجزائها، انما هي صورة مصغرة لجميع اجزائها. وانه ليس هنالك من حادثة عاطفية بحتة، كما انه ليس هنالك من حادثة فكرية أو إرادية بحتة، وانما تجتمع هذه الوجوه كلها في حادثة نفسية واضحة، بالرغم من تفرد أحد الوجوه بالغلبة والظهور.

ولا شك ان هناك بعض الحوادث النموذجية التي تعرض العنصر الغالب وحده دون غيره تقريبا: فالفعل المنعكس مثلا حادثة لايكاد يتجلى فيها غير العنصر الفاعل. وعملية الحكم ايضاً حادثة لايكاد يتجلى فيها غير العنصر الفكري. والهيجان المصادم، حادثة لاتكاد ترى في بدايتها، غير العنصر العاطفي، غير ان هذه الحوادث النموذجية قليلة جداً، وليس بالامكان الاعتماد عليها.

وهذه الملاحظات مما يدعو الى القول بانه يمكن تصنيف الحوادث النفسية تبعاً للعنصر الغالب فيها الى:

ا — حوادث عاطفية، اولا: مثل اللذة والالم والهيجان والهوى

ب — وحوادث عقلية، ثانيا: مثل الادراك والذاكرة والحكم والمحاكمة

ج — وحوادث فاعلة، ثالثاً: مثل الغريزة والعادة والارادة.

وهذا هو التصنيف التقليدي الذي يرجع في اصوله الى ديكارت الذي فرق في النفس بين ملكتي العقل والارادة، ثم الى الفلاسفة الابداعيين «والرومانتيك» الذين عظموا شأن العاطفة، ورفعوا منزلتها فوق فعاليات النفس جميعاً.

٢ — فكرة عن التصانيف الحديثة

ان التصنيف التقليدي ليس بتصنيف حقيقي، لانه يشتمل على اطر واسعة جداً،

بحيث لايمكن ان نميز معها ماهو بسيط من الحوادث النفسية ، وماهو مركب فيها . مثال ذلك ان نأخذ الحياة العاطفية في هذا التصنيف ، فنرى مثلا ان كل حادثة عاطفية تدخل في هذا الاطار سواء كانت لذة ام الماً . هيجاناً ام هوى. وليس هنالك اي دليل ان اللذة اعقد تركيبا من الهيجان او ابسط منه . ولذلك يمكننا ان نبحث في هذه الحادثة العاطفية او غيرها دون ان يكون هنالك سبب واضح لتقديم هذه وتأخير تلك . وكل مايستطيع ان يفعله هذا التصنيف هو انه يساعد بعض المساعدة على فصل الحوادث العاطفيـــة عن الحوادث العقلية ، وفصل هذه الاخيرة عن حوادث الحياة الفاعلة . الا ان الغاية الـتي نطمح اليها في التصنيف ليست شيئاً آخر غـــير بيان تسلسل الحوادث في سلم البساطة والتعقيد .

ولهذا قامت محاولات كثيرة في سبيل الوصول الى تصنيف علمي صحيح ، يحقق هذه الغاية التي نطلبها . ومن اشهر هذه المحاولات محاولات « رابية Rabier »و« ري Rey » و « بييرجانه P. Jannet » ونحن نكتفي بذكر محاولة (جانه) وحدها .

تصنيف بيير جانه :

يرى هذا الفيلسوف ان الحوادث النفسية تنقسم الى بسيطة ومركبة ، او معقدة . ولكن ماهي مقاييس التعقيد ؟

آ) انها اولا كثرة العناصر التي تدخل في تركيب حادثة من الحوادث . فاذا قلنا ان الهوى اعقد تركيبا من الهيجان ، فمعنى ذلك ان العناصر التي تؤلف الهوى اكثر من العناصر التي تؤلف الهيجان .

ب) وهي ثانياً وحدة تركيب هذه العناصر : فليس المهم ان تكون العناصر كثيرة . بل المهم ان تمتزج هذه العناصر . وان ينشأ عن امتزاجها وحدة عالية تضم شتاتها فاذا قلنا : ان الهيجان ابسط من الهوى ، فاننا نعني بذلك ان الهيجان دون الهوى في وحدته التركيبية . اذ ان عناصر الهيجان ، على كثرتها ، متفرقة متناثرة . اما عناصر الهوى فهي متماسكة ، متداخلة . وهذا مايجعل الهوى فوق الهيجان من حيث التعقيد .

جـ) وهي ثالثاً ، قوة التلاؤم مع الواقع . فاذا كنـــا نتلاءم مع الواقع باستعمال

مجموعة من العادات لا تتغير ، فان قوة التلاؤم لا تكون قوية جداً . إذ قد يتغير الواقع ، دون ان نستطيع تغيير عاداتنا ، أما اذا كنا نتلاءم مع الواقع بالاعتماد على العقل والوعي وملاحظة كل تغير ، ومقابلته بما يجب له من ردود الفعل الجديدة فان هذا يعني ان العمل الواعي اعقد نفسياً من العمل العادي ، او ان العمل المبدع فوق العمل المحافظ ، او ان قوى الابداع اعلى شأناً من قوى الاتباع .

د — وهناك في التلاؤم مع الواقع صفتان بارزتان جداً :

اولاهما الاحساس بالحاضر ، والثانية الاحساس بالواقع .

ومعنى الاحساس بالحاضر ان نستطيع ملاحظة الزمن الذي نحن فيه وان نستطيع التلاؤم مع الواقع ضمن حدوده . أفلا ترى هؤلاء الذين عليهم ان يسافروا غدا الى مكان بعيد وهم لم يتهيئوا بعدلهذا السفر لابقليل ولا بكثير، كأن غيرهم هو الذي سيسافر . اما معنى الاحساس بالواقع فهو القدرة على تميزه من الخيالي او الموهوم : فبعض المرضى مثلا يتخيلون او يتوهمون وجود من يعذبهم ويشتمهم او يسمعهم سيء الكلمات ، ويردون على ذلك باعنف الردود دون ان يلاحظوا ان هؤلاء لو وجدوا حقاً لسمعهم الاخرون ايضاً . ولكنهم لا يلاحظون ذلك ، ويسكنون الى عالمهم الموهوم ، ويغرقون فيه .

هـ) واخيراً ، نقول ان التلاؤم الإجتماعي اعلى تعقيداً من التلاؤم الفردي : وكثيراً ما نرى اشخاصاً يقومون باعمال عظيمة اذا كانو منفردين عن الناس او بعيدين عنهم ، حتى اذا وجدوا بين فئة ، ولو قليلة من الناس عجزوا عن القيام باي عمل ، وهذا واضح جداً في سلوك الاطفال الذين يحسنون القراءة امام معلمهم ولكنهم يتلعثمون كل التعلثم عند حضور وجه غريب يريد ان يستمع الى قراءتهم .

وقد خلص بيرجانه من دراساته هذه الى مفهوم نفسي جديد هو « التوتر النفسي ». فالافعال النفسية اما ان تكون «عالية التوتر» واما ان تكون «ضعيفة التوتر» . وبين هاتين المرحلتين درجات عديدة جداً . فاذا ارتوى ميل من الميول (كالميل الى الطعام) بصورة كافية ، فقد انخفض توتر هذا الميل ، ووصل في ضعفه الى النهاية الصغرى ... اما إذا جاع هذا الميل ، فاننا نلاحظ ارتفاع توتره الى النهاية العظمى .

وعن هذه الملاحظات كلها ينشأ ترتيب خاص للحوادث النفسية : يبدأ فيها من

البسيط الضعيف التوتر ، ويرتفع الى المركب المعقد العالي التوتر .

ومن الواضح ان انشاء هذا الترتيب يتطلب معرفة سابقة لكل حالة نفسية ، ودرجة التوتر التي يتطلبها من النفس القيام بها ، او انجازها .

وهكذا صنف بييرجانه الافعال والحوادث النفسية ، تصانيف مختلفة ، وفي أحد تصانيفه هذه ، تراه يضع في اول القائمة ، الحركات العضلية العديمة الفائدة ، ثم يتبعها بردود الفعل الهيجانية ، الحشوية ، ثم بوظائف التصور ، ثم بالفعالية المجردة ثم بوظيفة الواقع . وفي كل زمرة من هذه الزمر الكبيرة يضع بعض الافعال او بعض الحوادث النفسية المناسبة لها . وليس يهمنا ان نزيد التفصيل في هذا الموضوع .

٣ — التصنيف الذي نأخذ به :

وليس علينا ان نأخذ بتصنيف بييرجانه أخذا تاما ، وانما يهمنا ان نستقي منه بعض الفكر الرئيسية :

١ — فهو يوضح أن الحياة النفسية تبدو في درجات مختلفة التعقيد ، فهنالك حالات نفسية دنيئة ، وهنالك حالات نفسية عالية ، بمعنى ان الاولى بسيطة نسبياً ، وان الثانية اكثر منها تعقيداً ، ولهذا سنبدأ بدراسة « عناصر الحياة النفسية » اي بدراسة هذا النسيج الاساسي الذي تتكون منه كل الحياة النفسية . وهذه العناصر هي الميول والحركات والصور ، والحالات العاطفية ، وسنرى ان تعليل هذه الحوادث ، أنما يكون بالعنصر العضوي النفسي ، او الفيزيولوجي النفسي ، اكثر من سواه ، دون ان ننسى ان الحالات العاطفية العالية لاتكتفي بمثل هذا التعليل ، بل لابد لنا من اضافة العنصر الاجتماعي النفسي لتعليلها .

٢ — ثم اننا سنحتفظ بهذه الفكرة القائلة بان الفعالية النفسية انما تبدو في بعض الصور العامة . ومعنى ذلك ان هنالك بعض الوظائف النفسية الرئيسية ، التي سنحاول تبينها من تحليل هذه الوظائف التي نسميها عادة : بالغريزة والعادة ، وتداعي الافكار والانتباه . « فالفعالية المحافظة » تبدو في الغريزة نقية صافية . اما في العادة وفي تداعي الافكار خاصة فنلاحظ وجود « فعالية الاصطفاء » هذه الفعالية التي نحسب انها يجب ان توضع بين الوظائف الرئيسية . وسنلاحظ اخيراً ان تحليل الانتباه سيفرض علينا الاعتراف

بوجود وظيفة رئيسية جديدة هي « وظيفة التركيب » التي لايمكن تعليل الوظائف النفسية العالية بدونها .

٣ — ثم اننا سنمضي بعد ذلك الى دراسة الوظائف النفسية الاكثر تعقيداً ، اي الى هذه الوظائف التي تتميز بقوة طابعها العقلي ، كالذاكرة والادراك ، والحكم ، والمحاكمة وسنحاول ان نبين كيف تمتزج فيها الوظائف الرئيسية التي سبق لنا تحديدها . وسنرى ان تعليل هذه الوظائف سيكون بالعنصر — الاجتماعي — النفسي اولا ثم بالعنصر النفسى الخالص ايضا . ونعني بهذا العنصر النفسي ، هذا الوضع التأملي ، او هذا النوع من التجلي في الشعور الذي نكون قد لاحظنا انه العنصر المميز للانتباه .

٤ — واخيرا ، فاننا سنحاول دراسة صور الحياة النفسية ، العالية جدا اي هـذه التأليفات النفسية الكبرى ، كالابداع ، او التخيل المبدع ، والارادة . ثم نتبعها بدراسة مفاهيم الشعور واللاشعور والشخصية .

٥ — ولما كان لابد من مقدمة تبحث في العلاقة الكائنة بين الجسم والنفس في عناصرها التجريبية دون التأويلات النظرية ، فاننا سنحاول البداية ببحث هذه العلاقة ، بالاضافة الى بحث العلاقة بين الحياتين الاجتماعية والنفسية .

٦ — واخيراً ، لابد من اضافة هذه الابحاث التي نلاحظ وجودها في البرامج الحديثة والتي يقصد منها معرفة بعض التطبيقات العملية لعلم النفس ، مثل البحث في الذكاء والوراثة وما ينشأ عن مسلماتها في ميدان التطبيقات العملية .

د — خلاصة عامة

اردنا في هذا الفصل تعريف الحوادث النفسية تعريفاً واضحا بعض الشيء فقلنا انها حوادث داخلية لايشعر بها مباشرة الا صاحبها ، وانها تقع في الزمان لا في المكان ، ولها كيفية خالصة لاتحسب لها كمية ولا تقاس .

واردنا بعد ذلك بيان معنى دراسة هذه الحوادث ، فقلنا ان ذلك يعني وصفها اولا ومحاولة تعليلها باسبابها الفيزيولوجية او الاجتماعية او بما هو ابسط منها من الحوادث النفسية ، او بفعالية نفسية عميقة ، او ببعض هذه العوامل او بجملتها معا .

ثم اننا اردنا بيان طرائق الدراسة ، فتجلى لنا انها طريقتان اساسيتان : الاولى منهما هي طريقة الملاحظة الداخلية (اي الاستبطان) والثانية هي طريقة الملاحظة الخارجية ،

ولكل من هاتين الطريقتين وجوه مختلفة، وعيوب عديدة، ومن الافضل ضم نتائجها والاستعانة بكل منهما . بقدر الامكان —

ولقد حاولنا بعد ذلك تصنيف الحوادث النفسية ، وغايتنا من ذلك ايجاد ترتيب للحوادث النفسية ، نستطيع به تعيين تسلسلها ، ثم دراستها على حسب تسلسلها في البساطة والتعقيد ، ولقد عرضنا ، خلال ذلك ، تصنيفاً تقليدياً ، يقسم الحوادث النفسية ، الى حوادث انفعالية او عاطفية ، وعاقلة او فكرية ، ولاحظنا اخطاء هذا التصنيف ، وبعده عن غايتنا ، واضطرنا ذلك الى عرض فكرة عن التصانيف الحديثة التي بدا لنا ان تصنيف بيير جانه من اهمها .

ولقد تبين لنا من عرض اسس هذا التصنيف انه يميز البسيط من الحوادث النفسية عن المركب منها او المعقد ، تبعاً لكثرة العناصر ووحدة التركيب ، وحسن التلاؤم والشعور بالحاضر ، والشعور بالواقع . وسهولة الاتصال بالوسط الاجتماعي ، اي تبعاً لقوة التوتر التي تحتاج اليها الفعالية النفسية . وعلى هذا رأينا انه يجب ان نبدأ بدراسة اسس الحياة النفسية الاولى ، او نسيجها الاول ، الذي يتألف من الميول والاحساسات والصور والحالات العاطفية المشتقة ، ثم نعدل الى دراسة الوظائف النفسية البارزة ، كالفعالية المحافظة ، وفعالية الاصطفاء . وفعالية التركيب ، التي نراها على الترتيب ، واضحة في الغريزة والعادة وتداعي الافكار والانتباه ، وهكذا ننتقل من الوظائف البسيطة الى الوظائف المعقدة فالاكثر تعقيداً ، ملاحظين ان التعليل يبدأ بالعنصر الفيزيولوجي . ثم يمر بالعنصر الاجتماعي الى ان ينتهي بالعنصر النفسي الخالص .

ولما كان من الضروري مراعاة المواد المقررة في البرامج فانه كان علينا ان نضيف ابحاث الذكاء والوراثة والتطبيقات العملية المختلفة لعلم النفس في الفصول الاخيرة .

ولما كان من الضروري ايضاً ايضاح الحياة الفيزيولوجية والاجتماعية في الحياة النفسية فقد رأينا ان نجعل هذا البحث مقدمة لما يتلوه من الابحاث .

الفصل الثالث

علاقة الحوادث الفيزيولوجية والاجتماعية

بالحوادث النفسية

خلاصة البحث :

١ – لمحة تشريحية وغريزية عن الجملة العصبية

٢ – الفيزيولوجي والنفسي : ا) المسلمات العلمية : في الناحية المركزية

ب) المسلمات العلمية : في الناحية المحيطية

ج) تأويلها العام

٣ – الاجتماعي والنفسي : ا) المسلمات العامة

ب) تأويلها

٤ – العنصر النفسي الخالص .

٥ – خلاصة عامة

لمحة تشريحية وغريزية عن الجملة العصبية

١ – التركيب النسيجي

تتألف الجملة العصبية من نسيج عصبي خاص اولا ، ومن نسيج ضام يضم اجزاء النسيج العصبي الخاص بعضها إلى بعض ، ثانياً ومن اغلفة (هي السحايا) وظيفتها وقاية الجملة العصبية ، ثالثاً .

أما النسيج العصبي الخاص فيتألف من خلايا عصبية صغيرة جداً ، وألياف ناقلة للسيالة او التيار العصبي . والخلايا العصبية خلايا متطورة إلى أبعد حدود التطور ، فقدت أو كادت تفقد قدرتها على الانقسام . وهي زهر عديدة ، لكل زهرة منها أوصاف خاصة ؛

ووظائف متميزة أيضاً (كالخلايا الهرمية في القسم الدماغي ، وخلايا النوى السنجابية المركزية ...)

وتتألف الخلية العصبية من ثلاثة اقسام رئيسية :

١) الجسم — ويحتوي على نواة واضحة في وسط هيولي (بروتوبلازما) معقدة التركيب ، فيها جسيمات ملونة تدعى جسيمات « نيسل »

٢) المحور الأسطواني — وهو استطالة تخرج من أحد اطراف جسم الخلية ، وتنتهي بتفرعات دقيقة

٣) الاستطالات الهيولية — وهي تفرعات تشبه أغصان الشجر . قصيرة ومختلفة العدد . إلا أنها طويلة جداً في الخلايا الحسية الموجودة في العقد الحسية ، حذاء النخاع الشوكي . وتدخل السيالة العصبية بطريق هذه الاستطالات إلى جسم الخلية ، لتخرج منه بواسطة المحور الاسطواني .

والخلايا العصبية حركية أو حسية وحاسية ، أو خلايا مشاركة . فالحركية تثير الحركة في العضلات جملة ، والحسية والحاسية تنطبع فيها الاحساسات المختلفة ، وخلايا المشاركة تؤمن الاتصال بين الخلايا المختلفة للجهاز العصبي المركزي

ويحتاج النقل العصبي إلى خليتين عصبيتين أو اكثر . ولم تعرف حتى الآن على وجه الدقة ، كيفية اتصال خلية عصبية باخرى ، ولا مدى هذا الاتصال . والمظنون ان هناك فسحة بين الخلايا تقاوم مرور التيار العصبي وتجعله في اتجاه واحد . وتخف مقاومة هذه الفسحة لمرور السيال مع تكرار هذا المرور . والسيالة العصبية او التيار العصبي هي محصلة تفاعلات فيزيائية — كيميائية معقدة وعديدة وسريعة الحصول ، مسرحها الخلايا العصبية وملحقاتها والفسحات الموجودة بينها . وتسير السيالة متجهة إلى الخلية ، أو مبتعدة عنها . وما القوس الانعكاسية العصبية إلا مجموعة تتألف من تيار عصبي حسي او حاسي يأتي إلى الخلية الحسية بواسطة استطالة هيولية . ثم يتصل هذا التيار مباشرة ، اوبواسطة خلايا المشاركة ، بخلية حركية يصدر منها تيار عصبي يسير في محورها الاسطواني مبتعداً عنها ، فيقوم بتحريك عضلة ما . وحركة رجل النائم عند وخزها مثال على الفعل المنعكس .

اما النسيج الضام في الجملة العصبية ، او مايسمى بنسيج اللحمة العصبية ، فهو مشتق في الاصل ، من نفس الوريقة الخارجية التي اشتق منها النسيج العصبي الخاص ، ولكنه

غير متميز جيداً ووظيفته تأمين التماسك ، والى حد ما ، تأمين تغذية العناصر العصبية المتميزة من خلايا والياف .

والمادة العصبية اجمالاً نوعان : نوع سنجابي تكثر فيه الخلايا نسبة للالياف ، ونوع ابيض تكثر فيه الالياف نسبة للخلايا .

ويلاحظ ان المادة السنجابية موجودة في المخ في الوجه الظاهر منه ، بينما نراها في باطن المخ المتوسط والبصلة والنخاع الشوكي والمخيخ اما بشكل نوى ذات وظائف مختلفة او بشكل قرون امامية محركة ، وقرون خلفية حسية ، في النخاع الشوكي .

وأما السحايا فثلاث طبقات : خارجية تسمى الأم الجافية ، ومتوسطة وتسمى الغشاء العنكبوتي . وباطنه تلتصق مباشرة بالمادة العصبية وتسمى بالأم الحنون .

الوصف التشريحي للجملة العصبية

تقسم الجملة العصبية الى قسمين :

١ — الجملة العصبية المركزية وفيها : المخ — المخيخ — الدماغ المتوسط والبصلة السيائية ، والنخاع الشوكي .

٢ — الجملة العصبية المحيطية وفيها : آ — الاعصاب وهي تخرج من المخ والدماغ المتوسط والبصلة والنخاع الشوكي

ب — الجملة العصبية الاثباتية .

واننا نصف فيما يلي هذه الاقسام وصفاً اجمالياً مختصراً :

اما **المخ** فشكله بيضي مستطيل من الامام الى الخلف ، ويقسم الى نصفين يتصلان في الاسفل فقط ، وسطحه الظاهر ، او القشر الدماغي ، سنجابي اللون تقسمه تلافيف عديدة مختلفة العمق والتعرج وفي المخ مراكز حركية وحسية وحاسية تتصل مع الجهة المقابلة لها من الجسم ، وما اتصل منها باجزاء الجسم السفلى كان في اعلى المخ والعكس بالعكس . فالمركز المحرك لاصبع القدم اليمنى مثلاً موجود في اعلى المنطقة المحركة في نصف الكرة المخية الايسر . وفي المخ تتولد التفاعلات المؤدية الى المحركات الارادية ، وقسم من المحركات اللارادية ، وكذلك تنطبع فيه الاحساسات المختلفة . ويتصل المخ من وجهه السفلي ، بجذاء الخط المتوسط بساقين مخيتين وحدبة حلقية تؤلف بالإضافة الى

عناصر عصبية أخرى ، مايسمى بالدماغ المتوسط .

وأما **المخيخ** فيقع خلف المخ وهو أصغر منه ويتصل به من الاسفل ، وهو مؤلف من نصفين كرويين وبينهما فص متوسط مستطيل . ويسيطر المخيخ على انسجام حركة العضلات وتوافقها وبالتالي يسيطر على التوازن ، وكل قسم منه يتحكم في النصف المقابل من البدن .

والبصلة السيسائية عضو مخروطي تتجه قاعدته الى الاعلى نحو المخ فتتصل به ، بينما تتجه ذروته نحو الاسفل فتتصل بالنخاع الشوكي . وفي البصلة السيسائية مراكز مهمة كمركز التنفس والدوران وافراز جهاز الهضم وحركته وينشأ من المخ والدماغ المتوسط والبصلة السيسائية اثنا عشر زوجاً من الاعصاب تدعى بالاعصاب القحفية ، ولها وظائف حاسية ، وحسية وحركية مثل العصب البصري (وهو حاسي) والعصب المثلث التوائم (وهو حسي حركي معاً) . والعصب الوجهي وهو حركي خالص .

واما **النخاع الشوكي** فهو حبل اسطواني موجود ضمن القناة المؤلفة من اقواس الفقرات الرقبية والظهرية والقطنية ، وهو طويل يتفرع منه ٣١ زوجاً من الاعصاب الشوكية تتفرع منها شعب حسية وشعب حركية . وتؤلف هذه الاعصاب امام العمود الفقري وعلى جانبيه ضفائر عديدة تتوزع منها الفروع الى العضلات (الاعصاب المحركة) والجلد والاغشية المخاطية (الاعصاب الحسية) . والنخاع الشوكي هو المجمع الرئيسي للافعال المنعكسة كابعاد عضو ما حين قرصه ، والبول ، والتبرز ، والدفق ، والخ ...

٢ — وأما **الجملة العصبية الانباتية** فهي جملة لم تكتمل دراسة تشريحها وغريزتها بعد وتتألف من سلسلتين من العقد العصبية على جانبي العمود الفقري تؤلف فروعها ضفائر عصبية معقدة تخرج منها فروع دقيقة تصل الى كافة الاعضاء التي تقوم بالافعال الانباتية غير الارادية كتقلص القلب وارتخائه وحركة الرئتين وافراز الغدد ، وحركة المعدة والامعاء وافرازها وتوسع العروق وتقبضها الخ . . . ويلحق بهاتين السلسلتين بعض الاعصاب كالرئوي المعدي وحبل الطبل والمحرك المشترك للعين ، والغدد التي تساعد على هذه الاعمال . وعمل هذه الجملة عفوي لا دخل للمخ والارادة فيه الا في بعض الظروف الخاصة النادرة ،

وهي ذات تأثير كبير في الحالات المرضية التي تطرأ على الانسان .

٢ — الفيزيولوجي والنفسي

على انه ليس من شأن هذا الكتاب ان يدخل في التفاصيل الفيزيولوجية ، التي تبحث في التكوين العصبي او غير العصبي الذي يظن ان له علاقة بالحياة النفسية ، اذ ان مثل هذه الابحاث يمكن الاطلاع عليها في مظانها دون ان يكون هنالك أية حاجة لتكرار مواضيعها في كتاب ، في علم النفس .

وموضوعنا الان هو البحث بصورة عامة ، في العلاقة التي تصل الحادث النفسي ، بالحادث الفيزيولوجي .

ولكن ماهو الفيزيولوجي ؟ انه كل حادث عضوي يتعلق بالجسم مباشرة : ففعالية الدماغ ، والاجهزة العصبية المختلفة ، وفعالية الرئتين والقلب وكل فعالية حشوية اخرى كلها تسمى بالفعاليات الفيزيولوجية :

ولكن الحادث الفيزيولوجي ، في موضوعنا هذا لايمكنه ان يقتصر على فعالية عضوية مجردة عن العضو الذي يقومها ولهذا يمكن ان نبحث في موضوعنا هذا على صورة اوسع شمولا مما تقدم . وذلك بالبحث عن العلاقة بين الجسم والنفس دون أي تخصيص .

ا) المسلمات العلمية : في الناحية المركزية

انه يمكننا الاعتماد على ثلاثة علوم مختلفة ، لاثبات علاقة الجسم بالنفس ، وهذه العلوم هي علم التشريح وعلم الفيزيولوجيا ، وعلم الامراض العقلية .

١ — مسلمات علم التشريح

يبين لنا هذا العلم ان الكائنات الحية تبدأ ضعيفة الجملة العصبية ، حتى لاتكاد تميز منها اكثر من حجيرة عصبية واحدة او بضع حجيرات عصبية ، مستقل بعضها عن بعض . فاذا علوت قليلا في السلم الحيواني . وجدت هذه الحجيرات المستقلة يتصل بعضها ببعض بشريط ، يمكننا ان نسميه الآن بالشريط العصبي .

واذا علوت قليلا ايضا ، مرة اخرى ، وجدت هذا الشريط العصبي يتضاعف ايما

يصبح شريطين مستقلين فيهما بعض العقد العصبية .

وفي مرحلة ثالثة ، نجد نهايتي هذين الشريطين تختلطان لتتألف منهما عقدة دماغية Ganglion Cerebrale وذلك عند الديدان .

وكلما علوت من جديد رأيت هذه العقدة تتضخم وتنمو ، ورأيت الشريطين يتفرعان الى فروع جديدة .

وهكذا فان خلاصة التطور العصبي انما هو السير من الحجيرة او مجموعة الحجيرات المستقلة « الى الشريط العصبي ذي العقد ، الى الشريطين العصبين ، الى اختلاط نهايتيهما في العقدة الدماغية ، ثم الى نمو العقدة ، وتكاثر فروع الشريطين .

اما الدماغ فانه ينمو بصورة تدريجية في الحيوانات الفقرية العالية . ويكشف لنا علم الجنين عن مثل هذا التطور في الجنين الانساني .

ويجب ان نلاحظ بصورة خاصة ان في دماغ الانسان بعض المزايا ، بالنسبة الى سائر الحيوانات .

آ) اذ ان نسبة وزنه الى وزن الجسد ، نسبة مرتفعة جداً اذا قورنت بمثلها عند الحيوانات .

ب) وان نسبة وزن نصف الكرتين الدماغيتين ، الى وزن الدماغ كله نسبة مرتفعة ايضا . ولامثيل لها بين الحيوانات .

ج) وان الفص الجبهي في الدماغ الانساني نام جداً .

د) وان القشرة الدماغية فيه ، ذات تلافيف كثيرة ، وانعطافات لامتناهية .

ه) وان هذه التلافيف وهذه الانعطافات تتميز باختلاف تركيبها بحسب المنطقة ، حتى لقد حسب العلماء انه يوجد فيها اكثر من (٨٠) منطقة ، كل واحدة مختلفة عن الاخرى بتركيبها .

و) وان هذه المناطق المختلفة متصلة اشد الاتصال لكثرة ما بينها من الاعصاب الآخذة والناقلة وغير ذلك من ادوات الاتصال .

وهذا التعقيد الامتناهي في الجملة العصبية « الانسانية » وخاصة في الجملة المركزية التي تبدأ على ابسط حال عند الاسماك ثم ترتقي في تعقيدها عند الزواحف ، ثم عند الطيور ، ثم اخيرا في الحيوانات الفقرية ، لتنتهي في اعلى مدى من التعقيد عند الانسان ، ان هذا التعقيد العصبي هو السبب الذي يحمل علماء الحياة اليوم على الاعتقاد بتميز الانسان ، كما يحملهم

على الاعتقاد بان الشرط الاساسي لنمو الفعالية العقلية عند الانسان انما هو هذا التعقيد العصبي . فكأن الجملة العصبية اداة وصل وتنظيم لجمع فعاليات العضوية .

والخلاصة ، اننا نلاحظ ان الحياة النفسية للحيوان تتزايد غنى ، كلما تزايدت الجملة العصبية تعقيدا، وان تفرد الانسان وتميزه بفعاليته العقلية العجيبة . امر يوازي تفرده وتميزه بجملته العصبية العظيمة التعقيد .

٢ — مسلمات علم الفيزيولوجيا

وتبرهن الفيزيولوجيا من ناحيتها على ان الفعالية العقلية مصحوبة دوما بفعالية فيزيولوجية . مظاهرها الرئيسية ما يأتي .

آ) تزداد الدورة الدموية نشاطاً في المناطق الدماغية ، لدى ازدياد النشاط العقلي . وهذا ما اثبتته تجارب (موسو Mosso) عام ١٨٨٠ .

ب) وكذلك تزداد حرارة المناطق الدماغية الداخلية . نتيجة لازدياد النشاط الدموي فيها . وقد ثبت ذلك بتجارب العالم «شيف shiff » على الحيوانات .

ج) واخيراً يلاحظ تغير الكهربائية الجلدية ، خلال العمل العقلي .

وهكذا تبرهن الفيزيولوجيا من جديد على ان العمل العقلي ليس بالشيء الروحي الخالص الذي لاعلاقة له بالاشياء المادية بل انه متصل اشد الاتصال بالعمل العضوي ومقترن به

٣ — مسلمات علم الامراض العقلية

وهذا العلم اخيراً يبين لنا علاقة الامراض النفسية بفساد القشرة الدماغية واجزاء الدماغ المختلفة . ويذكر « دوبري Dupre » ان الحياة العقلية تتفتت في الشلل العام . كما تتفتت القشرة الدماغية . فهذه تضعف او تتضخم اوتلتهب سحاياها اوتلتهب هي ايضا، اوتتشحم . ويتبع ذلك كله فساد صغير او كبير في الحياة العقلية . ويرى «فالون Vallon » انه لايعقل ان يزول جانب من الدماغ بدون ان يتأثر العقل ،حتى ولو كانت الظواهر سليمة .

ولقد اثارت هذه المسلمات مختلف الاسئلة بين العلماء ، فتساءل فريق منهم عما اذا كان الدماغ يقوم بعمله كوحدة تامة وتساءل فريق آخر عما اذا كان هذا الدماغ يقوم بعمله

كاجزاء مختلفة يقوم كل منها بوظيفة خاصة غير ان الاكتشافات الحديثة المختلفة دلت على ان هنالك نوعا من التخصص في الفعاليات العصبية ، المقابلة للفعاليات النفسية . اذ لقد لاحظ بروكا Broca عام ١٨٦١ ان المرض المسمى بالافازيا اللغوية ، ناشيء عن وجود فساد في التلفيف الجبهي الثالث . ولاحظ « هيتزك وفريتش Hitzig et Fritsch » سنة ١٨٧٠ ان المراكز المحركة واقعة قرب خط رولاندو . وتمكن فيرييه Ferrier عام ١٨٧٩ من تحديد مركز البصر الحسي في المنطقة القفوية من الدماغ . واخيرا جاءت اكتشافات فيرنيك Wernicke فعينت مواقع الفساد المقابل لمرض الافازيا الحسية او السمعية في المناطق الصدغية : ولقد دل ذلك كله على ان في الدماغ بعض التخصص في الوظائف ، الا ان هذا التخصص ليس من الضيق بحيث ينفي كل اثر للفاعلية الموحدة بل انه كثيرا ما يلاحظ ان الاجزاء المختلفة من الدماغ تقوم بالتعويض عن عمل بعض الاجزاء المفقودة او الفاسدة .

ولقد انتهت هذه المباحث الى التسليم بوجود ثلاثة انواع في المراكز في القشرة الدماغية : اولها المراكز الحسية ، والثانية هي المراكز الحركية ، والثالثة هي المراكز المشتركة .

اما الحسية فتشمل مراكز السمع والبصر والذوق والشم .

واما الحركية فهي التي تصدر اعصاب الحركة الموصلة للاعضاء كاليد والرجل واما المشتركة فهي التي تحتفظ بآثار المراكز السابقة وتنتفع بها في الفكر والتخيل والتذكر .

وخلاصة كل ماتقدم ان الحياة النفسية تنمو بنمو الجملة العصبية ، وتفسد او تتضاءل بفسادها او بتضاؤلها . وهي لاتعلم عملا مستقلا لايقارنه عمل عضوي مقابل ، بل ان الظواهر لتدل على وجود توافق شبه تام بين العمل العقلي والعمل العضوي .

ب — المعلومات العلمية من الناحية الجبلية :

يتجه العرف العام الى الدماغ ، اي الى الجملة العصبية المركزية ، على اعتبار انه المركز الطبيعي للحياة العقلية . غير ان الدراسات العلمية قد بينت ان الدماغ ليس كل شيء في هذه الحياة النفسية ، وان القشرة الدماغية التي عينت فيها اكثر المراكز العصبية النفسية ليست وحيدة في التأثير ، بل ان في الدماغ مناطق اخرى ذات صلة وثيقة بالحياة

النفسية ، مثل البطين الثالث ، والطبقات البصرية ، والاجسام المخططة .

واكثر من ذلك ان الجملة العصبية المركزية ليس لها من التأثير ما تفوق به تأثير فروع الجملة العصبية المحيطية . ولقد دلت التحريات الحديثة على عمق الاتصال بين الجملة العصبية الودية ، وبين الحياة النفسيه ، فالحياة العاطفية بجملتها متعلقة بهذه الجملة الودية ، وليس شأن الحياة العاطفية بضئيل .

واذا تركنا هذا كله وجدنا ان الجملة العصبية ، مركزاً او فرعاً ، قد فقدت الشيء الكثير من اهميتها ، بالنظر الى ما عرف من تأثير للشروط المحيطية .

ونحن نعني بالشروط المحيطية ، كل فعالية عضوية اخرى غير الفعالية العصبية فما هي قيمة هذه الشروط الجديدة ؟

انه يمكن القول بان لكل التغيرات العضوية : الداخلية او الخارجية اثرا من الاثار في الحالة العقلية . ويقول روسو : « ان حواسنا واعضاءنا تبدلنا دائماً ، فنحمل من غيران نشعر اثار هذه التبدلات في افكارنا وعواطفنا وافعالنا . فالاقليم والفصول والاصوات والالوان ، والظلام ، والنور والاغذية ، والضجة ، والسكوت والحركة والسكون كل ذلك يؤثر في احساسنا ويعمل بالنتيجة في نفوسنا . »

واذا اردنا ان بعض الامثلة ، قلنا ان شرب الخمر او القهوة معروف الاثر في تبديل حالتنا النفسية ، والاكثار من اكل الطعام وبطء الهضم يؤدي الى تثاقل التفكير وفقدان النشاط والاصطدام العنيف بحاجز او بصخرة يؤدي الى الاغماء والتعب يفقدنا القدرة على التفكير « ويطيل زمان رد الفعل ، ويضعف النشاط النفسي »

فالدورة الدموية والتنفس والافراز ، كل ذلك يعمل في نفوسنا ، ويغير من احوالها وسنرى في الابحاث المقبلة قيمة هذه التبدلات المحيطية في الحوادث النفسية .

ولكن لنذكر ، منذ الان ، ان (ريبو) يثبت بان التعب العقلي ناشيء في الغالب عن تعب فيزيولوجي ، وذلك لانه مصحوب بتبدل حركات القلب والتنفس وازدياد الحرارة وتناقص القوة العضلية وضعف مقاومة الجسد وهبوط الحساسية اللمسية وارتفاع الحدة وقابلية الهيجان والغضب .

وخلاصة ذلك كله ان كل مايتلقاه الجسم من المؤثرات الخارجية وكل فعالية عضوية محيطية ، كالتنفس ودوران الدم والافرازات المختلفة ، مما ينعكس على النفس قليلاً او

كثيراً ، ويؤثر في تبديل احوالها تأثيراً واضحا او غامضاً .

غير أن المسألة الجديدة الهامة في هذا الموضوع هي اكتشاف العلماء ما لافرازات الغدد الداخلية من اثر في الحياة العقلية . ولقد عرف حتى الآن ان افرازات هذه الغدد المسماة (هورمون) تنصب في الدم وتعمل في تنظيم الجسد وتنسيق افعاله . وتؤثر في شخصيه الانسان ونزعاته وحالاته الانفعاليه . حتى لقد شاهد العلماء ان ضمور « الغدد الدرقيه » يوقف النمو العقلي ويسبب البلاهه . اما انتفاخ هذه الغدد الدرقيه فيؤدي الى قصر القامه وقساوة وغلظ الشفتين ، وطول الخدين ، وخشونه الجلد ، وضعف نمو العقل . ويقول الدكتور كاود : انه يمكننا ان نشاهد في هذا المرض من جميع الانواع : من تأخر الفاعليه العقلية فبطء نموها حتى البلاهة الحقيقية . واذا ضعفت الغدد الدرقية بعد نمو العقل أورثت صاحبها ضعف انتباه وذاكرة وخيال وفساد حكم ومحاكمة وافقدته حب الاطلاع .

وللتيموس (وهي موجودة في اسفل غدة العنق وعلى جانبي الرغامي) ، والغدة النخامية (وهي موجودة في اسفل المخ) والغدد التناسلية ، والغدد فوق الكيلوية (الكظران) آثار بعيدة المدى في الحياة العضوية والنفسية ، وليس هنا مجال البحث عن تأثير كل منها . غير انه يهمنا الاشارة بصورة عامة الى ان الحياة النفسية ليست مستقلة عن الحياة العضوية ، والى ان الجملة العصبيه ليست شرطها الوحيد ، بل ان جميع الفعاليات العضوية — وخاصه افرازات الغدد الداخليه — ذات صلة بها .

د — تأويل هذه المسلمات

لقد أتخذ الفلاسفه من هذه المسلمات وسيلة لخلق مجموعه كبيرة من النظريات كلها تحاول تفسير العلاقه القائمه بين النفس والجسد ، على ضوء هذه المعلومات المتقدمه .

١ — فمن قائل ان النفس والجسد شيئان مختلفان جدا لان احدهما مادي فان ، والآخر روحي خالد . ومع ذلك فان احدهما يؤثر في الآخر ...وهذا مذهب العرف العام .

٢ — ومن قائل ان النفس والجسد حقيقتان مستقلتان وليس من تأثير لاحداهما في الاخرى ، الا ان كل عمل تقوم به احداهما . يقابل بعمل مواز من الثانيه . وهذا مذهب الفيلسوف ليبنز قديماً ، وكثيرين من بعده .

ومن قائل انه ليس هنالك حقيقتان هما الجسم والنفس . بل الحقيقه هي الجسم وحده .

او هي الجملة العصبية . وكل ماهنالك من حوادث نفسية ، انما هو مجموعة من الحوادث الملحقة التي لاقيمة لوجودها او عدم وجودها . وهذه نظرية الشعور الملحق .

والرأي الذي نقبله مع بعض التحفظات انما هو مايراه الفيلسوف « ري Rey » فهو يذهب الى ان الذكاء او العقل او الشعور انما هو وسيلة التلاؤم مع الواقع . فالحاجة الى العمل هي التي خلقت الشعور . وهذه ظاهرة بارزة في سلوك الاطفال والاقوام البدائية واكثر العاملين الآن ، وفي كل زمان .

ويقول « ري » :

« ان الشعور يتطور وينمو تحت تأثير الضرورات العمليـــة ، وبنسبة التطور العضوي . »

والحق ان الغاية الاولى والرئيسية للحياة النفسية ، انما هي حفظ حياة الفرد والدفاع عنها . ولكن لايمكن ان تكون الحياة النفسية كلها شاعره لان الحياة تقتضي التلاؤم . فاذا تم التلاؤم انعدم الشعور ، واذا اضطرب قليلا او كثيراً ظهر الشعور ضعيفاً او قويا.

وعلى هذا يكون التفكير سبيلًا الى العمل ، قبل ان يكون تفكيرا مجرداً ، فكأن غاية التفكير غريبة عنه ، في الاصل .

ويقول كلاباريد Claparede : « ان هناك قانوناً للشعور يكمن في احشاء الحاجة ولنلاحظ ، على سبيل المثال . كيف يشتد الشعور وينمو ، عندما تعترضنا العراقيل ، وتتشعب امامنا الطرق : فالطفل الذي لايحسن الكتابة بعد ، لايكاد يمسك القلم لكتابة كلمة من الكلمات ، حتى تراه قد تهيأ لهذه المعركة بكل انواع التهيؤ : فاصابعه متشنجة ، ويده متوترة ، ورأسه منحن ، وجسمه متجمع ، وكل حركة من حركاته محاطة بالوان الحيطة والحذر : وكذلك المرأة المشغولة بالتطريز : فهي ماتزال غافلة عن يديها ، وحركات اصابعها ، وما تنسجه من اشكال وزينة ، حتى يفاجئها التواء العمل ، وخروجه عن قصده فتعاودها اليقظة بعد غفلتها اللاشعورية ، وتنتبه الى عملها وحركات يديها وتصحح الوضع وتسوي الاضطراب وفي هذا دليل واضح على ان وظيفة الشعور الاولى ، انما هي احكام التلاؤم ، والهداية الى الطريق الصالحة للعمل . ولكن الشعور لايبقى الا مادامت الحاجة الى التلاؤم قائمة . فاذا تم التلاؤم زال الشعور بحكم انقطاع عمله وانتهاء وظيفته . ويقول ريبو : ان الشعور كلمة مرادفة لتهيئة ردود فعل مناسبة لظروف جديدة .

وهكذا نلاحظ انه لم يعد ، في هذا الرأي ، من حاجة الى الفصل بين الجسم والنفس مثل ذلك الفصل العامي المطلق ، الذي يعتبرهما حقيقتين مستقلتين ، ويفرض مع ذلك انها تتبادلان التأثير ، واصبح من الممكن ان نفهم ان الفعالية النفسية انما هي وظيفة من وظائف الحياة بالجملة ، او عضو من اعضائها : تساعدها على البقاء ، وتسهل لها سبل التلاؤم .

ولكن هذا الرأي لاينسينا ايضاً ان هنالك حياة مستقلة للفكر : فنحن احياناً نفكر لنفكر ، ونطلع لنطلع ، ولا يكون هنالك باعث مباشر على التفكير ، من ضرورات التلاؤم والحياة .

وعدا ذلك ، فاننا لاننسى ان الانسان ليس عضوية فحسب ، بل هو فرد في جماعة تؤثر فيه ويؤثر فيها . وان قسما كبيراً من افكاره وآرائه ناشيء عنها . ولهذا كان علينا ان نبحث في هذا الجانب الاجتماعي ، من الحياة النفسية .

٣ — الاجتماعي والنفسي

١ ـ المسلمات العامة : يعيش الانسان دوما في حياة اجتماعية ، ولكن الجماعة ليست حزمة منافع او مصالح مادية ، بل هي ايضاً مجموعة عوامل روحية ، واجواء معنوية : والحق اننا لانعيش الا في جو متموج من الاعتقادات والافكار والاراء والعواطف . وعندما نترك حياتنا الخاصة ، الملأى بالاضطراب النفسي وندخل في الجماعة ، نشعر اننا دخلنا في عالم جديد يجب التلاؤم معه والانسجام مع قواعده . غير ان الخروج من الحياة الشخصية والدخول في الحياة الاجتماعية امر لابد فيه من انتقال الفكر من الجو الذاتي الفردي الى الجو الاجتماعي ، وليس هذا الانتقال بالامر السهل ، بل انه يتطلب توتراً نفسيا عاليا لايستطيعه المصابون بالامراض النفسية ، ويرى كثيرون من علماء هذه الامراض ، ان ما يتميز به المرضى انما هو عجزهم عن ارجاع انماطهم النفسية ، المتقلبة ، المتموجة ، الفردية الخالصة ، الى اشكال الشعور الاجتماعي وانماطه فكأن التفكير المرضي فكر خارج على الانماط الاجتماعية ، او كأن اتصاله بها عاد الى نهايته الصغرى ، وبهذا اصبح قريباً جدا من الفكر الذاتي الخالص (١)

---

(١) يميز علم النفس تميزاً واضحاً بين هذين الفكرين : الفكر الاجتماعي — اوما يمكن ان نسميه كذلك — والفكر الذاتي . فالاول هو التفكير السليم الذي يملك التلاؤم مع—

والطفولة تشبه المرض ، من هذه الناحية . فالطفل عاجز مثل المريض النفسي عن التلاؤم مع قواعد الفكر الاجتماعي . الا انه يختلف عن المريض بهذه القدرة على متابعة التربية في مقتضياتها . وكلما نما عقل الطفل قليلا نمت قدرتـــه على فهم الفكر الاجتماعي ومسايرته . وليست غاية التربية الا ان توصله الى فهم اساليب هـــذا الفكر الاجتماعي ، بواسطة التدريب ، والعدوى والتقليد ، والتعليم ، وباللغة خاصة ، فاللغـــة هي الثوب الطبيعي للتفكير ، حتى ليصح القول : باننا نفكر بهذه الطريقة او بغيرها بحسب اللغة التي نتكلمها .

واثر الجماعة بارز جداً في احوالنا الفكرية : فالتصورات المشتركة تفرض علينا فرضاً ومفاهيم الخير والشر ، والمناسب وغير المناسب . والجميل والقبيح ، والممكن والمستحيل . والطبيعي والعجيب : كل هذا يتعلق الى حد بعيد بالشروط الاجتماعية . اذ ليست هـذه المفـاهيم واحدة عند المتمدن وغير المتمدن ، وعند رجل القرن العشرين ورجـل القرون الوسطى ، بل انها لتختلف اختلافاً كبيراً بحسب التربية والمحيط الاجتماعي ، والثقـافة العقلية . واكثر من ذلك ان الفكر العلمي نفسه ـ وهو الفكر الموضوعي الحر ـ لايستغني في وجوده عن بعض الشروط الاجتماعية التي تهيء وجوده ، وتسهل حصوله . وسنرى ان ما من ملكة عقلية الا وتؤثر فيها مجموعة من الشروط الاجتماعية .

وليس اثر الجمـاعة باقل بروزاً في فعالياتنا الحركيـة : فحركاتنا التعبيرية المختلفة ، والاشارات وحركات السلام ، والغضب والرضى . والحزن والوداع ... كل هذا يتغير بتغير الجماعة ويخضع لتنظيمها .

وحتى العواطف . ولا نعني بذلك العواطف العائلية ، او المهنية ، او الوطنية فحسب . لان هذه تتغير حتما بتغير الجماعة ، بل نعني العواطف الشخصية الخالصة كعاطفة الشرف ، والكرامة ، والعاطفة البديعية فهذه كلها تتكيف باساليب الجماعة وتتغير بتغيرها .

واذا اردنا امثلة على ذلك كله فانه يكفينا ان نذكر التفكير العربي الحدسي وما يتميز به من سرعة انتقـال وخفة اشارة . والتفكير الفرنسي ومـا يتميز به من تجريد ووضوح ودقة وحسن تنظيم . والتفكير الانكليزي وما يتميز به من نزعـة حسية وميل

القوالب الاجتماعية ، ويستطيع مسايرتها وصوغ احواله على مقتضى احوالها اما الثاني فهو فكر المجنون الذي لايستطيع ان يفعل شيئاً من هذا .

تجريبي. اما الفعاليات الحركية فواضح اختلافها ، ان ترى كيف يسلم الشباب على بعضهم وكيف يسلم الشيوخ ، وكيف تقترب حركات الغاضب الابتدائي ، من الحركات الوحشية. وتبتعد عنها عندما يصبح متمدناً ؟ واما العواطف فان من السهل ان نعرف كيف يرى الغربي الشرف في الصدق والامانة ، وحسن المعاملة ، وكيف يراه الشرقي في صيانة العرض واخفاء المرأة .

والخلاصة : ان الانسان يعيش في حياة اجتماعية تؤثر في تفكيره وعواطفه ونزعاته. وحتى في فعالياته الحركية .

ب = تأويل هذه المسلمات :

وكما اختلف الفلاسفة في تأويل المسلمات الفيزيولوجية وتباينت آراؤهم في علاقة النفس بالجسد ، فكذلك اختلفوا وتباينت آراؤهم في فهم علاقة الحياة النفسية بالحياة الاجتماعية .

فهناك مدرسة نفسية زعيمها (تارد Tarde) وهي ترى ان الحياة النفسية اصل ، والحياة الاجتماعية فرع ، وان كل ما في هذه آت عن تلك ، وان علم الاجتماع فرع من علم النفس ، فالدين مثلا حادثة اجتماعية . ولكنها بدأت فردية : فلقد بعث النبي ، واوحي اليه برسالة خاصة ، وكان قومه على دين آخر ، فبشر وهدى ، واغرى وانذر ، وما زال كذلك حتى تحول قومه عن دينهم القديم الى دينه الجديد .

وهناك ـ على العكس ـ مدرسة اجتماعية زعيمها (دركنهايم) وهي ترى ان الحياة الاجتماعية اصل ، والحياة النفسية فرع ، وان كل ما في هذه آت عن تلك ، وان علم النفس فرع من علم الاجتماع فالانسان مثلا يخلق خلواً من كل شيء : فما تزال به الجماعة ، تهذيباً ، وتعليما ، وتقليما ، وتقويماً ، حتى تجعل منه صورة جديدة لنفسها : اخلاقه اخلاقها ، وعلمه علمها ... وكل انسان يولد على الفطرة ، فأبواه ينصرانه او يهودانه اويمجسانه . ولكل من هذين الرأيين ادلة وبراهين ، ولكننا لسنا بمعرض البحث عن صحة احدهما ، وخطأ الآخر ، بل كل ما يهمنا ان نبين معنى تأثر الفرد بالجماعة ، وخضوعه لها ، وان كل ما في الحياة النفسية العادية من مادة فكرية وعاطفية وخلقية وبديعية انما هو محصول الحياة الاجتماعية ، وان لهذه الحياة روحاً خاصة تسيطر على الفرد من عل ، وتغريه بالتقرب منها ، والانسجام

معها ، ولهذا كله كان من الطبيعي ، ان نتحدث عن قيمة هذا العنصر الاجتماعي في تعليل كل حادثة من الحوادث النفسية .

٤ ـ العنصر النفسي الخالص

مهما يكن من امر العامل الاجتماعي ، ومهما تكن قيمة هذه الثروة التي تضيفها الجماعة الى الكائن العضوي البسيط ، فانه يبقى أن في الانسان عنصراً شخصياً خالصاً يستطيع ان يرد على المؤثرات الخارجية ، عضوية كانت او اجتماعية ، بشكل خاص ، تبدو فيه عفويته الحرة .

والواقع ان تأثير الجماعة في الفرد ، يبدو في صورتين مختلفتين : ففي الحالة الاولى نراه يقبل تأثيرها بصورة منفعلة ، ويستسلم لعقائدها ، وعواطفها ، وآرائها الخاصة ، وحتى لاهوائها ، دون ان يتمثل هذه الاشياء تمثيلاً شخصياً بالعقل والتفكير . وفي مثل هذه الحالة يكون الانسان عبداً للتفكير الاجتماعي . وفي الحالة الثانية يرد الانسان على هذه المؤثرات بصورة خاصة ، تبرز فيها شخصيته ، فتراه يعي هذا الجو العقلي والخلقي الذي تفرضه الجماعة عليه ، ويحاول ان يقدر قيمتها ، وينتهي من ذلك الى تغيير هذه القيم الاجتماعية ، او طرحها ، او الاحتفاظ بها ولكن بعد ان يكون قد اقتنع بقيمتها بعقله وتفكيره . ومعنى ذلك انه في هذا الحين لا يكون خاضعاً للجماعة ، بل يكون متعالياً عليها بالفكر . ولا شك انه لا يتم تحقيق مثل هذا الوضع الا في ظروف اجتماعية خاصة . وبتعبير آخر ان لتجلي الشعور شروطاً اجتماعية ، كما ان له شروطاً فيزيولوجية . ولكن مهما يكن من امر هذه الشروط ، فانه يبقى لهذا التجلي في الشعور الناشيء في الاصل عن بعض العوامل الاجتماعية قيمة خاصة في نمو العقل البشري . ولا يهمنا الآن من هذه الفكرة الا نتائجها الطبيعية في طريقة الدراسة ، اذ كنا حتى الآن ننظر الى علم النفس كما لو كان علماً يستمد وجوده من علم الفيزيولوجيا تارة ، ومن علم الاجتماع تارة اخرى وكأنه في ذلك علم طفيلي ، وكانت ميزة هذا العلم الخاصة مغيبة عنا ، غير واضحة لنا ، حتى لقد كنا على وشك الاعتقاد بصحة رأي « اوغوست كونت » الذي كان يأبى ان يعترف بوجود صحيح لعلم النفس ويقسمه بين نوعين من الدراسات : بعضها فيزيولوجي ، وبعضها اجتماعي . اما الآن فاننا نلاحظ النوعية الخاصة لعلم النفس ، ونفهم ضرورة فصل الدراسات النفسية عن غيرها .

٥ — خلاصة عامة

ان الملاحظات المتقدمة تسمح لنا باستخلاص النتائج الآتية : فالانسان ـ فيما يرى تارد ودركهايم ـ موجود مضاعف : فهو موجود حيوي وموجود اجتماعي . ولكننا نلاحظ الآن انه موجود ثلاثي . اذ انه لا بد في تعليل كل حادث نفسي من ثلاث فئات من العوامل .

١ — واول هذه العوامل ، هي العوامل العضوية او الفيزيولوجية . الا ان هذا التعليل الحيوي لا يصلح الا في دائرة الحوادث النفسية البسيطة جداً كالميول الاولية او ما يشابهها . ونلاحظ ان هذه الاحوال النفسية البسيطة لا توجد صافية او نقية في الحالة الطبيعية . الا ان التحليل النفسي هو الذي يسمح لنا بفصلها عن غيرها .

٢ — والعوامل الثانية ، عوامل اجتماعية . ولقد تبين لنا ان الحياة النفسية في ناحية هامة من نواحيها تابعة للحياة الاجتماعية ، وسنرى ان التحليل بالعامل الاجتماعي سيتناول طائفة هامة من الحوادث النفسية ، بل سيتناول اكثر هذه الحوادث ان لم نقل جميعها ، ولقد كنا بينا من قبل ان الموجود الحيوي يظل في غاية الفقر ، ان لم يغذه المجتمع بمجموعة ثرواته .

٣ — اما الفئة الثالثة من العوامل فهي عوامل نفسية محضة : واذا كانت الحياة النفسية متعلقة باديء الامر ، بالتقاء العنصر العضوي بالعنصر الاجتماعي ، فانها حين ما ، سيجلى لها شعورها بذاتها ، وسينكشف هذا الشعور عن تطور خاص في الحياة النفسية ، ولهذا فانه لا بد لنا من البحث عن هذا العنصر النفسي الخالص في كل المناسبات الممكنة والضرورية .

الفصل الرابع

الحساسية والفعالية

الميول
Tendances

خلاصة البحث :

١ — الحساسية والفعالية
A Notion of Tendency

ا) تعريف الميل Definition

ب) الشعور بالميل : الميل والرغبة .

٢ — انواع الميول

ا) الميول الشخصية — اشكالها الاولى . تعليلها

ب) الميول الجنسية والعائلية . مشكلة الانانية والغيرية

ج) الميول الاجتماعية العطف والتقليد ، الميول الاجتماعية الخالصة

د) الميول العالية

٣ — كبت الميول

---

١ — الحساسية والفعالية

إن السؤال الهام في هذا الموضوع . هو ان نبحث ، في الحياة النفسية ، عن عنصر هام جدا ترجع اليه كل العناصر الاخرى او تستمد وجودها منه .

ولقد فرض بعض الفلاسفة مثل كوندياك أن العواطف (او الحساسية جملة) هي

هذا العنصر الهام الذي تشتق منه سائر الحوادث النفسية . مثال ذلك ان شهوة الطعام (وهي حادثة عاطفية) تبعث على التفكير في الحصول عليه (وهذي حادثة فكرية) . وهذا التفكير ينتهي بنا مثلا الى تخيل طريقة صالحة لتأمين الطعام ، فنسرع الى تنفيذها أو نقوم بجملة اعمال تحققها (وهذه حادثة من حوادث الحياة الفاعلة) . وهذا مثال على كيفية تسلسل الحوادث النفسية ، بدءاً من عاطفة معينة .

إلا ان علماء النفس اليوم يعتبرون الميول وحدها (أي الفعالية) أصل الحياة النفسية لان رغباتنا المختلفة ، وعواطفنا المتنوعة ، ليست — كما سنرى — الا مظاهر سطحية لهذه الميول .

١ — **تعريف الميل :** ولكن لما كان الميل بعيداً عن دائرة الشعور ، فقد امتنع تعريفه بطريقة الاستبطان او الملاحظة الشخصية . وتحتم تعريفه من الوجهة الموضوعية او بطريقة الملاحظة الخارجية .

ومن هذة الناحية يعرف الميل — كما يقول ريبو — بانه حركة او وقوف جركة في حالة الولادة . وبتعبير آخر : انه اظهار حركة او اضمارها ويوضح ريبو تعريفه بالمثال الآتي :

ان الحيوان المفترس (آكل اللحوم) الذي قبض على فريسته بانيابه ومخالبه ، قد ادرك غايته وروى ميوله بفضل عدد كبير من الحركات ، ولكن اذا فرضنا ان هذا الحيوان لم يمسك بعد فريسته ولكنه يراها ويراقبها ، فاننا نلاحظ ان عضويته كلها في حالة توتر شديد ، مستعدة للعمل ، اما الحركات فليست متحققة ، ولكن أبسط الدوافع يمر بها الى الفعل . وفي درجة اضعف من ذلك ، نلاحظ ان الحيوان يبحث هنا وهناك ويتطلع بعينيه وبشمه الى فريسة ممكنة قد تسوقها المصادفات اليه . فهذه حالة توتر نصفي يكون فيها التهيؤ العصبي للحركي اضعف قوة وادنى تلاؤما ، وفي درجة اضعف من هذه اخيراً ، نلاحظ ان الحيوان هادىء في مخبئه او عرينه بالرغم من مرور صورة غامضة للفريسة في ذهنه . اما العنصر الحركي فضئيل الشدة جداً ، او هو في حالة الولادة : لم يترجم عن نفسه بعد بأقل حركة ظاهرة . ومن الواضح ان هذه الدرجات الاربع متصل بعضها ببعض والعنصر المشترك فيها انما هو العنصر الحركي مع فارق في الشدة . واذا نحن

الان لاحظنا الحالات التي تمر بها الفريسة ، فلا شك اننا سنرى كل سلسلة الحركات الموقوفة من الشلل التام الناشيء عن الخوف حتى مجرد التوقف البسيط الناشيء عن تخيل الخطر .»

ومثل هذا يعرف برغسون الميل عندما يقول : باننا اذا حللناه لا نجد فيه الا الف حركة صغيرة تبدأ او ترتسم في الاعضاء المختصة ، بل وفي سائر الجسم .

ومن ذلك كله تتضح لنا قيمة الحركة ، في تعريف الميل . ولكننا لن نبحث في الحركات في هذا الموضوع . بل سنؤجل البحث فيها لنعود اليها في بحث الغريزة .

ب — **الشعور بالميل**: الميل — في الاصل — أمر لاشعوري . ولا يكتسي بالشعور الا في احوال خاصة نذكر منها :

١ — **قيام عائق من العوائق** : يمنع نموه ويعرقل سيره ، فاذا لم يصادف الميل عائقاً ظل غير شعوري . ولهذا يجب ان يصطدم الميل بما يوقفه وأن يصاب بالحرمان ، والخصومة ، والنزاع ، والموت ايضا ، ومن المعروف ان الحسد هو الذي اكتشف الاهواء الكبيرة التي كانت تكمن في صدور اصحابها بدون ان يعرفوها .

٢ — **تصور مايروي الميل** : واحياناً لايمكننا معرفة طبيعة الميل الا اذا تم لنا تصور الاشياء التي نستطيع ارواءه . وهذا يقتضي تجربة سابقة لمعرفة نوع الارواء وحفظ ذكراه وكثيراً مايقال عن بعض الناس : انهم لايعرفون ماذا يريدون . وهذا قول حق لاننا نقضي اكثر العمر دون ان نعرف ما نريده او دون ان نعرف ما نسعى الى الحصول عليه بل وقد لا تكون غاية ثقافتنا ومطالعاتنا ، الا ان نتعرف على حقيقة ميولنا . وقد تخدعنا هذه الثقافة عن حقيقة انفسنا وتنشيء لنا ميولا جديدة . ومثلا عليها مصطنعة ، ولا تكون نفوسنا وهذه الميول وهذه المثل في مستوى واحد بل دونها او فوقها .

٣ — **واما حالات الشعور العميقة بالميل**

فلا شك أنها غير متوفرة الا لمن ملك وسائل كبيرة من قوة الملاحظة وهي لاتتيسر الا لافراد لهم دوافع معينة تدعوهم الى ملاحظة انفسهم .

والحق أن تصور الانسان لميوله ، ليقتضيه اتجاها فكريا خاصا : تحديده وتعيينه مصلحة

او حاجة . وترى الانسان ، في غالب الاحيـــان ، يندفع الى العمل ، تحت تأثير ميول فعالة ، معروفة : كحب الذات ، والحاجة الى الاعتماد على النفس ، والهام الثقة للاخرين ، وجعلهم يهتمون ويعجبون به . وفي بعض الاحيان الاخرى ترى الانسـان يستمد ميوله من المثل العليا التي يلقيها على الاشياء الخارجية ، أو يريقها عليهـــا . ولقد توجد دوافع اخرى لتحليل الشخصيـة واكتشاف حقيقة ميولهـا . ومن الحق ان نعترف بان المربين قاموا باكبر خدمة في هذا الموضوع : اذ عودونا على تحليل انفسنـا والانطواء عليهـا ، وقالو لنا دائما بضرورة التمثل بقول سقراط « اعرف نفسك » وهم يريدون بذلك ان ندفع عن انفسنا غرور الانانية ، وحب الذات . وعدا هذا فان امتحـــان الشعور يعود على التحليل . كما ان الاسباب البديعية وحب الاطلاع العلمي ، مما يدفعان اليه ايضا .

واخيراً نرى ان الحيـاة الاجتماعية ، ومواردهـــا الادبية ، مما يساعد على مثل هذا التحليل . فلقد نجد صورة لانفسنا في حياة الآخرين ، او نجد جزءاً منها فيهم . وقد نجد ، على العكس ، طبائع فيهم تناقض طبائعنا تماما ، فيثير فينا هذا حب الانطواء على انفسنا والرجوع اليهـا ، واكتشاف ما فيها . واما الادب التحليلي (اي الادب الذي يصور الاشخاص ، ويحلل نفوسهم (١) فانه يفيدنا جداً . لأنه يقدم لنا صوراً مبسطة ، واضحة الخطوط ، لبعض العواطف التي قـد توجد فينا ، او في اقراننا . وللادب فائدة اخرى ايضاً ، هي انه يقدم لنا اللغة التي نستطيع التعبير عن خوالجنا ونزعاتنـا . ومن الطبيعي ان تحيجنا معرفة الشيء الى معرفة اسمه وتعريفه . وهذا كله يقتضي منا معرفة تامة بمسميات الاشياء ، ومدلولاتها ، والوان هذه المدلولات .

الميل والرغبة

ومن كل ما تقدم . يظهر لنا ان هنالك فرقاً واضحاً بين الميل والرغبة :

أ) فالميل . في الاصل ، لا شعوري . اما الرغبة فحادثة شعورية . ان الرغبـة هي الميل بعد ان امتلأ شعوراً بذاته .

ب) الميل اصل والرغبة فرع : فالميل الى الطعام اصل اما الرغبة في هذا النوع الخاص من الطعام مثلا فهي فرع مشتق منه . فالميل اذن اعمق من الرغبة .

---

(١) راجع كتاب في المرآة : لعبد العزيز البشري . طبع القاهرة .

ج) والميل اغنى من الرغبة : اذ الرغبة ليست الا هنيهة من هنيهات الميل، او صورة من صوره . وهكذا لا نرى في الرغبة بطعام معين ، الا صورة موقتة للرغبة في الطعام بصورة عامة .

د) وعن هذا الفرق الاخير ينشأ فرق آخر : هو ان الرغبة ترتوي بسرعة . وتنقضي الحاجة اليها ، في حين ان الميل يتطلب دوام الارتواء ، فاذا نحن شربنا الحليب الذي شعرنا بالحاجة اليه الآن مثلاً ، فقد اطمأنت الرغبة لدينا وارتوت ، في حين ان الميل يبقى كامناً ، وراء هذه الرغبة ، وقادراً على ابداع رغبات لا متناهية .

× والخلاصة ان الميل يختلف عن الرغبة من بعض الوجوه . اذ هو لا شعوري، وهي شعورية، وهو اصل وهي فرع . ويتميز الميل عن الرغبة ايضاً بطول حياته وامتداد حاجته الى الارتواء. اما الرغبة فقصيرة الحياة ، سريعة الارتواء والزوال .

٢ — انواع الميول

تصنف الميول تبعاً لمباديء مختلفة ، منها درجة التعلق بالحياة العضوية ، ودرجة سبقها الى الظهور . الا اننا لن نأخذ بهذه المباديء بل سنصنف الميول تبعاً لموضوعها. ولهذا نراها تنقسم ثلاثة اقسام ، لأن موضوعها اما ان يكون « الذات » او الانا ولذلك نسميها بالميول الانانية او الشخصية ،او يكون « الغير » ولذلك نسميها «بالميول الغيريه » او يكون موضوعها « مثلا اعلى مجرداً» ولذلك نسميها «بالميول العالية » و لنبحث الآن في كل من هذه الانواع ، على حدة . altruistic

أ) الميول الشخصية — اشكالها الاولى . تعليلها

موضوع هذه الميول هو « الانا » ومعنى ذلك ان غايتها هي المحافظة على حياة الفرد والدفاع عن مصالحها . فاذا كنا نميل الى الطعام او الى الشراب ، او نهرب من الخطر او ندافع عن انفسنا فمعنى ذلك أن عملنا مسير بالميول الشخصية

واذا اردنا تصنيف هذه الميول ، امكننا ان نتخذ التقسيم الفيزيولوجي اساسا لتصنيفها وهكذا نجد :

١ — ان هنالك ميولا متعلقة بالحياة النباتية ،اي بوظائف التغذيه والانتاج الجنسي

Tendencies dealing with vegetative life

Nutrition

أ — فاما وظائف التغذية : فتشتمل الجوع والعطش وما يتفرع عنهما

Reproduction

ب — واما وظائف التناسل : فتقابلها الميول الجنسية

٢ — وهنالك ميول متعلقة بالحياة العقلية التي تقتضي الاتصال بالآخرين وبالاشياء وفيها :

Dealing with life and relationships.

أ) الميول الحركية اولا Mobility وهذه الميول حاجات اساسية في كل كائن حي ، اذ ليس من كائن حي الا ويميل الى الحركة وليس اللعب الا صورة من صور هذه الميول ، تتجلى بقوة ووضوح عندما تكون القوى العضويه المدخرة كافية . غير انه يلاحظ ايضا ان اللعب يقوم بوظيفة تدريب للحيوان على اعماله المقبلة : فالهرة مثلا تدرب نفسها على صيد الفيران عندما تلاعب كرة صغيرة من المطاط وهذه وظيفة اللعب النفعية او الحيويه . اما مايبدو في اللعب من تغافل عن الحياة ، ولهو بعيد عن الجد ، وعزوف عن « النفعية » فذلك كله مما يقرب اللعب من الفن او من الميول العالية .

ب) والميول ، الحسية ثانيا : Sensiti والحق ان في حواسنا حاجة الى الاحساس . فالعين تريد ان ترى ، والاذن تميل الى السمع . ويجب ان نلاحظ ان حاجة الاحساس ، هذه هي العنصر الاول في الميول البديعية . كما انها العنصر الاول في حب الاطلاع وفي الميول العقلية المتفرعة منه .

ولقد استطاع العالم (بييرون) تعليل بعض هذه الميول ، ومعرفة صلتها العميقة بالحياة الفيزيولوجية :

فالجوع مثلا (وهو صورة عامة للميل الى الطعام) ناشيء عن حركات المعدة وتقلصاتها خلال فراغها ، ولقد قام (كانون Cannon) بتسجيل التقلصات المعديه لمساعدة (واشبورن Washburn) على غير علم منه . فلاحظ بان الاحساس بالجوع يظهر ويقوى كلما بدأت هذه التقلصات والحركات بالظهور ، ولا يتأخر عنها الا قليلا . واذا حرمنا القطة من معدتها ، رأينا ان ميلها العضوي الى الطعام ينعدم ، ويضيع نهائياً كل احساسها بالجوع ، ولما كانت هذه الحركات المعدية دورية (يفضل العادات المكتسبة) ، فان الاحساس

بالجوع يبدو دورياً ايضاً . وفي الاحوال التي يطول فيها الجوع ، ينعدم الاحساس به بنتيجة توقف الحركة المعدية ، على عكس الظمأ .

اما الظمأ فانه متصل بازدياد ملوحة الدم . ونقص الماء فيه « ماير Mayer » « كانون Cannon » وهذا ينشيء الحاجة الى الشرب ، او العطش . فكأن العطش ينشأ بصورة مستقلة عن سببه الرئيسي الذي هو ازدياد ملوحة الدم ، لمجرد نقص الافراز اللعابي، بنتيجة الهيجان مثلاً . فاذا استطعنا ان نعيد الى الغدد اللعابية نشاطها في الافراز (بحقنها بمادة البيلوكاربين)فاننا نستطيع ان نخفف او نحذف حاجة الظمأ .

اما الحاجة الجنسية ، فمن المؤكد انها متعلقة بافرازات الغدد الجنسية ذاتها : فاذا سقطت البويضة ، في انثى الحيوانات اللبونة مثلاً ، تحررت طائفة الهرمونات الجنسية ، واثارت الحاجة الى العمل الجنسي ، وانبعثت من ناحية اخرى طائفة من الافرازات ذات الرائحة ، وعملت كمؤثر خارجي يثير رغبة الذكور .

ثم ان للهرمونات الجنسية اثراً عظيما في تكييف العضوية وتعيين سلوكها ، وهكذا ترى ذكور الفئران الهرمة والقذرة، تستعيد العناية بنظافتها وهندامها كما تستعيد شجاعتها وزهوها ، بمجرد تطعيم غددها الجنسية ، او ربط الاقنية الخارجية لهذه الغدد .

وقد عرف الناس ، منذ القدم ، ان عمر المراهقة يبدو او يعبر عن نفسه باوضاع من الزهو والتصنع ، وبمشاغل بديعية مختلفة ، كالعناية بالاناقة والهندام ، والتصنع بالكلام ، والانصراف الى الفنون الجميلة ، كالشعر والموسيقى .

ولهذا نخلص الى القول بان للهرمونات اهمية كبيرة في ظهور الحاجات الجنسية . الا ان العلماء لم يصلوا بعد الى تقدير طبيعية اثرها ، وايضاح مداه

والخلاصة ان الرغبات التي تبدو فيها الميول الانانية بصورة واضحة ، كرغبة الطعام والشراب ، والشهوة الجنسية ، تتعلق باسباب فيزيولوجية واضحة : مثل حركات المعدة في الجوع وازدياد ملوحة الدم في الظمأ ، ونشاط الافرازات الجنسية في الرغبة الجنسية .

وزبدة القول في الميول الشخصية او الانانية ، انها جملة ميول متصلة بالحياة العضوية ، وهي تخدم غريزة المحافظة على البقاء ، من سائر وجوهها المادية والخلقية معا ، اذ ان دفاع الانسان عن وجوده المادي ، عن طريق ارواء حاجاته المادية المختلفة ، مصحوب بدفاعه ايضا عن شخصه الاخلاقي : وما بكاء الطفل في حالة الوحدة وكسره او تحريكه ما يرى

امامه من الاشياء الا مظاهر لهذا الدفاع . ولقد يريد الطفل اثبات وجوده في الوسط الاجتماعي ، بعد اثباته في الوسط المادي وذلك عن طريق امتلاك الاشياء ، وقيادة الامور وبسط السيطرة والنفوذ عليها ومباراة الآخرين ، وحسدهم والزهو عليهم .

ولنلاحظ ان لهذه الميول كلها بعض الانحرافات : فقد تتضخم وقد تتضاءل وذلك بسبب فقدان الميول الاجتماعية التي تعدلها ، فالانانية الشعورية او اللاشعورية ، الخجلة المتوارية ، او الوقحة السافرة ، ليست الا مظهرا من مظاهر انحراف هذه الميول . والانانية تعبير خاص عن ضيق الشخصية الطبيعية ، بمعنى انه لو كان في النفس شيء من وفرة القوى المادية ، او المعنوية ، اذن لفاضت به غيرية وايثاراً . وهنالك مظاهر مرضية كثيرة لهذه العاطفة يطلق عليها اسم ، الانحرافات الغريزية .

مثال ذلك : الشراهة المفرطة ، او الميل الى السكر والادمان عليه ، والبخل والشحاذة المدخرة والاستبداد ، وفقدان الثقة بالناس والغرور المفرط والميل الى التهديم والقسوة على الحيوان (البلهاء) . ويرجع العلماء الى فكرة الدفاع عن النفس جملة ميول اخرى غير اجتماعية وهي كثيرة الشيوع في الامراض العصبية ، او في الاحوال الطبيعية او الشبيهة بالطبيعية . فالبلهاء الطماعون يدافعون عن انفسهم بالخبث ، والضعفاء بالحرد ، والحمقى بالعناد ، والحساد بالنميمة .

وقد تتصعد هذه الميول . ويصبح اثبات الوجود الشخصي وسيلة لخدمة ميول عالية كالمحافظة على العهد ، والكرامة ، والشرف الشخصي .

ومن الخطأ الاعتقاد بان كل هذه الميول مشتقة : فالحسود مثلا لايشتهي الشيء لانه بحاجة اليه ، ولكن لانه يرى ان هنالك انسانا آخر يملكه ، .. وهذا يشبه القيمة الاجتماعية التي تراق على الجوائز او تمنح لها ، فالتنازع من اجل الحصول عليها ، يعلي قيمتها في النفوس ، بالرغم من ضآلة قيمتها المادية .

Dealing with social life - or altruistic Tendencies.

ب ← الميول الجنسية والعائلية . مشكلة الانانية والغيرية .

ليست هذه الميول بمستقلة عن الميول الشخصية . وقد تحدثنا عنها قليلا من قبل الا اننا نخصها بهذه الفقرة من جديد ، لنزيد في ايضاحها اولا ، ولنصلها بالميول العائلية ثانياً .

ان هذه الميول تهدف الى المحافظة على النوع ، لا على الفرد كما هو مرالا في الميول

الشخصية البحتة. ولهذا كان موضوعها العلاقات بين الجنسين وبين الآباء والبنين او العلاقات العائلية والاجتماعية بصورة عامة .

واثر الافرازات الداخلية في ظهور الميول الجنسية واضح بعض الشيء كما تقدم . والمراهقة هي اول ادوار التطور نحو اكتمال هذه الميول ، وتجمعها في الغريزة الجنسية .

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الطفل ، قبل البلوغ ، لا جنس له ، اي ليس هو بالذكر ولا بالأنثى ، لان مظاهر الجنس تبدو : منذ نعومة الاظفار ، في كثير من الاشياء فالاتجاهات الخارجية ، وأنواع الالعاب المفضلة ، وتمييز البنين على البنات في الحياة العائلية وعلاقات الصداقة والصلات الاجتماعية ، كل هذا مما يساعد على تمييز جنس الطفل وتحديده ويلاحظ ان التطور عند المراهقة جلي وخطير ، اذ انه يتم بصورة مفاجئة ، ويستطيل اخيراً بتطور عاطفي وعقلي مدة سنين كثيرة . وعند ذلك تنمو ميول لم تكن موجودة : كالحياء والحيطة والخجل والحسد والغرور . وهنالك ميول اخرى اكثر قرباً الى الميول المثالية والصق بها : مثل العطف وحب الاستقلال وحب اثبات الذات بالقول اوبالعمل . والحب يعجل هذه الاستحالة ويزيد حدتها ويغري الانسان باحتقار ميول الطفولة ، او ينسيانها . واما الاندفاع العاطفي الخاص بالحب ، فانه يفيض بعواطف تنمو على حساب الحب ، فيلاحظ المحب في نفسه استعداداً حاداً للتهيج ، تنمو معه حاجات اطلاع جديدة ، واعجاب غيري وبديعي وديني . وهذا كله يظهر لنا ان الميول لا تعرف غاياتها ، وان الانسان في كل هذه العواطف ، يخدم افرازات الكائن العضوي المراهق ، ويظن في نفسه ، انه وحده مبدع هذه العواطف ومخترعها وانه لا يهتم ابداً بنتائج مخترعاته ، مع انه في الواقع مستعبد لايحاءات الافرازات الجديدة .

وكذلك الامومة ، فاننا اذا اهملنا ما فيها من آثار العادات والتقاليد ، فاننا نراها نتيجة افرازات خاصة ، ثم انه يجب ان نعتقد ان لها علاقة بالسن ، فاذا هي لم تر بصورة طبيعية ، فانها تتخذ طريقها في سبل اخرى كتربية الحيوانات وتبني الاطفال وماشابه ذلك .

واذا فرضنا ان الغريزة تضعف مع العمر ، فلا شك ان ذكراها اولاً وقيام الصلات العائلية بالفعل ، ثانياً ، كل هذا يحل محل الغريزة ، وتصبح العواطف عقلية اكثر منها عاطفية ، ويظهر حنو جديد تخلقه المحاكمة ، بدلاً من ان يخلقه اندفاع غريزي وينمو هذا الحنو بمقدار ما تمده الذكريات القديمة ، بمعينها الذي لا ينضب .

Altruistic

مشكلة الانانية والغيرية

الانانيـة هي حب الذات والسعي لخدمة مصالحهـا الضيقة ، او هي مجموعـة الميول الشخصية البحتة ، اذا تسامت الى درجة الوعي بوجودها .

اما الغيرية فهي حب الآخرين والسعي لخدمـة مصالحهم على صورة واعيـة او غير واعية .

ولا شك ان في عاطفتي الحب والامومة بعض مظاهر هـذه الغيرية وكل من هاتين العاطفتين ينبثق ـ كما رأينا عن جملة من الميول الفطرية .

ولقد ذهب بعض الفلاسفة (لاروشفوكولد) الى الاعتقاد بان كل الميول الشخصية والغيرية مشتقة من حب الذات او الانانية ، واننـا في كل عواطفنا ، لا نرمي الا الى خدمة انفسنا .

واذا رأينا ان انانيتنا لا تلعب دورها في ميل ما . فانه يمكن ان يكتشف فيـه اثر الميول الانانية الثانوية ، مثل حب الظهور ، والغرور ، وهذه صور لحب الذات قدلاتختلف عنه ابداً ، واذا احببنا الآخرين ، فذلك لأنهم شروط لمسراتنـا الشخصية او وسائل لهذه المسرات .

ومما يقوله لاروشفوكولد في هـذا الموضوع : ليست فضائلنا في غالب الاحيان الا رذائل مقنعـة والصدق ليس الا مظهراً لبقاً لاكتساب ثقـة الآخرين . وليس ما نسميه صداقة الا تجارة يرمي حب الذات من ورائهـا الى الحصول على بعض المنافع . ويقول ايضـاً : نحن لا نمدح الآخرين الا ليمدحونا ، ولا نرفض مديحهم الا لنسمعه مرة اخرى . والفضائل تنصب في المنفعة كما تنصب الانهار في البحر .

قد يكون في هذا الرأي شيء كثير من الصحة : اذ لا شك اننا لا نبتغي ـ في كثير من ميولنا ـ الا خدمة مصالحنا . ولو ان شعورنا بذلك يبقى غامضاً احياناً واحياناً ضعيفاً جداً . ولكن المسألة ليست هذه ، وانما هي ان نعين انواع الاعمال التي نبتغي بهـا خدمة المصالح : فتارة يكون في هذه الاعمال خدمة لمصالحنا وأذى للاخرين . وتارة يكون فيها خدمة لنا ولهم . وتارة يكون فيها مضرة بنا وخدمة لهم . فالاولى يمكن ان تكون صوراً لحب الذات والانانية ، واما الثانية والثالثة فلا ... فالام والعاشق يريان سرورهما

في الحرمان الذي يسبب تمتع الآخرين بلذائذ قليلة او كثيرة ، بل ربما كبرت اللذة بنسبة كبر الحرمان .

وسنرى ـ فيما بعد ـ ان الحياة الانسانية لا تستطيع ان تكون فردية خالصة وانها اجتماعيه قبل ان تكون فردية ، ولا شك ان امكان الحياة الاجتماعية يقوم على وجود الميول الاجتماعية المناسبة . ولولا اننا نجد في الحياة الاجتماعية مسرة لنا لما استطعنا ان نعيش فيها. ومن الطبيعي ان تكون الميول الاجتماعية « غيرية » بالدرجة الاولى .

م) الميول الاجتماعية المتوسطة : العطف والتقليد Affective sympathy Imitation

لقد طال اختلاف العلماء حول وجود هذه الميول . ومن الحق ان نفرق بين نوعين من الميول : فالنوع الاول ميول مكتسبة . وهي نتيجة للحياة الاجتماعية . والنوع الثاني هو شروط خاصة لاكتساب هذه الميول . ويجب ان نعترف بان هذه الشروط سابقة للحياة الاجتماعية . وهذا يعدل الاعتراف بانها فطرية .

ونريد بهذا الكلام ان نقول ان الميول المكتسبة تفرض وجود الاستعداد لاكتسابها : وهل يمكن ان يميل الانسان الى التدخين ، اذ لم يكن في نفسه حاجة سابقة الى تهدئة الاعصاب ، وقبول المخدرات ؟

ولنلاحظ ان الحياة الاجتماعية التي تعيش فيها بعض انواع الحشرات او الطيور انما تستند في وجودها الى وجود بعض الميول الفطرية ، اذ اننا نستطيع ان نجد للنحل حياة اجتماعية تامة : فيها تقسيم للعمل ، واختصاص به ، كما نجد له حياة منفردة : ليس فيها اي تعاون على العمل المشترك بل قد نجد النحل يعيش بصورة الجماعة ، دون ان يكون هنالك تعاون بين مختلف افرادها . ومن الواضح ان النحل لا يستطيع ان يختار نوع الحياة الذي يريد ان يحياه . بل هو يخضع في تجمعه وانفراده لضرورات عضوية او فطرية لا يستطيع دفعها .

وفي هذه الملاحظة ما يدعونا الى الاعتقاد بوجود ميول غريزية من هذا النوع ، تقوم عليها الحياة الاجتماعية الانسانية . وليس من الخطأ القول بان هذه الميول الاجتماعية اقدم من الانسان نفسه . وذلك لأنها موجودة في حيوانات دون الانسان في درجة التطور ، كالقردة وبعض الطيور وبعض الحشرات مثلاً. ثم ان آثار التقاليد والتربية في الجماعة

الانسانية ، شيء لا يمكن تعليله وشرحه الا بالرجوع الى مثل هـذه الميول التي تجعل من الانسان حيواناً اجتماعياً . ومعنى ذلك ان قبول الطفل لما يفرض عليه من قوانين التربية ليس غريباً عن طبيعته بل هو جزء منها .

وهكذا نستطيع القول بان الانسان ، على الأقل ، كان يملك ما تملكه بعض الجماعات الحيوانية من ميول ، او غرائز تضمن حياتها المشتركة ، وتساعد عليها ، من قبل ان تؤثر فيه العادات والتقاليد الاجتماعية : مثال ذلك كراهية الوحدة والنفور من العزلة، وحاجة الاجتماع مع الآخرين ، بدون اي فائدة اخرى غير فائدة الاجتماع نفسه .

ولنلاحظ ان الحياة الاجتماعية ، لبعض الحيوانات ، لا تدوم زمناً طويلا وفي بعضها الآخر تدوم مدى الحياة واحياناً تبقى هذه الحياة الاجتماعية ما بقيت هنالك « عائلة » او صغار لا بد من رعايتها والسهر عليها (النحل ، النمل ، قطعان آكلة الحشائش او زمر القرود) وقد تتكون الحيـاة الاجتماعية بتأثير بعض العوامل الطبيعية : كالبرد الشديد (عند ذوات الفقرات) ، وكالهجرة في بعض الفصول (عند العصافير والطيور المهاجرة) وكالليل للحشرات .

واما صور هذه الغريزة الاجتماعية ، في الانسان ، فهي عند الاطفـال ، حاجة الى أم أو الى أخت او الى اشخاص مسنين بقربهم، أو الى اطفال آخرين يلاعبونهم واما الشباب فحاجته الى الوسط الاجتماعي معروفة : فهو يريد التعرف الى الآخرين والاختلاط بالناس والاجتماعات العـامة ، القليلة التنظيم ، ولقد ينسى الشاب نفسه وتغرقه مشاكل الحيـاة الاجتماعية ، سواء أكان فيها منفعلاً أم فاعلاً ، ولا شك في ان الاعيـاد والاحتفالات ، والالعاب العـامة ، ودور السينما والملاهي والقهوات ، كل هذه ذات أثر كبير في خلق الميول الاجتماعية وتنميتها . غير ان امكان الحياة الاجتماعية ، لم يقم الا على وجود ميول غريزية ابتدائية .

واشهر هـذه الميول الاجتماعية ميلان : التقليد والعطف . والعلاقة بين هذين الميلين معروفة وبديهية : فالتقليد ليس الا عدوى الاعمال ، والعطف ليس الا عدوى الهيجان . ولهذين الميلين اهمية كبيرة خصوصاً اذا اجتمعت الجماهير في مدينة او في احتفال ، او في ملعب من الملاعب ، ولا شك ان كثيراً من الحركات التي تعبر بها الجماهير عن عواطفها وارادتها انما هو نتيجة لهذين الميلين : فالعطف يحقق تجانساً في حالات الشعور الفردية ، وهذه تحقق أوضاعاً متجانسة في الأفراد المختلفين ...

ويستطيع التقليد ان يعلل شيوع بعض الاعمال التي يقوم بها افراد أو بعض الافراد ، في المجتمع الذي يضمهم (كحوادث الاعتداء ، والهرب ، وعدوى الالعاب العامة ، وانتقال الاستعدادات والاخلاق والارشادات والرموز) ولذلك يجب ان ندرس هذين الميلين عن كثب .

١) **العطف** لهذه الكلمة (من الوجهة النفسية) معان مختلفة :

١) اولها عدوى الهيجان ، او المشاركة العاطفية Affective sympathy : فقد ننظر الى عمل ما يقوم به قريب لنا ، نظرة خاصة ، نكرس لها كل حواسنا ومشاعرنا وعواطفنا ثم تختلط حدود النفسين ، فيصبح مشاهد الفعل كانه فاعله ، واذا كنا في حفلات مصارعة او لعب كرة فاننا نجد ايدينا وارجلنا تقوم بحركات لاارادية ، كانها تريد ، بهذه الجهود الضائعة ، مناصرة من تحب له الفوز والغلبة .

وقد نقوم بحركات ونشعر بآلام تقص علينا قصصها فتؤثر فينا جداً ، وتحملنا على تخيلها عملياً : بحركات وآلام حقيقية (مثال ذلك : العوام الذين يستمعون لقصص عنترة ، وابي زيد الهلالي . والملك الظاهر ... الخ) .

٢) وفي معنى ثان ، يراد بالعطف ، معرفة الحالة العقلية في انسان آخر ، او بالاصح معرفة الحالة النفسية ، وهنا لاتختلط حدود النفسين ، نفس العارف ، ونفس المعروف ، بل تتميزان بوضوح ، ويعرف الانسان تماماً انه مستقل عن الشخص الذي يتخيل متاعبه وآلامه ، وليست هذه الحالة الا هنيهة ثانية للحالة الاولى ، او مرحلة ثانية من مراحلها ، وذلك لان الانعكاسات الخاطئة تصحح ، والمشاعر المتخيلة تعود الى اصحابها ، رغم احتفاظها بشدتها . وقد يكون الشعور بالتضاعف الشخصي واضحاً جداً ، اذا كان شعور المرء على عكس شعور من يتخيل وضعه وآلامه او افراحه ، فالكراهية مثلا تقتضي ولا شك اشتراكا عاطفياً سابقاً بين المتكارهين .

٣ — والمعنى الثالث للعطف ، هو الذي يراد به ، وجود استعداد خاص للشهامة والحب والعمل المنتج في مساعدة انسان آخر او حمايته او انقاذه وقد تكون هذه الحالة الجديدة نتيجة للحالتين السابقتين : اذ بدلا من ان اتقي ضربة تقع على رجل اخصه بالعطف فانني اسعى لوقايته منها . واما الحالة العاطفية للشخصين هنا : فانها قد تكون مختلفة في

احداهما عن الآخر اختلافا كافيا . فالعاطف لايشارك صاحبه الا بمقدار مايستطيع فهمه وفهم آلامه ، ولهذا لايستطيع ان يخلط نفسه بنفس صاحبه ، وقد يكون هـذا العطف انانيا-او غيريا ، ونحن لانسمي العطف عطفا الا اذا كان غيريا .

فكيف نعلل اذن هذه الانواع المختلفة من العطف .

لقد ذهب الفلاسفة في تعليل هذه الانواع المختلفة من العطف مذاهب مختلفة فرأى بعضهم اننا نفهم ما يجول في نفوس الآخرين بالاعتماد على تجربتنا الماضية بذلك لأننا نعطي معنى خاصاً لكل وضع من اوضاع عواطفنا (فالبكاء وضع الحزن او الالم ، والضحك وضع الفرح او اللذة والاشاحة بالوجه وضع الاشمئزاز) ثم نسعى لادراك حالات الاخرين النفسية من خلال ماعرفناه من انفسنا ، اي اننا نفهم عواطف الاخرين من خلال مشابهة اوضاعهم لاوضاعنا اثناء شعورنا بهذه العواطف .

واما صور العطف الاخرى ، فهي مشتقة من هذه الحالة ، بواسطة تصحيحات للحالة الغامضة الاولى واضافات اخرى عليها ، ويؤيد هذه النظرية هذا الادعاء القائل بان الحالات النفسية للاخرين ، لايفهمها الا من له تجربة سابقة بها ، وقد لايفهم من لم يتألم قط ، ألم الناس الآخرين فالطفولة مثلا هي العمر الذي لايعرف الرحمة ، لان الطفل لايعرف كيف يترجم بلغة عواطفه عواطف اخرى لم يقدر له بعد ان يشعر بها .

ب) غير ان هذا التعليل ليس صحيحا كل الصحة. لاننا في الحقيقة لانعرف اوضاعنا وهيئاتنا في حالاتنا النفسية المختلفة وبالتالي لايمكننا ان نفسر وضعا جديدا بوضع مجهول او بوضع لانعرفه تماما. فنحن نرى اوضاع الاخرين وهيئاتهم ولكننا لا نرى اوضاعنا وهيئاتنا ولا نعرفها الا معرفة غامضة . والحق ان يقال :

ان الوضع الخارجي نفسه يلهمنا معنى ما، ثم ينحصر عملنا في ان نخلع هذا المعنى على كل اجزاء هذا الوضع ، فنحن نعرف ان الآخرين يتألمون لانهم يضطربون في اوضاع ، لو كانت فينا ، لتألمنا ولحزنا ، حزنا شديدا .

ح) ولكن هذا التصحيح نفسه لا يجدي كثيرا ويمكننا القول ان الادراكات نفسها تملك صفات تعبيرية خاصة ، لاعلاقة لها بالتجربة الماضية ولا بغيرها وعندئذ تصبح مسألة العطف حالة خاصة من مسألة عامة اوسع منها هي : قيمة تعبير حوادث والادراك (مع العلم ان مظاهر التعبير هي بعض تغيرات الوجه والعيون والفم)

(وللحيوانات ما للانسان في هذه الامور : فانه يظهر انها تفهم من نظرات الحيوانات الاخرى انها صديقة او عدوة ، محبة اوكارهة ، مؤيدة او مخيفة . اما الحيوانات التي تعيش مجتمعة ، فيوجد عندها العطف الغريزي كامكان العدوى في هيجان ظاهر ، او الاستعداد للحماية والمساعدة والتعاون لدى رؤية اشارات خاصة : فهرب الكبش يتبعه هرب الخرفان كلها وعثور نحلة على موطن غذاء ، يثير فيها حركات خاصة ورود فعل خاصة تجذب رفيقاتها.)

واما المسألة ، في الانسان فانها ما تزال غير محلولة. ولسنا نعرف التيم التعبيرية لهيئات الضحك والبكاء ، والرعب والخوف والفظاعة ، التي يراها طفل صغير لأول وهلة، بل لعلنا نستطيع التساؤل عما اذا كان من الممكن قلب هذه القيم التعبيرية بتجارب جديدة: كأن نحاول ان نكون عابسين كلما اردنا لطفاً ، وضاحكين كلما اردنا غضباً .. واخيراً يجب

القول بان في هذه القيم التعبيرية ، شيئاً غريزياً،الا ان دلالتها الواضحة لا تتم الا بالتجربة .

ب) **التقليد** : التقليد هو الميل الى محاكاة الآخرين بصورة شعورية او لا شعوريه ، في اعمالهم او اقوالهم.فهو نمط من انماط السلوك البشري: يغري فيه المقلد المقلد.ويضطره الى تعلم التقليد . والعصفور الذي يغني محاكاة لعصفور آخر ، لا يستطيع ان يغني مثله رأساً ، بل لا بد له من تدريب ، والطفل ، في اول حياته ، لا يملك ان يقلد شيئاً ، حتى ولا الاصوات التي يحدثها هو نفسه ، بصورة عفوية ، واما تقليد الاشياء المرئية فاكثر تعقيداً واصعب تقليدا ، لا البصر لا يمكنه ان يعطينا اية صورة واضحة لقسماتنا واوضاع جسمنا والطفل يقلد في العادة اوضاعاً او اعمالا بارزة مفهومة ، ثم يتعدى ذلك الى تقليد الاشياء المعقدة ، وفي السنة الثانية والثالثة خصوصا يصبح الطفل مقلداً ماهرا . غير ان تكون العادات الشخصية تحول تدريجاً بين الطفل والتقليد :

ومن ناحية اخرى يحتفظ التقلند بطابعه الاول . فلا يتم ولا يكون الا للاشياء البارزة ، في كل معاني البروز ، ولهذا يقلد الصغير الكبير والفقير الغني ، والطبقات المنحطة الطبقات المتوسطة ، وهذه تقلد الطبقات العالية والاجيال الحاضرة تقلد الاجيال الماضية وهكذا ...

وبصورة مختصرة: يمكننا القول بان الجانب الغريزي في العطف والتقليد ليس كبير وهو يقتصر على توجيه الفعالية الى السير في اتجاه خاص ، يكون بمثابة الاساس الاول للنمو النفسي في سبله المختلفة . واذا كانت هذه الاشياء غريزية في بعض الحيوانات ، فان ضعفها في الحيوانات العالية شرط من شروط التحول والتطور الضروريين لحياة الانسان اذ ان جمود العاطفة او الغريزة مما لا يتآلف مع ضرورات التطور . فعلى الانسان اذن ان يتعلم ، وان لا ينتهي من تعريف ميوله وقابلياته قبل اختبارها على ضوءتجربة طويلة .

الميول الاجتماعية الخالصة

وبغض النظر عن العطف والتقليد ، اللذين يصلان بين الافراد ، ويساعدان على تنمية التجانس الاجتماعي ، فاننا نجد ميولا اجتماعية خالصة ، في مختلف درجات السلم الحيواني .

فالطيور مثلا تجتمع في بعض الاحيان بتأثير الدوافع الجنسية الغريزية ، كما تجتمع لمجرد اللهو واللعب . ولكن اجتماعها هذا ، كاجتماعها من اجل الهجرات الشتوية او الصيفية لايدوم الا بقدر ماتدوم هذه الحاجات المختلفة ، فاذا زالت او انقطعت زالت الحياة الاجتماعية .

ولنلاحظ انه كلما طالت حياة الطفولة وزمن الحضانة ، طالت الحياة الاجتماعية ، وامتدت :

اما في الانسان ، فانك تجد الحياة الاجتماعية دائمة ومستمرة : ذلك ان زمن الطفولة اطول بكثير منه عند الحيوان . ولا بد من اجتماع افراد الاسرة حول اطفالهم ، مدة طويلة حتى يصبح الاطفال قادرين على الاستقلال بانفسهم .

الا ان ضرورات الحياة الانسانية ، تجعل تربية الاطفال عملية مستمرة ، متداخلة الحلقات ، وبذلك يصبح دوام الحياة الاجتماعية امراً ضروريا .

والغالب ان الانسان لم يضطر الى الحياة الاجتماعية اضطراراً بتأثير الضرورات السابقة بل حمل عليها لمناسبتها لحاجاته المختلفة ، وهكذا نجد ان ضرورات التعاون والتضامن يسبقها في طبع الانسان حب التعاون والتضامن ، ولذلك قيل ان الانسان حيوان اجتماعي .

وهنالك مجموعة كبيرة من الميول الاجتماعية ، ذات الاصل الفطري ، كالميول العائلية ، والوطنية الا ان الجماعات تهب هذه الميول صوراً معينة ، ملائمة لدرجة تطورها : فنحن مثلا في هذا العصر ، نخص بعواطفنا العائلية مجموعة الافراد الذين يتصلون بنا بآصرة الدم والقرابة الصحيحة ، اما في القبائل الابتدائية ، فهذه الميول واسعة الشمول ، لانها تضم جميع افراد القبيلة ، في اطار العاطفة العائلية .

والخلاصة : ان الى جانب العطف والتقليد ، ميولا اجتماعية اكيدة ، نجدها في مختلف درجات السلم الحيواني ، وهي تبدأ من درجة الاجتماع الموقت من اجل اللهو او اللعب ، حتى تنتهي بدرجة الاجتماع الدائم ، من اجل التعاون على مختلف صور الحياة .

ويجب الا ننسى ان العزلة والانفراد عن الناس ، يورثان الهم واليأس او الالم في ابسط الدرجات . وان الاختلاط بالناس والاجتماع اليهم ، ينشآن الغبطة او الفرح او اللذة في ابسط الاحوال ، ومعنى ذلك اننا امام ميل اجتماعي اكيد ، ان ارتوى اعقب اللذة ، وان حيل بينه وبين الارتواء اعقب الالم .

د — الميول العالية Ideal spiritual Tendencies

الميول العالية هي مجموعة من الميول تهدف الى خدمة مثل أعلى مجرد ، كالعلم والاخلاق والدين والجمال . ويمكننا تصنيفها في ثلاث زمر مختلفة اولاها الميول العلمية . ثم الخلقية ثم البديعية .

ومن الواضح ان الحياة الاجتماعية تساعد على تنمية هذه الميول ، وتوسيع افاقها . واعلاء صورها ، وتنسيقها وتشذيبها . الا ان من الواضح ايضاً ان لها اصولا فطرية لايمكن الشك فيها . ولنتكلم الآن عن كل قسم من اقسامها .

آ) الميول العلمية: ليست الميول العلمية الا بعض صور الميل الى الاطلاع ، وهذا الميل فطري الى حد كبير : ذلك اننا نستطيع ان نرى في التقليد — وهو — كما رأينا — ميل ينمو نمواً كبيراً في السنتين الثانية والثالثة من العمر — صورة من صور هذا الميل وما التقليد في الواقع الا تأثر بما تم الاطلاع عليه فكأن الميل الى الاطلاع مفروض الوجود في الميل الى التقليد .

ونستطيع من ناحية اخرى ، ان نلاحظ بسهولة مقدار تلذذ الطفل والانسان العادي ، بالاطلاع على الاشياء المجهولة ، واستقصاء اسرارها : فما يكاد يرتوي هذا الميل ، ولا يكاد يصح القول بانه يشبع : فهو في جوع دائم ، لايرتوي الا بفض كل الاسرار المجهولة ، حتى لايبقى في الوجود شيء مجهول . والناس كلهم يعرفون ان الطفل كثير الاسئلة . حتى لقد سمى سن الطفولة ، عند العلماء بسن السؤال .

ونلاحظ من ناحية ثالثة ، ان قيام عائق في وجه هذا الميل ينشيء للنفس ألماً واضطرابا الا ترى شوق الانسان الى رؤية صورة او صور يقلبها رفيق له بجانبه ولا يريه اياها ، وما في هذا الشوق من تحرق واضطراب ؟

ان هذا كله مما يدلنا على فطرية هذا الميل ، ويؤكد لنا وجوده ولهذا الميل صور عديدة : اولاها بالذكر صورتان : الفضول وحب الحقيقة ، فاما الفضول فهو ميل الانسان الى معرفة الغريب والنادر والطريف والشاذ من الامور ، وكأن الانسان في ذلك ينخدع عن غاية الميل ويستعبده لحاجة الغرور ، فهو يريد ان يعرف الاشياء الغريبة

والنادرة ليتحدث بها الى الآخرين او ليزيد قيمة وجوده بينهم .

واما حب الحقيقة فهو صورة راقية جداً لهذا الميل ، تتفرع عن حب التعليل وهذا يتفرع بدوره عن الحاجة الى الاطلاع ، وهنا نلاحظ ان الانسان لم يعد يحب المعرفة كيفما كانت المعرفة ، بل يريدها مقنعة ذات حجج وبراهين ، ولهذا كان العالم صعب القناعة على عكس الجاهل والابتدائي .

ثم ان البحث عن الحقيقة مصحوب بكثير من العواطف كالميل الى الشك والرغبة في اليقين وتذوق البراهين وغير ذلك من النزعات المكتسبة ، وهو كذلك مصحوب بعواطف سماها العلماء بالعواطف العقلية التي يميزها بعضهم بما فيها من الفقر والبرودة . والحق ان لهذه العواطف درجات والناس فيها مختلفون : فـ(داوي) يرقص في مخبره بعد اكتشاف البوتاسيوم و (باستور) لايرى لذة اخرى تعدل لذة البحث والتجريب .

ولعل بين العواطف العقلية الشديدة والعواطف الدينية Religion صلة قوية : اذ ان بعض العلماء يتطلع الى الحقيقة كما يتطلع المؤمن الى خالقه . ففي العلم لذة تشبه لذة العبادة . والعالم ان درس او بحث عن الحقائق الوضعية فانما يبحث عن حقيقة يكلمها بلغة الايمان ، فيطلب فيها العزاء والقوة والنشاط ويريد ان يجد فيها عذاب العشق وعذوبته ويتقرب بها خاشعاً ومنكسر النفس صاغراً ، ويخيل اليه انه يجب عليه ان يضحي بنفسه كما ضحى الشهداء بنفوسهم ، ظنا منه ان العالم بطل من ابطال التاريخ او ولي من اولياء الله .

ب — **الميول الخلقية** Humanitarian : وهذه الميول هي مجموعة من العواطف الخلقية التي تجعلنا نحترم الفرائض الخلقية ، وتسهل علينا ممارستها .

واول صورة للعاطفة الخلقية هي الشعور بالممنوع والمكروه ، ولا يخفى ان الجماعة هي التي تنشيء هذا الشعور . الا ان ذلك لايمنع من وجود حس خلقي خاص بطبيعة الانسان يسمو بها الى الخير ، فالطفل بفطرته ميال الى العدالة واحترام العقود لانه يقيد نفسه في ألعابه ، بقواعد يحترمها واسس يمشي عليها .

ولعله يمكن ان نضيف الى الميول الخلقية جملة الميول الاجتماعية التي تسهل الحياة المشتركة على الناس ، وتحفظ آصرتها : مثل العطف والميل الى التضامن والتعاون وغير ذلك من العواطف الاجتماعية .

Ideal Tendencies

هـ — الميول البديعة : الميول البديعية هي جملة الميول التي تغري الانسان بالجمال وتفتنه به .

وليس من شك لدينا ان في هذه الميول جانباً فطريا ، لاسيما وان بعض الحيوانات تحمل جانبا منها : فالمعروف عن الهنود انهم يغرون الحيات بالعزف بالمزمار ومن المعروف ايضاً ان الجمال تتأثر بالموسيقى تأثراً شديداً (ومن ذلك كان الحداء في القوافل) . والعامة تذكر في احاديثها عن مهارة الموسيقيين ان البلابل تقع في احضانهم ، عند شدوهم ، ومن الطبيعي ان يحمل الانسان مثل هذه الميول ، على الاقل .

ويحتوي الحس البديعي على عاملين : عامل عقلي وآخر انفعالي . فالذوق انما يتحققه الانسان في نفسه بالعقل والتجربة ، الا انه موجود ايضاً في الفطرة الاصلية ، والطفل يميز الالوان بعضها عن بعض ، ويتأثر بالنقرات والانغام ، والامهات يستثمرون هذا الميل فيغنين للطفل اذا اريد منه النوم ، ولا يزال هذا الحس ينمو في الطفل حتى يبلغ سن الرشد . فالادراك والذاكرة والحكم والخيال واللغة كلها تؤثر في تطور الحس البديعي.

ولذلك اختلف هذا الحس بحسب الاشخاص فمنهم من يميل الى التصوير ومنهم من يميل الى الموسيقى ويندر ان تجد رجلاً لا يتأثر بلغة الفنون الجميلة .

والعواطف الجديدة كثيرة فمنها محبة الجمال ، ومحبة العذوبة والسمو وتذوق المواضيع المضحكة ، وغير ذلك من النزعات التي تبعث الانسان على تحقيق الجمال .

كبت الميول

ويهمنا الآن ان نذكر شيئاً عن حادثة « الكبت » التي كان للعالم النمسوي (سيغموند فرويد) الفضل الاول في اكتشاف اثرها في الحياة النفسية .

فالميول — كما رأينا — ليست شعورية او ظاهرية بالذات بل قد يعرض لها ان تظهر غير ان من الميول ما تمنعنا الحياة الاجتماعية والاخلاق والتربية والادب من اظهاره ، مثل الميول الجنسية ، وهكذا يمكن القول بان الانسان يملك على ميوله اداة مراقبة انشأتها له التربية ، وجعلتها قادرة على منع بعض الميول من الظهور ، والكبت ليس الا

أخفاء الانسان ما لا يليق من نزعاته وميوله وقـــذفه بها ، من غير ارادة واضحة ، في اللاشعور .

وللكبت نتائج عديدة : اولها حالة من الالم او الضيق ، فكل ميل منع عن الظهور ينشيء حالة منافية . وقد تكون هذه الحالة غضباً او حزناً او يأساً ، والغضب هو المظهر الغالب للكبت عند الاطفال ، والحزن ينشأ عن تأجيل ارواء الميل الى مدة بعيدة ، أما اليأس فهو الشعور باستحالة ارواء الميل (كما هو الامر عندشعورنا بأننالن نرى هذا العزيز الذي فقدناه بالموت) وهذه كلها آثار مباشرة .

الا ان « فرويد » قد اهتم بصورة خاصة ببحث الآثار اللامباشـرة للكبت ، ولقـد اوضح ان الميول المكبوتةلا تصيربالكبت الى العدم . وانما تستقل بحياة خاصة . تكون فيها على صورة « مركبات نفسية» مؤلفة منعناصر عقلية وحركيةوعاطفية على الاخص . وتبدو هذه المركبات في كثير من المظاهر : مثل غلط اللسان والكتابة والنسيان ، واضاعة بعض الاشياء وهنا تبدو الميول المكبوتة بالرغم من ارادة صاحبها ، وقد تبدو في الاحلام حيث يحقق الانسان بصورة رمزية او صريحة ما كان يريد تحقيقه في اليقظة ، من رغباتة المكبوتة ، وقد تبدو في بعض الامراض النفسية الخطيرة ،ويزعم فرويد ان السبب الهام في سائرالامراض النفسية انما هو كبت الميول الجنسية

وقد تحدث ايضاً حوادث تحويل وتصعيد : فالميل المكبوت يرتوي في صورة ميـل مختلف عنه في الظـاهر ، ولكنه في الواقـع ليس الا صورة متنكرة له ، وهكذا يبدو الطمع المكبوت في صورة كرم واحسان . وهذا هو التحويل .

اما التصعيد فيكون في تغيير هـدف الميول ورفعه مـن طور ادني الى طور اعـلى وهكذا تتبدل الغريزة الجنسية بالتصعيد الى نزعة اسمى منها كالحب ومحبة الجمـال والشعر والموسيقى .

ولا شك ان فرويد واتباعه قد بالغوا كثيراً في وصف اهمية هذا الكبت الجنسي . ومع ذلك فان من المناسب ان نعرف انللغريزة الجنسيه في حياتنااثراً اكبر مماتتصور في بعض الاحيان .

ومن المفيد ايضا ان يعرف الشباب والفتيات ان لبعض التطورات العضويةانعكاسات خطيرة في الحياة النفسية ، وبانها كثيراً ما تبدو على صورة احلام غامضة وقلق محزن ، وتحمس غير معقول ، فيقل انخداعهم بها .

اما الكبت فان وجوده واهميته ليسا موضع شك ، بالرغم من مبالغات فرويد في شأنه . ولا شك ان طبع الانسان مؤلف — في قسمه الاكبر — من هذه الميول الكامنة بين الشعور واللاشعور والتي كبتت اما بتأثير الظروف أو بتأثير التربية او بتأثير ارادة المرء الشاعرة ، ولا شك ان هذه الميول المكبوتة هي القيمة على كثير من افعالنا ، على غير شعور منا ، ولا شك ان على كل ميل من ميولنا ان يتبدل لينسجم مع حياتنا النفسية ، وينتظم في سلك ميولنا الاخرى ، ويتلاءم مع ضرورات الوسط الاجتماعي ، وهذا مايسميه (بولمان) بالتنظيم النفسي ، وقد تنقلب النزعات المادية ، تحت تأثير الحياة النفسية والاجتماعية ، الى نزحات روحانية واجتماعية ، وهذا النوع من التحويل والتصعيد الذي تقتضيه ضرورات الحياة النفسية والحياة الاجتماعية ، هو الشيء الذي حاولنا ايضاحه او الاشارة اليه .

خلاصة عامة

ان الميول هي النسيج الاول للحياة النفسية ، ومنها يشتق جانب كبير من الفعاليات النفسية . وتعرف الميول موضوعيا ، بانها ظهور حركة او اضمارها وتعرف من الوجهة الداخلية ، بانها اتجاهات عامة للفعالية .

وتصنف الميول تبعاً لمباديء مختلفة : اهمها : تاريخ ظهورها في الحياة النفسية ، أو درجة علاقاتها بالذات . ومن ذلك توضع في ثلاث زمر : الاولى منها زمرة الميول الانانية (كميول التغذية والميول الجنسية ، والميول التي تصل النفس بالعالم الخارجي) . والثانية زمرة الميول الغيرية والثالثة زمرة الميول العالية .

والميول فعاليات لا شعورية في المبدأ ، الا انها قد تصبح شعورية ، وتنقلب الى رغبات مختلفة . وكل رغبة تعبر عن هنية خاصة في حياة الميل .

ومن المشاكل التي يثيرها بحث الميول ، مشكلة امكان ارجاع الميول الغيرية الى الميول الانانية . وقد رأينا ان الملاحظة الموضوعية وضرورات الحياة الاجتماعية تقضي بالاعتراف بوجود بدايات فطرية لكل من الميول الانانية والغيرية على حد سواء .

والمشكلة الثانية هي مشكلة الكبت . والحق ان لكل ميل طاقة عضوية ونفسية معاً فاذا لم يتح لهذه الطاقة ان تنصرف في مجاريها الطبيعية (بتأثير زواجر اجتماعية) تحولت

الى مجار اخرى طبيعية مباشرة ، او غريبة غير مباشرة كالغضب والحزن واليأس في الحالة الاولى ، وكالاضطرابات النفسية في الحالة الثانية . وقد تجدها مخرجاً في مجاري التحويل والتصعيد .

والغريزة الجنسية والميول القريبة منها ، هي اقرب الاشياء الى الكبت ، لان الجماعة تنظم صور ارواءها ، ولا تتيحه بسهولة ، فيضطر الانسان الى كبت ميوله هذه بصورة شعورية أو لا شعورية . وعندئذ يمكن ان نشهد اثار الكبت التي عددناها من قبل : المباشرة أو غير المباشرة .

الفصل الخامس

الاحساسات
Sensations

خلاصة البحث :

١ — معلومات عامة عن الاحساس

٢ — انواع الاحساسات المختلفة

ا) احساسات داخلية

ب) احساسات حركية :

١ — احساسات الحركة

٢ — احساسات التوازن

ح) احساسات خارجية

١ — احساسات مباشرة

٢ — احساسات غير مباشرة

٣ — قوانين الاحساس العامة

ا) القوانين النفسية — الحكمية

ب) القوانين النفسية — الفيزيولوجية

ح) القوانين النفسية الخالصة

٤ — قيمة الاحساس ودوره في الحياة وفي المعرفة

١ — معلومات عامة عن الاحساس

عندما يضع الانسان يده على قطعة من الجوخ يريد معرفة جودتها ، فانه ينتظر

ما يتلقاه من احساسات النعومة والخشونة . وعندما يريد معرفة لونها فانه يتوجه بالبصر اليها ، ليتلقى احساس اللون ، وعندما يريد معرفة النسيج الذي صنعت منه فانه يتناول خيوطها ويحرقها ، ليتلقى إحساساً بالرائحة ، يستدل بها على نوع الخيوط ، فالاحساس اذن هو الخشونة او النعومة في الحالة الاولى ، واللون في الحالة الثانية ، والرائحة في الحالة الثالثة .

وليس من شك ان الاحساسات المختلفة التي يتلقاها الانسان المدرك ، مفعمة بالصور والذكريات القديمة . حتى ليصعب علينا ان نجد في جو الحياة النفسية الواعية احساساً خالصاً ، بل ان الاحساسات ، في هذه الظروف ، تصبح مجموعة ادراكات . ولا يتسنى لنا ان نجد الاحساس خالصاً الا في ظروف الطفولة الاولى التي تكون فيها الحياة النفسية خالية او شبه خالية من رواسب الماضي وآثار ذكرياته ، ولهذا كان الاحساس « معنى » مجرداً اكثر مما هو حقيقة قائمة . والتحليل النفسي هو الذي يوصلنا اليه بعد ان يرفع عنه ويحذف منه كل الاضافات التي يتلقاها من آثار الوعي والذاكرة والخيال .

ولكن ماهو الاحساس الآن ، وكيف السبيل الى تعريفه ؟

ان الاحساس هو الانعكاس الشعوري لجملة التغيرات العضوية التي تحدثها المؤثرات الخارجية في جسمنا ، ومعنى ذلك ان اهتزازات الوتر مثلا (وهي مؤثر خارجي) تحدث في جسمنا تغيراً عضوياً معيناً (هو فعالية خاصة في الآذان). فينعكس اثر هذه التبدلات (احساساً صوتياً) في شعورنا ، ويلاحظ بسهولة ان الشيء الهام في هذه العناصر الثلاثة ليس المؤثر الخارجي بالذات ، بل هو مايحدث عنه من تبدلات عضوية ، لان الاحساس متصل بهذه التبدلات اكثر مما هو متصل بالمؤثر ، ولهذا يكفي ان تحدث التبدلات العضوية المناسبة حتى يتلقى الشعور الاحساسات المقابلة ، وهذا مايحدث في الاحلام .

والغالب في الاحساس وجهه العقلي ، بمعنى انه يطلعنا على صفات العالم الخارجي او يعرفنا بها . ولكن الاحساس ، كغيره من الحوادث النفسية ، يلخص الحياة النفسية بكل وجوهها ، ولهذا ترى فيه « وجهاً عاطفياً » وآخر «فاعلاً» مثال ذلك ان تنظر بعينيك الى تفاحة ، فترى ثمرة بشكل ولون معينين ، ولكنك لاترى هذه التفاحة كما تراها آلة التصوير ، بسكون وجمود ، بل انها تثير في نفسك جاذبية خاصة نحوها . وهذا هو الوجه المنفعل ، وعندئذ ترى يدك امتدت لقطعها بوعي واضح ، اوبحالة ضعيفة من الوعي ، وهذا هو الوجه الفاعل ، والامر في الاحساسات الاخرى على مثل ذلك تماماً . ولو ان هذين

الوجهين الآخرين يضعفان احياناً ويقويان احياناً اخرى ، بصورة متفاوتة .

ويمكننا من ناحية اخرى ان نميز في الاحساس : ١— كيفيته ، ٢— وشدته ، ٣— ومدته .

فاما الكيفية فهي نوع الاحساس : بمعنى انه اما ان يكون بصرياً او سمعياً او شميا او ذوقياً . . . الخ . اما الشدة فهي قوة الاحساس ، فلقد تسمع صوت طبل يدوي ، كما تسمع نقرات دبوس صغير . واما المدة اخيراً فهي الزمن الذي يبقى خلاله الاحساس : فهنالك مثلا لمس خاطف وهناك لمس يطول او يدوم .

والخلاصة ان الاحساس هو انعكاس شعوري لجملة التبدلات العضوية التي تحدثها المؤثرات الخارجية في جسمنا ، وعناصره ثلاثة المؤثر والاثر والاحساس اخيرا ، ويميز فيه ، من ناحية اولى ، وجوه ثلاثة : فوجه منها عقلي ، والثاني انفعالي عاطفي والثالث وجه نزاع او فاعل . ويميز فيه من ناحية ثانية كيفيته او نوعه وشدته ومدته ، ولا ريب ان الاحساس شيء ابسط من الادراك لأن الادراك هو الاحساس باضافة جملة من الصور والذكريات .

٢ — تصنيف الاحساسات وانواعها

صنفت الاحساسات قديماً في خمسة انواع : منها اشتق اصطلاح الحواس الخمس فقيل ان الاحساسات اما لمسية او ذوقية او شمية او بصرية اوسمعية .

الا ان هذا التصنيف القديم لم يعد متلائما مع الوضع الحديث العلمي ، ويمكننا ان نجد ، من الوجهتين التشريحية والنفسية ما يبرر تصنيف الحواس في اكثر من خمس : فهناك مثلا :

أ — احساسات داخلية مثل الجوع والعطش ،

ب — واحساسات حركية ، تأثرنا بها ناشيء عن فعالية العضوية ذاتها

ج — واحساسات خارجية ، تقابل آلات الحواس ، مع العلم ان في الاحساس اللمسي احساسي الحرارة والالم

وسنتكلم عن كل من هذه الاحساسات على حدة

أ — الاحساسات الداخلية

ليس في الاعضاء الداخلية كالرئة والقلب والمعدة والامعاء وسائر الاحشاء الاخرى ،

اعصاب حسية تمتعها بالحساسية ، ولذلك لانشعر اولا نحس بوجود هذه الاعضـــاء الا في الحالات المرضية. ومع ذلك فان فعاليتها هذه تنعكس على الشعور انعكاساً واضحاً او غامضاً ، ومن الاحساسات البارزة في هذا الموضوع ، احساس الجوع والعطش والتعب والنعاس والراحة والغثيان . . . الخ

وليس لهذه الاحساسات استقلال ابتدائي تتجمع بعده ، بل هي في الغالب غامضة اكثر مما هي واضحة ، عاطفية اكثر مما هي ادراكات . وفي الحالة العادية تطغى عليها الثقافة الاجتماعية ومشاغلها فتخفيها وتضمرها ، اما في الاحوال المرضية فيعود اليهـــا بعض الوضوح وقد تمرض هذه الحساسية ، فتنعدم اوتشتد وتتضخم ، اوتنقسم ويرافق امراض الحساسية هذه —في العادة —امراض في الشخصية مما يبعث على القول بوجود علاقة بينهما.

ب — الاحساسات الحركية s. Kinesiques ou kinesthesiques

ان هذه الاحساسات هي التي تنبئنـا عن حركات جسمنا واوضـــاعه المختلفة ، فاذا تحركت يدنا الى اليمين اوالى الشمال ، انعطافاً اوانبساطاً ، انثناء او التواءاً ، فاننا لانحس بهذه الحركة بحاسة اللمس او الذوق اوالشم ، ولكن باحساس خاص هو الاحساس بالحركة.

ومن ابرز هذه الاحساسات : احساس الجهد ، فعندمانشد طاولة ثقيلة او ندفعهـــا وعندما نحمل وزناً ثقيلاً ، ونبقى عليه مدة بين ايدينـا ، فاننا نشعر بجهد نبذله من اجل القيام بهذه الاعمال .

ولقد اختلفت العلماء في مصدر الاحساس بالجهد ، فقال فريق انه داخلي ، يصدر عن المركز ، وقال فريق آخر انه ينشأ عن الجسم ، عن المحيط ، وحجتهم في ذلك ان تقدير الوزن او المقاومة او وضع الاطراف يتمتع بالدقة نفسهـــا سواءأكانت الحركة منفعلة لا ارادية او ارادية ، وعندما تنعدم الحساسية المحيطية يضطرب هذا التقدير. ومعنى ذلك ان الاحساس بالجهد لايتعلق بالارادة (التي هي فكرة مركزية) في الحالة الاولى ، كما انه يتعلق بالحساسية (وهي شيء محيطي) في الحالة الثانية .

امـــا الاحساسات المحيطية التي تنشيء الشعور بالجهد فهي : ١ — احساسات لمسية واحساسات تماس وضغط ، وتوتر في الجلد ، ٢ — واحساسات عضلية ، اذ ان العضلات ليست آلات تحريك فحسب ، بل ان فيها نهايات عصبية حسية ، ٣— واحساسات وترية

تتأثر بجسيمات عصبية تسمى حزم كوجي ، ٤ - وهنالك اخيرا احساسات مفصلية .

ولنلاحظ ان لهذه الاحساسات اهمية كبرى في الاعمال اليدوية .

وللاحساسات الحركية نوع ثان هو احساسات التوازن : ومعنى ذلك ان حفظ التوازن في الانسان منوط امره بحساسية خاصة سميت باسمه ، واعضاء هذا الاحساس فوهات الدهليز بين الاذن الوسطى والداخلية (القريبة والكاس) والقنوات نصف الهلالية (في الاذن الداخلية) . وفي هذه القنوات فرع من العصب السمعي هو العصب الدهليزي . وهذا العصب ينقل تأثرات مختلفة متعلقة بتسارع الحركات ، وبتغيرات وضع الرأس ، ثم ان العصب الدهليزي ، على اتصال بالمخيخ . وهذا مايجعل للمخيخ تأثيراً في تنظيم التوتر العضلي الذي يساعد على حفظ التوازن ، وقد جرب قطع القنوات الهلالية في بعض الطيور فاختل توازنها ، مما يثبت علاقة هذه القنوات باحساس التوازن . ويلاحظ العلماء من ناحية اخرى ان للقنوات علاقة اكيدة بمفهوم المكان .

ج — الاحساسات الخارجية

تنشأ هذه الاحساسات عن اعضاء الحواس الخمس المعروفة . ويمكن أن تقسم الى قسمين : ١ — حواس تتأثر بالتماس المباشر ، ٢ — وحواس تتأثر من بعد . وسنتكلم عن كل منهما .

١ — الاحساسات المباشرة : هذه الاحساسات تعمل بالتماس المباشر ، ومعنى ذلك انها لا تتأثر الا اذا وجد المؤثر على تماس مباشر بها . فاللمس مثلاً من الاحساسات المباشرة لانه لا يمكننا ان نلمس الشيء من بعيد بل لا بد من ان يكون في يدنا .

وهذه الاحساسات اربعة اقسام : وهي بالترتيب ، ١ الاحساسات اللمسية ، والحرورية ، والمؤلمة ، والذوقية .

١ — الاحساسات اللمسية : اللمس أبسط الحواس حتى ظن انه اساس لكل الحواس الاخرى التي اشتقت منه بالتدريج بنتيجة التخصص والتميز .

ومصدر هذه الاحساسات في الجلد وفي الانسجة الكامنة تحته ، وهنالك مجموعة من

الاعضاء الحسية الخاصة باللمس ، ففي البشرة مجموعة من النهايات العصبية الحرة. وفي الادمة والانسجة العميقة ، يوجد جسيمات لمسية ، بيضية الشكل طولها يتراوح بين عشر الميليمتر وعشريه وتسمى هذه الجسيمات ، جسيمات ميسنر Meissner وهنالك الى جانبها جسيمات كروز Krause . وهي ابسط من الاولى . واخيرا توجد جسيمات باسيني Pacini وهي ذات شكل شبيه باشكال الجسيمات الاخرى ولكنها اطول منها .

واللمس نوعان : منفعل وفاعل .

فاما اللمس المنفعل فيتعلق بجسيمات ميسنر وباسيني ، وهذه الجسيمات تقدم لنا احساسات التماس والضغط اللذين يعتبرهما العلماء درجتين من احساس واحد. ولكن يمكن ان يكونا احساسين مختلفتين ، تتعهدهما اعضاء تشريحية مختلفة : فجسيمات ميسنر للتماس ، وجسيمات باسيني للضغط .

ولكل موضع في الجسم (علامة محلية) خاصة تميزه باحساس خاص به ومعنى ذلك ان احساسنا بظاهر اليد غير احساسنا بباطنها . واحساسنا بالمناطق القريبة من الرسغ غير احساسنا بالمناطق القريبة من مفصل العضد . والخلاصة ان كل نقطة من نقاط الجسم ذات حساسية خاصة بها تميزها من غيرها وهذا ما يساعدنا على تمييز المناطق الملموسة من جسمنا ، ويلاحظ العلامة لوتز Lotze ان هذه العلامة المحلية مكتسبة .

واما (اللمس الفاعل او المنقب) فهو مؤلف من جملة عناصر لمسية وحركية وحرورية. وبفضله نحصل على الاحساسات اللمسية المركبة : كالأملس والخشن والحريري والمخملي واليابس والغض . وبفضله ايضاً نستطيع معرفة اشكال الاشياء .

وقد يصبح اللمس باشتراكه مع الاحساسات السمعية والبصرية ، حساً بديعياً. وهذا ما يلاحظ عند بعض الموسيقيين العازفين على الآلات .

٢ — **الاحساسات الحرورية** : ويظهر انه لا بد من فصل الاحساس الحروري عن الاحساس اللمسي . يبرهن على ذلك بعض الحالات المرضية ، وبعض التجارب العلمية . فلقد حقن العالم شارل ريشه Richet ضفدعة بمادة الستركنين ولاحظ انها ترد رداً عنيفاً على اقل ملامسة سطحية في الغشاء الواقع بين الاصابع. ومع ذلك فانها لاتحس مطلقاً بحرارة قطعة من الحديد احميت الى الدرجة الحمراء ، وقربت منها . وربما كان من الضروري ايضاً ان نفصل احساس الحرارة عن احساس البرودة . اذ لقد لوحظ وجود

نقاط في الجلد ، حساسة بالبرودة وحدها كما لوحظ وجود نقاط حساسة بالحرارة وحدها .

ويظهر ان الاعضاء المقابلة للنقاط الباردة هي جسيمات كروز في حين ان النقاط الحارة تابعة لجسيمات اخرى اعمق من هذه ، وتسمى : جسيمات روفيني Ruffini .

٣ — **الاحساسات المؤلمة** : وهذه الاحساسات جديدة ميزت في الحس اللمسي ، وهي الاحساسات المؤلمة . والنهايات العصبية الحرة الكائنة في البشرة هي التي تتعهد هذه الاحساسات .

٤ — **الاحساسات الذوقية** : اعضاء هذه الاحساسات هي براعم عصبية موجودة في الحليمات الذوقية في قاعدة اللسان ، ويختلط احساس الشم كل الاختلاط بالاحساسات الذوقية حتى ليصعب ان يميز الرجل الطعوم في حالة الزكام ، وتحتاج بعض الطعوم (كالطعوم الطحينية والغرائية والزيتية) الى بعض الاحساسات اللمسية ، كما ان بعض الطعوم الاخرى (كطعوم المشروبات الحارة والمثلجات والمرطبات) تحتاج في تذوقها الى مساعدة الاحساسات الحرورية .

وتصنف الطعوم في اربعة انواع هامة هي : الحلو والمر والحامض والمالح .

٢ — الحواس التي تتأثر عن بعد : هذه الحواس لا تحتاج الى مؤثر قريب منها . فالشم مثلاً لا يحتاج الى وضع الزهرة في الانف ، حتى يستطيع الاحساس برائحتها .

ويلاحظ شيرنجتون Sherrington ان لهذه الحواس اهمية كبيرة في تنسيق السلوك وتكييفه ، بحيث تجعله قادراً على التلاؤم مع المؤثرات البعيدة : فنحن مثلاً لانحس بالطعم المر قبل ان يكون قد انتشر في سائر اطراف اللسان ، ولكننا قادرون على الهرب من حيوان مفترس ، نراه من بعيد ونتقي خطره قبل ان يداهمنا . وهكذا تهرب الحيوانات الأليفة ، كالفرس مثلاً ، من الحيوانات المفترسة ، بمجرد شمها رائحتها من بعيد .

وهذه الحواس ثلاث هي الشم والسمع والبصر .

١ — **حس الشم** : عضوه الأنف ، وبواسطته نحس بالروائح المختلفة . ويظهر ان لهذا الحس ، عند الحيوانات ، اهمية كبيرة من وجهة تكييف السلوك . والواقع ان هذه الحيوانات ، لا تعتمد في سلوكها على شيء اكثر مما تعتمد على الشم ، وخاصة فيما يتعلق

بطلب الطعام . اما الانسان فقد تضاءل عنده اثر هـذه الحاسة بالنظر الى التطور الكبير الذي صارت اليه حاستا البصر والسمع .

اما اعضاء حاسة الشم فهي الحجيرات الشميه الكائنة في الطبقة المخاطية التي تفرش الجدار الاعلى للحفر الأنفية . وتتأثر هذه الحجيرات بتصادمها مع هذه الجزيئات الغازية التي تنتشر من الاجسام ذات الرائحـة . ولقد اثبت العلماء ان هذه الاجسام تفقد من وزنهـا بمقدار ما يمكنها نشره من الروائح . وهكذا فان ميلغراماً واحداً من المسك ، يضيع في اليوم الأول « ٠٠٠٣١٨ر٠ » ميلغراماً من وزنه بصورة وسطية .

وتختلط بالاحساسات الشمية احياناً ، بعض الاحساسات اللمسية ، كما في رائحة الأمونياك ، او بعض الحموض ، فاذا حذفت هذه العناصر الغريبة بدا انه يمكن تصنيف الاحساسات الشمية في ست زمر : فهنالك الروائح المعطرة (الازهار الدائرة حول الشمس) والروائح الاثيرية (الليمون) والروائح الأروماتيكية (اليانسون) والرائحة الرانجية كالكافور ، والقطرانية كالقطران واشباهه ، وروائح التفسخ كرائحة حمض كبريت الهيدروجين SH^2 .

ويظهر ان الشم هو آلة الاتصال الاولى بين كيميائية العضوية وكيميائية الاغذية ، بمعنى ان هذا الشم ، يكشف ، بواسطـــة الروائح عن المواد المناسبـة للعضوية ، وغير المناسبة لها .

ولقد اصبحت صناعة العطور والروائح صناعة كبيرة جداً وهذا يدل على ان الروائح اصبحت موضوع فن بديعي خاص ، قائم بذاته .

٢ — **الاحساسات السمعية** : عضو هذه الاحساسات : الاذن والاذن الداخلية ، خاصة . وتنقسم الاحساسات الى قسمين : فهناك ضجات (ليس بين اجزائها الصوتية اى تناسب موسيقي) وهنالك اصوات (وهي تتميز بتناسب اجزائها) . مثال ذلك الصوت الحادث عن وقوع حجر في الارض ، والصوت الحادث عن نقرات موسيقية ، فالاول ضجـة ، والثاني صوت .

للاصوات ثلاث صفات رئيسية يترجمها الشعور باسمـاء الشدة والارتفاع والجرس ، اما الشدة فتتعلق بسعة الامواج ، واما الارتفـــاع فيتعلق بالتواتر (عدد الامواج في الثانيـة) واما الجرس فيتعلق بالاصوات الثانوية (او المدروجـــات) المرافقة للصوت الاساسي : مثال ذلك ان نسمع صوت « دو » من آلتين موسيقيتين مختلفتين .

ولحاسة السمع صفة عقلية وبديعية ليست للحواس السابقة ، اما الصفة العقلية فبارزة في اللغة التي اصبحت الوسيلة الطبيعية للتفاهم والتعبير عن الفكر ، واما الصفة البديعية فبارزة في الموسيقى .

٣ — **الاحساسات البصرية:** حاسة البصر اكثر الحواس تعقيداً ، وتختلط احساساتها ببعض الاحساسات الحركية الناشئة عن حركات كرة العين ، كالمطابقة والتوجيه اللذين يلعبان دوراً هاماً في ادراك المسافات .

اما العضو الذي يتلقى التأثرات البصرية فهو « الشبكية » التي تنشأ عن انتشار العصب البصري ، وكثرة فروعه . وبنية الشبكية معقدة جداً ، ففيها جملة متنوعة من الحجيرات ، بينها حجيرات ذات استطالات يسمى بعضها « مخاريط » والبعض الآخر « عصيات » . ويرى اكثر الفيزيولوجيين ان الرؤية الضوئية الخالصة (اي التي لالون لها) تتعلق بالعصيات — اذ ان الحيوانات الليلية قليلة المخاريط في شبكيتها — اما الرؤية الملونة رؤية الالوان — فتتعلق بالمخاريط .

وتتميز الالوان بكيفيتها او نوعها (احمر ، اخضر ...) ،وبوضوحها اي قربها القليل او الكثير من اللون الابيض او الاسود ، وبدرجة اشباعها .

ويرى « هيرنك » ان هنالك الوانا اساسية هي الازرق والاخضر والاصفر والاحمر القاني نوعا ما .

وهنالك الوان متكاملة ، وهي التي اذا خلط بعضها ببعض نشأ منها اللون الابيض ومنها : الاخضر — والأرجواني ، الاصفر المائل الى الاخضرار — والبنفسجي ، والاصفر — والنيلي .

ويشار ايضاً الى حادثة تضاد الالوان التي يميل فيها اللون الى نشر اللون المكمل له ، على ما حوله ، وهذا مايسمى بالتضاد المتوافق للالوان ، وسنرى فيما بعد ماهو التضاد المتتابع .

ومن الواضح ان اهمية البصر العقلية فوق كل اهمية فالبصر اوسع الحواس مدى ، واكبرها اثراً في ادراك المكان ، ومنه نستقي اكثر الصور المناسبة للغة الاستعارات والرموز . أما قيمته البديعية فعظيمة جداً ، لان كل فنون الرسم والتصوير والنحت وما يتعلق بها متعلقة به .

٣ — قوانين الاحساس العامة

نعني بقوانين الاحساس هذه ، العلاقـــات الثابتة القائمة بينه وبين شروطه ، ومن المعروف ان هذه الشروط ثلاثة هي : المؤثر ، والحاسة ، وحوادث الشعور الاخرى . وسندرس علاقات الاحساس بكل من هذه الشروط على حدة .

١ — القوانين النفسية - الفيزيائية

هذه القوانين توضح علاقات الاحساس بالمؤثر الخارجي ، واهم هذه العلاقات ما يوضحه قانون العتبة وقوانين فيبر وفخنر .

١ - **قانون العتبة** : لا يستطيع المؤثر ان يحدث احساساً الا اذا بلغ من الشدة حداً معيناً يسمى العتبة ، فالصوت — كما هو معلوم — ينشأ عن اهتزازات ، الا ان الاذن لا تسمع صوتا الا اذا بلغت الاهتزازات حداً أولياً مقداره (١٦) هزة في الثانية ، فاذا كانت الاهتزازات دون هذا الحد ، لم تسمع الاذن شيئاً ، وكذلك الاحساس البصري فهو لا يحدث ولايتم الا اذا بلغت الاهتزازات الضوئية حداً أولياً مقداره (٤٠٠) تريليون هزة في الثانية ، وهذا الحد الاولى هو الشيء الذي نسميه «عتبة» . والعتبة انواع : فهي اما عتبة دنيا او عليا او فرقية .

فالعتبة الدنيا ، هي الحد الاول الذي يمكن الاحساس به من المؤثر ، ولقد رأينا ان هذه العتبة ، في اهتزازات الصوت ، هي ١٦ هزة في الثانية ، اما في الاحساس الحروري فالعتبة هي تريليونا هزة في الثانية ، واما العتبة الضوئية اخيراً فهي (٣٩٦) تريليون هزة في الثانية .

والعتبة العليا ، هي الحـــد الاعلى الذي يمكن الاحساس به من المؤثر ، وهو في الاهتزازات الصوتية (١٦٠٠٠) هزة ، وفي الاهتزازات الحرورية (٣٧٥) تريليون هزة ، وفي الاهتزازات الضوئية (٦٨٦) تريليون هزة ، ونلخص ذلك كله في الجدول الآتي :

الاحساس الصوتي		الاحساس الحروري		الاحساس البصري	
العتبة الدنيا	العتبة العليا	العتبة الدنيا	العتبة العليا	العتبة الدنيا	العتبة العليا
١٦	١٦٠٠٠	٢ تريليون	٣٧٥	٣٩٦	٦٨٦

وهنالك اخيراً عتبة فرقية ، وهي كمية المؤثر التي يجب اضافتها الى مؤثر سابق حتى يحس الفرق بينهما ، فاذا كان في يدنا وزن يعدل (١٧) غراماً مثلاً فاننا لا نحس بفرق عندما يضاف اليه نصف غرام او ثلاثة ارباعه او تسعة اعشاره ، ولكننا نحس بفرق عندما يضاف اليه غرام واحد تام ، فهذا الغرام يسمى هنا بالعتبة الفرقية .

ويجب ان نشير الى مفهوم « دقة الحاسة » . فالدقة هي قدرة الحاسة على استيعاب مؤثر دون الحدود الطبيعية للعتبة . فاذا وضعنا طرفي فرجار على يدنا وباعدنا بينهما بمسافة ضئيلة تبلغ (٢ — ٣ مم) فاننا نحس بوجود الطرفين ، اما اذا كانت المسافة دون هذا الحد ، وشعرنا ، مع ذلك ، بوجود الطرفين ، فهذا يدل على قوة حاسة اللمس لدينا ، لان الحد الاول هو العتبة الطبيعية .

وتعرف الدقة بالنسبة الى كل حاسة بتعريف يناسبها : فدقة البصر تعرف مثلا بالزاوية الصغرى التي يجب ان ترى تحتها المسافة الفاصلة بين نقطتين او بين خطين يراد تمييزهما .

٢ — **قوانين فيبر وفخنر** : لاحظ (فيبر) ان العتبات الفرقية ثابتة النسبة ، ومعنى ذلك انه اذا كانت عتبة الاحساس بالوزن « ٧ ميلغرامات » فانه يجب ان نضيف اليها « ٥ ميليغرامات » اخرى حتى نحصل على احساس جديد بالفرق بينهما ، اي يجب ان نضيف الى المؤثر السابق نسبة خمسة اسباعه او $\frac{٥}{٧}$ منه واذا اردنا الحصول على فرق جديد في الاحساس كان لابد من اضافة النسبة $\frac{٥}{٧}$ من المؤثر السابق . والامر كذلك في المستويات المختلفة لهذه التجارب ، ففي مستوى السنتيغرامات والديسيغرامات يبقى الامر كما هو ، والاضافة اللازمة تبقى $\frac{٥}{٧}$ من المؤثر السابق ، (وهذه الاضافة تصبح مايجب طرحه اذا اردنا عكس التجربة والحصول على فرق في الاحساس نحو الادنى) .

اما فخنر فقد استند الى قانون فيبر في ثبوت نسبة العتبة الفرقية ، وحاول قياس الاحساس ، ووضع لذلك الموضوعتين التاليتين :

١ — الموضوعة الاولى : كل محسوس (احساس) اكبر ينحل الى عدد معين من المحسوسات الصغرى : ويعني ذلك انه اذا كان لدينا احساس بـ (١٠٠) غرام مثلا ، فان هذا الاحساس ينحل الى عدد (ع) من الاحساسات الصغرى ، مقداره مقدار المؤثرات الفرقية التي يجب ان تضاف الى العتبة الصغرى ومابعدها حتى نحصل على الاحساس المقابل للمئة غرام ، بالاضافة الى العتبة الصغرى نفسها .

ولايضاح ذلك نقول مايأتي :

١٠٠ غرام (مؤثر) تعادل (ح) احساساً

ولكن (ح) ، هذه تنحل الى جملة ح′ + ح″ + ح‴ ... ع بفرض ان (ح) هي احساس العتبة و (ح′) هي احساس العتبة الفرقية وهكذا .....

٢ — والموضوعة الثانية : تقول ان هذه احساسات الصغرى متساويه من الوجهة النفسية ، اي ان ،

(ح′ − ح = ح″ − ح′ = ح‴ − ح″) وهكذا ...

وعلى هذا الاساس رأى فخنر انه بينما يتزايد المؤثر بنسبة هندسية ، يتزايد الاحساس بنسبة عددية ، وهذا التقابل يجعل بين النسبتين علاقة لوغاريتمية ، مما يصح معه القول : ان الاحساس لوغارتمة المؤثر .

ولايضاح ذلك نقول ان ،

المؤثر (م) يقابل (ح) احساساً

ولنفرض ان العتبة الفرقية هي $\frac{١}{١٧}$ من المؤثر السابق في هذه الناحية ، فانه يجب أن نقول :

$$م = ح$$

$$م + \frac{م}{١٧} = ٢ح$$

$$ح_{٣} = م + \frac{م + \frac{م}{١٧}}{١٧} + \frac{م}{١٧}$$

وهنا يلاحظ بسهولة ان الحدود الاولى هي حدود سلسلة هندسيه . لأن كل حد جديد ينشأ عن الحد الاول بعد ان نضيف اليه حاصل ضربه بالاساس $\frac{١}{١٧}$. اما حدود السلسلة الثانية فهي حدود حسابية لأن الأساس فيها يضاف اضافة ولا يضرب ضرباً كما في الحالة الاولى ، وبتعبير آخر ، ان المؤثر يتزايد بصورة مستمرة ، في حين ان تزايد الاحساس يكون على صورة متقطعه ، ومعنى ذلك اخيراً انه لا يوجد تقابل صحيح بين تزايد المؤثر وتزايد الاحساس .

اما قانون فيبر فليس بصحيح الا في الحدود المتوسطة للمؤثرات . فاذا كبرت هذه المؤثرات او صغرت جداً فانه لا يبدو صحيحاً ، ولكن شأن هذا القانون كشأن كثير من القوانين الطبيعية (والكيموية خاصة) التي لا تصح الا في حدود معتدلة من الحرارة والضغط .

واما قانون فخنر (١) فينتقد في موضوعاته وفي ذاته . اذ ليس هنالك ما يبرر انقسام المحسوس الاكبر الى عدد معين من المحسوسات الصغرى ، لا سيما وان الحياة النفسية لا تخضع لمثل هذه التقسيمات الاصطناعية . ويظهر ان فخنر يقيس النفس بمقياس الحوادث المادية ويحل حوادثها المركبة كما يحل الحوادث الطبيعية الى مركباتها وعناصرها . واما ان تكون المحسوسات الصغرى متساوية ، فذلك مما لا يمكن تأكيده الا اذ عرفت المساواة تعريفاً صحيحاً ... وكيف يمكننا ان نقول بأن هنالك مساواة نفسية بين احساسنا بالفرق الحاصل عن اضافة غرام واحد الى (١٧) غراماً واحساسنا بالفرق الحاصل عن اضافة (١٠) غرامات الى (١٧٠) غراماً ؟ ومن ناحية اخرى لا نجد ان هنالك مساواة ثابتة بين حدود متغيرة ، فالاحساس يتغير تبعاً للزمن . فأنا استثقل في الساعة الثانية هذا

---

(١) ان العلامة بيرون Pieron يقيم وزناً كبيراً لهذا القانون .

الوزن الذي كنت استخفه في الساعة الاولى ، فشدة الاحساس اذن متعلقة بمدته ، ولهذا لا يمكن قياس مثل هذا الحد المتغير .

ب) القوانين النفسية — الفيزيولوجية

توضح هذه القوانين علاقة الاحساس بالحاسة التي تتلقى المؤثر ، وهي بالجملة ثلاثة قوانين :

١ — قانون العتبة : لاتتأثر الحاسة مالم يبلغ المؤثر درجة معينة من الشدة تبلغ « العتبة » كما بينا في القوانين السابقة ، ويجب ان نلاحظ ان حواس الانسان مختلفة في عتباتها عن حواس الحيوان ، ويلاحظ في المانيا ان رجال الامن يصفرون احيانا في صفارة لايسمع صوتها احد من المارة ، ولكن الكلاب تجري وتجتمع حول الصافر عند ذلك ، مما يدل على انها سمعت صوتا لم يسمعه الانسان ، والسر في ذلك — كما نرى — ان العتبة العليا بالنسبة الى اذن الانسان اصغر واضيق من العتبة العليا بالنسبة الى اذن الحيوان .

٢ — قانون فيبر : عندما يصحح قانون فيبر ويوضع في حدوده ، فانه يصبح قانوناً يعين العلاقة بين المؤثر والاثر — اي التأثر الذي تتلقاه الحاسة — اكثر مما يعينها بين المؤثر والاحساس .

٣ — قانون نوعية الحواس : يراد بنوعية الحواس ان كلا منها مختص بطائفة من المؤثرات لاتتلقى غيرها اولاتتأثر بغيرها واذا هي تأثرت بغير ما اختصت به فانها تحيله الى طبيعتها .

وتنحل هذه النوعية الى الفكرتين الآتيتين :

١ — اذا بقيت الحاسة واحدة واختلف المؤثر ، فان الاحساس يبقى واحداً .

٢ — واذا اختلفت الحاسة ، وبقي المؤثر واحداً ، اختلف الاحساس .

فاذا تلقت العين مثلا امواجا ضوئية او كهربائية ، او اي مؤثر آخر كالحرارة

والضغط او غير ذلك ، فانها لاترد على ذلك كله بغير احساس ضوئي .

واذا مر التيار الكهربائي على الاذن فانه — اذا اثر — يحدث صوتا ، واذا مر على العين فانه يحدث احساسا ضوئياً ، او على الانف فانه يحدث رائحة ، او على اللسان فانه يحدث طعما ، او على اليد فانه يحدث احساسا لمسياً .

وواضح ان معنى ذلك اختصاص كل حاسة بطائفة معينة من المؤثرات لاتتأثر الا بها فعبثاً تحاول العين ان تسمع والاذن ان ترى .

حـ — القوانين النفسية

توضح هذه القوانين علاقة الاحساس بغيره من الحوادث النفسية وهي قانونان : قانون النسبية وقانون الاختلاط .

١ — النسبية : ان شدة الاحساس تتعلق بما يرافقه من احساسات اخرى ، والامر كذلك في كيفيته ، فربما بدا الاحساس بالألم كبيراً ، اذا كان لوحده ، اما اذا اسمعت الرجل صوتا شديداً أثناء تأثره بالاحساس المؤلم ، فان هذا الاحساس يبدو له ضئيلاً .

٢ — قانون الاختلاط : تختلط الاحساسات بعضها ببعض وتصبح ككل لاتتميز فيه الاجزاء ، ويتم ذلك كله بصورة عفوية .

والحق ان النفس جو غني جداً ، فاذا دخل اليها احساس جديد فانه لايدخل الى ساحة فارغة كالصحراء ، ولكنه يدخل كما يدخل الغريب الى مدينة كبيرة ، مكتظة بالسكان فتستأثر به المشاهد والمناظر وتتقاسم حواسه ونفسه .

وكذلك العالم الخارجي فانه غني جداً بالمؤثرات ، وقلما تتاح الفرصة ليكون الانسان امام مؤثر واحد ، ولهذا تدخل المؤثرات الى النفس مجتمعة وينحل بعضها في بعض ، وتمتزج حتى تصبح كانها وحدة لا اثر فيها للعناصر المتفرقة .

ويجب ان نلاحظ ان جملة هذه القوانين تذكرنا بوحدة الحياة النفسية واتصالها : فلايمكن ان يوجد في هذه الحياة عناصر متميزة ، منفصلة بعضها عن بعض ، ثم تتجمع بعد ذلك وتتآلف كما تتجمع العناصر المادية بحكم ما بينها من علاقات كيمائية فالعالم النفسي مختلف عن العالم المادي في هذه الناحية اختلافا كبيراً : فالوحدة هناك تسبق الاجزاء ، على حين أن الاجزاء هنا تسبق الوحدة

ويمكن فصلها عنها ، ولهذا نرى ان الاثر الذي يحدثه مؤثر من المؤثرات ليس متعلقاً به وحده بل هو يتعلق بكل المؤثرات السابقة والمرافقة وبحالة الشعور العامة خلال حدوثه .

٤ — قيمة الاحساس

١ — هل الاحساس نسخة عن العالم الخارجي الذي يتصور به ؟

ان هذا السؤال هام جداً ، لانه ان صح ان الاحساس نسخة عن الواقع ، فان قيمته — في المعرفة — تصبح كبيرة جداً ، غير ان من البساطة ان نعتقد ذلك : فالاحساس ليس بنسخة مطابقة للواقع ، بل هو حادث نسبي ، وهو نسبي من ثلاثة وجوه : لانه يتبع المؤثر ، ولا يزيد ولا ينقص بصورة مطابقة لزيادته ونقصانه ، وقانون فيبر يبرهن على ان الاحساس يزيد بصورة متقطعة في حين ان زيادة المؤثر تكون مستمرة : ولانه تابع لبنيه الاجهزة الحسية ، المحيطية والاجهزة العصبية المركزية ، وقد بينا فيما سبق ان الحيوانات تختلف عن الانسان في عتبات احساساتها وهنالك احساسات مجهولة لدينا ، لانه لا يوجد في عضويتنا اجهزة حسية تقابلها . وهو نسبي اخيراً لانه يتعلق بما قبله وبما معه من المؤثرات .

ب — دور الاحساس الحيوي : ولنلاحظ ان الاحساس اداة تقوم على خدمة العضوية ، وتعيين وجوه التلاؤم مع الشروط الخارجية ، وليس هو بآلة للمعرفة . ان غاية الاحساس هي الكشف عن حاجات العضوية بالتماس مع العالم الخارجي ، وليست غايته المعرفة التأملية المجردة .

ولهذا كان لا احساس الا مع التغير : تغير في الشروط الخارجية ربما جنت منه العضوية خيرا ، او هددت منه بشر ، وتغير في الشروط الداخلية لابد للعضوية من معرفة اسبابه ، وتطمينها على صورة من الصور ، ولهذا ايضا كان لا احساس الا مع الفرق : فاذا تجمدت الشروط الخارجية فلم تعد مختلفة بعضها عن بعض ، وتبلورت الشروط الداخلية على حال واحدة ، فلم يعد يصيبها تغير ، فان الشعور ينعدم ، ويصبح الجو النفسي لاشعوراً محضاً . ولنلاحظ كيف يشم الانسان رائحة الزهرة في الثواني الاولى من وضعها قريباً من حاسة الشم ، ثم كيف يزول هذا الاحساس الثواني التالية مباشرة .

ومع ذلك فانه يهم الاحساس ان لا يخضع للتغيرات اللامتناهية ، ولهذا فلا يتعرف

الانسان على الاشياء نفسها بالرغم من اختلاف الظروف المحيطة بها ، ومعني ذلك ان الاحساس يثبت المتحول، ويحذف المتغير ليجرد هذه العناصر الضرورية للتلاؤم ،ويلاحظ ذلك بسهولة في تعرف الاحساس على اللون الابيض مثلا ، بالرغم من اختلاف الظروف الضوئية ، التي قد تحيله ، من وجهة موضوعية ، الى الوان اخرى .

جـ - قيمة الاحساس من حيث هو معرفة وعلى هذا فالاحساس لايعيد الاشياء اعادة تامة ، ولا يصورها تصويراً دقيقاً ، حتى ليمكن القول بانه لايوجد بين احوال الاشياء وحالات الشعور المقابله لها ، اتصال ولا هوية ولا تشابه . وهكذا فالاشياء تتغير، فيترجم الشعور عن تغيرها بصورة خاصة ، اما حقيقة هذا التغير وقيمة دلالته الشعورية ، فذلك مالا يفهم ولا يتضح الا بجهد التحليل وتنسيق العلم .

خلاصة عامة

الاحساس هو الانعكاس الشعوري لجملة التغيرات العضوية التي تحدثها المؤثرات الخارجية في جسمنا . وللاحساس وجوه ثلاثة : عاطفية وعقلية وفاعلة، على ماهو الامر في كل الحوادث النفسية . الاان الوجه العاقل في الحياة النفسية الناضجة ، هو أغلب الوجوه، واكبرها قيمة ، في حين أن الوجه العاطفي الفاعل ، هو الغالب في مستهل الحياة النفسية، أي في الطفولة وفي الحيوانات .

وعناصر الاحساس ثلاثة هي المؤثر والاثر والاحساس، فالمؤثر عامل طبيعي موضعه في العالم الخارجي (كالحرارة والنور) والاثر تبدل فيزيولوجي موضعه الحاسة ، أما الاحساس فهو الانعكاس الشعوري لهذا التبدل الاخير .

ويميز في الاحساس نوعه وشدته ومدته، كما يميز بين الاحساس والادراك لان الاحساس ابسط من الادراك .

وتصنف الاحساسات في ثلاث زمر : الاولى منها داخلية (كالجوع والعطش) والثانية حركية تنشأ عن فعالية العضوية والثالثة خارجية تقابل آلات الحواس .

أما قوانين الاحساس فثلاثة، وهي قوانين نفسية حكمية اولا (واهمها قانون العتبة وقانونا فيبر وفخنر) وقوانين نفسيه فيزيولوجية ثانياً (وأهمها قانون نوعية الحواس ، ،

بالاضافة الى القانونين السابقين) وقوانين نفسية ثالثاً (واهمهـــا قانون النسبية وقانون الاختلاط)

ومن المشاكل الكبرى في موضوع الاحساس البحث عن قيمة الاحساس في المعرفة ودوره الحيوى ولقد رأينا ان الاحساس لا يصور العالم الخارجي تصويراً دقيقاً ولامطلقاً بل يصور هذا العالم على مقياسنا ، وفي حدود اجهزتنا الحسية . واكثر من ذلك انـه آلة عمل قبل ان يكون آلة معرفة ، وان المعرفة الناشئة عنه نسبية من وجوه عديدة .

الفصل السادس

الصور
Images

خلاصة البحث :

١ — تعريف الصور :

أ) الصور والاحساسات الباقية
ب) الصور والاحساسات التالية

٢ — الصور الحقيقية :

أ) الصور الآنية او المباشرة
ب) الصور الطباعيه
ج) الصور العقلية أو الذهنية
د) الصور النوعية

٣ — طبيعة الصور .

أ) الصور والاحساس

٤ — فعالية الصور

أ) حركية الصورة
ب) حياة الصورة

٥ — عالم الصور

أ) تخيلات اليقظة الشاردة
ب) الحالات الهيبناغوجية
ج) الحـــلم
د) الحلم الفعال والتنويم المغناطيسي
ه) الهذيانات
و) الخرف

٦ — خلاصة عامة

١ — تعريف الصور

تعني كلمة الصورة في علم النفس ، جملة المدركات التي تعود الى النفس ، بعد زوال المؤثر من العالم الخارجي ، بمدة طويلة . فاذا كان الطفل في بيته ، بعد عودته من المدرسة ، اخذ يستعرض صور رفاقه ، والعابهم المشتركة ، وغرفة الصف ، والمعلم ، والمقاعد ، من غير ان يكون امامه شيء منها . وهذه هي الصور .

الا ان علينا ، مع ذلك ان نميز بين الصور الحقيقية وبين الحوادث النفسية الاخرى التي قد تشبهها قليلاً او كثيراً ، او نختلط بها .

أ ـ الصور والاحساسات الباقية : الاحساسات الباقية هي استطالة طبيعية للاحساس بعد زوال المؤثر . مثال ذلك بقاء الآثار الضوئية على الشبكية ، بعد زوال المنبهات الضوئية ، مدة تتراوح بين $\frac{١}{٢٠٠}$ او $\frac{١}{١٠}$ من الثانية بحسب شدة المنبه ، وطبيعة الموجات . وهكذا نستطيع ان نرى دائرة ضوئية تامة بمجرد تحريك منبه ضوئي حركة دائرية ، سريعة بعض الشيء ، ونستطيع ان نرى الصور السينمائية ، الجامدة في الأصل ، متحركة حية ، وهكذا ايضاً يخيل الينا ان الارض تدور من حولنا بعد ان نكون قد دربنا على انفسنا فيها مدة قليلة . ومن الواضح ان هذه الاستطالات الحسية ليست بصور .

ب — الصور والاحساسات التالية : وعندما تزول الاحساسات الباقية ، يمكن ان تظهر احساسات من نوع آخر نسميها بالاحساسات التالية ،

وهذه الاحساسات من نوعين : فهي « احساسات سلبية او مكملة » عند ما تكون الألوان التي تبدو فيها الواناً مكملة للالوان التي كانت فيها المدركات الاصلية . مثال ذلك ان نثبت اعيننا قليلاً في صورة رجل سوداء ، مرسومة على ورقة بيضاء ، وان ننقل بعد ذلك بصرنا الى الجدار الابيض القريب منا ، فنلاحظ عندئذ اننا نرى نفس الصورة ولكن بلون ابيض ، تحيط بها « ارضية » سمراء . وهي « احساسات موجبة » عندما تكون بالوان الصورة الأصلية . وهذه الاحساسات الأخيرة قد تظهر بعد زوال الاحساسات السلبية الاولى . وقد تظهر الأولى والثانية بالتناوب عدة مرات الى ان تنقطع تماماً .

ويظهر ان الاحساسات التالية خاصة بحاسة البصر . وهي تكبر اذا بعد السطح الذي

تظهر فيه ، وتصغر اذا قرب ، كما انها تتبع حركات العينين واتجاههما . وهذا يعني انها تنشأ عن تغير باق في الأعضاء المحيطية ، اي في شبكية العين مثلاً . وتعلل في الغالب ، بتعب بعض عناصر الشبكية ، التي قد يضاف اليها بعض حوادث التضاد المتواقت .

٢ — الصور الحقيقية

أ — الصور الانية او المباشرة : ويجب ان نميز بين الاحساسات التالية وبين مانسميه بالصور الآنية او المباشرة . وهذه الصور غير نادرة ، مثال ذلك ان نسمع في الليل دقات جرس من اجراس الكنائس البعيدة ، او من جلاجل القوافل ، وان نلاحظ استمرارها الى ما لا نهاية ، مع انها في الواقع منقطعة من زمن بعيد .

وفي هذه الحالة ، يعزى ظهور هذه الصور الى فعالية عصبية مركزية تطيل أثر التنبه المحيطي : وهذا يعني اننا امام استمرار في التنبه ، ولكنه استمرار في المركز وليس في المحيط .

ب — الصور الطباعية : ولوحظ ان بعض الاطفال يملكون نوعاً من الصور يسمونها « الطباعية » وهي تمتاز بأنها اقرب الى الصور التالية او الادراك منها الى الصور العادية ، اي انها صور غنية جداً بالوانها ، قريبة جداً من الادراكات الصادرة عنها ، حتى ليمكننا ان نلاحظ انعكاسها على لوحة من اللوحات (كالصور التالية تماماً) ، بل يمكنها ان تعدل الاشياء المرئية قوة ، وان تختلط بها احياناً ، حتى ان اخطاء الحواس الطبيعية تتكرر في هذه الصور كما كانت من قبل .

ج — الصور العقلية : لكل ادراك من الادراكات المختلفة صورة تقابله ، فالادراكات البصرية تقابلها صور بصرية والادراكات السمعية تقابلها صور بصرية . وهكذا تكون الصور مبدئياً ، بعدد الادراكات ، ويكون بالامكان ان نتحدث عن صور شمية ، وذوقية ، ولمسية ، وعضلية حركية . الا ان اوضح هذه الصور جميعاً ، وأسبقها الى الانفراد في تصورات مستقلة ، هي على الأخص الصور البصرية والسمعيه .

ومن المحتمل أن يكون هنالك مجال كبير للفروق الشخصية ، فبعض الاشياء تهم

حساسيات كثيرة ، فالكلمة يمكن أن ترى أو تسمع أو تلفظ أو تكتب ، وقد كانت بعض الملاحظات الشخصية ، دليلاً على وجود مثل هذه الصور الكلامية ، حتى انه أمكن التفكير بتصنيف الاشخاص بحسب النماذج الحسية التي ينتمون اليها (كالسمعيين والبصريين) وذلك بما يتناسب مع غلبة هذا النوع من الصور أو ذاك ، فهذا الرجل « سمعي » الصور ، لأن أكثر الصور التي يستعملها في تفكيره « سمعية » ، وهذا الرجل « بصري » لأن أكثر الصور التي يستعملها « صور بصرية » الخ . غير أن التجربة دلت على ان الانسان يستعمل انواعاً مختلفة من الصور ، بحسب الموضوع الذي يفكر فيه ، او بحسب بروز بعض الصفات الحسية الخاصة في هذا الموضوع ، فاذا كنا نبحث عن حل مسألة رياضية كانت الصور البصرية هي الغالبة ، (صورة المثلث أو الدائرة أو المعادلة ... الخ) . واذا كنا نفكر في لحن من الألحان كانت الصور السمعية هي الغالبة . ولهذا كان « النوع المختلط » اكثر الانواع شيوعاً بين الناس في موضوع التصور .

د - الصور النوعية أو الهيكلية : يرى بعض علماء النفس ان هنالك صوراً من نوع آخر ، هي الصور النوعية generiques التي تنشأ عن انحلال مجموعة من الصور الجزئية الناشئة عن رؤية الشيء نفسه عدة مرات ، فاذا رأيت عدة أشجار من نوع واحد ، كالتفاح مثلاً ، لم تبق في نفسك صورة هذه الشجرة أو تلك ، وانما بقيت صورة عامة ، تمثل الجنس كله ، أو النوع كله ، وليس فيها الا ما هو مشترك بين كل الاشجار التي رئيت .

والحق ان من الصعب أن نقبل بوجود طائفة خاصة من الصور ، يمكن أن نسميها بالصور الجنسية . والذي يقع مثلاً ، هو أن الصور المقابلة لأشياء متماثلة ، أو من طبيعة واحدة ، تفقر ، وتتشوه ، وتفرغ من جملة التفاصيل ، وتصبح بالتدريج « رموزاً أو هياكل » عقلية مبسطة ، وعارية .

٣ - طبيعة الصور

أ - الصورة والاحساس : من الملاحظ أنه لا صورة بلا احساس . فالأعمى الذي

خلق كذلك لا يملك صوراً بصرية . وهـذا يعني ان هنالك علاقة أساسية بين الاحساس والصورة . ولكن علينا أن نتساءل هنا عما اذا كانت الصورة والاحساس حادثتين من نوعين مختلفين أو من نوع واحد .

أ — والحق اننـا اذا نظرنا الى الصورة والاحساس ، من حيث الأسباب والآثار . فاننا نجد بينهما تشابهاً كبيراً .

١ — ولا شك أن الأسباب الظاهرية تختلف : لان مصـدر الاحساس محيطي . أما مصدر الصورة فمركزي ، ولا حاجة بها الى تنبه الحواس

٢ — أما الآثار فمتشابهة : فاذا تصور الانسان منظراً مظلماً اتسعت حدقته ، وإذا تصور ثوباً احمر أمكنه احياناً ان يلاحظ احساساً تالياً لثوب أخضر . ومن المعروف ان تصور الاطعمة اللذيذة ، يسيل اللعاب في الفم .

٣ — ثم إننا نمر من الاحساس الى الصورة من دون ان نجد بينهما فواصل محسوسة إذ يستمر الاحساس حتى بعد انقطاع المؤثر (على مثل ما يقع في الاحساسات الباقيـة) وإذا كنا في السرير ننتظر النوم ، بعد رحلة ليلية في القطـار ، رأينا ان ضجة القطار ما تزال مستمرة في أذنينا .

وهكذا تصل الفلسفة التجريبية إلى القول بأن الاحساس والصورة ، حادثتان من نوع واحد ، وان ما بينهما من فرق إنما هو فوق في الدرجة لا في الطبيعة : فالاحساس أشد من الصورة ، وأوضح منها ، وأثبت

ب — إلا ان الفلاسفة المعاصرين وصلوا الى نتائج اخرى في هذا الموضوع .

١ — ذلك ان الصورة ليست مجرد إحياء الاحساس او الادراك : بل هي إشارة دالة عليه . واذا كانت نوعاً من استعادة الاحساس ، فانها استعادة مصنوعة من مادة اخرى.

٢ — ثم ان الصورة ليست مجرد استعادة للادراكات ، ولا هي محصلة حسابيـة لاختلاط الادراكات ، بل هي خلاصة منظمة لتجربتنا الماضية ، أو هيكل « على مثال المخطط الذي يصنعه الفنان ليمثل به وجهة نظره في رؤية منظر من المناظر »

ولهذا نرى أن الصـورة ليست الاحساس ، ولا هي إدراك مخفف أو ضعيف ، ولا هي صدى الماضي الشاحب ، بل هي ، بما فيها من تجريد وتعميم ، البداية الاولى للمفهوم ، أو هي مرحلة متوسطة بين الادراك والمفهوم .

٤ - فعالية الصور

ليست الصورة العقلية ، جامدة او عاطلة ، كالصورة المادية ، بل هي شي ، يحيا ويعمل كالشعور الذي يحتويها .

١ - حركية الصورة : وهكذا نلاحظ ان الصورة تميل بنا إلى العمل الذي تمثله فهي لا تثير فعالية الوظائف النفسية وحدها (كالتفكير والهيجان) ، بل تثير فعالية الاعضاء الطبيعية ايضاً (كاشارات المسك والصيد مثلاً عند حظور صور المسك والصيد)

١ — وتعلل «حركية» الصورة ، إلى حد ما ، بما تحمله من عناصر عاطفية ، ومن المعلوم انه لا بد للتصور من ان يكون ملائماً او منافياً ، ومغريا او منفرا .

٢ - ولكن هذه الصفة الحركية للصورة تنشأ في الغالب عن كونها تصوراً : ومن التصورات ما يمثل حركة او عملاً . والتصور في مثل هذه الاحيان يراد منه العمل . فاذا تصورنا مثلاً حركات الراقص ، او حركات العزف ، رأينا أرجلنا أو أيدينا تقوم بصورة عفوية بتمثيل هذه الحركات من غير ان نتعمدها . ومن المعروف ان السعال والتثاؤب والنعاس اشياء معدية .

ب - حياة الصورة : ليست الصورة كالنقش المحفور الذي يمكن ان نطبع عليه مجموعات لا متناهية من النقوش المتماثلة ، بل هي حقيقة نفسية خاضعة لكل تغيرات التيار الشعوري الدائمة .

ا) ويتم اندماج الصورة بتيار الشعور بمجرد دخولها فيه ، وعندئذ تنطبع بطابعه . فاذا كنا مثلاً في حالة نفسية مفرحة ، بقيت الصورة زاهية مفرحة أبداً .

ب) وكذلك نلاحظ ان الصورة تغنى ، وهي في اللاشعور ، بكل العناصر الجديدة التي تدخل الى النفس . وبهذا تصبح اكثر وضوحاً وقوة . واحيانا يحدث العكس ، اذ يطويها النسيان شيئاً فشيئا . فتصبح فقيرة شاحبة الالوان . وهكذا نرى مثلاً أن صورة انسان بغيض تغنى بالتدريج بجملة ادراكات لاشعورية ، تجعلها مشوهة مضطربة وملأى بما يزيد قبحها وبشاعتها . واذا كانت الصورة لانسان عادي لا يهمنا أمره ، رأيناها تدريجياً تميل الى الشحوب والفناء .

ج) واخيرا إذا عادت الصورة من جديد الى الشعور ، لم يسعها ان تنفصل عن تياره او ان تتلون بغير لونه . وهكذا تفقد الصورة المحزنة بعض الوان حزنها إذا بدت في جو نفسي مفرح .

ثم إن الصورة تتطور تدريجياً وتختلط بكثير من الصور الثانوية الشاردة، وقديؤدي هذا التطور الى تغيير عميق في بنية الصورة ، تصبح معه كأنها خلق جديد . فالكهول الذين يستعيدون الماضي بالوان زاهية او سحرية يشبهـــون كثيراً هؤلاء الشبان الذين يتخيلون مستقبلهم على صورة الاحلام ، وهكذا تتصل الصورة بالحلم . كما يتصل الخيال التمثيلي بالخيال المبدع .

٥ — عالم الصور

يقول مين دوبيران : انه عندما يخمل الفكر وتتوقف فعالية ملكات التأليف، تثور مجموعة مختلفة من الصور او الاشباح ، فتحاصر الشعور، وتتتابع فيه ، وتتبدل عليه ، وينضم بعضها الى بعض بكل الاشـــكال الممكنة ، فيتالف منها منـــاظر متحركة غير منتظمة ، ومتفرقه في كل اجزائها بلا مخطط ولا وحدة ولاهدف ولاموضوع .

وهكذا تبدأ الصور الـكامنة في النفس بالظهور ، عندما تضعف فعالية التأليف في الذهن ، ويكون ظهورها تابعا لحالة بعض الاعضـــاء الداخلية ، او بعض المؤثرات الحسية ، وبصورة مستقلة عن قوة الصور ، فالاسباب الباعثة على ظهور الصور ، اسباب فيزيولوجيـــة اكثر من كل شيء آخر ، مثل دوران الدم وامتلاء المعـدة . واهم هذه العوامل كلها فقر الدم في المناطق الدماغية ، وتسمم الجملة العصبية .

ولنذكر الآن بعض الاحوال التي نتعاظم فيها فعالية الصور .

أ — **تخيلات اليقظة الشاردة** : في كثير من الاحيان ، يعرض للانسان حالات من الشرود الذهني ، يقل فيهـا انتباهه الى العـالم الخارجي ، وينفصل شعوره ووعيـه عن الواقع، وتقل حساسيته بالاشياء الخارجية ، وينتقل منها الى عالم من الخيال ينسجه لنفسه، ويحيا فيه على نحو يرضي احلامه وامانيه أو مايشبه ذلك من نزعاته ، وكثيراً مايفاجيء المعلم بعض تلاميذه في مثل هذه الحـال ، فيراهم كـأنهم قد انقطعوا عن حياة الدرس ،

وانفصلوا عنها ، وارتضوا حياة الاحلام بدلا منها . وفي تاريخ الادب امثلة رائعة على ذلك ، اذ ان روسو ودون كيشوت مثلا كانا يحبان هذا النوع من الحياة الحالمة ، ويستغنيان بها عن الحقيقة الخارجية ، وهذا ما جرى به المثل المشهور : « انه يبني قصوراً في اسبانيا » .

وقد تصبح هذه العادة حالة مرضية ، وذلك عندما تستريح النفس اليها ، وتأتي التحرر منها ، وتنقطع بصورة نهائية او شبه نهائية عن حياة الوعي ، والاتصال بالواقع .

ب — **الحالات الهيبناغوجية** : هذه الحالات غنية جداً بالصور ومناظرها ، واختلاطها وتشابكها وهي تعرض للانسان في حالات متوسطة بين النوم واليقظة ، أو عندما لايكون الشعور قد استراح نهائياً الى النوم .

م = **الحلم** : يتميز النوم بانقطاع الشعور عن العالم الخارجي . كما يتميز بانقطاع الحاجة الى التلاؤم مع الواقع . وعندئذ يكون المجال واسعاً لظهور الصور وتعلقها باهداب أي احساس عارض ، داخلي او خارجي .

ويلاحظ الانسان أنه قلما يحلم بالاشياء التي شغلته اثناء النهار ، وان هذه الاحلام ضعيفة المنطق ، مضطربة المشاهد ، حتى ليتغير فيها الشخص الواحد مرات عديدة ، كما تستحيل الاشياء استحالات مختلفة . واكثر من ذلك ان الاحساس البسيط قد يؤدي في الاحلام ، الى معركة صور كبيرة ، غنية بتنوعها ومشاهدها . فاذا فرضنا ان هنالك حشرة صغيرة تخز العنق ، رأي الانسان في نومه ان في عنقه دملا كبيرة ، تزعجه فيذهب الى الطبيب فيشقها له ، ويربطها ، وهي مع ذلك لاتنقطع عن ايلامه وازعاجه ، فيقوم باعمال اخرى للتخلص من آلامها . فاذا ما استيقظ اخيراً ، وبحث عن السبب الاول والاخير في هذا الازعاج وهذا الألم . لم يجد غير هذه الحشرة سبباً له .

ومن ذلك يمكننا ان نخلص الى النتيجة التالية : وهي ان العقل ملكة تعليل وتأويل وانه لا ينقطع عن وظيفته هذه حتى في النوم ، فاذا لم يجد احساسات صحيحة تساعده على التأويل ، استعان بما اختزنه من الصور ، وعلقها باهداب الاحساس الاول الذي يثير حاجة التأويل : وهكذا رأينا ان قصة الدمل وتفاصيلها المختلفة ، ليست الا صوراً استعان بها العقل على تأويل الاساس المبهم بوخز الحشرة .

د — **الحلم الفعال والتنويم المغناطيسي** : ان الاحلام في الغالب حالات ساكنة لاتحتاج الى الحركة . وقد يرى الانسان فيها انه قام ومشي وعاد وسمع وتكلم ولكنه في الواقع لم يأت باية حركة . الا ان هنالك احلاماً اخرى يصبح الانسان فيها فعالاً ، ويرفق كل مشهد من مشاهد احلامه بما يناسبه من الحركات ، فاذا رأى انه يمشي ، في الحلم ، كان هو في الواقع يمشي ايضاً ، واذا رأى انه يأكل كان في الواقع يأكل ايضاً ، فكأن الصور قد اصبحت غنية الى الدرجة التي تبعث على الفعل والحركة . وهذا ما يسمى بالحلم الفعال ، وليس التنويم المغناطيسي الا نوعا من هذه الاحلام ، يثيرها المنوم ، بصورة اصطناعية ، ويغير مشاهدها ، الى حد ما طبقاً لرغائبه وتلقيناته .

٥ — **الهذيانات** : الهذيان حالة مرضية خاصة تعرض في احوال مختلفة (مثل الامراض التي تسبب التسمم او في امراض نفسية اخرى) .

وفيه يتكلم الانسان المريض كلمات ويقوم بحركات غير مؤتلفة مع الوضع الخارجي الذي هو فيه ، ولكنها قد تكون في آخر التحليل ، متصلة بوضعه العضوي او المعنوي ، ومعبرة عنه . ولاشك ان الهذيان يمثل حالة من الانفصال عن الواقع والانطواء على الداخل ، ثم محاولة تعليل هذا الداخل بكلمات واوضاع مناسبة له واستعمال الصور الملائمة لتعليله ، وهكذا يرى الكحولي المريض انه امام اشباح مخيفة ، ترعبه وتزعجه ، فيخاطبها كما لو كانت خارجية ، وهي ليست في الواقع الا صور آلامه الداخلية .

ويظهر ان الانسان خلال النزع يتعرض لمثل هذه المناظر : اذ تنطلق الصور الداخلية حرة من التقيد بشروط العالم الخارجي ، على صورة مناسبة للوضع النفسي او العضوي للمريض — الميت ، وهكذا نسمع كلمات ، ونرى اوضاعاً نؤولها ، في الغالب ، بلغة دينية ، دون ان نستند في تعليلها الى التحليل النفسي .

و — **الخرف** : حالة معروفة تصيب الشيوخ اللذين الح عليهم الهرم ، الا انه قد يصيب احيانا شبابا في مطلع العمر ، ويسمى عندئذ (بالخرف المبكر) . وفيه تنحل كل قوى التأليف العقلية ويصبح الفكر مسرحا لصور لاينتظمها اي ناظم . ولكنها مع ذلك قريبة من صور الاحلام ، وفي بعض الاحيان ، يتكون منها بداية الوان بسيطة من

الإبداع الفني والادبي . ومما يذكر عن الكاتب « جيرار دونرفال » انه اصيب بمثل هذا الخوف في سن مبكرة ، ثم شفي منه . ولقد استطاعت رؤاه خلال المرض ان تصبح مادة طريفة لبعض آثاره الادبية ، من ذلك قوله :

« ان المرأة التي كنت اتبعها ، مشت بقامتها الممشوقة مشية جعلت ثنايا ثوبها الكثير الالوان المتغيرة ، تتلألأ ثم احاطت بذراعها العاري غصنا طويلا من الورد وما لبثت قليلا حتى بدأت تكبر على شعاع نور واضح ، بحيث تراءى لي انها اصبحت بستانا : ممراته واحواضه واشجاره ، وشي ثوبها وزهيراته وتطريزاته ، ثم امتد وجهها وذراعها ، فكونت خطوط الشفق الاحمر في السماء »

وهكذا فان دراسة الصور توضح لنا معنى الصور الخالصة : صورة الحلم . وهـــذه الصورة غامضه متحركة ، متغيرة ، لامعنى لها بذاتها . وليست هي في ذلك كله الا صدى للحالة العضوية ، وهي بعيدة عن الذكرى بعد الاحساس عن الادراك . فكما ان الاحساس لامعنى له الا بتأويله في ادراك معين ، فكذلك لامعنى للصورة الا اذا حبست في اطار ذكرى من الذكريات أو ادراك من الادراكات .

خلاصة عامة

إن الصورة هي ما يبقى من الاحساس ، او الادراك ، في النفس بعد زوال المؤثر بمدة كافية . ولهذا كان من الضروري تمييز الصورة عن الاحساسات الباقية والاحساسات التالية بانواعها المختلفة .

ونميز في الصور أنواعاً كثيرة : فهنالك الصور المباشرة التي يستطيل بها الاحساس الى مدة بعيدة ، بالرغم من انقطاع المؤثر وهنالك الصور الطباعية ، الكثيرة عند الاطفال القريبة من الواقع في الوانها وتفاصيلها ، وهنالك الصور العقلية البصرية والسمعية والشمية والحركية والمختلطة . وهنالك الصور النوعية التي لا تمثل إلا هياكل الاشياء المجردة .

ومع ان الصورة كالاحساس من حيث آثارها ، إلا أنها مع ذلك أكثر تجريداً ، واقرب الى عالم الفكر من الاحساس ، أو قل إنها بداية المفهوم العقلي المنظم .

ثم أن الصورة تتميز بفعاليتها إذ أنها قادرة على إثارة الوظائف النفسية كما هي قادرة

على اثارة الاعضاء الطبيعية . ويعلل ذلك أن الصورة كباقي التصورات تثير النفس وتهيجها ، بالاضافة إلى جانبها العاطفي ، المحرك بطبيعة الحال .

ولا شك أن للصورة حياتها الخاصة ، إذ تندمج بتيار الشعور وتتخذ لونه لوناً لها ، وإذا هي حفظت في اللاشعور اغتنت أو فقرت بحسب اهتمامنا بها ، بما يضاف اليها من مدركات لا شعورية ، أو يزول من عناصرها الأصلية . وإذا هي عادت إلى الشعور بعد النسيان عادت اليه وانطبعت بطابعه من جديد .

وهنالك عالم حافل غني بالصور ، يفاجئنا أول ما يفاجئنا ، عند شرود الذهن ، أو فراغ العقل من كل موضوع ، ولكن الصور التي تعمر الذهن عندئذ تكون مضطربة متداخلة ، ثم ان الحالات الهبناغوجية والأحلام والهذيانات ، حالات تنتظم فيها الصور قليلاً أو كثيراً ، حتى تصل الى تأليف مناظر يستطيع الادب استثمارها .

الفصل السابع

اللذة والألم

خلاصة البحث Plaisir & Douleur

١ — الناحية العاطفية في الحوادث النفسية

٢ — اللذة والألم

أ — انواع اللذات والآلام
ب — نسبية اللذات والآلام
ج — معضلة الألم
د — وظيفة اللذة والألم في الحياة
هـ — أسباب اللذة والألم
و — آثار اللذة والألم

٣ — اللذة البريئة

---

١ - الناحية العاطفية في الحوادث النفسية

١) لكل حادث نفسي ، بصورة عامة ، وجهان مختلفان بعض الشيء ، اولهما وجه عقلي او ممثل او معرف بالمعنى الاصلي لهذه الكلمات ، والثاني وجه عاطفي يثير الرغبة بالشيء او الرغبة عنه .

وتظهر لنا الحوادث النفسية ، في المعنى الاول ، كانها مجموعة معارف عن الحالة النفسية ومن الواضح ان هذه المعارف تتعلق بطبيعة الاشياء المعروفة . الا اننا اذا نظرنا الى هذه الحوادث من الوجهة الاخرى ، فاننا نلاحظ انها تأخذ قيمة خاصة ، تثير بعض العواطف

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY

او بعض الهيجانات . ولقد تصبح هذه القيمة نفسها ، موضوع معرفة جديدة ، فتتحول العواطف والهيجانات الى مجموعة من احكام القيم .

ولا فرض ان امامي ثمرة : فأنا أراها واذوق فيها طعوماً تميزها ، وصفات خاصة بها : كلونها وشكلها وحجمها ، وحلاوتها ، ورائحتها وقوة تماسكها ، بحيث تساعد هذه الصفات على معرفة هذه الثمرة — كتفاحة مثلا — . ولكن التفاحة ، في الوقت نفسه ، تبدو لي جيدة او رديئة ، لذيذة الطعم او كريهته . وكذلك اتصور مثلا ان شخصا ما ، يتمتع بصفات مختلفة ، فيها طوله وعرضه ، وشبابه او كهولته ، ولكن فيها ايضا ،العطف او المقت اللذين يوحي الي بهما : فهو مثلا يغضبني او يخيفني. ويثير عطفي وحبي ،أو كراهيتي وبغضي .

ب) واذا لاحظنا السلوك الانساني ، بصورة موضوعية ، فاننا سنجد ايضا ان علاقاتنا بموضوع ادراك ما ، تتعين بصفات هذا الادراك (بلون التفاحة وشكلها وحجمها مثلا ، في المثال السابق) ، وهي تتعين ايضا بالقيمة العاطفية لهذ الادراك : فأنا اما ان آكل التفاحة او اتركها ، واما ان استقبل الرجل او ان اتحول عنه ،واما ان اهاجمه أو اتحاشاه واتجنبه .

فالعواطف اذن ليست الا صوراً خاصة للميول ، لان هذه الميول هي التي تهب الاشياء مالها من قيمة في نفوسنا ، يمكن للميل ان يظهر في صور مختلفة . فالعطف الابوي (وهو ميل) يمكنه ان يبعث على السرور تارة ، وعلى الحزن تارة اخرى واحيانا يكون غضباً ، واحيانا اخرى قلقاً ، بحسب الظروف التي هو فيها ، وكل هذه العواطف ، من سرور وحزن وغضب وقلق ليست الا صوراً للعطف الابوي يبدو في واحدة منها او في الاخرى ، بحسب الظروف التي تحيط به فاذا اشرف الولد على الهلاك كان العطف الابوي هلعاً وخوفا وقلقا ، واذا علا به الحظ الى مرتبة عالية من مراتب الشرف ، كان هذا العطف سروراً ولذة وفرحا .

وهكذا يظهر لنا ان للحوادث النفسية وجها عاطفيا خاصا ، تبدو لنا به ، بالاضافة الى وجهها العقلي الذي يساعدنا على معرفتها وتمثلها .

٢ - اللذة والالم

لانستطيع تعريف اللذة والالم بكلمات اوضح في النفس منهما ، ومن لم يعرفهما

بتجربته المباشرة ، يستحيل عليه معرفتها من خلال التعاريف ،وليس بامكاننا ايضا ان نفرق فيهما بين حالتين : احداهما فاعلة ، والاخرى منفعلة فاللذة لاتنفصل عن رغبة الانسان بها ، والالم لاينفصل عن كراهية الالم والنفور منه . واذا اردنا تعريف الالم مثلا فلن نعرفه باحسن من القول : انه حالة لانريد الشعور بها .

وكذلك يبدو لنا مل ملاحظة الكائنات الحية ، ان افعالها ذات اتجاه خاص ، فهي اما ان تبقيها افعالها على حالها، او ان تغير لها هذه الحال ، واماان تقربها من شيء، او ان تبعدها عنه ، واما ان تعرضها لتأثير شيء من الاشياء ، او ان تجنبها اياه فيمكن القول اذن بان اعمال هذه الكائنات تحاول ايصالها الى هذه الاغراض او هذه الغايات ، اذ ان افعال هذه الكائنات لاتنتهي في الواقع الا اذا بلغت هذه الغايات ، وهي تنتهي ، فعلا ، عند بلوغها .

قلنا ان لافعال الحيوانات اتجاهاً خاصا ، يصل بها الى بعض الاغراض ، وهذا الاتجاه ظاهر في سلوك الحيوانات الدنيئة التي تتحرك بتمدد ارجلها الكاذبة . وهناك بعض الحيوانات الابتدائية التي تتحرك بواسطة اهتزازات هدبية ، فاذا تحرك حيوان ابتدائي من هذا النوع في ساحة تنتشر فيها نقطة حمضية ، ثم صادف في طريقه جسما قاسيا ، فانه يقف ، ثم تهتز اهدابه بحركة معاكسة ، وتمضي به الى الوراء ، واذا تحركت هذه الاهداب قريبة من فوهة الفم ، فانها تؤدي الى ابتلاع بعض الاجسام الصغيرة . وقد تنعكس هذه الحركة ، فتؤدي الى اطراح بعض هذه الاجسام الصغيرة ، ونلاحظ ، بصورة عامة ، ان تماس الاميب مع بعض الاجسام يؤدي بالضرورة الى تمدد الارجل الكاذبة او الى تقلصها والى ابتلاع هذه الاجسام او الى طرحها .

والخلاصة ، ان الحيوانات ترد على الاشياء التي تجدها في محيطها ، كما ترد على نتائج اعمالها الخاصة .

ويتجلى هذا الرد بافعال خاصة ، موجبة اوسالبة ، ينتخبها الحيوان ويصطفيها اصطفاء خاصا ، فاذا كانت فعاليته موجبة قلنا انه يتجه الى ارواء ميله وهو في حالة لذة ، واذا كانت فعاليته سالبة ، قلنا انه يبتعد عما يؤذيه او يعارض ميوله وهو في حالة الم .

١ ـ أنواع اللذات والآلام

تتميز اللذات والآلام بمصادرها . فبعضها مصدره الجسد او العضوية وبعضها مصدره النفس .

١ ـ ففي الحالة الاولى نجد ان اسباب اللذات والآلام تؤثر مباشرة في الجسد «وتحدث فيه آثارها اللاذة او المؤلمة . ويمكننا في بعض الاحيان تعيين موضع هذه الآثار . وتثبيت مراكزها او نقاطها في الجسد ، بدقة كبيرة او صغيرة . ولاشك اننا نعرف مواضع آلام الحروق او الجروح ، ومكان اللذة في طعم جيد ، او الالم في طعم كريه . وفي بعض الاحيان الاخرى ، يتعذر علينا بالضبط تعيين مكان هذا الالم او هذه اللذة ، ويخيل الينا ان ذلك كله يشيع في الجسم بصورة غامضة ، ونسمي هذه الاحساسات عندئذ باسماء غامضة كان نقول مثلا : نحن في ضيق او نحن في راحة ، كما نسمي هذه المجموعة الغامضة باسم الحساسية العامة ، ويجب ان نذكر ان بعض اسباب هذه المشاعر قد تكون محلية ، ولكنها لاتبدو في الشعور الا كعاطفة غامضة منتشرة في الجسد كله ، كتغير المزاج اوضعف القوة الحيوية ، او ما هو شبيه بذلك من اشياء يختفي في الشعور بها سببها العضوي مثال ذلك ان يشعر المصاب بالحمى « التيفوئيد » مثلا ، بدوخة واضطراب وضعف الشهية دون ان يدرك ان الجراثيم قد توضعت في امعائه وبدأت فعلها الخبيث .

٢ ـ اما اللذائذ والالام النفسية ، فانه ليس لها من سبب ذي صفات خاصة تمكن معرفتها بلغة الاحساسات ، بل ان الاسباب احوال معقدة ، تدرك معانيها اكثر مما تعرف لها صفات محسوسة . وهذه المعاني هي التي تؤلم او تسر ولا يتم طبعا ادراك هذه المعاني الا بتأويل خاصة ، يبدعها الانسان من نفسه ومن عالمه الخارجي ، ويمكننا القول هنا ، ان هذه الآلام وهذه اللذائذ ليست الا صوراً لميول نفسية ـ لا لحاجات عضوية ـ تم ارواؤها او حيل بينها وبين الارواء . مثال ذلك اللذة الناشئة عن ارضاء ميول الغرور او الطمع ، ولذة التغلب على الصعوبة والحب المتبادل ، والم الرسوب في فحص ، او جرح الكرامة والعزة الشخصية ، وضياع الحبيب ، وانكاره الجميل ، او عدم اهتمامه . والم الحسد او الخجل ، وتأنيب الضمير . ويمكننا ان نلاحظ وجود شبه كبير بين هذه المشاعر وبين بعض الهيجانات التي سندرسها في فصل تال (كالفرح او الحزن) ولكننا نجد

هنا أننا امام صعوبة ايجاد الكلمات الصالحة للتعبير عن الاختلاف بين المشاعر اللذة والالم ومشاعر الهيجانات .

٣ ـ واحيانا يصعب التفريق بين هذين النوعين من اللذات والآلام الجسمانية والنفسية واحياناً اخرى يستحيل هذا التفريق .

د) ويحسن القول ان اللذات والالام ليست الارجوع النفس الى تأثرات ماضية . او هي نتائج رد النفس على تأثراتها الماضية .

وفي الحقيقة ، ان اغلب الاحساسات العضوية لا تنفصل عن عاطفة عامة تتضاعف بها فالاحساس بالحرارة الشديدة او بالجوع تنعكس على المظهر الحيوي الانسان انعكاساً واضحاً والمصابون بمرض في القلب اوعسر في النفس ، يشعرون دوما بمشاعر مختلفة من الانحطاط والقلق والارهاق والحور ، ترافقها احساسات محلية مؤلمة .

ومن الاحساسات ما يرافقها نشاط جسدي خاص ، وهذه قدتنعدم . بل تنعدم ولاشك في بعض الامراض النفسية كحالات اليأس او الفقر العاطفي التي تصيب بعض الناس ويصفونها بانها حالات لايتسرب اليها لا فرح حقيقي ولا حزن صحيح .

وللاحساسات الخارجية مظهر عاطفي بالاضافة الى صفاتها الخاصة التي تبني عليها المعرفة فمن الروائح مايزيد القوى الحيوية نشاطاً ، ومنهاما يقتل هذا النشاط . واما احساسات السمع والبصر ، فان لها آثاراً نفسية اكيدة : فقيام ضجة ما ، بقرب انسان يحب الهدوء مما يدعوه الى الثورة ، او الغضب . والاستماع الى الاغاني الجميلة يهيج في النفس عواطف مختلفة فيها الحزن وفيها السرور وفيها التأمل وفيها التذكر ، المصحوبان جميعاً بعواطف الحزن والفرح . ومن المعروف ان الانسان يضيق ذرعا بالنور الشديد ، فيثور غضبه ، وان علم الجمال ليقع في معضلات عويصة عندما يحاول تحليل المركبات العاطفية الخاصة بالحواس العالية وهي مركبات تم البرهان على وجودها بالتأليف بين بعض الاصوات وبعض الخطوط وبعض الالوان ، ولوكانت هذه الاحساسات محرومة من قيمها العاطفية لعدمت الموسيقى وفنون النقش والتصوير كل مايبرر وجودها ، (وانه ليمكننا ان نلاحظ وجود القيم العاطفية للالوان مثلا ، اذا نظرنا الى منظر ما من خلال زجاج مختلف الالوان) .

ويجب ان نشير هنا الى حوادث اختلاط صفات الاحساسات وائتلافها

« Synesthesies » فان هذه الحوادث تعرفها اللغة وتعطينا عليها بعض الامثلة فيقال مثلا: الوان صارخة اوجارحة ، للالوان التي يزعج النظر اليها ، ويقال ايضا : الوان حارة اوباردة، ويقال : الوان حادة اولامعة ، اوحادة—لامعة معاً . وهذه العلاقة بين الاحساسات المختلفة الانواع معروفة جيداً ، حتى انها عند بعض الناس اقوى منها عند بعضهم الآخرين. وفي الاحساسات السمعية نجد ان لبعض الاصوات مقارنات لونية ، ثابتة نسبياً عند كل فرد ، ولابد في تعليل هذه الحوادث من القول بان الاثر النفسي واحد بالنسبة الى مجموعة هذه الاحساسات المختلفة ، ومعنى ذلك ان من يرى حرف (ب) ويرى معه صورة اللون الاسود مثلا يتأثر بكلا الاحساسين ، بصورة واحدة ، فكلما حضر احدهما تبعه الآخر ، بفعل التداعي. اما وحدة الاثر النفسي ، فانها اما ان تكون خاصة ابتدائية من خواص الاحساسات ، واما ان تكون امرا مكتسبا .

ب) ومن الصعب — بل من المستحيل — ان تبقى الاحساسات عارية عن معنى نفسي يضاف اليها ، فان « الضرب » مثلا يكون تارة مصحوبا بلذة ، وتارة بالم ، بحسب الاطار الذي يحيط به ، كأن يكون عقابا او ان يكون مداعبه : ويصعب في المداعبة تعيين قيمة العنصر العضوي وقيمة العنصر النفسي . وكذلك الخوف من الالم ، فانه يؤلف عنصرا هاما في خلق الالم .

ح) اما تشابه اللذات والآلام الجسمانية ، واللذات والآلام النفسية ، فعليه ادلة كثيرة : منها وحدة الشروط العضوية في الحالين : فاللذة الجسمانية تثير في العضوية نشاطا عاما يشبه النشاط الذي تثيره اللذة النفسية ، ومنها ايضا وحدة التعبير العضوي الذي ندل به على هذه الاشياء جميعاً : فالتقزز — كيفما كان مصدره—مظاهر واحدة في الوجه. ومنها وحدة التعبير اللغوي اذ ان اللغة تعبر بذات الكلمات عن انواع الآلام المختلفة ، وهكذا يقال : بان الما نفسيا مايشبه طعنة اوضربة ، كما يقال ان فلانا جرح رفيقه في كبريائه ، ولكنه عاد الى نفسه ووخزه ضميره وخزاً شديداً ، فلما حاول الاعتذار ذاق مرارة الخيبة. ويقال ايضا ان فلانا كان يداعب آمالا كبيرة ويعانق غروراً لذيذاً .

ب = نسبية اللذات والآلام

لقد عرفنا من قبل ان للاحساس وجها عقليا ، هو الوجه الذي يسمح لنا بمعرفة الاشياء

معرفة عقلية . ولنقل الآن ان هذا الوجه العقلي صحيح نسبياً . ولولاه لصعبت المعرفة او تعذرت ، وسواء اكنت مريضاً او كنت صحيح الجسم ، فانني انظر الى التفاحة فاعرف انها تفاحة ، لان لها لونا وشكلا ، معينين ، اما الناحية العاطفية في الاحساس ، فانها ناحية لاثبوت لها ، بل هي في تغير مستمر بحسب الظروف التي يكون فيها الكائن الحي او الانسان.

أ — وتتغير الناحية العاطفية — اول كل شيء — تبعاً لدرجة فاعلية الميول : فاللذه مثلا تكبر بمقدار مايسبقها من شهوة او رغبة ، والميول دورية الظهور : فأحيانا تكون قوية فعالة ، واحيانا تكون ضعيفة فاترة او نائمة ، ولهذا تتغير الحاجة الى ارواءها : فاحياناً تكون الحاجة كبيرة واحياناً تكون صغيرة ، والامر كذلك في الأشياء التي تروي حاجة الميول ، فان قيمتها تتغير بالنسبة الى درجة فاعلية الميول ، فليس الطعام ، في نظر الانسان ، واحد القيمة دائماً . وليس للمرأة ، في عين الشاب ، قيمة واحدة دوما ، بل ان هذه القيمة تعلو وتهبط تبعا لحاجة الانسان الى الطعام او الى المرأة ، وهكذا فالاشياء لاتستطيع دوما ان تلهمنا ذات العواطف ، وقد تصبح عواطفنا الماضية ، غريبة في حاضرنا . بل تصبح غير مفهومة او غير معقولة ، وبالجملة فان كل ميل يمكن اعتباره كحاجة تزيد او تنقص بحسب الظروف .

ب — وكذلك لايمكن ان تنعزل اللذات والآلام عن التأثرات النفسية الاخرى ، بل لايمكننا الا ان نتصور وجودها على صورة تختلط فيها بالحالات النفسية المختلفة المضافة اليها ، او الناشئة منها ، ولابد للذائذ والآلام من التأثر بالحاجة العقلية او العاطفية التي يكون عليها الانسان حين يتلقاها . ومن المعروف ان الالم الشديد يذهب بالآلام الخفيفة التي كانت موجودة قبله . والتي كان عليها ان تبرز واضحة في ساحة الشعور لولاه ، فالشهداء يضحون بانفسهم ، بسخاء في سبيل حماستهم الدينية ، او في طريق مبادئهم ، ولايشعرون بالآلام التي يتعرضون لها في هذا السبيل ، وكذلك الجندي ، فانه يكون اقل شعوراً بخطورة جروحه وآلامه ، في ساحة الحرب ، منه في عربة الاسعاف ، اذ انه يفقد هنا حماسته التي كان يحارب بها خلال المعركة.

ثم ان التضاد بين سلسلتين من الحوادث النفسية ، ادعى لوضوح كل منهما ، فالراحة والنوم مثلا لايكون لهما معنى الا بعد التعب والسهر ، والامر كذلك في السرور بالنجاح ، لانه يتناسب مع مقدار الجهود التي صرفت من اجله ، وتضاؤل الالم لذة من

نوع ايجابي ، ولقد خيل الى افلاطون وايبقور بان اللذة ليست الا تضاؤل حالات الالم السابقة ، وهذه النظرية ليست صحيحة تمام الصحة ، ولكن مزيتها الكبرى انها تظهر اثر التضاد في وضوح الحوادث النفسية .

غير ان اللذائذ لايضاف بعضها الى بعض ، الى مالا نهاية ، بل ان كثرتها تخفف من قيمتها ، وندرتها تدعو الى زيادة هذه القيمة ، والظاهر ان قابلية الانسان للعذاب او الهناء قابلية محدودة ، فالسعادة والشقاء يتعلقان بشروط داخلية اكثر مما يتعلقان بشروط خارجية ، واللذة او الالم يظهران بعض الشيء لان فيهما ارتفاعا او انخفاضا عن المستوى العادي للحياة .

وهكذا نرى ان تأثير العادة يخفف قيمة اللذات ، اذا طال تكررها ، كما يخفف من قيمة الآلام اذا تكرر حدوثها ، فالعادة تخفف الشعور وقد تمحوه ، ونتيجة ذلك ، ان الالم يخف — اذا فقد حدته — ويفقر ، فكأنما يصيب النفس نوع من الشبع النفسي يشبه الشبع الذي يصيب احدى الحاجات العضوية ، اويشبه شبع الانسان من طعام معين . فاذا فرضنا ان الطعام تغير ، فاننا نلاحظ ظهور رغبة جديدة فيه فيأخذ الانسان منه نصيباً ، مع شيء من اللذة ، وكذلك تمل النفس من كل ما تألفه ، ان لم يكن فيه وجوه مختلفه ، او متغيرة ، اذ ان الحياة تغير مستمر ، ولا تستطيع ان تتجمد او ان تقبل الجمود في اي شيء من اشيائها ، وهكذا نلاحظ ان لاقيمة للنفوش الفنية ، الا بما تحتويه من صور جديدة تبدو شيئاً فشيئاً للمتأمل . ومثل ذلك عواطف الحب لان الحاجات التي تثيرها مختلفة ومثلها العليا كثيرة . وهذا هو السبب ايضا في تجديد الازياء وتطور الفنون .

وبتأثير العادة ايضا ، يسهل تدريجيا احتمال ماكان يصعب احتماله من قبل . وينتهي الانسان بان يقبل بسهولة ماكان من قبل لايقبله ولا يحتمله ابداً . ولذلك يكثر ان تبتلع الحياة الاجتماعية المضطربة ، كل وجدان حي ، بما نفاجئه به في كل يوم ، من امور لاوجدانية ، تجرحه اول الامر ، ولكنها تنتهي بان تجعله اخيرا على شاكلتها .

وقد يكون للعادة تأثير معاكس : ويصعب عندئذ التعود على بعض الاشياء فالالم الذي يصعب احتماله والتغلب عليه ، يكبر ويزيد ، وماكان من الامور غير ملائم ، يصبح بغيضا ، فكأنما تتجمع الاثار هنا بعضها فوق بعض . والعادة ان الانسان يصاب بمناعة

عاطفية تخفف عنه آثار الآلام المتكررة، غير ان هذه الآلام احيانا تضيع على الانسان رشده، وتفقده قوة المقاومة .

ج — معضلة الالم

لقد يمكن الظن ان الالم صفة خاصة ، يتصف بها عدد كبير من الحوادث النفسية ، حينما يشتد المؤثر ، او يجاوز حداً معينا من الشدة ، يصبح بعده خطراً. غير ان كثيراً من البراهين تقوم على صحة نظرية تدعي بان الالم احساس خاص له جهاز خاص ومراكز خاصة ، ونهايات عصبية خاصة ايضاً .

• • •

(١) هنالك احساسات لايمكن ان تصبح مؤلمة قط . وهنالك احساسات اخرى لايمكنها الا ان تكون مؤلمة . واذا قمنا بتجربة وخز اليد في مواضع مختلفة بواسطة ابرة دقيقة ، فاننا نجد ان بعض الوخزات ، لايرافقها الا احساس بالبرودة ، واخرى لايرافقها الا احساس بالحرارة وثالثة لايدرك منها الانسان الا انها مؤلمة . ويظهر ان الشعور بالالم متأخر عن ادراك الاحساسات الاخرى (حتى ليتجاوز في ذلك بعض عشيرات الثانية) وبعض الاعضاء لاتملك اية احساسية الا بصورة عرضية ، اوفي حالات المرض على الاصح ، فهي لاتستطيع عندئذ الا ان تكون سبب آلام كثيرة ولهذا استطاع بعضهم ان يفرض وجود حاسه للالم ، لها نهايات عصبية دقيقة وذات ناقلية ضعيفة وبطيئة .

(٢) ويلاحظ من ناحية اخرى ، ان بعض الامراض تودي بحاسة الالم مع الاحساس بالحرارة ، وتبقى على الحساسية العامة ، ويقع ذلك في بعض امراض النخاع الشوكي (Syringomielie) وفي فساد بعض حزم النخاع الشوكي. فكل هذه تسبب فقدان الحساسية اللمسية دون الالم .

(٣) ومن السموم ما يؤثر مثل هذا التأثير ايضاً ، ومنها ما يحرم من الألم بدون ان يمس الحساسية اللمسية كالكوكائين ، ومنها ما يحرمنا من هذه دون ان يزيد الألم. والبرد اخيراً يفعل مثل ذلك .

(٤) واذا قطع عصب ما في ناحية من نواحي الجسد ، فقدت هذه الناحية كل انواع حساسياتها .. واذا بدأ العصب نموه الجديد، عاد اول ما عاد الاحساس بالألم مع الاحساس

بالحرارة الشديدة المؤلمة ، ثم بعد ذلك ، تعود الاحساسات الاخرى (تجربة العالمHead) ومن الحوادث اخيراً ، ما يدلنا بصورة غامضة على ان للالم مراكز خاصة في الدماغ عدا النهايات العصبية التي عرفنا وجودها في التجارب السابقة . لاننا اذا نبهنا القشرة الدماغية بمنبهات خاصة ، فاننا نشعر باحساسات لمسية غير مؤلمة ، فاذا ذهبت هذه القشرة ذهب معها ما كنا نشعر به من احساسات لمسية وبقي لنا الشعور بالالم الذي يظهر ان له مراكز خاصة في الدماغ المتوسط ، او ما يسمى بالقلم الرصاصي Tatamus

وبدون ان ندعي الحق في الفصل في هذه القضية المعقدة ، يمكننا ان نلاحظ انه لا يوجد اي تناقض بين الفكرة القائلة بان الالم هو جواب الجسم على المؤثرات المضرة او المفسدة ، والفكرة القائلة بان للالم اعضاء خاصة ، تلعب دورها بتأثير بعض التغيرات الفيزيولوجية (القادرة — في بعض الاحيان — على ان تزيد حساسية هذه الاعضاء زيادة كبيرة) .

د — وظيفة اللذة والالم

لقد رأينا ان اللذات والآلام تعبر عن قيم الاشياء والمؤثرات التي يعرض الانسان ان يتلقاها . ولكن هل نستطيع ان نقول : ان هذه القيم حقيقية : وهل للالم واللذة من وظيفة في الحياة ... ان للمسألة وجهين ، يمكن ان يناقش من خلالهما .

١ — والوجه الأول هو ان نتساءل عما اذا كانت اسباب الألم ، دوما ، عوارض مضرة او مؤثرات مفسدة ، واسباب اللذة ، دوماً اشياء نافعة ؟وهل الخير،دائماً، في اللذة والشر دائماً في الالم ؟.

٢ — والوجه الثاني هو النظر الى اللذة والالم من خلال المؤثرات التي تحدثهما ، فهذه المؤثرات لا تخرج عن كونها مؤثرات طبيعية ، كطعام او وخزابرة مثلاً . فهل نستطيع الاعتقاد بان ردود الفعل التي نرد بها على هذه المؤثرات ، هي ردود مفيدة ، تستطيع ان تمنع عن الانسان شراً يحيق به ، او تدنيه من خير عارض ، يصيب منه حظاً ؟.

ان هذا ما سنعرفه في البحث عن اسباب اللذة والالم ؟

هـ - اسباب اللذة والالم

ليس من شك ان هنالك توافقاً عاماً بين اللاذ والنافع ، والمؤلم والضار . فاللذة لا تنشأ الا لأن هنالك حاجة ظمأى أروي غليلها ، او كانت ظمأى فارويت. ولاتوجد اللذة الا حيث يوجد توازن طبيعي بين حاجات الجسد ، وبين ما يسعفها من الوسط الخارجي — أي بين الحاجة وبين ما تروى به — وكذلك لا يوجد الالم الا حيث يفقد هذا التوازن ويبدأ الألم في اللحظة التي توافق ابتداء اختلال وظائف الاعضاء . واما الالم الحقيقي ، فانه لا ينشأ إلا عن فساد بعض الاعضاء ، او من تسمم الجسد في ناحية من نواحيه .واذا تعدت آثار بعض العوامل الكيماوية او الطبيعية ، او بعض الفعاليات العضوية ، حدودها الصالحة ، لزيادة او لنقص ، فلا بد وان يظهر الالم مع هذه الزيادة ، او مع هـذا النقص (الحرارة ، التوازن الكيماوي للانسجة ، الفعالية العضلية) . وهكـذا فان بعض الاحساسات تنظم فعالية بعض الوظائف ، كالشم والذوق ، فانهما يسهران على تنظيم التنفس والتغذية : فالاطعمة تبدو ملائمة للذوق ، والسموم تبدو غير ملائمة له ، وللثمار الجيدة روائح منعشة ، اما الثمار السيئة فروائحها مزعجة منفرة ، واما حاسة اللمس السطحية فانها تؤمن سلامة العضوية بالنسبة الى المؤثرات الخارجية .

واما الحساسية الداخلية فتنظم صرف القوة العضلية . وكذلك اللذائذ والآلام النفسية ، فانها تنشأ عن ارواء او عدم ارواء الميول النفسية ، هذه الميول التي تهم طائفة من منافع الشخص ، أو النوع ، او الوسط الاجتماعي .

ولقد فطن ارسطو الى هذه الناحية ، فعمم الفكرة وقال ان اللذة تقابل عمل الميل ، او فعالية الميول الطبيعية . وان الالم يقابل توقف هذه الفعالية . مثال ذلك ان تشتد حاجة الانسان الى الطعام ، فان ارواها ، حدثت اللذة ، وان اوقفها حصل الالم .

غير ان هذه الفكـرة قد اثارت عند الفلاسفة جملة مـلاحظات واعتراضـات . فقال هاملتون ان اللذة ليست في فعالية الميول فحسب . وانما هي في فعاليتها على صورة معتدلة ومعنى ذلك هنا ان اللذة لاتكون في ان نكثر من الطعام ، ولكن في ان نأكل بصورة معتدلة ، غير اننا نلاحظ من جديد ان ما هو فعالية معتدلة عند احد الناس ، ليس كذلك

عند الآخرين، فمنا من يعتدل في طعامه ، اذا اكل رغيفا واحداً مثلا ولكن منا ايضاً من لايبلغ هذا الاعتدال ، الا في رغيفين او ثلاثة فاللذة اذن ليست في العمل المعتدل فحسب وانما هي في الفعل المعتدل المناسب لطبيعة الشخص . ولكننا نعود هنافنلاحظ ، في مثال آخر ، ان الفعل المعتدل لايعني شيئاً آخر غير التناسب مع الطاقة التي يملكها الجسم ،فان صرف الجسم بمقدارها او بما يقل عنها نوعا ما ، حدثت اللذة ، وان لم يصرف بمقدارها ، او حبسها ،حدث الالم ، مثال ذلك هذا الرياضي الماهر القوي الذي يسمح له باللعب بعض الوقت ، فان لعب ساعة مثلا ، أمتعه ولذه. وان لم يسمح له بان يلعب الا عدة دقائق او لم يسمح له أبداً باللعب ، كانت لذته ناقصة في المرة الاولى ، ومعدومة في الحالة الثانية ، وحدث الالم بدلا منها .

ولكن اذا كانت اللذة في الفعل ، او في الفعل المعتدل ، او في الفعل الذي لاتزيد الطاقة المصروفة فيه عن مقدار الطاقة المختزنه في الجسد ، فان ذلك يجب الا يعني ان اللذةتقابل حالة انفاق القوى الجسدية ، او صرف الطاقة الجسمية ، او افقار الجسم مما يملكه من القوى ، فاللذة ليست مقابلا نفسيا لفقر عضوي او نفسي ، بل هي مقابل نفسي لحالة اغناء وتكامل ، ووفرة قوى .

والحق ان الجسم (كما يقول لودانتك) ليس بمجرد آلة ، كغيرها من الآلات ، يفنيها عملها بالتدريج . بل هو آلة – على عكس الآلات – يغنيها عملها ويزيد نشاطها وقواها ، ذلك لان الجسم يملك – فيما يملك – هذه القدرة على ترميم القوى التي يخسرها ، ولهذا كان الفعل المعتدل ، هو الفعل الذي لاتزيد القوى المصروفة فيه على مقدار مايملكه الجسم من القدرة على الترميم .

غير اننا نلاحظ ، اخيراً ، ان بعض الافعال تورث الالم مهما تضاءلت القوى المصروفة فيها ، وبعض الافعال تورث اللذة مهما تكررت . ومثال الاولى شم الرائحة الكريهة مهما خفت ، ومثال الثانية شم رائحة ذكية مهما تكرر الشم (١) وهذه الملاحظة تنتهي بنا الى القول ، ان الفعل لايورث اللذة الا اذا وافق الميول ، وبالعكس فهو يورث الالم

(١) ليس علينا طبعا ان نفهم المبالغة المفرطة ، بمعنى تكرر الشم الف مرة ، بل يكفي ان يتكرر الشم عدة مرات .

اذا خالفها ، فشم الرائحة الذكية شيء يثير اللذة ، لانه يقابل في الاصل رائحة ثمار وازهار نافعة للعضوية . والعكس صحيح ايضا .

دلالة اللذة والالم

ان سرعة الانتقال من اللذة الى الالم وبالعكس لما يدل على ان اللذة والالم دليلان كبيران على حاجات الانسان واتجاه ميوله . فما اللذة الا حافز يدفع الى زيادة العمل ، او الاستزادة منه وما الالم الا دليل على حاجة العضوية الى الانقطاع عن الفعل والابتعاد عما يؤذي ويضر .

غير ان دلالة الالام واللذات على حاجات المرء . ليست كاملة ولانهائية ، ولقد نستطيع القول ، مبدئياً ان هذه الدلالة صحيحة ، لان الحياة تبقى وتنمو ، ولكن يجب الاعتراف بان بقاء الحياة ليست الا نتيجة وسطية ، وقد لا يكون في السرور واللذة الا اشارة بسيطة الى تلاؤم محلي ، قد يناقض حاجات الجسد العامه والهامة معا .

ونستطيع هنا أن نلاحظ انه ليس لآلام « ظهور الأسنان » أو الولادة ما يبررها لأن الجسم في ذلك كله ، لا يقوم الا بوظائفه الطبيعية ، ولكن هذه الآلام تعبر عن اضطرابات عضويه موضعية . ومثل ذلك الألم الناشيء عن تجرع دواء نافع فانه لا مبرر له ايضاً اذ ان الجسد لن يجد فيه الا فائدته وخيره ... ولكننا نستطيع أن نفهم معنى هذا الألم ، اذا عرفنا انه ليس من عادات الانسان ، في طعامه واغذيته أن يتناول مثل هذا الدواء ، ومن المؤكد ، ان لكل دواء ذي طعم كريه ، شيئاً من الضرر بالجسم ، وهذا ما يدعو الى الألم .

فلنقل اذن بان اللذة والألم دليلان صحيحان ، ما دام الجسم في حالة طبيعية ، أي غير مريض ، ولكن هذين الدليلين يضيعان قيمتهما اذا أصاب الجسم مرض من الامراض ، لأنه لا يعقل ان تصلح العادات نفسها لحالتي الصحة والمرض . وبتعبير آخر ان الجسم يؤلمه دوماً ما يضره ، ويلذه دوماً ما يفيده ، اذا كان صحيحاً .. ومع ذلك فان هذه الفكرة ليست بصحيحة بصورة مطلقة .

فمن الملاحظ مثلا ان الآلام لاتتناسب مع خطورة المرض فالداحس مثلا عظيم الالم ، مع ان خطره ضئيل . وهناك امراض فتاكة كالسل ، وهي ، مع ذلك ، قليلة الالم ، وكل ذلك يتعلق بمقدار ما في الناحية المصابة من اعصاب ، فاذا قلت هذه قل الالم ، واذا كثرت كبر الألم بنسبة كثرتها .

وعلى هذا فان تلاؤم حاجات الجسد ومشاعره ، مع الشروط الخارجية التي تحيط به ، يخضع ، اكثر ما يخضع ، لشروط الحياة العادية وشروط عمل الوظائف العضوية الطبيعي .

ويعرض أحياناً ، في اللذائذ والآلام النفسية ، أن يتناقض ارواء ميل نفسي ما ، مع شروط ارواءه ، في الحالة الطبيعية ، أو مع الميول الاخرى مما يجعلنا نعتقد بوجود حالات مرضية خاصة باللذة والألم .

مثال ذلك : الاناني الذي يجد لذته في تعذيب الآخرين واذلالهم ، لان غريزة البقاء قد تضخمت فيه تضخما كبيرة تحتاج معه الى علاج طويل . ومثله المولع ، صاحب الهوى ، الذي يضحي بكل لذائذه الاساسية من اجل لذة ثانوية يجعلها قانون حياته . ومثله ايضا هذا الكسول الذي يعطل مستقبله كله لبغضه الكبير للمطالعة ومثل هؤلاء جميعاً النهم والمدمن على الكحول ... وكل هذه الانحرافات التي تخرج عن النمط العادي للحياة الطبيعية ، تصبح بالضرورة ، بعيدة عن المراقبة والاتزان ، ولا شك ان وجود علم الصحة والطب والاخلاق ، مما يكفي للبرهان على ان اللذات والآلام ليست بدلائل صحيحة تماما على خير الانسان وشره .

وهنالك اخيراً هذه الحياة الاجتماعية التي تنشيء للانسان متعا جديدة ، تتناقض احيانا مع المتع الطبيعية . مثال ذلك التدخين والانحباس في اجواء الملاهي ، والمقامرة وشرب الخمر

و — آثار اللذة والالم

ان أول وظيفة للذائذ والآلام ، هي أن تثير الفاعلية ، في اتجاهات معينة ، تؤمن للجسم بقاءه ، ويمكن أن نقول : ان جسماً لا تدله لذاته وآلامه على ما يجب أن ينفعه أو يضره ، يجب أن يكون نصيبه الهلاك ، المحتم ... ومع ذلك فان هذا التلاؤم ليس بكامل .

١) فالاحساس الملائم ، أو غير الملائم ، قد يكون غالباً المثير الأول لرد فعل غريزي ناجع ، ومثال ذلك الطعم الحلو في بعض المربيات ، فانه يدفع الطفل الى القيام بحركات مص ، ومضغ وبلغ ، كما يثير الغدد اللعابية ، فيسيل لعابها . وأما الطعم الكريه لمادة كيماوية مرة ، أو لحمض شديد ... فانه يثير في الجسم ردود فعل مقاومة ، تمنع التأثير الضار لهاتين المادتين ، كافراز مادة لعابية لزجة ، وحركات القيء السريع ، وأما حال الراحة التي تعبر عن تلاؤم كامل بين الجسم والمحيط الخارجي فانها تؤدي الى حالة انفعال مطلق أو شبه مطلق كالشبع . وكذلك اللذة التي ترافق تهيج احدى الوظائف العضوية ، فانها تثير النشاط في الفعل ، وهذا مما يزيد قوة الميل أو الرغبة ، وينجح القصد . وعلى

العكس ، فان التعب والألم يعملان على ايقاف الفعالية العضوية ، بكل صورها ، لأن دوام هذه الفعالية يصبح مضراً.

ب) وفي بعض الأحيان،لا تصلح ردود الفعل لأن تكون أجوبة ناجعة على المؤثرات الخارجية ، ولكن الحياة ترغم على اصلاح هذه الأجوبة الناقصة ، باضافات جديدة عليها، يبعث عليها النجاح أو الخيبة . وهكذا تتوضع اللذائذ والآلام فوق أعمال بسيطة ، عرضية ، تؤدي أحياناً الى النجاح ، وأحياناً الى الفشل ، ومن شأن اللذة أن تطيل أوان تبقي الأعمال التي أدت الى حصولها. وكذلك من شأن الألم أن يحذف أو يضعف الأعمال التي أدت اليه ، بصورة عفوية ، وهذا ما نسميه بردود الفعل الدائرية .

والاحساسات المؤلمة تبعث على ايقاف الأعمال التي أثارت الألم، او على القيام بحركات تعاكسها ، فكلما نجحت هذه المحاولات ، بقيت ذكرى نجاحها في النفس ، وتكررت كلما دعت الحاجة اليها ، وكذلك اذا أصابها الفشل ، بقيت ذكرى الفشل ، ولم يعد الانسان الى مثلها ... وهذا نوع من التلاؤم تفرضه الظروف ، ولا يتم الا بعد تجارب واخطاء كثيرة . ويلاحظ هنا ان هذا التلاؤم كان نتيجة للبحث عنه وقد يتم مثل هذا التلاؤم بين الميول العقلية وحاجاتها .

ج) ومن الآلام واللذائذ أخيراً ما لا يؤدي الى أي تلاؤم سريع أو متأخر ، لأن الألم الذي يتبع حرق الاصبع ، بعد رفعها عن موطن الخطر ، ليس له أية فائدة،وهكذا تنصرف الفعالية ، في وجوه غير صالحة ، وفي اضطرابات لا قيمة لها ، كالصراخ والبكاء والدموع . والامر كذلك في الآلام الناشئة عن الاعضاء الداخلية المريضة ... فكان هذه الآلام عبارة عن اسف دائم على الحالة التي صارت اليها هذه الاعضاء ولا يتميز عن غيره الا بانه اسف عضوي ، لامعنوي . ويمكننا اخيراً ان نرى في الآلام النفسية ما رأيناه في الآلام العضوية ، اذ ليس الالم الذي يخلفه ضياع الامل ، الا حالة نفسية طفيلية تضر اكثر مما تنفع ، بل هي لاتنفع ابدا في اكثر الاحيان .. الا بما يكون لها من اثر تهذيبي في الطباع والعادات . وذلك بما توحيه الى الانسان من ضرورات الوقاية والاحتفاظ بالاشياء التي تؤمن الحياة الهانئة في المستقبل ، بدون ان يتعرض لمخاطر الماضي ، ولقد عرف الناس (منذ خلق الناس) ان الآلام تهذب الانسان وتزيد رصانة عقله وصحة محاكماته ، وعلى هذه الصورة يتيسر للانسان ان يتلاءم مع نفسه ان فاته التلاؤم مع الشروط الخارجية ، وذلك بالمقدار الذي تكون فيه نفسه قابلة للتحول والتطور .

٣ - اللذائذ البديعية

انه ليصعب جداً ، في حدود النظرية السابقة ، ان نجد تعليلا للذات البديعية كلذات السمع والبصر ، لاننا لانلاحظ ان الصمم الموسيقي يحرم صاحبه من فوائد يتمتع بها من ليس به ذلك الصمم، ويظهر ان هذه اللذات لا تجدي على صاحبها شيئا من الخير ، ولاتحرم فاقدها من شيء ابداً ...

غير ان « داروين » يلاحظ ان لهـذه اللذات وظيفة حيوية ، فالوان الازهار تغري الحشرات، فتأتي اليها ، وتمتص منها العسل ، وتنقل بارجلها غبار الطلع وتحمله الى ازهار اخرى ، فيتم بذلك فعـل التلقيح ، واما اصوات الطيور وتغاريدها ففائدتها انها تغري الجنس بالجنس ،ويتم على هذه الصورة ،بقاء النوع ، وهكذا فان صور الجمال المختلفة مرتبطة بوظائف عضوية .

ولقد اعترض بعضهم على هذا الرأي ، فقالوا : ان اللذات البديعة لايصلح ان تسمي كذلك الا اذا تجردت من الغايات الانانية التي يمكن ان تلابسها ، اي انه يجب ان تكون كلذة اللعب ، لاغاية لها خارج حدودها . ولا بد ان يكون هنالك وجوه شبه بين الفن واللعب ، لانهما جميعا يعيشان في الاوهام والمواضعات ، ولا يعوقهما اي اهـتمام بالفوائد العملية .

ولا شك ان هذه الملاحظة صحيحة ، فيما يتعلق بالانسان ولذاته البديعية ولكن لابد من طرح مسألة اخرى على بساط البحث ، وهي مسألة اصل اللذة البديعية ، لا مسألة وجه من وجوه تطورهـا . بلى ان اللذات البديعية في الطور الحـاضر ، لاتسمى بديعية مالم تتجرد عن الغايات العملية او النفعية ، غير ان هذا لايمنع وجود تعلق سابق بينها وبـين غايات حيوية او دينية او اجتماعية اونفعية اخيرا . وليس هذا بغريب ، لان من المعروف ان الرقص والغناء لم يكونا من قبل الا شعائر دينية يقوم بهـا كهنة المعابد في حفلات صلواتهم ، وكذلك فن البناء والنحت وصنع التماثيل والموسيقى والنقش والرقص والمسرح فكل هذه كانت - في الاصل - وسائل قبل ان تكون غايات . فالامم الابتدائية (١) بوجه عام تقوم بصلوات تشبه في نظرنا بعض الوان الرقص ، وهي تستعمل الوشم والنحت

---

(١) يقول بعض المؤلفين - المصريين خاصة - كلمة « بدائية » عوضا عن كلمة «ابتدائية

لتمثيل بعض المقدسات الدينية، في اجسامها او في الاحجار القريبة مثلها. وانه لمن الصعب ان نفهم بعض اشكال الخطوط والرسوم، اذا لم نفهم مدلولها الديني او معناها العملي، اذ لقد يكون فيها مايشير الى بعض الآلهة او بعض اعمالها وما يشير الى حل بعض المسائل الميكانيكية. واما الفن الماضي فانه لم يكن غير مجموعة اشياء تصل مابينها روابط تقليدية من السحر. ولم يصبح الفن نتيجة للميول البديعية الخالصة، الا بعد مضي زمن طويل على ارتباطه بهذه التقاليد العملية او الدينية.

٤ — خلاصة عامة

ان اللذة والالم من الحوادث العاطفية البسيطة التي يصعب تعريفها. وهما في الجملة نوعان: فاما جسمانية واما معنويه. وكثيرا مايختلط أحدهما بالآخر او ينعكس فيه.

على أن هنالك مايؤكد وحدة طبيعتهما بالرغم من اختلاف الاسباب اذ انهما جميعا يخضعان لشروط فيزيولوجية واحدة وتنعكس آثارهما في النفس بصورة متماثلة.

ويرى الملاحظ ان اللذة تاج للعمل، يكلل به هامته، ويجمل زينته، ولكن اللذة ليست في كل عمل، بل في عمل ناجح معتدل، مناسب لقوى الانسان، غير مفقر للعضوية الا بمقدار مايزيدها نشاطا في القدرة على الترميم، وتجاوز الترميم الى التعمير ... ثم ان اللذة لاتكون في العمل، الا اذا كان هذا العمل ارواء لميل حقيقي، قائم في النفس. والامر في الألم على عكس ذلك تماما.

ويلاحظ في الالم انه قد يكون حاسة خاصة، لها أجهزتها العصبية الخاصة واعصابها الناقلة، ومراكزها في النخاع الشوكي، كما يلاحظ انه صفة عامة لكل المنبهات الشديدة او المضرة، وقد رأينا ان هاتين النظريتين لاتتنافيان ولا تتناقضان.

ولقد يقال ان في اللذة دلالة على منفعة للعضوية، وفي الالم اشارة الى وجود أذى يلحق بها، وقد يصح هذا القول بصورة عامة، ضمن الاحوال الطبيعية. الا أنه لايصح في الاحوال المرضية او غير العادية.

وآخر ماهنالك مسألة اللذة البديعية، وقد رأينا أنها متصلة في الاصل بوظيفة حيوية تملؤها وتقوم بها، الا انها تطورت الآن، واستقلت في الانسان، عن منافعها الحيوية.

الفصل الثامن

EMOTION

الهيجان

خلاصة البحث

١ — **تعريف الهيجان** : بعض الأمثلة عن الهيجانات الكبرى

٢ — **التغيرات الفيزيولوجية في الهيجان**

أ — وسائط دراستها

ب — التغيرات الحشوية

ح — مظاهر التعبير عن الهيجان

٣ — **الوظائف العقلية خلال الهيجان**

٤ — **اسباب الهيجان**

أ — الشروط العصبية للهيجان

ب — الشروط العقلية في الهيجان

ج — شعور الجسد بالهيجان

د — الشروط الاجتماعية

٥ — **وظيفة الهيجان**

١ — تعريف الهيجان

أن من السهل تعريف الهيجان بالامثلة : فالفرح والحزن والغضب والخوف والخجل والدهشة والخيبة واليأس المفاجيء ... كل هذه هيجانات . اما تعريف هـــذه الاشياء

فمعضلة كبيرة ، ويمكن القول : انها صور بارزة من صور الحياة العاطفية ، تعرض للانسان عند وقوعه في حالات نفسية هامة الخطر ... تتداخل فيها ميول كثيرة وتتميز هذه الحالات بما يعرض فيها من اضطرابات نفسية وفيزيولوجية عامة ، يؤلف سطحها الظاهري ، التعبير الخاص عن الهيجان ، ويلاحظ ان هذه الصفات تنطبق كلها او اكثرها على ماذكرناه من امثله للهيجانات .

والهيجانات نوعان : فأما ان تكون وقتية عرضية ، وتسمى عندئذ : هيجانات مصادمة واما ان تكون طويلة الاقامة مزمنة ، ، وتسمى هيجانات عاطفية ، او عواطف ، ولقد تكون الظروف التي تثير الهيجان طبيعية غير خطيرة ، وعندئذ يكون الهيجان بغير مبرر او بغير موضوع ، ولقد تكون الاضطرابات الفيزيولوجية ، في الهيجان قليلة ، وهذا ما يقع عادة في الهيجانات العاطفية ، او الهيجانات الناعمة .

ويصعب عادة ، ان يفرق المرء بين هيجانات الفرح والحزن وبين مشاعر اللذة والالم التي درسناها في الفصل السابق ، فليس هنالك الا الوان من الشعور تختلف اختلافاً بسيطا فقد يحاول الطفل التخلص مما يعرقل حركات اعضائه ، وقد يأبى تناول الطعام الذي لايروقه ، وقد يضرب طفلاً آخر يكرهه او يحسده ، ويلاحظ ان هذه الآلام لاتخرج عن كونها جسمانية اونفسية : ولكن هاهو ذا الطفل نفسه في ذات الظروف ، يحمر وجهه او يصفر ، فتتقلص عضلات وجهه ، وتغتمض عيناه ، ويقف تنفسه ، وينفتح فمه ، وينخفض وجهه ، ويرتد جسمه الى الوراء ، ويصرخ صراخاً حاداً ، وتنفجر دموعه وتضطرب حركاته ، ويقل ائتلافها ووضوحها ... فالحالات الاولى حالات لذة والم ، والحالات الثانية حالات هيجان . والفوارق بين الفئتين غير واضحة تماما .

بعض الأمثلة عن الهيجانات الكبرى.

ليس لدينا حتي الآن تصنيف علمي للهيجانات . ولهذا نكتفي هنا بالبحث ، بصورة موجزة جداً ، في بعض الهيجانات الهامة مثل الحزن والفرح . والخوف والغضب .

١ — الحزن والفرح

أ — الحزن نوع من الألم المعنوي الطويل المدة . وهنالك نوع من الحزن المنفعل الذي يشعر الانسان خلاله بعجز تام وفتور كبير ، في الجسم ، أو في العقل ، أو في العاطفة . أما الحزن الفاعل فيشبه

الغضب . من حيث انه يدعو صاحبه إلى الثورة على مايلاحظه من ضعف أو نقص ، ويوقعه في اضطراب عضوي ومعنوي . الا انه يختلف عنه من حيث أن الانسان يشعر خلاله بعجزه عن القيام بعمل نافع او ناجع كما يشعر بأن ثورته ليست إلا صورة من صور اليأس . وبهذا يتشابه الحزن المنفعل والفاعل .

ب — ويعرف الفرح بالقول إنه لذة معنوية شديدة . وكذلك يمكننا أن نميزبين فرح فاعل وآخر منفعل فأما الاول فيقابل الحزن المنفعل . ويتميز بشعور الراحة وفيض القوة . وهكذا ترى الفرح مرتاح الجسم . نشيط العقل غني الخيال ، سريع الفهم ، قوي الذاكرة ، خصب العاطفة . وأما الفرح المنفعل ، فلا يلاحظ — اكثر مايلاحظ — الا في الحالات المرضية ، كما هو الامر في بعض الحزفين الذين لاتفارق البسمة شفاههم ولا يغادرهم الرضى عن انفسهم وعن الناس وعن كل مافي الحياة .

٢ — الخوف والغضب

تتجلى غريزة حفظ البقاء ، كما يرى ريبو ، في مظهرين : احداهما دفاعي : هو الخوف . والثاني هجومي هو الغضب .

أ — اما الخوف فانه عاطفة خاصة يثيرها توقع شر قريب جداً .

١ — ويتميز الخوف بالصفات الآتية : ١) اولها شلل جزئي أو كلي في الحركات الارادية ، فالخائف مسمر في مكانه ، عاجز عن التلفظ بوضوح . يتلعثم في كل كلمة يقولها . ٢) والثانية اضطراب في الوظائف العضوية ، فتتوقف الغدد اللعابية عن الافراز . ويجف الحلق ، ويتباطأ التنفس ، ويفيض العرق البارد . ٣) والثالثة اضطراب في الدورة الدموية : إذ يصاب القلب بصدمة قوية . وتختلج الاوعية الدموية اختلاجات عنيفة ويتضاءل الدم في سطح الجسم .

٢ — وللخوف مظاهر عديدة : ١ — اذ قد يكون احيانا فطريا وغير معقول ، وسابقاً لكل تجربة فالاطفال مثلا يخافون من القطط ، بدون ان يكونوا قد تعرضوا لأذاها ، والاقواب تخاف من الثعالب من أول مرة تراها . ٢ — وقد يكون الخوف مكتسباً ومعقولا : اذ يتخيل الانسان شراً قريب الوقوع ، فيخاف . ولهذا يتعلق الخوف بالخيال الى حد كبير . وإذا كانت العضوية ضعيفة ، كان الخوف كثير الوقوع. لان الانسان في هذه الحال يعجز عن ضبط زمام خياله . ٣ — وهنالك اخيراً مخاوف مرضية ، ينشأ بعضها عن حوادث سابقة بقيت آثارها عميقة في النفس ، كخوف بعض الناس من المياه الجارية ، في الانهار او في السواقي بتأثير حادثة اشرفوا فيها أو اشرف غيرهم فيهاعلى الغرق . وينشأ بعضهاالآخر عن حوادث قديمة منسية ، كخوف الانسان من العناكب أو الجداجد او الحشرات الصغيرة التافهة . وتعليل هذه المخاوف ان الاهل لقنوا الطفل — وهو صغير — هذا الخوف من الحشرات . ولهذا يقول موسو : ان كل مايوصف للطفل بانه : قذر او مخيف أو مريع ، يكون كاشواك تزرع في جسمه ، ويكون من شأنها ان تجرحه طول حياته .

ب — ويعرف الغضب بالقول انه محاولة نريد بها ايقاع الشر بهؤلاءالذين يقاومون ارواء رغباتنا اوميولنا

ا — ويتميز الغضب : ١ — يتمدد الاوعية الدموية ٢٠ — وقوة التيار العصبي في العضلات الارادية . ولكن على صورة مضطربة وعنيفة . ٣ — ونشاط افراز الغدد اللعابية .

ب — ويلاحظ ريبو أن غضب الانسان المتمدن خلاصة تطور طويل يتألف من تلاث حلقات : وكل حلقة تبدي الغضب في مظهر خاص . والمظهر الاول هو الغضب الحيواني الذي يكون فيه الاعتداء حقيقيا .

فاذا كان هذا الغضب في الانسان ، كان معناه الرجوع الى الغرائز البهيمية . والمظهر الثاني هو الغضب العاطفي الذي يكون فيه الاعتداء مضمراً ، وهذا النوع من الغضب شائع جدا بين الناس ، ولكنه يلاحظ ايضاً في بعض الحيوانات العالية . ومع ذلك فانك لا تستطيع أن تلاحظه في الاقوام البدائية ولافي البلهاء والمعتوهين . والمظهر الثالث هو الغضب العقلي الذي يتميز بتأجيل الاعتداء : ونلاحظ هنا ان غريزة الهجوم قد اوقفت عن العمل بحكم العقل الذي اصبح يعرف صور الانتقام ، وينتخب احسنها . وهذا النوع من الغضب خاص بالانسان .

٢ ـ الوظائف الفيزيولوجية وتغيراتها اثناء الهيجان

الهيجان ، في الحقيقة ، مجموعة معقدة من العناصر النفسية والفيزيولوجية ، اما العناصر الفيزيولوجية فكثيرة التغير ، وليس بصحيح ، ان لكل هيجان مظهراً عضويا خاصا ، فهذه فكرة سطحية جداً .

ولكن يمكن القول بان هنالك شيئا من التجانس في مظاهر الهيجانات المصادمة يميزها عن مظاهر الهيجانات العاطفية التي تتبعها : فتباطؤ حركات القلب اوتسارعها واضطراب التنفس ، وانضغاط الاوعية الدموية الصغيرة ، اشياء توجد بصورة ثابتة تقريبا في كل صدمات الحزن والغضب والخوف .

واذا طال الهيجان اختلفت مظاهره ، غير ان العلاقة بين الهيجانات ومظاهرها السطحية ، ليست علاقة بسيطة ، بل لابد من التفريق بين نوعين من المظاهر : احدهما نشيط ، والآخر خامل ، وبين هذين الحدين درجات كثيرة ، متباينة ، بعضها اقرب الى النشاط ، وبعضها اقرب الى الخمول ، إذ يعبر الحزن عن وجوده بمظاهر خاملة ، فيرى الحزين منهوك القوى ، متعباً ، منحني الظهر ، متهدل الايدي ، متجمد الوجه ، ثابت الجسم والنظرات ، بطيء التنفس ، ضعيفاً نشاط الدم في اعضائه ، منخفض الضغط الدموي ، خامل النفس ، ضئيل القوة ، فاتر العزم ، خائر النشاط ولقد تكون هذه المظاهر ، في الحزن نفسه ، نشيطة ، ملأى بالفعالية ، كأن يزيد الاضطراب العضوي ، وينشط التنفس ، ويشتد بالبكاء ، ويعظم الالم ، ويزداد نشاط التنفس ودورة الدم . وهكذا يتشابه المظهر النشيط للحزن والمظهر النشيط للفرح كما يتشابه مظهر الحزن الخامل والفرح الخامل ، ولكن لابد من القول ، بان الالم النفسي ، على اي مظهر بدا ، يورث انحطاط القوي وتعبها ، بالرغم من نشاطها

الظاهري . واذا كان التنفس في الالم النفسي الحاد انشط منه في حالات الماليخوليا Mel Ancolie فان الشهيق في الحالتين ابطأ من الزفير : « $\frac{٦}{٧}$ او $\frac{٥}{٧}$ من مدة التنفس التام » في حين انه لا يوجد فرق بين مدة الشهيق ومدة الزفير في حالات الفرح النشيط. ثم ان المعادل العضوي (اي المقدار الذي يعين شدة المبادلات العضوية) في الفرح ، يكون في نهايته العظمى ، اما في الحزن ، فيكون في نهايته الصغرى ، وتعتدل قيمته في حالات الحزن النشيط .

ا - وسائط دراسة هذه التغيرات

تدرس التغيرات الفيزيولوجية ، بواسطة تجارب يقوم بها العلماء على الحيوانات المختلفة وعلى الأنسان ، ولا شك ان هذه التجارب تقتضي آلات خاصة اهمها ما سنصفه فيما يلي :

١ - الكارديوغراف والسفيغموغراف Cardiographe & Sphygmographe الكارديوغراف والسفيغموغراف هما آلتان اعدتا لتسجيل ضربات القلب ، ونبضات الشرايين ، وتستعملان في دراسات علم النفس ، كما تستعملان في دراسات علم الفيزيولوجيا .

٢ - البليتسموغراف Plethismographe وهي آلة تستعمل لقياس حجم الاعضاء ، او تغيرات حجومها على الاخص . وهذه التغيرات تحدث ببطء شديد بتأثير تقاص العضلات المختلفة ، وخاصة عضلات الاوعية الدموية ، وهناك تغيرات اخرى تتبع نشاط الدورة الدموية ، وادوارها المختلفة .

٣ - السفيغمومانومتر Sphygmomanometie : هو آلة معدة لقياس ضغط الموجة الدموية ، ويتم ذلك بمعرفة مقدار الضغط اللازم احداثه لاماتة او اخماد نبضات شريان ما .

٤ - البنوموغراف Pneumographe : وهذه آلة يستطيع المجرب ان يقيس بها تغيرات حجم القفص الصدري ، وتغيرات حجم البطن اثناء التنفس .

وهنالك آلات اخرى يستطاع بواسطتها تسجيل تقلصات الاعضاء الاخرى ، كالمعدة ، والمعاء الاثنى عشري والاعور وما الى ذلك .

٥ - العالفانومتر : تستعمل هذه الآلة المعروفة ، احيانا لقياس تغيرات الحالة الكهربائية على سطح الجسد. وقد يؤخذ الدم والبول والغائط ، وتحلل كلها ، في سبيل معرفة مايطرأ عليها من التغيرات اثناء الهيجان .

ولقد قام العلماء بتجارب كثيرة على الانسان في الحالة الطبيعية ، وفي حالة الهيجان ، وقابلوا بين نتائج هذه التجارب واستطاعوا ان يعرفوا التغيرات التي يحدثها الهيجان في الجسد ، وكذلك قاموا بمثل هذه التجارب على الانسان في الاحوال المرضية ، وعرفوا بذلك نسبة ثبوت هذه الاعراض .

اما في الحيوانات ، فقد درست هذه الاعراض دراسة تجريبية تامة ، وذلك لانه اضيف اليها قطع اقسام كبيرة من الجملة العصبية ، في سبيل فهم اثار مختلف اقسام الجملة العصبية في الهيجان .

ب — التأثرات الحشوية

يمكننا أن نقسم آثار الهيجان بين ثلاث زمر : فزمرة حشوية . واخرى شكلية ، وثالثة تعبيرية .

أما الاضطرابات الحشوية فتصيب كل الاجهزة العضوية : كالجهاز الدموي وجهاز التنفس ، والهضم ، والغدد . ويمكن أن نضيف اليه جملة التغييرات اللاارادية التي تتم في الجهاز العضلي .

ولنذكر ، كمثال على ذلك ، جملة التغيرات التي تصيب الأجهزة الحشوية ، في هيجان الخوف .

فهنالك — في الدورة الدموية — تسارع أو تباطؤ في حركة القلب : واشتداد أو ضعف في قوة ضرباته ، وتقلص في الأوعية الدموية السطحية أو العميقة .

ويلاحظ ، في دورة التنفس ، اضطراب حركاتها نظاماً ووقتاً ، كما يلاحظ ان الأقسام الداخلية في الرئتين تتقلص أو تتمدد .

وفي ، الجهاز الهضمي ، تقف حركات التقلص في سائر أجزاء الأنبوب الهضمي في المري والمعدة والأمعاء . وتتوقف الافرازات اللعابية ،فيجف الفم والافرازات المعوية ، وتفقد شهية الطعام ، وتشل المعاصر ، فتكثر الحاجة الى التبول وقد تصبح هذه الحاجة اضطرارية .

أما الافرازات ، فبعضها يتوقف (كاللعاب) وبعضها يزداد (كالدموع والصفراء والبول والعرق) . ويتبع التعرق الخفيف تغيرات في المقاومة الكهربائية للجسد ، مما يظهر في موجات خاصة « عاطفية » يسجلها الفالغانومتر .

وأما الغدد فوق الكليوية ، فينشط افرازها ، ويؤثر ذلك في الدم ، وفي بقية الأعضاء الداخلية ، فتضطرب وظائفها ، وتزداد الكريات الحمراء والبيضاء في الدم كما تزداد كمية السكر بفعل الكبد ، وقد تكون هذه الزيادة كبيرة في بعض الأحيان ، فيلاحظ وجود شيء من السكر في البول (مثلاً عند لاعبي الكرة وعند الطلاب أيام الفحوص) . وكذلك تتغير مقادير المواد الغذائية في الدم فتزداد قابلية التخثر فيه .

وهكذا نلاحظ ان المخاوف المتتابعة مما يؤثر في الجسم وفي المبادلات العضوية فيسرع الهرم ، ويشيب الشعر .

ويجب ان نذكر اخيراً جملة الاضطرابات اللاارادية التي تحصل في (الجهاز العضلي) اذ يلاحظ الانسان بعض حركات لاارادية اثناء الهيجان كالارتجاف والاضطراب ووقوف الشعر او انتصابه . وازدياد الطاقة العضلية او تناقصها ، مع مايحدث من جراء ذلك ، كالشلل في المفاصل ، او في الارجل او في الوجه . (١)

هـ — مظاهر التعبير عن الهيجان : التغيرات الشكلية والتعبيرية .

ان هذه التغيرات السطحية تؤلف مجموعة مظاهر التعبير عن الهيجان وهذه التغيرات معروفة عند الناس ، ومشهورة بينهم ، لانها الواسطة الوحيدة لتمييز هيجانات الآخرين ومعرفتها .

ففي الخوف مثلا ، تتغير ملامح الوجه بنسبة تغيرات الطاقة الحيوية المدخرة : كاصفرار الوجه وانخفاض الخدود او تقعرها ، وسقوط الفك الاسفل او استرخاءها وتوسع الحدقة ، وتحصل رجفات جلدية ، وتضطرب اليدان وتتغير نغمة الصوت .

غير ان أهم هذه المظاهر أوضاع خاصة يتميز بها الخوف ، كميل الانسان الى اجتناب الشيء المخيف أو الابتعاد عنه أو الهرب منه أو الهجوم عليه . وأحياناً تشل حركات الانسان ، فلا يستطيع القيام بأي حركة ويرفض كل شيء يقدم اليه أو يحاول مسه به ، ويلاحظ ، مع ذلك كله ، صراخ وتشنج في مواضع مختلفة من الجسد . وفي النهاية ، تأتي أعمال الدفاع ، فيلاحظ العض وانشاب الأظفار وما الى ذلك .

ولكن هذه المظاهر كلها تكاد أن تكون غريزية ومن المعروف ان الحياة الاجتماعية قد انشأت تعابير خاصة للهيجانات المختلفة . يتلقاها الناس من الاوساط الاجتماعية التي يحيون فيها ، ويضيفونها الى المظاهر الغريزية الأخرى .

ويستعمل الناس ، في هذا السبيل ، حيلا مختلفة : فيقلدون المظاهر الغريزية او يغيرون

---

(١) لقد وضع سبنسر قانوناً يعلل به حدوث كل هذه الاضطرابات فقال : ان كل هيجان مصحوب بتفريغ عصبي ينتشر ويشع في الجسد كله ، متبعاً خطوط المقاومة الضعيفة . فكأن الهيجان يحرر الطاقة العصبية المختزنة ، ويسمح لها بالانتشار (في المجاري العصبية الضعيفة ثم القوية) وهكذا نجد ان الافعال المنعكسة العاطفية هي نتائج لتحرر الطاقة العصبية الا ان هذا القانون ليس بصحيح تماماً .

فيها قليلًا . والابتسام مثال جميل في هذا الصدد ، فهو قبل كل شيء مظهر من مظاهر هيجان الفرح الغريزية . ويلاحظ في الاطفال ابتداء من الشهر الاول ، في حالات الصحة والهناء . الا ان الهيئة الاجتماعية جعلت له صوراً كثيرة تعبر عن اشياء مختلفة ، فهناك ابتسامات الرضا ، وابتسامات الاحتقار والازدراء ، وابتسامات التعارف . ولقد نظمت الهيئة الاجتماعية صور هذه الابتسامات واوقاتها ، وفرضت على الافراد التقيد بانظمتها . ومهما يكن من شيء فان الابتسام يبقى تعبيراً عن اللذات ، الا ان اطره تصبح تقليدية ، متداولة ...

واما اليأس — او الخيبة المفاجئة — فغالبا ما يعبر عنها بشهقات شديدة ذات صوت ظاهر ، وبمثل ذلك يعبر الانسان عن دهشته لوقوع شيء غير منتظر . وامساك اطراف الرأس والشعر باليدين يدل على اليأس (كما هو الحال عند من يفاجأ بخبر مزعج ، كموت عزيز ، او ضياع ثروة) . وحك الرأس باطراف الاصابع يدل على ان الانسان منهمك في التفكير . ومثل هذه التعابير شائع حتى في الحيوانات فلقد شوهدت عند القرود ، وحتى في الاطفال في سن مبكرة .

واما الدموع . فمظهر غريزي ايضا ، استولت عليه تقاليد الهيئة الاجتماعية واستعملته لحاجاتها فهنالك بكاء هو نتيجة طبيعية لافعال منعكسة معينة ، وهنالك بكاء ارادي يستعمله الأنسان في بعض الظروف ، للبرهان على بعض العواطف ، واظهار التأثر والحزن ، وصناعة النائحات معروفة عند قدماء العرب ، وعند الكورسكيين وفي كثير من البيئات الأجتماعية البدائية حتى الآن .

واخيراً ، تصبح الأشياء الغريزية ، تعابير رمزية تقليدية ، تتصرف بها الهيئة الأجتماعية تصرفا كبيراً . وهنالك لغات كثيرة اصطلح عليها الناس كلغة النظرات ولغة اليد واشاراتها ، ولغة الوجه واشاراته ، وكل هذه اللغات شائعة الأستعمال في جميع عواطفنا : كالعطف والغضب والأحترام : (التقبيل ، والقبض باليد على سبيل المصافحة والمداعبة ، والصفع والبصاق ، وهكذا تتحرك اليد للتهديد او لوفاية الجسد ، او لمنع النظر عن رؤية شيء ما . وهكذا ايضاً تتجمد النظرة او تنخفض او تتحول) .

والخلاصة ان للهيجان نوعين من المظاهر ١) اولها مظاهر مبعثرة ، وهي جملة الاضطرابات الفيزيولوجية الحشوية التي تحدث في سائر الهيجانات دون تخصيص شيء

٢) والثاني مظاهر منظمة وهي انواع من التعابير مختصة بكل هيجان . وقد درست هذه المظاهر وارجعت الى ثلاثة قوانين :

١ - اولها قانون **البدء بالعمل** وحاصله ، ان الحركة الاولى في الهيجان هي بداية عمل : بداية العمل الضروري لتمديد الهيجان او ابعاده بحسب ملاءمته او منافاته للنفس فكأنما تتوضع صورة التعبير فوق مظاهر العمل المناسب للهيجان . مثال ذلك الكلب الذي يترقب فريسته فهو يرصدها ويتهيأ في الوقت نفسه للوثوب عليها والغاضب الذي تبدو عليه علائم الهجوم على عدوه . والخائف الذي يتهيأ بحركاته للهرب ، فعلائم المراقبة والاستعداد للوثوب ظاهرة من ظواهر العمل المناسب للانقضاض على الفريسة . ولكن هذا الوضع نفسه اشارة او تعبير تعرف به هـذا الحال ، وكذلك حركات الغاضب والخائف .

٢ - والقانون الثاني **الجمع بين العادات النافعة** وحاصله كما يقول داروين ، صاحبه : ان الحركات الصالحة لانجاز رغبة او لتسكين احساس منـاف تصبح بالتكرار عادة . فاذا ظهرت تلك الرغبة او ذلك الاحساس من جديد مهما يكونا ضعيفين - تبعتهما تلك الحركات بالرغم من انها لم تعد صالحة لشيء. مثال ذلك ان يقوم الغاضب بحركات الغضب كلها ، دون ان يكون عدوه حاضراً . او ان يقوم مخاطبك بالهاتف بجميع الحركات التي يقوم بها عند حضورك . فكأنما اقترنت هذه الحركات - في السابق - بالاحساسات او الهيجانات المناسبة لها ،لأنها كانت نافعة لها . وعلى الرغم من زوال نفعها فهي تتكرر بصورة طبيعية طبقاً لقانون الاقتران (١) .

٣ - والقانون الثالث هو **قانون المماثلة** وهو متمم للقانون السابق ، وحاصله ان الحالات المتماثلة تأتلف وتجتمع . فاذا كانت الظاهرة الفيزيولوجية نافعة للتعبير عن احداها انتقلت الى الأحوال الأخرى المماثلة لها وصار الانسان يعبر عنها بظـاهرة واحدة : فالاشمئزاز ، من اي اصل نشأ ، يعبر عنه الجسم بحركات واحـدة ، والأمر كذلك في استعذاب الطعم الحلو ، واستعذاب الكلام الجميل ، ولا بد ان يكون الأمر كذلك ،

---

(١) راجع بحث تداعي الافكار

لأنه ليس للجسم مجموعتان من الادوات ، يعبر بواحـــدة منهما عن الأمور الحسية او الجسمانية ، ويعبر بالثانية عن الامور المعنوية .

٣ — الوظائف العقلية في الهيجان

ان الوظائف العقلية تضطرب ، اثناء الهيجان ، كما تضطرب الوظائف العضوية فتنشط احيانا ، وتخمل احيانا اخرى . ويمكن دراسة هذا الاضطراب من هاتين الوجهتين .

فاذا ماثار هيجان في النفس ، فانه يحدث احيـــانا ان تنشط الفعالية العقلية للعمل ، فيتبع الايام القاحلة ، والجهود الضائعة ، ساعات خصيبة بالانتاج ، غنيـة بالابداع ، وقد يصبح الانسان بذلك مخترعاً ، وعبقريا ، اذ تتعاظم سرعة تفكيره ، وتكبر ثروة افكاره أو يبدع افكاراً جديدة ، وكذلك تعظم قدرتـــه على العمل ، ويصبح كثير الابتكار ، سريع التنفيـد ، كبير الثقة بنفسه ، تام الاستعداد للاجابة على كل مايعرض له .

ولقد ينهك الهيجان احيانا قوى الانسان العقليـة ، فيشل فيه التفكير ، كما يشل فيه القدرة على العمل ، فيفرغ الذهن مما فيه ، ولايجد الانسان شيئاً يقوله ، اوشيئاً يصنعه ، فكـأنه لم يعد يستطيع التفكير ، اولا يملك ان يرى الاشياء بوضوح ، حتى لقد يعسر عليه فهم مايقال امامه ... وفي حالات اخرى ، يكون الشلل غير عميق . فلايلاحظ الا بطء او جمود في التفكير ، ويظهر الانسان الثائر بمظهر الغبي الا بله ، كانما ختم على قلبه وسمعه ، وفقدت قواه العقلية نشاطها ...

ويختلف معنى النشاط بحسب الهيجانات ، كما يختلف معنى الخمول ، غير انه يغلب ان ينشط الانسان في فرحه وغضبه ، ويخمل في خوفه وحزنـــه ، ولكن هذا القانون ليس بعام ... فمن الافراح ماخملت مظاهرهـا الحيوية ورافقهـا فراغ الذهن ونعاس العقل ، وانفعال التفكير . ولقد يخيل الى هؤلاء الذين ذاب وجودهم في فكر علوية صوفيه — اي اصحاب الحال — ان فعاليتهم التأملية قوية ، وان صفاء تفكيرهم وسهولته قد تجاوزا كل حد ممكن . والحق ان هذه التخيلات ليست الا اوهـــاما لايقابلها في الواقع شيء . بل يغلب على الظن انه ليس هنالك موضوع تفكير خاص يشتغل به الذهن اثناء هذه الحالات النفسية الغريبة .

وبالعكس ، فان الحالات النفسية المؤلمة ، قد تصحبها فعالية عقلية كبيرة فالمتألم يفكر

بما كان ، وبما كان يجب ان يكون ، ويفكر بالطرق البي قد يستعملها ، وبالاقوال التي عليه ان يقولها ، تخفيفاً لآلامه ، وتضييقاً لاسباب اسفه . وطبيعي ان تكون محاولات الاعتذار ، وتوبيخ المرء نفسه ، والاسف ، مملوءة بفعالية عقلية شديدة . تتكلف حل معضلات الحياة العملية .

ولكن يجب ان تعرف ان هذه الفعاليه العقلية التي تنشط في الهيجان . ليست طبيعية ، لانها تستعبد الفكر لموضوع الهيجان ، وتفقده حريته ، حينما تفرض عليه اساليبها وأدواتها ... وقد يكون الانسان قوي الأرادة ، سريع العمل ، نشيط التفكير ، اثناء هيجانه . ولكنه في هذا كله ، يشعر انه مرغم ، مستعبد ، مقهور ، قد فقد سيادته على افكاره وحركاته . فهو يفكر بما لا يستطيع الا التفكير فيه ، يعمل ما لا سبيل الى عمل غيره .

وفي غالب الأحيان ، تكون الفعالية العقلية منحطه ، لاتعدو ان تكون اعادة الأفكار السابقة ، واجترارها من جديد ، او تكراراً للجمل ذاتها او تعجبا من الأشياء نفسها ... وقد لاتكون الا سلسلة صور غريبه ، او مجموعة فكر سينمائية تعرض نفسها مرات عديدة، دون ان توقف الذهن على بعضها وقوفاً واضحاً .

ويتبع ذلك فقدان القدرة على العمل بصورة منظمة وشلل الوظائف العالية الخاصة بالمناقشة والنقد . وهكذا يفرض الهيجان على صاحبه ان يكون سريع التصديق سهل التلقين .

وعندما يعرض الهائج لحل معضلة عملية ، فغالباً ما يحلها على ابسط شكل ، بحلول عنيفة ، اندفاعية ، عامية ، جريئة ... والأنسان الهائج — على تمتعه بالقدرة على التفكير والعمل — لايستطيع التفكير والعمل بصورة طبيعية . لأن النفس تفقد في الهيجان ، جملة الموقفات الأخلاقية ، وأما الموقفات التربوية ، فلاشك انها تختفي ، وتترك المجال لأعمال طليقة ، مصدرها النفسي دنيء التوتر ... وكثيراً ماتعبث الهيجانات القوية بالمكتسبات الحديثة ، السريعة العطب ، سواء منها الأرادية او العقلية ، وتضع مكانها الاندفاعات الغريزية والآليات العادية التي قدم زمانها ، فغدت كالأندفاعات الغريزية ... واما العادات الحديثة فسرعان ماتنحل متهدمة ، بتأثير الهيجان .. وهكذا فان المتمدن ، عند هيجانه يصبح كالأبتدائي . والانسان العادي يتقرب من الطفل او الحيوان ، فكأنما يملك الهيجان

القدرة على خلع الاصبغة او الأردية المدنية التي يتجمل بها الأنسان ، في الأحوال العاديه ناثرا بالدواعي المدنية ، والحاجات الاجتماعية ، فيعود الى فطرته ويتقرب من غريزته .

٤ — اسباب الهيجان

لقد طال الجدل بين الفلاسفـــة حول اسباب الهيجان وعوامله ، فارجعها فريق الى العوامل الفيزيولوجية ، وارجعهـا آخرون الى التصورات العقلية وقال فريق ثالث بانهـا تنشأ عن اسباب اجتماعية ، ولنبحث الآن بصورة مختصرة في هذه الآراء على ضوء الحقائق الموضوعية .

ا — الشروط العصبية للهيجان

يتعلق الهيجان بشروط خاصة ، يجب ان تتحقق في الجملة العصبية ، ذلك ان افرازت الغدد الداخلية تكثر او تقل ، تبعاً للهيجان. وتتبع هذه الكثرة وهذه القلة بالضرورة ، جملة الاحوال التي تكون عليها الجملة العصبية .. ويلاحظ ان للجملة الودية والشبيهة بالودية ، تأثيراً خاصاً في الهيجان ، اذ ان لها علاقـة كبرى بالغدد الداخليـة المعروف تأثيرها في مظاهر الهيجان الخارجية . وللعصب الرئوي المعدوي من ناحية اخرى ، اهميه كبيرة في هذه الناحية .

ويجب الا ننسى ان تأثير الجملة الودية في حركة الاعضاء ، وسرعة الافراز يناقض تأثير الجملة الشبيهة بالودية تماماً ... وفي هذا تعليل للتضاد الذي نلاحظه في مظاهر بعض الهيجانات .

ومركز هذه الجمل كلها في القلم الرصاصي ، في الطبقة البصرية ، اي في الدماغ المتوسط وهو ينظم اعمالها .

واما السمات التعبيرية في الاوضاع اللاارادية ، فانها ايضا تتعلق بهذا المركز الدماغي نفسه ، بينما تتعلق السمات التعبيرية والارادية بقشرة الدماغ .

وقد لوحظ ان الحيوانات المحرومة من قشـــرة الدماغ ، والتي بقيت لها ادمغتها المتوسطة ، تعبر عن هيجاناتها تعبيراً غريزيا ، تاما ، لاتفه الأسباب المثيرة ، فهي تصيح او

تخور او « تنخر » حينما تلمس ، وقد تتنصب شعورها فوق ظهورها وتعوي ، او تعدو في اي جهة او في كل الجهات. وكذلك تتسع الحدقة .

واما اضطرابات التنفس والقلب والغدد فتظهر بوضوح... عند غضب هذه الحيوانات.. فاذا قطع الدماغ المتوسط ايضاً ، فان هذه المظاهر او اكثرها ، يختفي ولا يبقى منها الا بعض الحوادث الجزئية ، ولكن التعبير الكامل يختفي نهائياً .

واذا اتسعت دائرة الفساد في القشرة الدماغية في الانسان ، ادى ذلك الى ضياع المراقبة التي كانت تنظم اعمال مركز الهيجان في القلم الرصاصي ، وعندئذ تظهر اعمال آلية ، تعبيرية ، كنوبات الضحك والبكاء التي لا يستطاع تعليلها بسبب ظاهر وقد يفقد المرء قوة التعبير عن هيجانه في الحالة التي يكون فيها هذا التعبير متعلقاً بالارادة ، فلا يملك مثلا ان يتخذ وضعية غاضبة ، او ان يظهر الدهشة ، اذا طلب منه ذلك ..

وهكذا يظهر لنا ان الدماغ المتوسط الذي ينظم تعابير الهيجان الغريزية ، اسبق الى الظهور والتكون ، من القشرة الدماغية واقدم وجوداً ... مما يدل على ان وظيفة الهيجان ، وظيفة قديمة كانت ضرورية لحالة اجتماعية منحطة ..

ب ـ الشروط العقلية للهيجان

ان تحليل الهيجان ودراسته اديا الى وضع نظريتين في تعليله وكل واحدة منها تظهر ناحية خاصة ووجهاً معيناً من اسباب الهيجان ولكنها تغفل النواحي والوجوه الاخرى .

١ ـ النظرية العقلية : وهكذا فان هربارت استطاع القول بان الهيجان ينشأ عن توافق التصورات او تخالفها ، فاللذة والفرح والغبطة تنشأ مثلاً عن توافق التصورات والألم والكربة والغضب ، تنشأ عن اختلافها (تحقق امل على نحو ما تصورنا من قبل سير الامور على ما كان يرجى لها . وقوع النتيجة المنتظرة في عمل ما) ... وعلى ذلك فان الشعور بتخالف التصورات او توافقها ، هذا الشعور العقلي هو السبب في حدوث الهيجانات .

على ان هربارت ومدرسته لا ينكران تأثير الحوادث العضوية في الهيجان ،

Cyclothymie

كدوران الدم ، وحركة التنفس ، وحركة القلب ، ولكنهما يزعمان بان هذه الحوادث تؤثر في التصورات قبل ان تؤثر في الهيجانات .

وليس من شك ان للشعور بتساوق التصورات او بتنافرها تأثيراً كبيراً في الهيجان ولكنه ليس بسبب له ... فلقد يقع رجلان مثلا في مأزق حرج ، مخيف ، فيراع احدهما ويحتفظ الثاني ببرودة دمه ، مما يدل على ان معرفة الخطر لا تكفي لاحداث الهيجان اذ لو كفت ، لريع الاثنان معا ، فلا يمكن اذن ارجاع الحادث العاطفي الى الحادث العقلي وحده .

ومما يعترض به على هذه النظرية وجود هيجانات بلا سبب . فلقد يشعر الانسان انه فرح ، او غاضب ، منشرح الصدر ، او منقبضة ، بدون ان يعرف السبب الذي يدعوه لذلك ، والعادة ان يكون السبب في هذه الاحوال فيزيولوجياً : في المعدة او الكبد او الهضم (فالتشاؤم مثلا ناشيء عن سوء الهضم لا عن التفكير باسباب الحياة ومصاعبها) . ومن المعروف ان المشروبات الكحولية تؤثر في الحالة العاطفية ، فيزيدها فرحا ، او غضبا او حزنا ... وكذلك يلاحظ ان لبعض الامراض النفسية « Cyclothymie » مظاهر متغيرة يتناوب فيها الفرح والحزن فيبدو المريض ، في بعض الايام ، غزير النشاط ، كثير الفرح ، ويبدو في بعض الايام الاخرى ، كثير الخمول ، جم الحزن ، بدون ان يكون لذلك سبب خاص معروف لديه . فالحوادث السعيدة أيام الحزن ، لاتستطيع ان تغير في حزنه قليلاً ولا كثيراً ، والحوادث الفاجعة ، ايام الفرح ، لاتنال منه ولا تسيء اليه .

غير ان الامور لاتبقى بسيطة الى هذا الحد ، بل انها في بعض الاحيان تتعقد تعقيداً كبيراً : فالفرح والحزن اللذان ينشآن عن اسباب عضوية ، لايلبث كل منهما ان يؤثر في التفكير تأثيراً يوجهه الى اصطفاء مايلائمه من مواضيع السعادة او البؤس . وهكذا يرى الفرح ان ليس في حوادث الحياة الا الجانب الباسم ، أما المتشائم فلا يرى في الاشياء الا الجانب البائس المؤلم . . . ثم تتم الدورة الفكرية ، فيتخيل كل من هذين ان اسباب فرحه او بؤسه لاتوجد في نفسه ، بل توجد في الاشياء . والحقيقة ان الاشياء بريئة مما ينسبه اليها ... فمن الحق اذن ، أن نقرر ان اسباب الفرح والبؤس الخارجية ليست الا اوهاما تصور الاحوال الداخلية ، ولقد يغضب الانسان او يثور لحادث لو وقع لغيره ما أثاره ولا اغضبه . وتعليل ذلك ان هذه الحوادث لاترى كما هي ، ولكن كما تصورها الحالة النفسية ، وباللون والاسبغة التي تخلعها عليها النفس .

وتبرهن لنا كل هذه الأمثله على ان الحالة العاطفية كثيراً ما تستقل عن التصورات المرافقة او السابقة ، وعن انسجامها وتخالفها . غير ان الهيجان ، في الانسان ، لا يبقى على هذه الصورة الابتدائية ، بل انه يحاول دوماً ان يبحث عما يستطيع تبرير وجوده من الاسباب الخارجية المحيطة ، اي انه يبحث عن شعور معلل او مبرر للحالة العاطفية التي تحياها النفس ، ولا ينتج هذا البحث الا اشياء لحمتها وسداها الوهم . . على انها ، مع

ذلك ، قد تساعد على اعطاء صورة خالصة للهيجان تميزه من غيره ... ولكنها ليست العنصر الاساسي فيه . .

٥ ـ النظرية الفيزيولوجية

وهنالك نظرية ثانية تلح على بيان الاثر الذي يلعبه الجسد في اثارة الهيجان ولقد شاع على ألسنة العامة ان القلب مرقد الهيجانات والعواطف ، وكانت النظريات الطبية القديمة تعزوها الى فعل الامزجة ، ثم جاء ديكارت ومالبرانش اخيراً ، فاوضحا هذه النظريات وحاولا جعلها علمية ، ولكنهما لم يوفقا في ذلك توفيقاً نهائياً ، فلما جاء «لانج» و«جيمس» اخذا بهذه النظرية ، وازالا كل غموض عنها واعطياها صورتها الكاملة .

وبدلا من ان نرى هذه النظرية في الاضطرابات الجسدية والعضوية آثاراً للهيجان رأت فيها اسبابا له ... وعلى ذلك فالهيجان ليس الا الادراك الغامض لهذه الاضطرابات العضوية . فلا يجب ان نقول ما يقوله العوام

إني ارى ضبعاً : فاخاف : وارتجف

بل يجب ان نقول : إني ارى ضبعاً : فارتجف : واخاف

فالخوف إذن هو الشعور بالارتجاف وما يتبعه من ارتعاد واصفرار وهرب . وقد لا تكون كل هذه الحوادث العضوية موجودة ، وقد يزول منها هذا الشيء او ذاك إلا انه لا بد من وجود شيء منها ، وهذا الشيء هو الذي ينشيء الهيجان ، فاذا استطعنا ان نجرد الهيجان من هذه العناصر العضوية ، لم يبق منه الا « حالة عقلية » او فكرة مآلها اني اقترب من خطر : اما الهيجان فانه لا يوجد الا اذا احس الانسان بقلبه يخفق ، وبعرقه يتصبب ، وبيديه ورجليه تشل حركاتها ... وعلى ذلك فانه لا يوجد هيجان بلا لحم ودم .

ومن مميزات هذه النظرية ١ — انها تحفظ للحوادث العاطفية استقلالها بالنسبة الى الحوادث النفسية الأخرى ٢ — وتعلل أو تستطيع أن تعلل الهيجانات التي لا سبب لها ٣ — وهي ، بعد ذلك ، لا تناقض الرأي القائل : ان الهيجان الطبيعي ، يستند الى الحوادث العقلية التي تسبقه ... أي إلى ادراك حالة معينة في المحيط الخارجي .. ولكنها تؤكد ان الادراك لا يستطيع اثارة الهيجان الا بواسطة الحوادث العضوية التي ينشئها .

وقد رد على هذه النظرية بردود مختلفة في قيمتها ، فقيل مثلاً :

١ — اذا كانت هـذه النظرية صحيحة ، فمن الممكن اذن أن نوقف ظهور الهيجـان بالارادة ، وذلك بكبت الحوادث العضويه المثيرة للهيجـان .. ويكفي لذلك أن نتخذ وضعية الهدوء ، ليخف غضبنا ، أو ليزول . ومن الممكن أيضاً اثارة الهيجـان ، بدون سبب نفسي ، وذلك بأن نقلد ، بالارادة ، الوضع المناسب للهيجان المراد احداثه. ويجب في حدود هذه النظرية ، أن نغضب بمجرد قبض اليد ، ورفع الصوت ، وضغط الاسنان . والحقيقة ان الارادة لا تملك إحداث هذه الهيجانات ، ولا تخفيفها ولا تغييبها ...

...

ومما يلاحظ ان بعض الممثلين — لا كلهم — يؤكدون انهم يشعرون — اثناء التمثيل — بذات العواطف التي يظهرون للنظارة انهم يشعرون بها ... ولكن هل يتم ذلك لهم بتقليد الاوضاع الخاصة بالهيجانات ، او بتخيل اسبابها النفسية ؟ ان اصحاب النظرية الفيزيولوجية يعتبرون ان هذا المثال مؤيد كبير لنظريتهم ، الا اننا لانقرهم على ذلك كل الاقرار ، لانه اذا كان لارادة الممثلين تأثير ناجع ، فان تأثيرها ليس بالبساطة التي يحسبون ، بل هو امر معقد جداً . واذا استطاع الجهد ان يحبس بعض مظاهر الهيجان (كالدموع والسمات الاخرى الخاصة بالغضب) فانه قد يبلغ غايته، ولكن لابد ، عند ذلك ، من نمو حوادث مخففة — كضربات القلب ، ورجفات الحلقوم — تطيل امد الهيجان المرقد ... ومن الواضح ان هذه الاشياء لاتؤلف لانقضاً ولا برهاناً على نظرية الفيزيولوجيين . ولكنها تظهر ان مظاهر التعبير الارادية عن الهيجان ، ليس لها ، بالذات ، صبغة عاطفية .

...

ب — ثم ان كل ماقي الهيجان من حوادث عاطفية يمكن ان يوجد في غير الهيجان — كجمل او كأجزاء — من غير ان يكون له اية قيمة عاطفية . فلقد يصفر الانسان عندما يكون خائفاً ، ولكنه قد يصفر ايضـاً عندما يكون متـأثراً بالبرد . والامر كذلك في الرجفة والعرق البارد، فهما يوجدان في الحمى، دون ان يرافقهما اي هيجان . ولقد تتسارع ضربات القلب بعد العدو الشديد ، اوبعد تجرع كمية كبيرة من القهوه ، كما تتسـارع في الخوف والغضب ، ولقد تظهر علائم التهيج في الانسان ظهوراً واضحاً ، اذا حقن بكمية كافية من الادرينالين ، ولقد تضيق نفسه بذلك بعض الضيق ، الا ان هذا كلـه لاينشيء الاعتقاد بوجود هيجان . فيمكن القول اذن بان ردود الفعل العضوية لاتحتوي ، بذاتها ، على اي عنصر عاطفي .

وعدا ذلك ، فان العناصر العضوية — التي يقال انها مؤلفـة للهيجايات — قد توجد في

هيجانات مختلفة جداً ، او متناقضة . ولقد اوردنا امثلة — على ذلك — في الهيجان المصادم ، وفي حوادث الدورة الدموية ، المشتركة بين هيجانات متضـــادة (كالفرح او الحزن) . وهكذا نستطيع ان نقول : ان حالة الاعضاء في الغضب تشبه حالتها في الفرح ، رغماً عما هنالك من فروق بين الهيجانين .

ح — ولقد اجريت تجـارب عدة على الحيوانات : فقطع في بعضها النخاع الشوكي ، وعدد من الاعصاب الجمجميـة ، بحيث تحقق عزل الدمـاغ عن اكثر ادراكات الجسد . ثم اثيرت هذه الحيوانات ، فلم تنقطع عن التعبير عن هيجاناتها بما بقي لها من وسائط : في وجوهها مثلا ، وفي الاوضاع الاخرى ، والحقيقة انه لايمكننا القول بان هذه الحيوانات كانت تشعر بهيجانات حقيقية تعبر عنها بما بقي لها من مظاهر التعبير ، وكل ما يمكن قوله هو ان هذه التجارب لاتحمل اي برهان لهذه النظرية ، بل انها لاتؤلف اي برهان وضعي . (١)

والخلاصة : ان تحليل الشعور ، قد ساعد على جلاء بعض العناصر الغامضة : كالشعور بموقف ما (وهذا عنصر عقلي) والشعور بحالة عضوية « وهذا عنصر عضوي » ولكن يجب ان نضيف الى ذلك كله عنصراً اهملته النظريات السابقة وهذا العنصر هو الشعور باضطراب

الوظائف العقلية والتفكير . ووظائف المراقبة الذاتية ، ولكن الهيجان يبقى — رغم هذا التصحيح — عبارة عن مجموعة من المعارف المدركة . . . ولايوجه هـذا النقد الى النظرية العقلية فحسب ، بل يوجه ايضاً الى النظرية العضوية ، لانها تحسب الهيجان نتيجة لادراك الحالة العضوية ، ولكنها لاتعرف كيف تفرق بين الادراكات العاطفية وغير العاطفية لهذه الحالة ، وعلى هذا يجب القول بان الدماغ لايقوم بالعمل نفسه في الحالتين . . . وبما ان الاضطرابات الداخلية ومظاهر التعبير الخارجية الغريزية تتعلق بمركز عصبي كائن في الدماغ المتوسط (القلم الرصاصي) ، لابالقشرة الدماغية ، فمن الممكن ان يكون الشعور بالهيجان احدى وظائف هـــذا المركز . (الدنيء) . او انه نتيجة انعكاس فاعلية هذا المركز على القشرة ، وبذلك نستطيع تعليل الصفات الرئيسية لحوادث الشعور العاطفي .

وعلى هذا فالشعور بالهيجان ليس ادراكاً لحالة عقلية ، وادراكاً لحالة عضوية ، ولكنه

---

(١) من الواضح أنه لايمكن فصل الدماغ فصلاً تاماً عن ادراكات الجسد لأننا اذا قطعنا الاعصاب الجمجمية ، والنخاع الشوكي ، بقيت « الجملة الودية والشبيهة بالودية » وهذه تستطيع ان تنقل عدداً لا بأس به من ادراكات الجسد .

يمكن ان يكون احدى وظائف مركز عصبي دنيء ... وهذا المركز هو الذي ينظم مظاهر التعبير الغريزية والاضطراب الحشوية التابعة للهيجان .

د — النظرية الاجتماعية :

وليس من الصعب اخيراً أن نلاحظ بعض العناصر الاجتماعية في الهيجان . فالوسط الاجتماعي هو الوسط الطبيعي لانتشـــار الهيجانات . والهيجان بطبعه معد . لاينمو إلا بالامتداد والانتشار .

والقاعدة العامة أن هيجاناتنا تولد وتنمو وتتفتح في وسط انساني ذي خصائص معينة . وهذا الوسط يغذي هيجاناتنا بالاهتزاز الذي يتلقاه منهـا . فاذا كانت افراحنـا وآلامنا عائليـة ، فانها تنبسط امام اقربائنا ، وأصدقائنـا الخلص ، وتنحبس امام معارفنـا ، وتمتنع عن الظهور أمام المارة . وإذا كانت وطنية ، فانها تجعلنا نثير مناقشات بيننا وبين الآخرين في البيت أو في القهوة أو في الطريق . أما في البلاد الأجنبية فانها تجعلنا نتخفى بقناع الحيطة والعظمة . وأما غضباتنا فتتغذى بثورة خصومنا . وتضعف بقلة اهتمامهم . وباشتراك أصدقـائنا بها ، أوابتعـادهم عنها ، ثم هي تنطفىء اذا لم تجد مقاومـة أو إذا لم يعضدها الآخرون .

وللهيئة الاجتماعية أثر بارز في هيجاناتنا وعواطفنا : إذ أنها تستطيع أن تغيرها تغييراً عميقاً : فتارة نحبس عواطفنا أو نخفيها أو نبررها بأسباب كثيرة . وتارة أخرى نسرع إلى إظهارها وتقوية ملامحها . وكل ذلك بحكم الظروف الاجتماعية المحيطة بنا . مثال ذلك ما يتصنعه الحونة من إخفاء لعواطفهم المعادية لأمتهم وما يبدي المخلصون من حماسة واضحة تجاه القضايا القومية .

وهكذا نلاحظ أنه لا يوجد حدود واضحـة بين ما نشعر به عفوياً ، وبين ما نشعر به تحت تأثير الجماعة وضغطها .

ثم إن الحياة الاجتماعية لتؤثر حتى في طرائق التعبير عن عواطفنـا وهيجاناتنا . ومن المعلوم ان طرائق التعبير هذه متصلة بالهيجان، بصورة غريزية . الا ان الجماعة تعلمنا كيف يجب تنظيم هذه المظاهر ، وتضيف اليها مظاهر أخرى جديدة للتعبير عن عواطف مختلفة . واذا كان الضحك هو التعبير المشترك عن الفرح في كل المجتمعات الانسانية ، فـلا شك

ان الابتسامات تتخذ معاني متعددة فقيرة أو غنية بحسب المجتمعات . ويلاحظ من ناحية أخرى ان الشعوب الغربية تلبس الثياب البيضاء للتعبير عن الفرح ، والسوداء للتعبيرعن الحزن . أما في الصين فالأمر على عكس ذلك من هذه الناحية ، كما ان هناك لغة تقليدية في التعبير عن العواطف ، ليست الا امتداداً مصطنعاً للغة التعبير الغريزية .

ويقول (لفي برول) : اذا استثنينا الهيجانات الشخصية المتعلقة بردود الفعل العضوية فانه لا شيء اكثر اتصالاً بتقنين الجماعة ونظمها من هيجانات الابتدائي .

ولهذا كله نلاحظ انه اذا كان الهيجان وظيفة من وظائف المراكز العصبية الدنيئة ، فانه مع ذلك ، يحتمل تعليلات مختلفة اضافية ، اذ قد تؤثر فيه التصورات العقلية ، كما تؤثر فيه الحوادث الاجتماعية .

٥ — وظيفة الهيجان
Role de l'excitation

والآن ماهي وظيفة الهيجان في الحياة ؟

ان هنالك نظرية ترفض ان ترى للهيجان اي وظيفة تساعد الانسان على التلاؤم مع الوسط الذي يعيش فيه وهنالك نظرية اخرى تعترف له بشيء من هذه الوظيفة .

١ — فكثير من الاخلاقيين يرون ان الهيجان لغز من الغاز الحياة ، يضطرب فيه هدوء العقل اضطرابا لايمكن تعليله .

ومن علماء النفس المرضي من هالته اهمية الاضطرابات العقلية وعظمها ، فلم يعد يرى فيه غير اضطراب عضوي وعقلي . اما الفيزيولوجيون فانهم لايرون في الهيجان الا انه نتيجة آلية لتحرر القوى العمياء المخزونة في الجملة العصبية .

ومن السهل ان نجد أمثلة كثيرة نبرهن فيها على الفائدة التي يمكن ان يجنيها الانسان ، اذا هو احتفظ ببرودة دمه ولم يدع مجالا للهيجان : فالغضب والخوف مثلا يشلان حركة الاعضاء ويعطلان الوظائف العقلية ، ويوقفان الفعالية كلها ، حتى الاعمال الآلية التي قد تنفع في بعض المواقف ، ويجعلان الانسان قليل التبصر بالعواقب ، سيء السلوك ... والحزن نوع من الامراض المعنوية . والفرح في اغلب الاحيان ، مجموعة اضطرابات غير مجدية ولا مفيدة . واذا نظرنا في الهيجانات المختلفة ، بشيء من التفصيل ، فان من الصعب ان نجد لكل هيجان وظيفة صحيحة ، اذ ما عساه يجدي علينا الضحك او البكاء ، او

الابتسام او الارتجاف ؟ ومع ذلك فان هذه الاشياء تصبح وسائل تعبير في الحياة الاجتماعية وتفيد في اظهار العواطف للاخرين. ومن الواضح ان هذه الفائدة ثانوية جداً ، وليست بوظيفة اولى لهذه الاضطرابات التي لايمكن تعليلها الا بعمل مجموعة من الآليات العصبية والعضلية . ولقد شبه الهيجان بحوادث الطوفان المفاجيء الذى يحل شبكة معقده من الاقنية ... فاما توزع آثاره فيعلل بشروط كمية بحتة : فقليل من التهيج العضوي يصيب عضلات الوجه اولا ، فينشيء الابتسام ، فاذا كبر قليلا ، انتشر واصاب عضلات التنفس ،وحدثت القهقهة ، وليس من نظرية في ايضاح تعابير الهيجان ، تهمل هذه الاعتبارات الآلية ، حتى داروين نفسه ، فهو لا يغفلها ويسميها : افعال الجملة العصبية المباشرة .

٢ — ويرى بعضهم ، من ناحية ثانية ، ان الهيجان عبارة عن صور قديمة للسلوك البشري اضاعت قيمتها في بعض الهيجانات ، وحفظتها في البعض الآخر ، ولا بد من الاعتراف بقيمة بعض الهيجانات التي يفرض انها تساعد على تلاؤم الانسان مع الهيئة الاجتماعية ، اما الهيجانات التي لاقيمة لها في هذا التلاؤم فتعلل بالقول : انها بقايا تشرح باصولها ...

ا) ولكن يجب الا نذهب بعيداً في ايضاح قيمة بعض الهيجانات ، كداروين الذي يزعم ان الخوف نافع لانه ، اذا اصاب حشرة ، شلها وجعلها كالميتة في عيون الناظرين ، وجعلها ، بذلك ، بنجوة من أذى اعدائها ، واذا اصاب الكلب ، جعل شعر جلده ينتصب فزاد في طوله وعرضه ومظهر قوته واخافته لاعدائه ، وذلك ايضاً مما يحميه من ايذائهم. غير أن علينا ان نحسن معرفة الحقائق والوقوف عندها .

فمما لاشك فيه مثلًا ان الهيجانات الكبرى تبدو نافعة في بعض الاحيان ، لان الخوف من الخطر المحدق ، قد يؤثر في الانسان تأثيراً كبيراً ، ويسهل له العمل ،بتحريره القوى المختزنة في العضوية دفعة واحدة . ووضعها تحت تصرفه .

« ولا شك ان تسارع حركة القلب والتنفس وازدياد الضغط الدموي ، وتكاثر الكريات الحمراء ، وتحرر كميات كبيرة من السكر الصالح لتغذية العضلات ومنع التعب العضلى بتأثير الادرينالين ، كل هذا يهيء العضوية ، بصورة واضحة ، للقيام باعمال كبيرة. واما الوظائف العضوية ، فانها تتوقف موقتاً لتزيد في قوى وظائف الحياة الاخرى الضرورية ، وازدياد قابلية الدم للتخثر مما يبعث على استعداد الجسم لمقاومة الجروح ...

وكل الاوضاع الغريزية من هرب او هجوم ، تتحقق بدون ان تحتاج الى تفكير ولا الى تجربة ، ويكون ذلك ادعى للنجاة .. »

ومن ناحية اخرى ، نلاحظ ان المواقف التي تبعث على الهيجان ، هي مواقف حرجة تعرض مصالح الفرد او النوع للخطر .. ولذلك كانت بعض الادراكات ـ وخاصة عند الحيوانات ـ كافية لاثارة الاضطرابات العضوية والهيجان ، بدون ان يكون للتجربة السابقة اثر في احداث هذا الموقف ، واثارة آلياته ، وقيام الحيوان بوظائفه الضروية .

« وهكذا فان الخوف الذي يصيب الحيوانات لاينشأ عن مهاجمتها فحسب ، بل ينشأ ايضاً عن الوضعية التي تسبق الهجوم ، وقد تكون النظرة او الصرخة او الرائحة كافية لذلك ، حتى ولو كانت مجهولة من قبل ، فالحصان مثلاً يهرب عندما يشم رائحة الحيوان المفترس بدون ان يكون له سابق تجربة عنه او عنها ، وكذلك فراخ الطير فانها تختبيء عند سماعها صراخ طير جارح ، ولو كان ذلك لاول مرة في حياتها » .

وهنالك امثلة على الخوف عند افراد الانسان الصغار والكبار : كخوف الطفل من الحركة السريعة ، او الظلمة ، او تغير الهيئات والاوضاع المفاجئة ... كالنور الشديد او الاصوات الشديدة ، وكلها تدل على انه ليس من الضروري ان يكون الهيجان ، نتيجة لتجربة شخصية معروفة النتائج من قبل » .

ب) ولكن اذا استطعنا تعليل بعض الهيجانات بارجاعها الى الغرائز وامكننا شرح وظائفها بالاستعانة بما كانت عليه اصلاً ، فلاشك ايضاً ان كثيراً من الهيجانات ليست الا بقايا ، لم تعد لها اية قيمة حالية .

ولقد قبل داروين مثل هذا الرأي في مبدئه القائل باشتراك العادات النافعة ، الذي تقدم البحث عنه ، والحق ان ما كان جزءاً من عمل نافع في الماضي يمكن ان يبقى بعده ، كرفع الشفة العليا التي كانت تؤلف جزءاً من مظاهر التعبير عن الغضب ، فلقد كانت تساعد الغاضب على الهجوم والافتراس ، ولكن هذا لم يعد ضرورياً الآن ، ومع ذلك فقد بقيت هذه الاشارة بقوة الاستمرار ... وكذلك قبض اليد عند المهدد او المتوعد ، فهو يشير الى منفعة قديمة ، وذلك عندما كان المهاجم يضطر الى استعمال يده في الهجوم . وهذا ما عممه (ووندت) عندما قال : بان الاعمال النافعة في حالة خاصة قد تنتشر وتصبح دلائل على حالات اخرى مشابهة ، بالرغم من عدم وجود أية فائدة لها . وهكذا فان مظاهر التعبير عن الاحوال العضوية ، تنتقل الى التعبير عن الاحوال النفسية كالتقزز من طعام ما او

التقزز من شخص مثلاً ، او في التعبير عن كراهيته .

ومن هنا يبدو لنا ان غاية الهيجان امر مقرر لا يستطاع انكاره في بعض الاحوال... ولكننا لانفهم مثلاً لماذا يتهيأ الانسان ، عند الغضب ، لمعركة قد لاتقع ابداً ، او يندران تقع في الحياة الاجتماعية الحالية ... ذلك ان الهيجان يعطل السير الطبيعي للقوى العقلية ، ويعبث بها اضطراباً ، فيضطر الانسان الى الاجابة ، بصورة غريزية ، على المواقف التي تعرض له ... وهكذا ينحط سلوك الانسان ... الى درجة دنيئة كان يمكن ان يغنيه عنها عقله ، لو احتفظ ببرودة دمه ، وهدوء اعصابه ، فلو سخر انسان من آخر مثلا لغضب هذا الاخير وثار وهدد وتوعد ، وربما هاجم الساخر بعنف . ولكنه يستطيع ، لولا ثورته هذه ، ان يجيب على سخريته بمثلها ، باستعماله عقله وذكاءه وذاكرته . وهـــذا يعني ان على الانسان ان يبدع اشياء جديدة (اجوبة جديدة) لم يتعود عليها ... وهذا هو الشيء الصعب. فكأنما يؤدي قصور الانسان عن الابداع الى الانحطاط الى مراتب دنيئة من السلوك اي الى المراتب الغريزية ، وهكذا يعبر الهيجان عن انهيار القوى المبدعة او انحطاطها وضعفها ، وكأن هنالك تناقضاً كبيراً بين القدرة على الابداع ، والقدرة على الهيجان ، فاذا كبرت الاولى ، صغرت الثانية ، وبالعكس . فالهيجان اذن عبارة عن الرجوع القسري الى الغزيزة ، للتلاؤم بواسطتها ، وهي مع ذلك غير كافية .

ولقد يدهش الانسان أنه يقوم في موقف خطير باعمال ناجحة : جريئة وبسيطة غالباً ، بدون ان يكون في هيجان . والحق ان الانسان لم يكن هادئاً ولاعديم الاهتمام : بل ان القدرة المتولدة من التوتر العاطفي كانت تتخذ هذه الاعمال العظيمة الناجحة . وفي بعض الاحيان يحدث العكس تماماً ، وذلك عندما يتوقع الانسان حدوث امر خطير ، اذ يثور هيجانه ويضاعف الترقب الهيجان ، ويبقى العمل معطلاً ، والقوي الحبيسة كامنة ، لاتتصرف في المجالات النافعة ، فكأن علينا ان ننكر تسمية هذه الهيجانات الاخيرة العادية باسم الهيجان ، اذا اردنا ان نحتفظ للهيجان بوظيفة نافعة في التلاؤم .

خلاصة عامة

الهيجان عقدة فيزيولوجيـة ـ نفسية تعرض للانسان في ظروف خطيرة من حياته ، كالخوف والغضب ، والحزن والفرح ، ويمكننا أن يميز في الهيجانات نوعين أساسيين :

فهنالك هيجانات مصادمة ، وأخرى عاطفية . والباعث الأول على التفريق بينهما هو المظهر النشيط في الأولى ، والضعيف في الثانية .

والمسألة الهامة في الهيجان هي البحث عن أسبابه : وهنالك نظريات مختلفة أولاها ترجع الهيجان الى عنصر عقلي (كتوافق التصورات أو تخالفها) والثانية تراه ينحل الى مقوماته الفيزيولوجية المحيطية ، والثالثة توضح العوامل الاجتماعية التي تهيء للهيجان مادته وتنظم له تعابيره . الا اننا رأينا ان الهيجان أخيراً ينشأ عن أزمة ينقطع فيها تلاؤم الانسان مع الواقع بصورة مفاجئة ، مما يبعث على تهيج بعض المراكز العصبية الدنيئة ، وعندئذ تثور أزمة الهيجان ، وتختلط بالتيار النفسي كله . فينشأ له تصورات تبرره ومظاهر تعبر عنه ، وهذه المظاهر غريزية في الأصل الا أن الجماعة تنظمها وتضيف اليها .

وأبرز هذه المظاهر ما أوضحناه في قوانين العوامل المنظمة للهيجان (أي قانون البدء بالعمل ، وقانون الجمع بين العادات النافعة ، وقانون المماثلة) ، بالاضافة الى قانون التفريغ العصبي الذي ينظم العوامل المبعثرة .

ولقد حاول علماء النفس البحث عن وظيفة الهيجان فرأى قوم أن ليس له من وظيفة نافعة ورأى آخرون أنه مفيد جداً في الأصل ولكن تطور الحياة جعله بالجملة من الرواسب القليلة الجدوى . وقد رأينا أن هذا الرأي الأخير أقرب الى الصواب .

الفصل التاسع

الأهواء

خلاصة البحث :

١ — تعريف الهوى

أ — الهوى والهيجان
ب — الهوى والميل
ج — مظاهر الهوى
د — أنواع الهوى

٢ — عوامل نشوء الهوى

أ — العوامل العضوية
ب — العوامل الاجتماعية
ج — العوامل النفسية

٣ — آثار الهوى

أ — في الحياة العقلية
ب — في الحياة العاطفة
ج — في الحياة الارادية

٤ — مداواة الاهواء

أ — تنمية البدائل والمعرضات
ب — النسيان الارادي

١ — تعريف الهوى

يعرف الهوى بأنه ميل النفس الشديد الى ما تحب وتشتهي . مثال ذلك ان يطغى حب القراءة على الانسان ، فلا يجد لحياته هدفاً غير القراءة ، ولا يسعد بغير القراءة، ولا يبحث الا عن القراءة ، أو أن يطغى حب الخمرة على الرجل فلا يعيش الا من أجل احتسائها ، ولا تطيب له الحياة في غير مجالسها .

ويلاحظ بسهولة ان تعريف الهوى ، على هذه الصورة لا يزيد على أن يجعل من الهوى « ميلاً شديداً » . غير ان تعريف الهوى بالميل مشكلة غير صغيرة، يحسن الوقوف عندها . فلعله يمكن اشتقاق الهوى من الهيجان قبل أن يشتق من الميل .

أ — الهوى والهيجان : ولقد زعم ريبو ان الهوى قريب الهيجان، يصدر عنه ويشتق منه . وانه لايختلف عنه الا بهذه المظاهر الخارجية التي تجعل من الهيجان « عاصفة نفسية » فاذا زالت هذه المظاهر عن الهيجان ، أو خفت بالمقدار الذي يسمح للهيجان بالبقاء مدة طويلة، فقد أصبح الهيجان هوى حقيقياً .

والحق ان الهوى يصدر عن الهيجان أحياناً ، كما سنرى فيما بعد، وانه يضمر استعداداً دائماً للهيجان ، فصاحب الهوى يغضب ويفرح ويحزن ويسر لأقل حادثة تتعلق بالهوى.

الا ان الهوى مختلف عن الهيجان في كثير من الأحوال : فاذا هو اشتق منه أحياناً ، فانه لا يشتق منه دائماً ، ولا في اكثر الأحيان . وسنلاحظ عند البحث عن أسباب الهوى وعوامل نشوئه ان هنالك ما هو أعمق من الهيجان ، في خلق الهوى وتكوينه .

وأكثر من ذلك ان الهيجان قصير المدة : فهو عاصفه وتزول . أما الهوى فهو أطول مدة ، وربما صحب الحياة من أولها الى آخرها . ولقد يتخمر في النفس مدة طويلة قبل أن يعرف ، وكثيراً ما شبه الهيجان بسيل يحطم سده ويتبدد . أما الهوى فهو أقرب الى أن يكون نهراً غزير المياه، يحفر مجراه ويزيد في عمقه شيئاً فشيئاً، وكثيراً ما شبه الهيجان أيضاً بتسمم موقت ، أما الهوى فشبيه بالمرض الذي ينشأ عن استعداد عضوي سابق ..

ويتبع هذا الفرق ان الهيجان كما يقولون — قوة صادرة عن المركز، مبددة للقوى. أما الهوى فقوة متجهة الى المركز مجمعة للقوى . والحق ان هذه الملاحظة صحيحة جداً ،

فالهيجان في الواقع ، انفاق هائل للقوى ، يصبح الانسان بعده تعباً مرهقاً ، أما الهوى فهو عمل دائم في سبيل كنز القوى وجمع الطاقة الضرورية لبلوغ غاية الهوى، وبين الامرين تضاد أكيد .

ومن ناحية اخرى نجد الطباع القريبة من الهيجان ، بعيدة عن الاهواء . فالاولى سطحية بسيطة ، اما الثانية فمعقدة وعميقة ، واذا كان يعرض لصاحب الهوى ان يهتاج ، فانه مع ذلك يتميز بعمق الهيجانات وقوتها .

ولو ان هذا هو كل مايوجد من فروق ، لما اختلف الهوى عن الهيجان العاطفي او عن العاطفة ، الا ان الهوى يختلف عن ذلك بما له من وجوه وما فيه من تعقيد ، وما اكثر ما يثير الهوى من هذه الهيجانات الخفيفة ، او من هذه العواطف : فتارة يسر صاحب الهوى واخرى يساء ، وحينا يغضب وحينا يفرح ، وطوراً يضطرب ، وطوراً آخر يهدأ ويرتاح ، فما العواطف اذن الا بعض مظاهر الهوى ، وليست الهيجانات ألا لبعض نواحيه .

واذا كان الهوى يثير في هذه العواطف المتضادة ، وفيه مثل هذه الخصوبة العاطفية فمعنى ذلك انه ليس بالهيجان الفقير المجدب ، الذي لايمثل الا لوناً واحداً من الوان العواطف . فلننظر اذن فيما عساه ان يكون من علاقة بين الهوى والميل ، وامكان ارجاع الهوى الى الميل .

ب — **الهوى والميل** : لقد رأينا فيما مضى ان الميل اتجاه عام للفعالية وانه مبعث رغبات شديدة وكثيرة اذا هي ارتوت بعثت على اللذة ، واذا لم ترتو بعثت على الالم ، واذا هي ظلت في حالة البحث عما يرويها بعثت على القلق .

وكذلك الهوى : فهو مبعث رغبات شديدة وكثيرة ، وربما كان يفوق الميل في ذلك كله . والفارق الوحيد بين الميل والهوى هو ان الاول يقبل وجود ميول اخرى تعمل معه ، وتبعث على رغبات اخرى غير رغباته ، أما الثاني فانه ينفرد وحيداً ، ويتضخم على حساب غيره من الميول ، ويسخر كل طاقاتها لاغراضه ويجمع كل الرغبات حوله ، فكأنه لايوجد في النفس الاه ، ولهذا كان الهوى ميلا شديداً تضخمت قوته ، وابتلعت قوى الميول الاخرى .

ج — **مظاهر الهوى** : للهوى مظاهر عديدة : ابرزها قوة الاندفاع ، ووجود فكرة ثابتة ، واستعداد دائم للهيجان .

١ — واول المظاهر اندفاع عظيم ، او ميل كبير نحو كائن او شيء من الاشياء ويعرف هذا الاندفاع باحدى مميزاته الخاصة التي هي ضعف قوة التوقف . والواقع انه يصعب بل يستحيل احيانا ايقاف اندفاع الهوى . فلا يستطيع الانسان مثلا كبت رغباته بل يعتقد اللاعب مثلا انه لاشيء يقف في طريقه الى مكان اللعب واللهو ، ويعتقد المحب انه لاشيء يستطيع ان يحول بينه وبين الذهاب الى المكان الذي يأنس فيه بالحبيب ، فلا ارادته بقادرة على ايقافه ، ولا الآخرون بقادرين على ذلك ايضاً ، ولا شك ان صاحب الهوى يشعر بوجود حافز كبير في نفسه يدفعه الى العمل .

وقد يكون هذا الحافز اندفاعياً او ميلا اعمى . الا انه قد يكون ايضاً ارادياً ومختاراً . ولا يعني ذلك ان الارادة حرة كل الحرية ، وانها تختار العمل في سبيل الهوى اختياراً ، بل ان الارادة هنا تصبح شريكة للهوى ، متآمرة معه . وعندئذ تفقد القدرة على معاكسة الهوى والانصراف عن سحره الى غاية اخرى .

٢ — وهناك ظاهرة أخرى ، سهلة الملاحظة : هي وجود الفكرة الثابتة . فصاحب الهوى رجل لايفكر الا بموضوع هواه : ففي حديثه لايتكلم إلا عنه ، وفي استماعه الى احاديث الآخرين لايصغي الا لمن يتحدث اليه فيه ، واذا كان الانسان ممن يستطيعون ملاحظة أنفسهم ، فمن السهل عليه ان يجد انه يفكر دائماً بموضوع هواه ، وانه لايفكر بشيء آخر عداه . غير ان هذه الفكرة الثابتة تظهر في صورتين : احداهما صورة العبء الذي يحاول الانسان دفعه عن نفسه والتخلص منه . والثانية صورة المتعة التي يرى الانسان ان لاشيء يحول دون قبولها ، والاعتقاد بها ، واتخاذها كمبدأ للعمل ، اولاشيء يحول دون ان يجعلها صورة النفس او النفس ذاتها .

٣ — وظاهرة ثالثة تتجلى في شدة الهيجانات والاستعداد الدائم لها : فصاحب الهوى تتناوبه الافراح والشقاوات والاحزان والاضطرابات ، من غير ان تتناسب هذه الاشياء مع اسبابها في رأي انسان آخر ، ولهذا كان من السهل معرفة الهوى ببعض الاشارات الطبيعية : كالاحمرار والاصفرار والتنهد ، وارسال الزفرات واراقة الدموع وخفقان القلب : وذلك لان كل هيجان عميق مصحوب بتغيرات عضوية عميقة ايضا ، وانها

كان الهوى سلسلة من هيجانات حادة متعاقبة ، فلا بد ان ترافقه تغيرات عضوية حادة .

هذا ابرز ماتراه في الهوى: فلنحاول الان اذن ان نبحث عن البؤرة النفسية التي يصدر عنها ، وعن العوامل الخارجية والداخلية التي تساعد على نشوئه .

د — **انواع الهوى** : تنقسم الاهواء كما تنقسم الميول الى انواع ثلاثة فهنالك ١) اهواء خسيسة ، ٢) واهواء متوسطة ، ٣) واهواء عالية .

وليس في علم النفس مجال لاحكام القيم بحيث يصح ان نقول هذا هوى دني، وهذا هوى عال ، ولكن المهم في ذلك كله وضع اسماء الاهواء المختلفة ، لا اكثر من ذلك ولا اقل .

فالاهواء الدنيئة تتعلق بالميول العضوية الاولى مثل الميل الى الطعام او الى الشراب او الميل الى الشهوات الجنسية ، فالنهم والادمان على الخمر صورتان من صور هذه الاهواء الخسيسة . وسنرى عند البحث في آثار الهوى ان هذه الاهواء تستحق اسمها من وجهة النظر الخلقية .

والاهواء المتوسطة تتعلق بميول اخرى اغنى من الميول السابقة : فالحب بالمعنى العام، وانصراف المرء الى جمع المجموعات (مجموعات الطوابع ، والحشرات، والنباتات والآثار ...) واقتناء بعض التحف والطرائف ، صور طبيعية لهذه الاهواء .

واما الاهواء العالية ، فيمثلها هوى العلم وهوى الفن وماشابه ذلك ، وسنرى ان في كل قسم من هذه الاهواء ما يجعله جديراً بتسميته من الوجهتين النفسية والخلقية معاً .

٢ — عوامل نشوء الهوى

يعمل في نشوء الهوى عوامل كثيرة يحسن تصنيفها في ثلاثة انواع : فهنالك عوامل عضوية، واخرى اجتماعية ، وثالثة نفسية ، ولنبحث الآن في كل منها .

١ — **العوامل العضوية** : ان الاهواء كامنة في الطبع ، فليس كل انسان بقادر على ان يحمل رسالة الهوى . حتى ليمكن القول انه ليس من هوى الا وله اصل في اللحم والدم . فلقد يستطيع الراهب ان يجسد عاطفته في رمز من الرموز المادية ، كما يستطيع المحب ان يتعالى الى مرتبة الحب الروحي الخالص .

ومما يبرهن على ذلك ان الاهواء وراثية ، لذلك نراها تنتقل من الآباء الى الابناء ،

ومن الاجداد الى الاحفاد . ولقد لاحظ ريبو ان هنالك عدداً كبيراً من الاسر اختص افرادها ببعض الاتجاهات العلمية والادبية : ففريق للرياضيات ، وآخر للطبيعيات ، وثالث للموسيقى والامثلة على ذلك شائعة في كل وسط ، وفي كل ظرف .

٢ — العوامل الاجتماعية

لكل عصر ، ولكل جماعة ، ولكل جيل ، اهواء خاصة تسود وتطغى : ففي أيام الدعوة الاسلامية نشأت الاهواء الدينية ، والتضحية في سبيلها ، وفي الايام التي تلت نجاح الدعوة نشأت اهواء القيادة والحرب . وفي العصر الثالث للهجرة نشأت الاهواء العلمية بجانب اهواء الحياة الرافهة ومتعها . والامر كذلك في الشعوب الاخرى : ففي اوروبا نمت بالاهواء الدينية في عهد الحروب الصليبية ، ونمت الاهواء الادبية في القرن السابع عشر والاهواء العلمية في القرون التي تلت ... الخ .

غير ان الجماعة بسيطة أو معقدة ، فاذا كانت بسيطة لم تسمح بنشوء اهواء كثيرة مختلفة او ملونة بل جعلتها واحدة متماثلة ، واذا كانت معقدة سمحت بانشاء الوان كثيرة من الاهواء . وهكذا نجد الجماعات الحالية تفسح المجال لنشوء الاهواء المختلفة ، وتساعد على نموها .

ويؤثر المجتمع احيانا عن طريق التربية : فالتربية هي التي تفرض وجود بعض الاهواء وتكبت بعضها الآخر . وقد يستطيع المجتمع ان يساعد على توحيد الاهواء او على توجيهها وجهة موحدة ، اذا استطاع مراقبة التربية ، وسن نظام قوي لها .

وفي بعض الاحيان ، تتمثل حاجات المجتمع الاساسية في بعض المثل العليا ، فلا يكاد قلب الانسان يتفتح على اهواء جديدة ، غير هذه المثل . واكثر ماتتبلور هذه الاهواء في النفوس الجديدة التي استيقظت على الحاجة الى هذه المثل العليا (١) .

والخلاصة : ان المجتمع يؤثر في الأهواء فيكبت بعضها ويساعد على نمو البعض الآخر ، وهو يؤثر عن طريق التربية وطريق المثل العليا التي تفرضها حاجات تطوره .

---

(١) الامثلة على ذلك كثيرة جداً ، ففي المانيا طغت النزعة النازية اثر وعي الشعب الالماني ضرورة التخلص من معاهدة فرساي ، واعادة مجد المانيا ، وفي روسيا طغت النزعة الشيوعية على اثر المظالم الهائلة التي كان يرتكبها القياصرة والاقطاعيون . . الخ .

٣ — العوامل النفسية

١ — **الهوى والرغبة** : الأصل في الهوى ميل من الميول ، يتفتح في رغبة من الرغبات ، ولما كان ارواء الرغبة يبعث على اللذة ، فانه قد يحدث أن يتجه القلب أو النفس الى اللذة التي قارنت الرغبة ، بدلاً من أن تتجه الى الشيء الذي يروي الرغبة : مثال ذلك حب شاب لفتاة معينة ، فهو في الأصل حب غير معين يتجه الى أية فتاة من الفتيات ، ولكن قد تبعث المصادفة على أن لا ترتوي الحاجة الى الحب الا في فتاة معينة لا يعرف الانسان غيرها ، فتتصل حاجة الحب بالحاجة الى هذه الفتاة ، ويحسب الانسان أن لا حب غير هذا الحب ولا فتاة غير هذه الفتاة .

ولهذا يقال ان الهوى انحراف في غائية الميل ، اذ ان الميل غير معين كما قدمنا ، ولا حاجة له بفتاة دون أخرى ، فاذا تعين واتجه الى واحدة معينة ، وحسب ان ليس في الدنيا غيرها من فتاة ، فقد نسي غايته ، وأصبح لا يطلب إلا اللذة التي قارنت ارواءه . ولهذا نجد ان المحب قلما يعنى بغايات الحياة الزوجية ويقصرها على المتعة الخالصة ، وهذا ما نسميه بانحراف الغائية .

ولنلاحظ ، من ناحية أخرى ، ان اللذة قرينة اغراء ، ومعنى ذلك انها تبعث الانسان على العمل ، وتسهله عليه . فالعمل هو الغاية ، واللذة وسيلة من شأنها أن تسهل على الانسان العمل في سبيل هذه الغاية ، فاذا جعلها الانسان اللذة غاية ، ونسي الغاية الحقيقية ، بل نسي كل ميوله الاخرى من أجلها ، فانه يكون قد خضع لسيطرة الهوى . ولنوضح ذلك بالشكل الآتي :

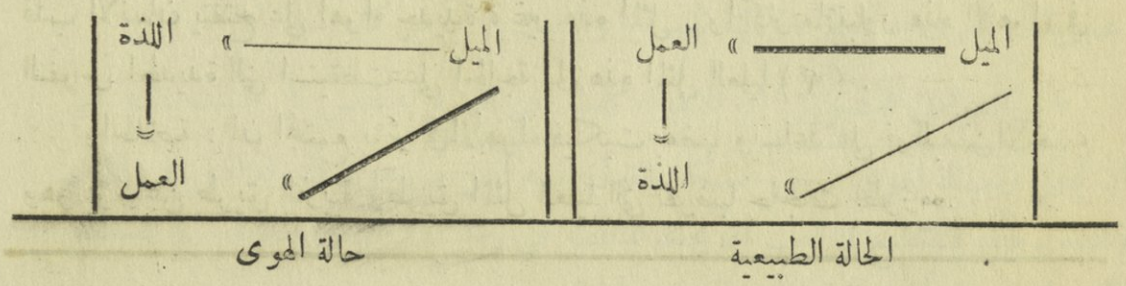

ولا شك ان قدرة الانسان على التخيل والتنبؤ ، وقدرته على حفظ ذكريات الاعمال

الماضية ، وما نشأ عنها ، مما يسهل عليه التعلق باللذة ، ونسيان العمل الرئيسي الذي ينتجها. ولذلك كان الهوى مبدأ لاضطراب التوازن الطبيعي والعدول عن القيم الاولية للانصراف الى القيم الثانوية .

ولهذا كله يمكن القول بأن الاساس الطبيعي للهوى هو انحراف الغائية . وهذا ما يعلل سهولة انقلاب الاهواء الى انحرافات مرضية ومبالغات غير طبيعية ، مثال ذلك هؤلاء الرومانيون القدماء الذين كانوا يتناولون المقيئات بعد كل طعام ليستطيعوا الاستمتاع بلذائذ جديدة في الاكل مرة بعد مرة .

٢ـ ولكن انحراف الغائية ليس كل شيء في الهوى ، بل هناك ايضاً مايسميه «ستاندال» بالتبلور ، ومعنى ذلك ان صاحب الهوى يتخيل مجموعة تخيلات يضيفها الى موضوع هواه ، ويزيد بها حسنه وروعته : ولقد شبه هذا العمل بما يقوم به عمال المالح في المانيا بقصد التسلية : اذ يأتون بغصن اجرد عار ويرمون به في بعض اقسام المملحة ويتركونه مدة شهرين او اكثر . فاذا اخرجوه بعد ذلك رأوه غصناً زاهياً بما توضع فوقه من البلورات الملحية الصافية ، واذا به غصن من نور وماس بدلا من ان يكون غصناً عاريا . والامر كذلك في الهوى ، فان صاحبه لايزال يبلور الصور الجميلة والاخيلة العذبة ويضيفها الى موضوع هواه حتى يجعله بها شيئاً يفوق جماله كل جمال وحسنه كل حسن ، وهذا مانسميه بحادثة التبلور .

ولقد عرف كثيرون من الشعراء كيف يسخرون من هذا الوهم ويعيبونه على اصحابه ، الا انه يجب ان نلاحظ ان حادثة التبلور ليست خاصة بالحب ، بل هي حادثة عامة في كل الاهواء .

والحق ان جو الهوى جو صالح لخلق الاوهام : فالحب مثلا يدعو الى خلق اوهام تجمل الحبيب ، والبغضاء تخلق اوهاماً تزيد في قبح الشيء البغيض ، فصاحب الهوى لايرى موضوع هواه كما يراه الآخرون . ولكن ليس من الحق ان نقول انه يراه على خلاف مايراه غيره ، الا ان من المؤكد انه يرى فيه شيئاً لايراه الآخرون . ولسنا نعرف على وجه التحقيق ، ماهو هذا الشيء الرائع الجمال الذي يراه المحب في المحبوب ، ولا ما هو هذا الشيء المبالغ في القبح الذي يراه الكاره في المكروه .

ويمكننا ان نضيف الى هذه الملاحظة ملاحظة اخرى لاتقل عنها اهمية وهي ان في

الهوى ايضاً نوعاً من الرؤية العميقة : فالشخص الذي يحب ، هو ـ في الغالب ـ ذلك الشخص الذي يحسن الرؤية والمعرفة والتقدير ، والام مثال واضح فهي تستطيع ان تعرف ان في طفلها الواناً من الجمال لايراها غيرها فيه ، لانهم بعيدون عن الطفل ، قليلو الاهتمام به ، ضعيفو الانتباه اليه وهكذا فان «قيساً» هو الذي يحسن تقدير محاسن «ليلى» ومعرفتها ، كما هي في الحقيقة لا كما تراها العيون الاخرى .

فصاحب الهوى اذن ، يمتاز بنوع من الرؤية الخاصة ، لانه يرى بصورة اخرى تختلف عن الصورة التي يرى فيها الآخرون ، وربما كان احسن رؤية من الآخرين فكيف نفسر هذه الغرابة في الرؤية .

ان تعليل ذلك ان ما يحب ويكره ، في هـوى من الاهواء ، ليس هو الموضوع الحقيقي ، بل هو الصورة التي يرى من خلالها : فموضوع الحب ليس هو الشخص الحقيقي ولكن هو الشخص الخيالي الذي خلقه مثلنا الاعلى . وهكذا ترى أن في الاهواء خلقاً لاوهام تحول بيننا وبين الحقيقة ، وليست حياة الهوى شيئاً غير هذا الخلق الذي يحرص عليه الانسان بكـل قواه ، واذا انتهى الانسان من خلق الاوهام فقد انتهت فيه طـاقة الهوى ، وعدم القدرة التي تغذية والثروة التي تمده ، فكأن الاستعداد للهوى متناسب مع قوة الابداع التي تستطيع ان تحقق الصورة المثالية المطلوبة فيه . ويمكننا القول بان الهوى نوع من الجهد الشديد التوتر الذي يهيب بالانسان الى الابداع ، وفي الغالب ينجح هذا الابداع لانه يصل الى ان يهب كائناما حقيقة عظيمة مركزية تصبح وحدها بؤرة العالم كله ومركزه .

هذا هو العمل الصامت او العمل الشديد الذي يغذي الهوى . فنحن نبدع صورة ، ثم ان هذه الصورة نفسها تصبح موضوع الهوى المعبود . وعندئذ نرى ان الآخرين لا يستطيعون ان يروا موضوع الهوى مثلنا ، لانهم لاينظرون الى الصورة التي ابدعنـــاها بانفسنا ، بل ينظرون الى الحقيقة وحدها دون الصورة التي نسجناها حولها ، ودون الالوان التي زيناها بها ، وهذا مايعلل الاختلاف بين مانراه في الحقيقة وبين مايراه الاخرون فيها .

٣ ـ واذا كانت حادثة التبلور في الهوى تعني القدرة على خلق اوهام وصور تغذي الهوى ، فان ذلك يذكرنا بالضرورة بآلية الهذيانات المرضية .

فلقد تسيطر فكرة او رغبة في نفس الانسان تتجمع حولها نفسه كلها وافكاره كلها .

وهذا ما يسمى « بالفكرة الثابتة » وربما كانت هذه الفكرة معذبة فتنشيء حولها « هذيان التعذيب » أو مغرية محببة فنشيء حولها « هذيان العجب والزهو » ، وليس الهوى بعيداً عن هذا ، فهو — كما رأينا — خلق مجموعة اوهام حول موضوع ما ، ولذلك نرى ان بين الهوى وبين الهذيانات المرضية بعض الشبه حتى ليمكن القول بان لاينشأ الهوى في النفس وهي مالكة قيادها ، مسيطرة على ذاتها ، ولهذا يكثر نشوء الاهواء اثر المتاعب الجسيمة والنفسية التي تعتري الانسان ، وتجعله ضعيف القدرة على جمع افكاره ، فارغ النفس من كل ما يشغل الحياة بصورة جدية .

٤ — ولقد يكون الهيجان القوي سبباً رئيسياً من اسباب الهوى في بعض الاحيان اذ يحدث ان نشعر ، ذات يوم ، بعاطفة من الفرح او من الاعجاب العميق ، او — على العكس — بعاطفة شديدة من الغضب او الكراهية . فنعيش ، بعد ذلك ، كل الحياة ، متأثرين بهذه العاطفة الخالدة الذكرى ، فاذا فاجأتنا مثل هذه الهيجانات في حياتنا ، فان الميل المناسب لها يبدأ بالتضخم والنمو ، ويصبح هدفه الوحيد ان يحيا تلك الهنيهة الخالدة من جديد .

٥ — وسبب آخر هو العادة . وليس يعني ذلك ان الهوى عادة فحسب بل يعني ان العادة تؤدي احيانا الى خلق الهوى : فبعض الناس يصبحون من هواة القمار واللعب لانهم اكثروا من اللعب والمقامرة : وبعضهم الاخر يصبحون بخلاء لانهم اكثروا من جمع المال . ولعل بالامكان ارجاع اثر العادة الى اثر الهيجان .

والحق انه اذا كانت العادة تخلق الهوى ، فما ذلك الا لان اللاعب مثلا يأمل ان يشعر يوماً ما بهنيهات من الفرح مثل التي شعر بها في المرة الاولى او في بعض المرات . واذا كان الحب ينشأ بين اثنين يريان بعضهما بصورة عادية ، فماذلك الا لانهما شعرا ، ذات يوم ، بعاطفة غريبة من اللذة كانت مجهولة لديهما حتى ذلك الحين .

ويشبه اثر العادة في الهوى اثر حادثة الطنين في بعض الحوادث الطبيعية . ومن المعلوم ان زاوية الاهتزاز في النواس (المطال) تتعاظم بصورة سريعة جداً ، اذا انت ضربت عليه من وقت الى آخر ضربات تناسب القوة التي حركته في المرة الاولى ، او تناسب مدة دوره في الاهتزاز ، فكأن الهوى نوع من الطنين العاطفي ، عندما ينشأ بتأثير العادة .

٦ — وهنالك اسباب اخرى تعمل في خلق الهوى كالبهالة والارادة المعطلة ، فالنفس

الفارغة التي لاتجد شيئاً يشغل وجودها، اقرب الى الوقوع في الاهواءمن النفوس الملأى، ومن الصعب ان نتصور دوام الفراغ النفسي ، حين تكون الميول قوية او غنية . فاذالم تجد هذه الميول ماتنفق فيه فعاليتها وتصرف فيه قواها، تعلقت باي هوى ممكن،واقبلت عليه اقبال الظمآن على الماء الزلال .

٧ — ولقد تساعد الظروف الخارجية ايضاً على توجيه النفس الى بعض الاهواء ،مثل اشارة صديق او نميمة عدو ، وهذا ماحدث لبطل رواية (عطيل) لشكسبير عندما اثار صديقه بعض الشبهات حول خليلته . وبالرغم من ان هـذه الشبهات لم تكن جدية ولا موثوقة ، فانها كانت كافية لاشعال نار الغيرة في قلب عطيل ، والانتهاء به الى قتل خليلته على الصورة المفجعة المعروفة .

والخلاصة : أن تأثير احد هذه الاسباب ، او تأثيرها المشترك مما يبعث على نمو احد الميول وتضخمه ، فيزداد هذا الميل قوة ويزداد شدة ، ولا يزال يقوى ويشتد حتى ينشيء حالة عاطفية خاصة يمكنها ان تدوم سنوات عديدة ، وهذه الحالة الخاصة هي الهوى .

٣ — اثار الهوى

ولعلنا نستطيع التساؤل الآن عما يحدثه الهوى في النفس ، وعما يتركه فيها من آثار ولا شك ان هـذه الآثار جديرة بالدراسة ، لأنهـا تفرض على النفس صوراً جديدة من التفكير ، وتغنيها أو تركزها حول مواضيع جديدة للحساسية والعاطفة ، وتقسر ارادتها على التقرب من الأفعال الاندفاعية ، فلندرس كلاً من هذه الآثار على حدة .

أ — آثار الهوى في العقل : الأهواء في هذه الناحية مختلفة الآثار ، فبعضها يضغط النفس ، ويفرض عليها السكينة ، ويردهـا الى الفقر ، وبعضها الآخر يزيد في امتدادهـا وقوة انتشارها . فالأولى أهواء مقفرة مجدبة ، والثانية أهواء غنية خصبة ، ويعود ذلك الى فكرة الهوى نفسها ، فهذه الفكرة هي النواة الأولى في حادثة التبلور التي أشرنا اليها، من قبل ، فاذا كانت هذه الفكرة ضعيفة صعب عليها الامتزاج بغيرهـا والائتلاف مع الفكر الأخرى المماثلة أو القريبة . وإذا كانت غنية سهل عليها هذا الامتزاج وهـذا الائتلاف ، فتزداد هي غنى ، وتزداد النفس بها ثروة: مثال ذلك هوى الخمرة وهوى العلم

أو الفن . فالاول هوى فقير ضعيف لايكاد يرتقي بالاحلام الى ابعـــد من مائدة عارية يوضع عليها كأس من الخمر ، والثاني هوى غني خصب ، سريع الامتداد ، لايكاد يـترك شيئاً في الحياة بعيداً عن احلامه وآماله .

ويعود ذلك كله الى خصوبة الميل الذاتيه ، وضعفها أو قوتها : فالميول خصبة عندما تتفرع عنها رغبات كثيرة ذات آفاق لامتناهية ، وإذا تعلق الهوى بمثل هذه الميول كان مداه واسعاً ، وآفاقه بعيدة ، وأمكنه أن يغني النفس اغناء حقيقيـاً . اما اذا كانت الاهواء ضعيفة الخصوبة ، فانها في الواقع لاتكون متعلقة بميول حقيقيـة ، بل برغبات محدودة تصور ناحية من نواحي الميول . فالتعلق بالخمرة مثلا ليس استجابة طبيعية لميـل حقيقي : بل هو استجابة لرغبة عادية من رغبات الميل الى التخدر والهدوء ، ولهذا كان مثل هذا الهوى فقيراً أو مجدباً .

ولعل الاهواء المتوسطة قريبة في ذلك من الاهواء العالية ، لان الحب مثلاً يساعد على صقل النفس ، وتهذيب الطباع ، وتقليم الشذوذ ، كما يساعد على الارتقاء الى مستويات نفسية اعلى ، يرى المحب انه لا يستحق الحب قبل الوصول اليهـا . وفي مثل هذا الارتقاء اغناء للنفس وتنمية لثروتها المعنوية والروحية .

ويهمنا من هذا الاغناء كله ان نشير الى الاغناء العقلي وحده . فصاحب الهوى يكثف بالتبلور مجموعة لاتتناهى من الفكر العذبة حول موضوع هواه ، لانه مدفوع الى التفكير فيه بصورة دائمة ، بحكم عواطفه المختلفة ، وليس كالهوى حافز الى التفكير الدائم ، وزيادة الثروات الروحية .

ويلاحـظ ، من ناحية اخرى ، انـه اذا كان الهوى العالي يغني الحيـــاة العقلية بما يلائم موضوعه ، فانه يفقرها ، على كل حال ، من النواحي التي لاتتصل به . وهذا نوع من فقدان الانسجام والتوازن ، فكأن الهوى يفتح عين العقل من ناحية ليعميها من ناحية اخرى . ولقد اشار ريبو الى مهارة صاحب الهوى في التلاؤم مع موضوع هواه ، الا انه لاحظ ايضاً ان هذا التلاؤم وحيد الجانب ، وبالتالي ، غير طبيعي .

وما دام الهوى تلاؤمـاً وحيـد الطرف ، فانه يمكن التقريب بينـه وبين « الفكرة الثابتة » ، لان هذه الفكرة — كما رأينـا — تسيطر على النفس وترغمها على الانتباه اليهـا وحدها دون غيرها وكذلك الهوى فانه يسيطر على النفس ويرغمها على الانتباه اليه وحده

دون غيره ، وهذا هو فقدان التوازن والانسجام ، حتى لقد رأى بعض المؤلفين ان الهوى نوع من الجنون .

ويلاحظ (جانه) ان حالة الهوى تشبه حالة المصابين بالهستريا او المجانين الذين يلقنون فكرة ، فيبلورون حولها تفاصيل طويلة او عريضة ، ويتركونها جانباً على هامش مجرى الشعور الرئيسي ، فلا يزال المرء يراهم اناساً طبيعيين ، حتى يمس هذه الفكرة فيهم ، فاذا هم على غير ما بدوا فيه من قبل ، واذا هم مضطربون اشد الاضطراب او غير طبيعيين .

ويتبع هذا كله ان الهوى يفرض على صاحبه نوعاً خاصاً من التفكير ، يسمى في العادة منطق العواطف . فترى الانسان يجمع مايلائم هواه من الحجج والادلة دون أن ينتبه الى ما فيها من فساد وضعف ، او أن يشعر بما فيها من نقص وتشويش . وابرز مثال على ذلك ماتذكره الفكاهة عن جحا الذي أراد الزواج يوماً بابنة الملك ، وظن أن الامر قد أصبح سهلاً جداً لانه حاز موافقة ابيه وامه ، ولم يبق الا الخطيبة وابوها . وسنرى ان ليس هنالك من فرق أساسي بين هذا المنطق والمنطق العادي ، الا في ان هذا الاخير يعتمد المقدمات الموضوعية ، المقبولة عندسائر الناس ، في حين أن منطق العواطف تمكنه أن يقبل أية مقدمة صالحة لخدمة رغائبه واهدافه .

ب) أما تأثير الهوى في الحياة العاطفية . فأنه تأثير واضح جداً .

وأول مايبدو من هذا التأثير استعداد قوي عند صاحب الهوى للهيجان فالهوى منبع هيجانات لامثيل لها . وصاحبه مسرح دائم للحزن والفرح والغضب والقلق ، ولكل انواع الهيجانات الاخرى . وبهذا نرى ان الهوى يغني الحياة العاطفية ويزيدها قوة ونموا .

ومن ناحية أخرى ينشىء الهوى اتجاهاً جديداً للحياة العاطفية . فلا يعود المحب مثلا يرى الاشياء كما كان يراها من قبل ، ولاتعود قيمها في نظره مثل قيمها من قبل ، فكأن الهوى يبدع قائمة جديدة للقيم . فيحلو في نظر الانسان ما كان غير جميل أو ما كان وراء ساحة الاهتمام ، ويزهد فيما كان يبدو له مغرياً يستحق النظر والاهتمام ، ويرى « برغسون » ان ولادة الهوى تعرف من تغير النظر الى الاشياء ولبوسها قيما جديدة لم تكن لها ، وكثيراً مايلاحظ المحب ان للبيت الذي تسكنه الحبيبة طابعاً آخر لايشبه فيه غيره من

البيوت ، وان له من الجمال حظاً ليس لغيره مثله. فكأن موضوع الهوى يصبح المركز الرئيسي للحياة وكأن كل اشياء الدنيا تغدو بالنسبة اليه اموراً لاقيمة لها الابنسبة اتصالها به ، وتأثيرها فيه .

ومهما يكن غنى الحياة العاطفية في الهوى، فأنه غنى وحيد الجانب وليس بشامل. اذ ليس لصاحب الهوى من شغل آخر وغير موضوع هواه ، وقلبه مغلق عن كل شيء عداه. وهكذا نرى المدمن على الخمر ينفق كل مالديه من اموال في سبيلها ، ويتناسى واجباته الرئيسية نحو اسرته واولاده ، كما ترى العالم منصرف الذهن الى مباحثه ومطالعاته ، غير عابيء بكل مايجري في الحياة ، اذا هو لم يتصل بهواه او يداعب آماله ومناه .

ج) والامر كذلك في تأثير الهوى في الحياة الفاعلة ، فنرى ، من ناحية اولى ، ان الهوى ينمي الفعالية ويغنيها حتى ليدفع صاحب الهوى ، بقوة ، الى اعمال لم يكن ليستطيعها لولم يكن له هوى . الا ان تضاعف قوة الميل، على هذه الصورة، يقرب الفعالية من الاعمال الاندفاعية او الغريزية اكثر مما يدنيها من الافعال الارادية المنظمة ، ويقول « دوغاس » بان الهوى لايقبل أولايسمح بوجود الارادة الا اذا اصبحت لايقف امامها وزاع ولارادع ، وفقدت القدرة على التعقل والتوقف ، وهذه ارادة من نوع خاص لايمكن ان نصل من ورائها الى السيادة على النفس » .

ولهذا يبدو الهوى كأنه «قدر محتوم» فهو يمضي الى غايته دون ان يأبه بالعراقيل أو يصغي الى نداء العقل ونصائحه ، فكأنه غريزة الحيوان التي تجعله يقوم الف مرة بالعمل نفسه ، دون أن يلاحظ ماعساه يكون فيه من خطأ وفساد .

« أعرف رجلاً لايهمه من الحياة الا ان يزيد في سعة ممتلكاته ، وهو يشتغل آناء الليل وأطراف النهار ، ويجد ويتعب لشراء ارض جديدة اوقطعة من بستان ،ومازال على هذا الحال منذ اكثر من عشر سنوات ، حتى اصبح بالفعل ملاكاً كبيراً : له اراض في كل مكان ، ولكنه لايستثمر اي ارض في اي مكان ، ولايستفيد من املاكه كلها لاقليلاً ولا كثيراً ،فكأنه خلق لشراء الاراضي لا لاستثمارها ،ولتوسيع الملكية لا للاستفادة منها ،وانه ليقتر على نفسه ، ويحرمها من كل متعة ،ويتجاوز حدود شخصه فيقتر على امه واهله ،في سبيل شراء ارض معروضة عليه . ولقد اصبح في الخمسين من عمره ، ومايزال بغير زواج ،وكلما حاول ذلك بدأه ثم عدل عنه ، ولو انه اكتفى ببعض الاراضي القليلة ، وأنفق بعض المال

عليها لاستفاد منها كثيراً ، ولكنه مولع بشراء غير محدود ، وبنوع معين من الشراء، فهو لايشتري الاحصصاً من ارض ، لاارضاً معينة ، ويشتري كشريك،ولايشتري منفرداً... انه رجل عجيب وهذا هواه .»

ولهذا كله كان من العبث ان يحاكم الهوى ، لانه — كما يرى جانه — ينشأ وراء حدود العقل ، فلا مجال لحذفه بالعقل والمحاكمة ، ولابد لذلك من سبل اخرى،فماهي هذه السبل؟

٤ - مداواة الهوى

اذ لم يكن من سبيل لمداواة الادواء بالعقل ، فلا بد اذن من طرق اخرى ، يمكن استعمالها في مقاومته ، واهمها اثنتان : الاولى تتخلص بالعمل لخلق هوى جديد ، والثانية تتخلص بنسيان الهوى بتقرير ارادي حازم .

١ — فاما الطريقة الاولى فتكون في محاولة الانسان اشغال فعاليته بموضوع جديد لهوى ممكن،فاذا احب الانسان فتاة ملكت عليه قلبه ، وشغلت فؤاده وضاق بهذا الحب، او صار به الى حالة يرثى لها ، فليحاول ان يتعلق بحب فتاة اخرى ، او ليصرف بعض جهوده بصورة دائمة الى سياحة اونزهات او مطالعات ثقافية وكثيراً ماينصح الناصحون للمحبين بالسياحة والابتعاد عن المحيط الذي نشأ فيه الحب ونما . فلابدان تقدم السياحة في بلاد جديدة مفاتن يمكنها ان تشغل قلب الانسان ، وتنسيه مفاتنه الماضية ، ولقد تعمل السياحة ، من ناحية اخرى ، على قتل الهوى او اضعافه ، بما تنشئه بصورة طبيعية من عقبات دون لقاء المحب المحبوب ومن شأن هذه العقبات ان ترغم بعض الشيء على نسيان الهوى، ولهذا ايضاً ينصح المربون بان لايحاول صاحب الهوى تحقيق اغراض هواه ، لان في كل تحقيق لغرض من اغراض الهوى ، لذة جديدة تضاعف قوة الهوى ، ولا شيء ادعى الى ضعف الهوى من قيام العقبات في سبيله ، وقلة ما يجتنى فيه من لذات .

غيران المهم في هذه كله، (في السياحة او في خلق العقبات ، او في التعلق بهوى جديد) هو اشغال الفعالية بموضوع آخر غير الهوى ، فكأننا في ذلك نقسم طاقة الفعالية بين موضوعين بعد ان كانت متجهة الى موضوع واحد هو موضوع الهوى ، ومن الواضح ان الهوى ليس قوياً ولا خطيراً الا لأن الفعالية كلها تجمعت حوله واتجهت اليه ، فاذا قسمت هذه الفعالية بين موضوعين ، ضعفت القوى المؤيدة للهوى ، واخذ بالانحلال شيئاً فشيئاً .

فكأن القانون الذي يصل بين التفرقة او الانقسام والضعف ، صحيح هنا كما هو صحيح في العالم السياسي .

٢ — أما الطريقة الثانية فتتلخص بأن يلجأ الانسان إلى إرادته الحرة، وأن يقرر نسيان الهوى نسياناً نهائياً ، ولقد تنجح هذه الطريقة أحياناً ، ولقد يكون نجاحها أضمن من نجاح الطريقة الأولى ؛ إلا أنها ليست دائماً كذلك ، ولا الناس جميعاً بقادرين على الأخذ بها .

ولعل من أهم أسباب الوقاية إغناء النفس إغناء كبيراً يسمو بها عن المستوى الذي يتسامح بالتدني إلى بعض الأهواء الدنيئة ، ولكن ذلك لا يكون ممكناً إلا في حياة اجتماعية قوية التنظيم ، تحسن القيام بواجباتها نحو كل عضو من أعضائها .

ومع ذلك كله ، فان الوقاية أنفع من العلاج ، وخير للانسان أن يتقي الأهواء قبل وقوعها ، من أن يحاول مداواتها بعد الوقوع فيها .

خلاصة عامة

في الحياة العاطفية

لقد عرفنا حتى الآن أن الميول هي الأسس الأولى للحياة النفسية ، وان اللذات والآلام والهيجانات والأهواء ليست إلا صوراً عارضة لهذه الميول .

فاللذة تنشأ عن ارتواء الميل (الطعام بعد الجوع) .

والألم ينشأ عن قيام عائق دون ارتوائه (الظمأ) .

والهيجان ينشأ عن إثارة قويه لأحد الميول (فالنجاح إثارة قوية لميل الانسان إلى الوجود وتحسين هذا الوجود . والخوف إثارة قوية لغريزة حفظ البقاء) .

والهوى هو تضخم غير طبيعي لأحد الميول فالنهم تضخم غير طبيعي للميل الى الطعام وهوى السياحة تضخم غير طبيعي لناحية من نواحي الميل الى الاطلاع .

ولقد لاحظنا أن الميل المتضخم في الهوى يستأثر بالنفس ، ويقضي على كل الميول الأخرى ، أو يستعملها لحاجاته . ولكن يجب أن نلاحظ الآن أن الميول قوام الحياة الانسانية ، من الوجهتين العضوية والنفسية ، بل والاجتماعية أيضاً ، وإذا كان العمل

الطبيعي لكل هذه الميول يؤمن استمرار بقاء الكائن الانساني في الوجود ، فمعنى ذلك أن ميول الحياة قد نجحت ، وانتصرت على عوامل الموت ومن الطبيعي أن يرافق هذا النجاح لذة كبيرة ، لأن اللذة كما رأينا تنشأ عن ارواء الميول .

ولكن إذا نجحت ميول الحياة بجملتها ، لم تنشأ في النفس لذة بسيطة ، بل مجموعة لذات يمكنها أن تصبح مبعث سعادة هادئة .

واذا كنا في الهوى ، فقد أصبحنا أمام حادثة خاصة : اذ تجتمع كل الميول في الميل المتضخم . ويصبح ارواء الهوى وتحقيق غايته كأنه ارواء كل الميول وتحقيق عام لجميع غاياتها . ولهذا كان الشعور الطبيعي بالسعادة مرافقاً لارواء الهوى . كأن الانسان يضع مفتاح سعادته في هواه . فاذا تحقق الهوى تمت السعادة .

والخلاصة أن الحياة العاطفية كلها تشتق من الميول ، على صورة أو أخرى . وسنرى أن الحياة النفسية بجملتها ، وفي كل صورها ، تعتمد على هذه الميول ، وتشتق منها الى حد كبير .

الفصل العاشر

الغرائز

Instincts

١ — مقدمة عامة في الحركات وأنواعها

٢ — تعريف الغريزة

أ — الغريزة والميل .
ب — مشكلة الغريزة
ح — الغريزة والفعل المنعكس
د — ١ — الغريزة والفعل لمعقول ٢ — الغريزة والعادة

٣ — الدراسة التجريبية لشروط العمل الغريزي

أ — العوامل الداخلية
ب — العواملى لخارجية

٤ — مستويات الغريزة

أ — الغرائز البسيطة : مفهوم الجاذبية
ب — الغرائز المتوسطة : الفعالية المحافظة
ح — الغرائز المعقدة : الفعالية المحافظة والفعالية المعقولة

٥ — خلاصة عامة : الغريزة فعالية محافظة

١ — الحركات

للحركات أهمية كبيرة في الحياة النفسية . فكأنها « اللحمة التي ينسج عليها الشعور وشبه » كما يقول ريبو . والحوادث النفسية ، في أكثرها ، مصحوبة بحركات ترافقها وتنمي

عنها ، كما رأينا في اللذات والآلام والهيجانات ، والميول ، وكما سنرى في المباحث النفسية الآتيـة . ومن الطبيعي ان يستدل الناس على تشوش العقل عنـدما يلاحظون تشوش الحركات واضطرابها . ومن الطبيعي كذلك أن تمكن قراءة الافكار عن طريق ملاحظة الحركات الخفية المرافقة لها . كما يمكن معرفة الحالة النفسية ، في شخص ما ، من ملاحظة أوضاعه وحركاته .

وأبرز مثال على علاقة الفكر بالحركة ، الفعل التصوري الحركي . وهو فعل يتبـع بتصوره مباشرة : فأذا رأى الانسان ذرة غبار على ثيابه نفضها رأساً . وإذا علق الانسان في أصبعه نواساً خفيفاً ، وفكر في أمكان حركته الى جهة من الجهات ، يرى ان النواس قد تحرك فعلا الى هذه الجهة (تجربة شفرول) . كأنما يبعث التصور وحده على الحركة .

وتعليل ذلك كله أن لـكل تصور مقابلًا فيزيولوجياً ، فأذا بدأ هذا التصور ، رافقه مقابله الفيزيولوجي ، وأدى الى الحركة اذا كنا نتصور حركة ، فليست الفكرة هي الـتي تؤدي الى الحركة ، بل المقابل الفيزيولوجي هو الذى يؤدي اليها .

والحركات نوعان ، فاما ان تكون بسيطة أو معقدة مركبة ، ولنبحث الآن في كل من النوعين .

١ — الحركات الاولية

أن حركات العضويات الحية ليست الا ظاهرة من ظواهر الخلية أو الجبيرة الحية ، وهذه الظاهرة هي قابلية الجبيرة أو الخلية للتأثر والتهيج ، أو قابلية التنبه .

والتنبه الخلوي هو أتصاف كل خلية بخاصة الفعالية ورد الفعل تحت تأثـير العوامل الخارجية .

ويرجع أكثر الكماويين هذة الخاصة الى قلة استقرار التركيب الكيماوي للخلية ، ومن المعروف ان الالبومينات الحية تتصف بضعف استقرار تركيبها . وقد شبهت هذه الالبومينات بالمواد المفرقعة التي يكفي أن تؤثر فيها قليلًا حتى تطلق كل مدخراتهـا من القوة . والامر كذلك في الخلية فهي تدخر في داخلها جملة من القوة تستطيع ان تطلقها لدى حدوث المؤثر المناسب .

ويمكننا الآن أن ندرس قوانين قابلية التنبه هذه ، فهي قوانين جديرة بالاهتمام لأنها تنطبق على جميع الكائنات الحية ،وخصوصاً أفعال الانسان . ومن هذه القوانين :

١ — **قانون العتبة** : ولقد عرفنا هـذا القانون عندما بحثنـا في الاحساسات (١) وخلاصته اننا لا نشعر بالمؤثر إلا إذا بلغ درجة معينة من الشدة . فاذا كان المؤثر ضعيفاً فانه لا يحدث أية حركة ، ولا تحدث هذه الحركة إلا إذا بلغ المؤثر حداً معينـاً من الشدة نسميه « عتبة المؤثر » .

٢ — **قانون المطابقة بين تحولات المؤثر ورد الفعل** : إن رد الفعل لايزداد ازدياداً مطابقاً لازدياد شدة المؤثر ، بل يكون ازدياداً أبطأ . ويمكن تمثيل هذه الزيادة بخط بياني يشبه شكله شكل الحرف (S) . ولنلاحظ ان قانون (فيبر) الذي ذكرناه في مبحث الاحساس ليس إلا حالة خاصة من هذا القانون .

٣ — **قانون التفاوت بين المؤثر ورد الفعل** : وهـذا القانون يوضح ان شـدة رد الفعل ليست مساوية لشدة المؤثر ، فاذا أثيرت عضلة من العضلات بقوة ما وقيست قوة ردها ، وجد أن هذه القوة اكبر بمليون مرة تقريباً من قوة المؤثر . وهذا يدلنا على أن الخلايا تدخر في ذاتها قوة خاصة تطلقها عند الضرورة .

٤ — **قانون نوعية رد الفعل** : وهو الحالة العامة لقانون نوعية الحواس الذي درسناه في مبحث الاحساس ، وخلاصته أن رد الفعل لا يختلف بحسب نوع المؤثر بل بحسب طبيعة الخلية ، فالمؤثر الواحد يحدث في الخلية العضلية تقلصاً ، وفي خلايا الغدد افرازاً . وقد يختلف المؤثر ولا يختلف رد الفعل ، فيكون المؤثر كيماوياً أو كهربائيـاً أو ميكانيكياً ، إلا أنه لا يحدث في الأميب إلا تقلصاً في الاستطالات ، وفي حباحب البحر إلا نوراً ، فرد الفعل تابع إذن لطبيعة الخلية لا بطبيعة المؤثر .

---

(١) راجع قوانين الاحساس الحكمية ـ النفسية في مبحث الاحساسات .

ب — الحركات المركبة

الحركات المركبة هي حركات أعقد تركيبا من الحركات الأولية وهي أنواع مختلفة أبسطها الفعل المنعكس ويتبعه الفعل المنعكس الشرطي ، فالأفعال العفوية فالغريزية فالعادية فالارادية .

ويمكننا أن نقول كلمة عن كل من هذه الأفعال .

١ — **الفعل المنعكس** : هو أبسط الأفعال المركبة ويتألف من مؤثرخارجي يتبعه، مباشرة ، رد فعل من الكائن الحي ، فاذا سمينا المؤثر (م) ورد الفعل (ر) ، أمكننا أن نرمز الى علاقتهما بما يأتي :

م ←——— ر

ولا شك أن ردود الفعل هذه (أي هذه الأفعال المنعكسة) ، كلها فطرية ، لأنها مهيئة في الجملة العصبية ، بصورة طبيعية أو فطرية . مثال ذلك افراز اللعاب عند وضع الطعام في الفم ، وحركة الرجل عند ضربها على الرضفة ، فكل هذه ردود فعل طبيعية ، يأتيها الكائن من غير تعلم ولا خبرة .

ويعتبر الفعل المنعكس استطالة لقابلية التنبه ، إلا أن هذه الاستطالة أصبحت منظمة ، ولذلك يعرف الفعل المنعكس بالقول : انه قابلية التنبه الخلوي المنظمة، وليست الافعال المنعكسة واحدة في جميع الأعضاء ، بل هي متغيرة بتغير العضو الذي يحدثها ، فاذا كان غدة ، كان رد الفعل افرازاً ، وإذا كان عضلة كان رد الفعل تقلصاً وهكذا ...

أ — **فيزيولوجية الفعل المنعكس** : يتألف الجهاز العصبي للفعل المنعكس من « نورونتين » أي من خليتين عصبيتين إحداهما حسية ، والأخرى محركة ، وهنالك خلية ثالثة تصل بينهما ، وتسمى (خلية الوصل) .

والأفعال المنعكسة مختلفة المراكز، فبعضها مركزه في البصلة السيسائية (كالمنعكس اللعابي) وبعضها في الطبقات البصرية (كمنعكسات التعبير عن الهيجان) وبعضها أخيراً مركزه في الدماغ نفسه (كالمنعكس العيني) ، ومن الطبيعي أن تكون الأفعال

المنعكسة التي تصدر عن المراكز الدماغية ، إرادية ، وأن تقوم المراكز العالية بمراقبة المراكز الدنيئة وتعديل ما يصدر عنها من أفعال منعكسة، فاذا فقدت هذه الرقابة ذهب عن هذه الافعال اعتدالها ، وبدت في صور مغالية ، كما هو الامر عند الحيوان المقطوع الدماغ مثلاً .

ب — **قوانين الافعال المنعكسة** : تخضع الافعال المنعكسة لقوانين قابلية التنبه التي سبق ذكرها ، ولكنها تخضع لقوانين اخرى ، منها :

١ - **قانون التجريد** : وحاصله ان المؤثر إذا كان ضعيفاً، لم يتجاوز رد الفعل منطقة ضيقة معينة . مثال ذلك ان نمس بيدنا سلكا كهربائياً خفيف الشدة ، وان نرفعها وحدها دون سائر الجسم بسرعة عنه .

٢ - **قانون الانتشار والتشعع** : وحاصله ان المؤثر اذا كان قوياً، تعدى رد الفعل حدود منطقته الطبيعية وانتشر في الجهات المجاورة ، وقد يشترك الجسم كله في رد الفعل. (مثال ذلك رد الجسم على مؤثر كهربائي شديد) .

٣ - **قانون الارتجاف الطويل** : ان المؤثر يحدث اثراً لايزول مباشرة ، بزواله ، بل يبقى مدة ما بعد انقطاعه . وهكذا ينشأ عن المؤثر الواحد جملة انعكاسات متتابعة . (مثال ذلك ، تأثير الظلمة الشديدة او النور الشديد في العين)

٤ - **قانون التنسيق** : ان بعض الافعال المنعكسة مرتبة ترتيباً واتساقاً يدلان على غائيتها فدخول الطعام الى المعدة يثير حركات المعدة ، وافرازاتها ، وافرازات الغدد الاخرى المساعدة على الهضم ، ولولا هذا التنسيق لما امكن هضم الطعام ، ومع ذلك فان العلماء يميلون اليوم الى التعاليل الميكانيكية ويفضلونها على التعاليل الغائيه وقد استطاعوا ان يعللوا غائية الفعل المنعكس ، هذه ، بقانون التشعع المذكور سابقاً، وهذا يعني انهم ابدلوا التعليل الغائي بتعليل ميكانيكي .

ه - **الفعل المنعكس والشعور** : اذا لاحظنا جملة من الافعال المنعكسة وجدنا ان بينها ما هو شعوري في جملة اجزائه (اي في المؤثر ورد الفعل معاً ، كما هو الامر في حركة انماض العين عند اقتراب شيء منها بصورة مفاجئة ، وبينها ما هو شعوري في احد جزئيه :

(اي اما في المؤثر كحركات المطابقة والتوجيه في المنعكسات العينية ، واما في ردالفعل وحده كحركات المري المتصاعدة عندالاستفراغ) .

ويذهب الدكتور (جورج دوماس) الى ان الشعور ليس بضرورة لتمام هذه الافعال المنعكسة وتحققها ، فقد يمكن حذف القشرة الدماغية التي تكمن فيها مراكز الشعور ، ولايبطل الفعل المنعكس . غير ان هنالك افعالا منعكسة مركزها في الدماغ نفسه كما رأينا من قبل وهذه يلازمها الشعور بالضروره ولا يفارقها . الا اننا لانستطيع القول بان الشعور سبب فيها .

ويذهب (تيتشنر) الى ان جميع الحركات كانت في الاصل شعورية ثم انجلى عنها الشعور شيئاً فشيئاً وغدت آلية . ولكن هذا الرأي لم يقم عليه حتى الآن دليل قاطع .

د — **اهمية الفاعلية المنعكسة** : ان للفعالية المنعكسة اهمية كبرى ، فالطفل يولد وهو مجهز بجملة من الافعال المنعكسة النافعة في ادامة الحياة واحكام التلاؤم ، ولولاها لتعذرت حياته او اصبحت مستحيلة .

ويذهب بعض علماء النفس واكثر علماء الفيزيولوجيا الى ان الفاعلية المنعكسة اساس السلوك ، ويزعمون ان كل انواع السلوك منحدرة عنها ، وسنرى انه يمكن القول بان العادة هي تهيئة ارتباطات جديدة بين افعال منعكسة مختلفة وان الارادة كما يرى ريبو — ليست الا امتداد الفعالية المنعكسة وتعقدها وحسن استخدامها .

٢ — **الفعل المنعكس الشرطي** : لنفرض اننا وضعنا في فم قطة قطعة من اللحم . فهذا مؤثر طبيعي تجيب عليه الغدد اللعابية بافراز شيء من اللعاب ، ولكن اذا كررنا هذه التجربة عدة مرات ، واسمعنا القطة في كل مرة اسماً معيناً ، فاننا نلاحظ بعدئذ ان مجرد اسماعها الاسم يكفي لاسالة اللعاب في فمها ، واذا عقدنا المؤثر تعقيداً جديداً باضافة مؤثر آخر كالضرب على اليد اوكالنقر على الدف ، او اي شيء آخر . فاننا نلاحظ بعد تكرار التجربة عدة مرات ان اللعاب يسيل بمجرد حدوث اي مؤثر من هذه المؤثرات التي اقترنت من قبل بالمؤثر الطبيعي . وهذا مايسمى بالفعل المنعكس الشرطي . ويمكننا تعريفه بالقول : انه رد فعل طبيعي على مؤثر اصطناعي اقترن ، بفضل التجارب السابقة ، بالمؤثر الطبيعي .

ويمكننا ان نرمز الى هذه الحادثة بالرموز الآتية :

قطعة لحم ←——— = لعاب

مؤثر طبيعي ←——— = رد فعل طبيعي

م′ ←——— = ر

صوت + قطعة لحم ←——— = لعاب

م′ + م ←——— = ر

و : نقر + صوت + قطعة لحم ←——— = لعاب

م″ + م′ + م ←——— = ر

وبتكرار التجربة تحصل على :

م′ ←——— = ر

اي اننا نستغني عن المؤثر الطبيعي بالمؤثر الاصطناعي وتحصل على رد الفعل المناسب

١) قوانين المنعكس الشرطي : للمنعكس الشرطي جملة قوانين اهمها مايلي :

١ — قانون التكرار كلما كبر عدد التجارب التي تقرن المؤثر الاصطناعي بالمؤثر الطبيعي ، ازداد رسوخ المنعكس الشرطي

٢ — قانون الامحاء كلما تكررت التجارب غير الناجحة اقترب المنعكس الشرطي من الامحاء ، والحيوان الذي كان يسيل لعابه بمجرد (سماع الصوت) (اسمه مثلاً) ينتهي الى عدم الاجابة .

٣ — قانون الفاصلة عندما تترك فاصلة معينة من الزمن قدرها (٥ ثوان مثلا) بين المؤثر الاصطناعي والمؤثر الطبيعي فاننا نلاحظ ان رد الفعل يتم أيضاً بعد (٥ ثوان) على ظهور المؤثر الاصطناعي وحده .

ب) اهمية المنعكس الشرطي : ان أهمية المنعكس الشرطي تنحصر مبدئياً في ناحية واحدة ، هي أنه يوضح لنا كيف تتشكل الافعال المعقدة من تجمع أفعال بسيطة ، وكيف يصبح منبه ما اشارة الآخر ، وكيف يكفي تصور الحركة لاحداث نفس النتائج التي تولدها الحركة نفسها ، وكيف يمكن تصور الفعل الارادي وتنظيم حركات الفرد وتربيتها وكيف تتم حادثة الانتقال الاقتراني (١) التي جعلها العلماء اساس جميع المقترحات

(١) راجع بحث تداعي الافكار في الفصول التالية

المكتسبة وعلة ارتقاء السلوك وتكامله .

ويساعد المنعكس الشرطي على تعليل انضمام العناصر النفسية الاجتماعية الى العناصر النفسية العضوية ، ويرى (موس Mauss) أن وراثة الافعال المنعكسة الشرطية توضح لنا تجمع الآثار الاجتماعية في عضوية الافراد وبقاءها في الاجيال المتتابعة .

٣ — وهنالك أخيراً طائفة من الحركات العفوية التي تنبعث من مؤثرات خفيفة خارجية أو داخلية ، وحركات التقليد الآلي التي تجعلنا مثلا نتثاءب عندما يتثاءب أحد من الناس أمامنا . والحركات الغريزيه التي تمتاز بتعقيدها وكليتها وغائيتها ، والحركات العادية التي هي عبارة عن آليات مكتسبة ، والحركات الارادية التي تمتاز بحسن تصورها للغاية المطلوبة من العمل وغنى العنصر العاطفي ، وأحتياجها الى الآليات الغريزية والعادية .

وسندرس كلا من هذه الحركات الاخيرة في موضعها الخاص بها . غير اننا نبدأ الآن ببحث الغريزة .

٢ — تعريف الغريزة Definition

يعرف (مورغان) الغريزة بقوله : « انها سلوك فطري يشتمل على الافعال المعقدة التي تحدث لاول مرة من غير خبرة سابقة بها ، وهي ترمي الى مافي مصلحة الفرد والاحتفاظ بجنسه »

ويعرفها « كلاباريد » بقوله أنها فعل نافع يقوم به جميع أفراد النوع على نمط واحد من غير خبرة وتعلم — ومن غير أن يكون لهم علم بغايته وبعلاقة هذه الغاية بالوسائل المؤدية اليها — .

وربما كان التعريف الاول خيراً من التعريف الثاني ، وربما كان هذا الاخير صحيحاً كل الصحة لواقتصرنا على القسم الاول منه ، اي لوقلنا ان الغريزه فعل نافع يقوم به جميع افراد النوع على نمط واحد من غير خبرة وتعلم ، لاننا لانستطيع في الواقع ان نعرف مايجري في نفس الحيوان ، ولايمكننا ان نؤكد انه يعرف او لايعرف غاية العمل الغريزي ، وعلاقته بوسائله .

والحق اننا نلاحظ الطيور تبني اعشاشها في اوقات معينة دون ان تتعلم ذلك من احد ، ونلاحظ الفائدة التي تجنيها هذه الطيور من بناء الاعشاش ، والامر كذلك في اشباك العناكب ، وخلايا النحل ، وحضن الدجاجة لبيوضها ، فهذه كلها اعمال غريزية يقوم بها جميع افراد النوع على نمط واحد دون تعلم سابق او خبرة .

١ - الغريزة والميل : ويمكن ايضاح الغريزة بمقابلتها بالميل : فالميل اتجاه الى الفعل دون ان تكون هنالك صورة معينة لهذا الفعل ، اما الغريزة فهي اتجاه الى الفعل على صورة معينة ، فكأن الميل فعالية مرنة كثيرة الصور : فاذا تجمدت هذه الفعالية في صورة واحدة ، كانت غريزة . مثال ذلك ميل الطفل الى اللعب فانه يتحقق على صور شتى ، وما اكثر الالعاب التي يخترعها الطفل او تخترع له . اما غريزة الرضاعة ، فلا تتحقق الاعلى صورة واحدة . فالاطفال جميعاً يمتصون اثداء امهاتهم على صورة لاتتغير .

وهنالك فرق آخر بين الميل والغريزة : فهذه الاخيرة تعبر عن الوظائف الاساسية للكائن الحي ، اما الميل فيعبر ، بصورة عامة ، عن كل وظائف الكائن الحي . وبتعبير آخر ان الميول ، بالنسبة الى الكائن ، هي مجموعة الشروط الدخلية التي تؤمن تلاؤمه مع الوسط المحيط به اما الغريزة فهي جملة الشروط التي تؤمن بقاء الكائن الحي ، الفردي او النوعي . والحق ان الغرائز ليست الا هذه الفعاليات الكبرى التي لايمكن للكائن الحي ان يعيش او ان يبقى بدونها : فالطفل لايعيش الا اذا كان يملك غريزة الرضاعة ، والنوعي لايبقى الا إذا ملك الغرائز الجنسية . اما الميول فهي جملة الفعاليات التي تتمم تلاؤم الكائن الحي مع الوسط المحيط به : فالطفل يلعب ويلهو لينفق القسم الفائض من قواه المدخرة ، وليساعد جسمه وأعضاءه على النمو ، وليتمرن ، منذ الطفولة ، على أعمال قد تكون نافعة له في المستقبل ، ولكن الطفل لايموت إذا أمتنع عن اللعب مثلاً ، وهو لايموت ايضاً إذا لم يملك بعض الميول العلمية أو الفنية .

ويتبع هذا الفرق ، أن يكون الميل اعم من الغريزة ، لان هذه الاخيرة لاتتعلق الا ببعض الفعاليات المتبلورة الاساسية ، أما الميل فيعبر عن كل الفعاليات الضرورية للكائن الحي ، ماعدا فعاليات الغريزة ، وفي كثير من الاحيان تنقلب الغريزة الى ميل ، فغريزة امتصاص الثدي التي تعبر عن ميول التغذية في صورها الاولى ، تنقلب الى الميل الى الطعام بصورة عامة . ولنلاحظ الآن ان الميل الى الطعام هو الشيء الرئيسي في الموضوع : وسواء

أتحقق على صورة الغريزة المتجمدة ، أم على صورة الميل الحر ، فانه في جوهره ، واحد لايختلف ، ولكن تختلف صورة ارواثه ، فاذا كانت هذه الصور متجمدة أو متبلورة (أي لها قالب واحد) فنحن أمام « غريزة » وإذا كانت هذه الصور حرة بعض الحرية فنحن أمام الميل وحده .

ومع ذلك فان الغريزة والميل يشتركان بصفه « الفطرية » ونعني بذلك ان كلاًمنهما حادث فطري (١) لايكتسب اكتسابا ، ولهذا يكثر الخلط بينهما ، فيقال غريزة بدلاً من «ميل» ويقال «ميل» بدلاً من غريزة ، مع أن الفرق بينهما واضح .

ب — **مشكلة الغريزة** : ان للغريزة مشكلة حقيقية تنشأ عن صفتين متناقضتين لها . فهي آلية من ناحية وذات غاية من ناحية أخرى . ومن التناقض أن يكون في الآلية غائية مثل غائية الغريزة وإحكامها ، ولايضاح هذا التناقض ، يمكن ان نتخيل قرداً وجد أمامه « آلة كاتبة » وبدأ يضرب على حروفها ، فاذا أنتهى من ذلك وجدنا ما كتبه مثلاً ،قصيدة من قصائد البحتري ، أو مايشبه ذلك . ومثل هذا الامر ، إن وقع شيء غريب جداً لايمكن تصديقه ، ولكن الغريزة تحقق مثل هذا العمل في كل حين ، فهي جملة أعمال آلية يقوم بها الحيوان بصورة فطرية آلية ، إندفاعية ، ومع ذلك فانه يحقق بها أعظم الاهداف شأناً . فالدجاجة تحضن بيوضها ، بصورة طبيعية ، مدة «٢١» يوماً ، ثم تنتهي الى مساعدة فراخها على الخروج من البيوض . ثم تبدأ برعاية هذه الفراخ وتعويدها على التقاط الحبوب وتمرينها على الحياة ، ولا تتركها الا حين تطمئن الى انها تستطيع الحياة بعملها الخاص . وكذلك الطيور تبني أعشاشها ، والعناكب تنشيء شباكها والنحل يبني خلاياه ويتوزع افراده الاعمال المختلفة ، وينشيء أروع الاعمال الغريزية وأجلها خطراً . وهذه الحيوانات والحشرات ، لاتملك من العقل شيئاً مذكوراً ، فكيف تسني لها أن تقوم بهذه الاعمال الخطيرة المحكمة ، كما لو كان لها عقل جبار ، يتقاصر عقل الانسان دونه ... ان هذا التناقض بين الآلية والغائية ، هو الشيء الجدير بالتساؤل والبحث . وهو الشيء الذي يؤلف مشكلة الغريزة .

ولا بد من ايضاح آخر ، فليست مشكلة الغريزة في علم النفس مايحاول التساؤل عنه

(١) هنالك طبعاً ميول مكتسبة ولكننا نعتقد أن لها أساساً فطرياً

بعض الفلاسفة مثل برغسون و كوفيه ، عندما يبحثون عن الدافع الذي يدفع الحيوان الى القيام بالعمل الغريزي ، فهـــذه مسألة يمكن بحثها من طرف آخر ، ولكن المشكلة الحقيقية هي تعليل صورة العمل الغريزي ، واتخاذه هذا الشكل او ذاك بدء من حاجة واحدة مشتركة : فالطير مثـلا تبني أعشاشاً ، والنحل يبـني خلاياه ، والعناكب تنشيء شباكاً . ومن الواضح أن الحاجة العميقة التي تدفع الى هذه الاعمال المختلفة انما هي حاجة الحياة . فلماذا لم تنشيء النحل أعشاشاً يجمع فيها العسل ، ولماذا لم تحاول العناكب الاستغناء عن الشباك بطريقة أخرى للاصطياد ؟ إن كل حيوان — كما يبدو لنا — يقوم مع نوعـه باعمال غريزية من نوع واحد ، فكيف أختار هذه الاعمال دون غيرها ، لارواء حاجته ، وتطمين غريزته ؟ أن هذة المشكلة هي الشيء الذي يحاول علم النفس بحثه قبل غيره .

ولنلاحظ أن آلية الغريزيه كآلية الفعل المنعكس ، وغائيتها تشبه غائيـة الافعال المعقولة ، ولهذا يحسن أن نقابلها بالفعل المنعكس من ناحية ، وبالفعالية المعقولة من ناحية أخرى حتى يتجلى لنا مدى صلتها بكل منها ، ومدى إنفصالها عن كل منهما .

الغريزة والفعل المنعكس : بين الغريزة والفعل المنعكس نقطة شبه رئيسية هي « الآلية » فكل منهما عمل آلي يتحقق من غير تدخل الشعور والعقل . ولكن بينهما مع ذلك ، فروقاً عديدة . أهمها مايلي :

ا ـ **التعقيد** : وهو فرق واضح بين الغريزة والفعل المنعكس . فالغريزة مجموعة آليات متتابعة ، أو مجموعة حركات متتالية . أما الفعل المنعكس فحركة بسيطة ، وما ابعد الفرق بين غريزه عاملات النحل والمنعكس اللعابي .

غير أن هذا الفرق ، إن صح بصورة عامة ، فهو لايصح بصورة دقيقة ، فلقـد رأينا أن الفعل المنعكس الشرطي ، قد يبلغ درجة من التعقيد كبـيرة ، وأن قانون التشعع يفرض ، من ناحية أخرى ، أن يتبع المنبه جملة من ردود الفعل المتتابعة . وفي هذه الملاحظة تضييق لقيمة هذا الفرق في التعقيد .

ب ـ **المصدر** : يلاحظ أن المنبه الاول في الفعـل المنعكس هو خارجي كالحرارة أو الضغط أو الضرب أو مايشبه ذلك . أما المنبه الاول في الغريزة فهو شيء داخلي ، فلا تتضح الغريزة الجنسية مثلاً الا عندما يتم النمو العضوي الذي يقابلها ويهيء انبعاثها .

والحق ان كلا من الفعل المنعكس والفعل الغريزي بحاجة الى نوعين من العوامل : بعضها داخلي ، وبعضها خارجي ، الا أن قيمة العوامل الداخلية في آثارة الغريزة ، أكبر منها في الفعل المنعكس .

هـ ـ **الغائية** : وهذا فرق آخر يوضع بين الغريزة والفعل المنعكس . فالغرائز أفعال تحقق أهدافاً وغايات لها قيمة كبيرة في حياة الكائن الحي ، أما الافعال المنعكسة فليس لها مثل هذه الاهداف الكبيرة ، او ليس لها أهداف ، بصورة مطلقة .

ومن الواضح أننا لانعرف لماذا تتحرك الرجل عند ضربها على الرضفة ، ولا الغاية التي تهدف اليها حركة اليد عندما تضرب على المرفق ، فكأن هذه الأفعال المنعكسة لاغاية لها في حين أن لحركات المطابقة والتوجيه (وهي أفعال منعكسة ايضاً) غايات واضحة في تحسين الرؤية . ولكن هذا لايبعثنا على القول بان مالا نرى له هدفاً ، ليس له هدف في الواقع ، فقد يكون العلم الآن دون القدرة على معرفة الأهداف التي لاندركها .

ومع ذلك فانه يصح ،بصورةعامة، أن نقول بأن أهداف الغرائز كبيرة وأساسية في الحياة ، أما أهداف الأفعال المنعكسة فدون ذلك بقليل أو كثير .

والخلاصة ان بين الفعل المنعكس والغريزة ، بالرغم من آليتهما المشتركة ، فروقاً واضحة : **في درجة التعقيد والمصدر والغائية** .

د — الغريزة والفعالية العقلية

١ — الغريزة والفعل المعقول

Intelligence. 38

إن العقل في الانسان آلة عظيمة الأثر في أحكام التلاؤم مع الواقع . والوظيفة الأساسية لهذا العقل ، مبدئياً ، هي القيام بأعمال غايتها المساعدة على البقاء وتحسين البقاء . وتتميز الاعمال المعقولة بأنها شعورية واضحة لنفسها ، فهي ترى غايتها ، وتتشبث بالوسائل المناسبة لبلوغ هذه الغايات ، وتعرف علاقة الوسائل بغاياتها .

أما الغريزة ، فهي تهدف الى تحقيق هذه الغايات الكبيرة التي أشرنا اليها في تعريفها ، وتستعمل الوسائل المناسبة لبلوغ هذه الغايات وكأنها في ذلك أعمال عقلية، وكأن الفعالية العقلية والفعالية الغريزية مشتركتان في « الغائية » إلا أنهما مختلفتان في نواح أخرى ، ولا بد من الاشارة اليها .

أ — فالاعمال الغريزية نوعية ، أما الاعمال العقلية فردية . ومعنى ذلك ان أفراد أي نوع حيواني يقوم بأعمال غريزية متشابهة ، ليس بينها اختلاف ظاهر . أما الفعالية العقلية فمختلفة من فرد إلى فرد ، ولقد تتعاظم فتبلغ درجة العبقرية ، وتتضاءل فتنحط إلى درجة البلادة الحيوانية .

ب — والاعمال الغريزية كاملة منذ البداية ، أما الاعمال العقلية فلا تبلغ كمالها في أي يوم من الايام . بل تبدأ ضعيفة جداً وتكبر بالتربية والتثقيف والكسب ، على عكس الغرائز التي لا تحتاج في بلوغ كمالها إلى شيء من ذلك .

والحق أن الطائر يبني عشه ، للمرة الاولى ، كما يبنيه أي طائر آخر ، قام بهذا البناء عدة مرات . ولقد يستفيد الطائر من تقليد غيره بعض الاستفادة ، إلا أنه يستطيع بدونها أن يحقق بناء العش على الصورة المناسبة لبلوغ غايات الغريزة .

ج — والاعمال الغريزية عمياء ، أما العقلية فشعورية واضحة . ومعنى ذلك ان الغريزة لا ترى شيئاً خارج حدودها أما العقل فيمكنه أن يتناول كل شيء بالتحليل والبحث ، وليس له حدود يجب عليه الوقوف عندها . وكثيراً ما يذكر ان النحلة البارعة في صنع الخلايا ، تصبح بلهاء كل البلاهة عندما تحاول الخروج من زجاجة عكس وضعها .

ويتبع هذه الفروق أن الأعمال الغريزية : فطرية ، بمعنى أنها لاتكتسب اكتساباً ، وأنها لاتنمو بالتكرار والتمرين أما الأعمال العقلية ، فمن الواضح أنها ليست كذلك ، وأنها تنمو بالتكرار والتمرين .

هذه هي جملة الفروق التي تفصل الاعمال الغريزية عن الاعمال العقلية . ومع ذلك فان هنالك بعض التنبيهات التي لا بد منها في موضوع هذه الفروق :

فالنوعية فارق يصح اعتباره ، بدون أن يؤخذ على اطلاقه ، لأن سلوك الغرائز قد يختلف في النوع الواحد ، بحسب المناطق ، وأحياناً في المنطقة الواحدة .

وأما الغريزة فهي كاملة منذ البدء ، وليست بحاجة إلى خبرة التجربة ، فهذا غير صحيح ، لأنها تقتضي على الأقل خبرة ابتدائية ضرورية لعملها . ونلاحظ أن علماء الحياة يتحدثون عن آثار الخبرة المكتسبة خلال الزمن في الأجيال المختلفة ، وعن انطباع هذه الآثار في العضوية بالمقدار الذي يسمح لها بالانتقال بالوراثة .

ثم أن الغريزة ليست صورة واحدة ، ثابتة كل الثبوت ، لاتتغير ولا تتبدل ، ولا تتبدد

ولا تبلى . وما فيها من ثبوت ، لا ينفي شيئاً من الاضطراب وشيئاً من المرونة . ويلاحظ جيمس ان الغرائز قد تذهب وتضيع إذا لم تجد ما تتمرن به : فصغار العجول قد تضيع غرائزها الأهلية وتنقلب وحشية إذا حدث أن تركت محيطها الأول أو ضلت عنه قليلاً ، والطفل قد يضيع غريزة الرضاعة إذا غذي بطريقة أخرى ، ولم يمرن على الرضاعة . وهكذا فان في الغريزة بعض المرونة ، وبعض القدرة على التلاؤم ، على عكس ماتوصف به أحياناً من جمود وثبوت .

والخلاصة أن من الصعب أن نجد فاصلاً نهائياً يفصل بين الفعل المنعكس والغريزة ، أو بين العقل والغريزة ، وسوف نرى أنها أفق متوسط يمتد في طبقاته الاولى إلى حدود الافعال المنعكسة ، ويرتقي في طبقاته العليا إلى حدود الافعال المعقولة .

٢ — الغريزة والعادة

Condillac

يرى بعض الفلاسفة «لامارك» ان الغريزة في اصلها فعل معقول ، احتاج اليه الحيوان بتأثير ضرورات الحياة الدائمة فكرره من اجلها حتى اصبح له عادة . ثم انتقلت بعض آثار هذه العادة الى الاجيال التالية التي اضطرت الى اكتسابها من جديد ، بتأثير نفس الضرورات التي ارغمت الاجيال السالفة على اكتسابها . وما زالت هذه العادة تسهل على الجيل بعد الجيل حتى اصبحت كلها وراثية . فكأن الغريزة اذن عادة للنوع ، او كأنها عادة اولى اكتسبها الاجداد وانتقلت الى الاحفاد بالوارثة . وبتعبير آخر ان عادات الماضي (التي اكتسبت عن عقل ووعي) هي غرائز الحاضر . الا انه يسهل النقد في مثل هذا الرأي ، فليس من السهل اولاً ان نقبل بوجود عقل نام يكفي لاكتساب هذه العادات العظيمة ، في حيوانات بسيطة ، لانرى لها جملة عصبية نامية ، وليس من السهل ايضاً ان نعتقد بان اجداد هذه الحيوانات او الحشرات البسيطة كانت غير احفادها الآن ، كبراً ونمواً ، وانها كانت في عظمتها الماضية تحمل من العقل مالا تحمله احفادها الآن .

ومن ناحية اخرى يصعب علينا ان نقبل بوراثة الصفات المكتسبة ، لان الموسيقي لاينجب ابناءاً موسيقيين ، مثله في البراعة ، بالفطرة ، بل انه لاينجب ابناء لهم اية عادة من العادات التي اكتسبها خلال حياته ، كالضرب على هذه الآلة او غيرها ، ولو انه من الممكن ان ينجب ابناء لهم بعض الاستعدادات الموسيقية .

ومن ناحية ثالثة نجد ان بعض غرائز الانواع الحيوانية تنشأ في بعض افراد النوع دون ان يكون لآبائها او لامهاتها مثلها : فعاملات النحل تملك غرائز مختلفة في جمع الرحيق وغبار الطلع وصنع الخلايا والعناية بها دون ان يكون لابائها اولامهاتها مظهر الاستعداد للقيام بمثل هذه الغرائز .

ومع ذلك كله ، فان مشكلة اصل الغريزة مشكلة كبيرة لانحاول الآن ، في مثل هذا الكتاب التعرض لها .

٣ - الدراسة التجريبية لشروط العمل الغريزي

لقد اشرنا في الابحاث السابقة الى انه لابد في الغريزة من نوعين من العوامل بعضها داخلية ، وبعضها خارجية ولنبحث الآن في هذه العوامل بحثاً تجريبياً .

١ - **العوامل الداخلية** ذات اثر كبير ، لانها ترهف حساسية الكائن وتنمي استعداده لقبول بعض المؤثرات الجديدة التي لم يكن يشعر بتأثيرها من قبل . وفي هذه الظروف ، يصح الكائن الحي متجه النفس والحساسية الى نوع معين من المؤثرات . فالعصفور مثلاً يعظم انتباهه للعيدان او لبعض انواع الاغذية عندما يحين اجل بناء العش ، والقطط ، في الشهر الثاني من عمرها ، تهجم على الفئران وتترقب خروجها من اوكارها . فالعندان اذن ، من ناحية ، والفيران من الناحية الثانية اصبحت مؤثرات او منبهات ذات قيمة خاصة في عيون العصفور والقطط . ولكنها لم تكن دائماً كذلك ، وهذا يجعلنا نعتقد ان للوسط العضوي تأثيراً كبيراً في اثارة الغرائز وان للميول الكامنة ايام يقظة ، تتنبه فيها ، وتغدو ذات فعالية كبيرة .

وعداً ذلك ، فان للعمل تأثيراً كبيراً في ظهور هذه الميول الكامنة واختفائها ، والغرائز لاتبقى فعالة دوماً . لان تقدم السن يضعفها وينتهي بها اخيراً الى الفناء .

« فبعض الحيوانات الفقرية تولد وغريزة الرضاعة نامية فيها : ثم تضيع هذه الغريزة بتقدم السن . والنحلة في ادوار فعاليتها الكبرى ، تعيش ٣٥ يوماً تقوم اثناءها باعمال ووظائف مختلفة في نظام لايتغير . فهي في اليوم الاول ، تنظف الخلايا الفارغة وتخضن الملأى ، ثم ترضع الشرانق بين اليوم الثالث والخامس عشر ، وتبدأ

بالخروج من الخلية في اليوم الخامس عشر ، كما انها تعجن غبار الطلع المحمول اليها بواسطة النحلات الاخرى ، في داخل الخلية . واخيراً تصبح هذه النحلة كغيرها تحمل غبار الطلع من الخارج . . . ويظهر ان هذه الاعمال تقابل غرائز مختلفة يتعاقب ظهورها في النحلة » .

اما السبب العضوي الذي يبعث على ظهور الغرائز في الحيوان ، فانه يصعب ايضاح طبيعته في اكثر الاحيان . وفي بعض الاحيان الاخرى ، يمكن للباحث ان يعين بعض خواصه .

ومن الواضح ان غرائز التغذية تظهر بتأثير فقر العضوية بالمواد المغذية ، او بمادة منها . وعند ذلك ترهف الحساسية لالتقاطها وامتصاصها والبحث عنها . وهذا الفقر هو السبب في الاضطراب والحركة والبحث عن المواد الناقصة في العضوية ، وليس من الضروري ان نفرض ان الحيوان يعرف الشيء الذي يحاول لقياه بل يكفي ان نقول : ان كل ماهو ذو قيمة غذائية ، يثير ، في الحيوان ، افعالاً منعكسة موجبة اما الاشياء الاخرى فلا تثير من جانبها شيئاً .

« وهنالك حالات جوع خاصة تعرض لبعض الناس ، في بعض الاحيان من اعمارهم كجوع اللحم في الشعوب المحرومة منه ، وجوع المواد الدهنية في الشعوب الساكنة في المناطق الباردة : وجوع السكر : في الاطفال : وجوع المواد الكلسية في الطيور ايام البيض ، وجوع الملح ، في الاقوام المحرومة منه .. ويلاحظ في ذلك كله ان التوازن «العضوي — الكيماوي» physico - chemical هو السبب الاول في اثارة الغريزة » .

وهنالك امثلة اخرى مستقاه من المجموعة الغريزية التي تتصل بالحياة الجنسية ، والغريزة الجنسية ، في اكثر الحيوانات ، موقتة او دورية ، وتغيرات السلوك ، خلال ذلك ، مرتبط بصورة وثيقة بتغييرات البنية العضوية .

ويصحب النضج العضوي نوع من الاستحالة في الجسد ، كاكتساب اعضاء جديدة ، ذات اتصال بالحياة الجنسية استعداداً لحياة موقتة طارئة ، كالحياة الهوائية ، والطيران ، وفي الحيوانات الاخرى ، تظهر استحالات مختلفة يؤلف مجموعها بعض الصفات الجنسية الثانوية ، كثوب العرس في الاسماك ، وفي ذات الحين الذي تظهر فيه هذه التحولات العضوية ، تظهر طبائع اخرى نفسية عند الحيوانات ، كالتجمع بشكل مستعمرات ، والحياة على عمق بسيط في مياه كثيرة مولد الحموضة نسبياً ، او في مياه اقل ملوحة ، عند الاسماك ... وهنالك اخيراً مظاهرات جنسية او استعراضات جنسية كغريزة المحاربة والتغريد عند ذكور الطير ، ولقد اصبحنا الان نعرف الدور الذي تلعبه الغدد الداخلية في نمو هذه الغرائز وقد لوحظ ايضاً ، ان

قطع هذه الغدد ، او ضمورها ، او حقن افرازاتها ، اشياء لها اثر كبير في نمو بعض الغرائز ، وانها الاسباب المباشرة لظهورها وضمورها .

ويظهر كذلك ان غرائز الابوة والامومة ذات اسباب تتعلق مباشرة بالافرازات الخاصة لبعض الغدد ،

«ويلاحظ دائمـــاً ان اهمية بعض المواد ، بالنسبة لبعض لحيوانات تزداد وتنمو نمواً كبيراً في بعض الاحيان . فلا تبدأ العصافير بالاهتمام بالعيدان والقش والطحـالب الا في زمن البيض . والفأرة الطبيعية لاتعير الفيران الصغيرة ، في باديء الامـر ، اقل انتباه . ولكنها ، بعد ذلك ، تبدأ بالاهتمام بها ، فتحملها من العنق ، وتنقلها من مكان الى آخر ، وما يزال سلوكها يتقرب من سلوك الام الى ان يحين وقت ولادتها وتصبح اماً حقيقة ، ويلاحظ ايضاً ان قطع الجملة الودية في القطة يؤدي الى ضمور الغدد الثديية ، ويتبع ذلك ضعف اهتمام القطة بالصغار التي تلدها ثم تهملها تماماً ! »

والخلاصة ان شرائط ظهور الغرائز وضمورها متعلقة ببعض العوامل الداخلية التي يعود اكثرها الى نمو الغدد الداخلية ونشاط افرازاتها ،أو عدم نموها ونقص افرازاتها .

٢ — **العوامل الخارجية** : ومهما يكن من امر ، فالعامل الداخلي في الغريزة لا يكفي ، ولا بد من تحقق بعض الشروط الخارجية ليتم العمل الغريزي ، فاذا كانت هذه الشروط الخـارجية مفقودة ، استمر العمل الغريزي في القيـام ببعض الحركات ، بصورة واحدة ، دون جدوى . وتتكرر هذه الحركات ، تكراراً غير منتظم . وقد لاينتهي الا مع فقدان قوي الحياة نفسها . فالحيوان الجائع مثلا يذهب ويجيء ، ويمشي هنا وهناك ، ويلاحظ ويشم ويراقب ، ويبحث ، حتى يجد الطعام الذي يضع حداً لحركاته هذه. فاذا لم يجده لم تنته هذه الحركات ابدا ، واذا وجد الطعام انتهت اعمال البحث والتنقيب ،وبدأت سلسلة من الاعمال الاخرى ، هي افعال منعكسة وغريزية . وهنا نستطيع ان نجد فرقـاً بين العمل الغريزي والفعل المنعكس ، فمنبه الفعل الغريزي شيء معقد التركيب ، متميز في المحيط الطبيعي ، ولا يتم اكتشافه الاعرضا ، بعد نشوء الحاجة اليه وطول البحث عنه وقد تبقى الحاجة اليه مدة طويلة دون ان تجده . اما منبه الفعل المنعكس ، فلا تسبقه اية حاجة ولا يحاول الحيوان البحث عنه ، وليس هو — بالجملة — بالشيء المعقد التركيب .

وليس العامل الخارجي من البساطة بحيث يعرف بسهولة ، ولابد ان تكون الطرائق

التجريبية وسيلتنا الوحيدة الى تعيين النواحي المثيرة للغريزة فيه . وتدلنا الظواهر على ان ذلك صعب جداً ، بسبب تعقيد مظاهر العامل الخارجي ، وكثرة تشابك عناصره . ولقد عرفنا أن هذا العامل الخارجي ليس جسماً بسيطاً كمولد الحموضة أو النور ، ولا عاملاً وحيداً كالثقالة ، بل هو جملة أشياء كثيرة التعقيد وخاصه جداً ... فكيف تتعرف الغريزة الى أشيائها وما هي الصفات البارزة والخصائص الهامة في هذه الأشياء ؟ ان دراسة الطرائق التي تؤدي الى خداع الغريزة ، تجعلنا نعتقد ان في الاشياء المثيرة للغرائز بعض صفات هامة تلعب الدور الأكبر في أثارة هذه الغرائز ، وبان فيها أيضاً بعض صفات ليس لها كبير شأن في ذلك ، فالغريزة (وخاصه في الحيوانات الدنيئة) لاتهتم إلا بمظهر خاص جدا من مظاهر الشيء الذي تستعملة لارواء غليلها . وأما المظاهر الاخرى فقد تلعب أدواراً ثانوية . ولكن في أوقات أخرى لا في الوقت نفسه .

فالعنكبوت تسرع عادة الى الحشرة العالقة بشباكها ، فتقبض عليها ، وتعضها وتعطل قواها . ولكنها تفعل مثل ذلك عندما يهتز نسيجها باية واسطة أخرى كالرنانة التي تهتز قريباً من الشباك في سرعة معينة .

وبعض الحشرات ترد بوخزة على كل حركة من حركات الفريسة (ويرى هنا فعل الجساسية اللمسية) . وبعض آخر منها لاتقوم بوخزاتها الا اذا شمت رائحة الدم الحي في فريستها . ولقد تنخز ورقة نشاف ، اذا كانت مبللة بالدم (ويرى هنا أثر حاسة الشم) وكل هذا يدلنا على أهمية دراسة الادراك عند الحيوانات ، في مظاهر الغريزة ومنبهاتها .

وهكذا يظهر لنا العمل الغريزي أمرا معقداً كل التعقيد ، اذا انه يتعلق بجملة عوامل خارجية وداخلية ، كل منها يؤثر في العضوية وفي المحيط الخارجي بحيث يؤدي تأثيره الى تنبيه بقية حلقات سلسلة العمل الغريزي .

فاذا جاء مربي النحل — مثلا — بخلايا مصنوعة بصورة كاملة وجاهزة ملأتها النحل بالعسل ، فاذا جاءها بقواعد هذه الخلايا بنت النحل فوقها الباقي وملأته بالعسل . كأنها هي التي تعهدت العمل من أوله إلى أخره . وهنالك حشرة (Pison Argentè) ، يمكنها أن تبني وكرها مرات عديدة كلما أخفى عنها مابنته منه سابقاً . فاذا أظهر لها ، خلال ذلك وكر سبق أن بنت فيه شيئاً ، وأخفي عنها الثاني الذي كانت منهمكة في بنائه ، عادت إلى الاول وشرعت في أكماله وهكذا تتبادل أعمالها في أدوار مختلفة من البناء .

وإذا حبست أنثى هذه الحشرة في الايام التي كان عليها ان تبني وكرها خلالها وتركت

بعد ذلك ، فاننا نلاحظ أنها لاتعود الى بناء وكرها . بل أنها تضع بيوضها في اي وكر مجاور .. ويلاحظ هنا ان العوامل الفيزيولوجية غالبة .

وكل هذا أمثلة تدل على الطرائق التجريبية قادرة على أن تبدي لنا بعض الامور الغامضة في الأعمال الغريزيه . ولو أنها حتى الآن . لم تصل الى نتائج حاسمة .

٤ — مستويات الغريزة

إذا لاحظنا الغرائز المختلفة بدقة ، رأينا أنها انواع مختلفة التعقيد ، حتى ليلاحظ أن بعضها أقرب مايكون الى الافعال المنعكسة ، والبعض الآخر غرائز معقدة جداً ، والقسم الثالث وسط بينهما . ويمكننا بصورة عامة أن نجد في الغرائز ثلاثة أنواع رئيسية . فهنالك:

١ — غرائز يمكن أرجاعها الى حركات ابتدائية بسيطة تتجه الى بعض المنبهات الطبيعية .

٢ — وغرائز أخرى يمكن أرجاعها الى الذاكرة العضوية .

٣ — وقسم ثالث يمكننا تسميته بالغرائز المعقدة ، وتحتاج في تعليله إلى عمليات تحليل طويلة .

آ — أما الحركات الابتدائية أو الغرائز البسيطة ، فيمكن النظر اليها على أنها أفعال منعكسة خاصة م تنبهها العوامل الخارجية ، وقد أنشأ العلم لتعليلها مفهوما خاصاً يسمى مفهوم الجاذبية أو « التروبسم Tropisme »

والجاذبية نوعان نباتية وحيوانية . فاما النباتية فهي حركة أعضاء النبات المختلفة باتجاه بعض القوى الطبيعية ، كالثقالة والكهرباء والنور والعوامل الكيماوية الاخرى . خذ مثالاً على ذلك حركة الجذر باتجاه الثقالة . وحركة الساق باتجاه النور وحركة الجذور العميقة باتجاه بعض المواد المغذية الموجودة في باطن الارض في نواح مختلفة . فاذا صح أن للنبات غرائز خاصة به كانت حركاته هذه في اتجاه الثقالة والمواد المغذية والنور هي تلك الغرائز .

ومن النباتات ما تتساقط أزهاره إذا غنى الانسان قريباً منها ، ومنها ماتتفتح أزهاره

إذا خف النور وتنضم إذا اشتد (١) . ومنها أخيراً (آكلة الذباب) ما يفترس بعض الحشرات ويتغذى بها . وليس في ذلك كله إلا حركات بسيطة تثيرها العوامل الطبيعية المختلفة كالصوت والنور والحساسية اللمسية وما شابهها .

والجاذبية الحيوانية (وتسمى Tactisme) حادثة معروفة . وخاصة عند الحيوانات الوحيدة الحجيرة كالباكتريات والجراثيم . وهي عبارة عن ردود فعل تتألف من حركات ذات اتجاه معين ، كحركات الاقتراب أو الابتعاد ، والتمدد أو التقلص فبعض الديدان يتحرك عمودياً داخل الرمل . وبعض الحشرات مثل الكوكسينيل تجتمع في قمم الاغصان ، والبق المجنح يتجه إلى ناحية النور . وحشرات الليتورين (Littorines) تتجه الى النواحي المظلمة . والذباب تجذبه الثمار المتخمرة أو الزجاجات التي تحتوي على الاثير المتخمر .

والى جانب الحركات الناشئة عن الجاذبية الخالصة . نجد حركات أخرى تعلل بمفهوم « الحساسية التفاضلية » . وهذه حركات تحدث عندما تتغير شدة المؤثر . فاذا فرضنا ان الحشرة تنجذب إلى النور ، فان تغير شدة هذا النور أو وضع حاجز أسود بينها وبينه ، يجعلها تدور على نفسها نصف دورة لتغير إتجاه حركتها .

ولقد حاول العالم (لوب Loeb) تعليل هذه الحركات تعليلاً ميكانيكياً فقال أن المؤثر يحدث تأثيراً كيماوياً خاصاً من شأنه أن يدفع أو يجذب الكائن . واذا كان الساق في النباتات يتجه إلى النور . فذلك لأن النور يضعف نمو الناحية التي تتعرض له ، فينثني النبات من هذه الناحية الضعيفة . ويصبح هذا الانثناء اتجاهاً . إلا أن تعميم هذا التعليل على أفعال الكائنات الحية خطأ ظاهر ، لأنه يناقض كل القوانين العامة في علم الحياة . ومن المعروف ان كل حجيرة تتمتع برد فعل خاص على ما تتلقاه من المؤثرات . فلا بد اذن من تعليل حركات الكائنات الحية بالقوانين العامة التي درسناها في الفعل المنعكس .

ثم ان حركات هذه الكائنات ليست بسيطة دوماً : لأنها أحياناً تضيق أو تمتنع بحكم تعقد المنبهات . وبذلك يصل الحيوان الى تلاؤم أكمل مع المنبهات التي تحيط به . مثال ذلك سرفات اليعاسيب وسرفات « بنت وردان » (٢) فانها في العادة تهرب من النور ولكن إذا صادفت في طريقها نوراً أشد من الذي هربت منه غيرت حركتها وعادت

---

(١) يعرف القامة بعض النباتات من هذا النوع : كالأفنضر والفناجة والمستجبة .

(٢) الطراصير

تمشي في طريق النور الذي هربت منه أولاً ، ومعنى ذلك انها عرفت كيف تفضل آلام النور الخفيف على آلام النور الشديد ، وهذا لا يعلل بتأثير كيماوي بحت .

والخلاصة ان الغرائز البسيطة يمكن ردها إلى الأفعال المنعكسة ، كما يمكن تعليلها بقوانين هذه الأفعال نفسها دون ان ننسى ان ظهور هذه الغرائز واختفاؤها امران تابعان للشروط الخارجية والداخلية التي ذكرناها .

ب — الغرائز المتوسطة والفعالية المحافظة : إذا ارتقينا الآن إلى درجة أخرى في سلم الغرائز وجدنا مجموعة أخرى منها يمكن أن نسميها بالغرائز المتوسطة . وإذا أردنا تعليل هذه الغرائز أمكننا ذلك بالرجوع الى الفعالية المحافظة .

والحق انه يمكن تعليل بعض الحوادث ، إذا عرفنا ان العضويات تحتفظ بآثار الماضي فيها . ويرى بييرون أن الذاكرة العضوية أو احتفاظ العضوية بآثار الماضي حادث عام في العالم البيولوجي .

ولكن لهذه الذاكرة العضوية صوراً متنوعة نذكر منها ما يلي :

١ـ الارتسامات الحيوية : إن العوامل الخارجية المحيطة بالكائنات الحية ليست ثابتة دوماً ، بل منها ما هو دوري ، كالليل والنهار والمد والجزر مثلاً ، ولقد تؤدي دورية هذه العوامل الى دورية الوظائف المقابلة ، فبعض الديدان الخضراء (الكونفولوتا Convoluta) تعيش على ساحل البحر فتختفي حين المد ، وتظهر حين الجزر ، ولكنها لو نقلت إلى ماء هادىء لا مد فيه ولا جزر لما غيرت عادتها هذه بل انها تثابر على الظهور خلال زمن المد وعلى الاختفاء خلال زمن الجزر . والفراشات الليلية : « السفنكس أو أبو الهول » تضطرب ليلاً ، ولو كانت مسجونة في علبة ، لأنها تعودت النشاط في الظلام ، والاختفاء في النهار . ولقد برهنت بعض التجارب على أن هذه الدورية نتيجة اكتساب فردي .

ونلاحظ هنا ان وجود المؤثر الخارجي « الظلام او النور » هو الذي يفرض بعض ردود الفعل الخاصة . غير ان دورية هذا المؤثر تبقي اثراً في المادة الحية . ويبقى هذا الاثر مدة طويلة بعد زوال الشروط التي انشأته . فكأن الكائن الحي قد تحرر ، بفضل ذاكرته العضوية ، من نير الشروط المحيطة به ، واستقل بفاعلية ذاتية سوف تمضي به الى مراتب السلوك العالية .

الذاكرة النوعية : ان الذاكرة العضوية خاصة من خصائص الكائن الحي جملة . اما الذاكرة النوعية فهي ذاكرة النوع الحيواني التي تحفظ آثار افعال النوع الحيواني ، وتكيف سلوكه تبعاً لذلك ، ويمكن القول : ان اجداد النوع الحيواني تكتسب صور فعالية معينة ، بعد جهد كبير ، ثم ترث الاحفاد تدريجياً هذه الصور ، وتصبح لديها اخيراً آلية ، الا ان هذا لايمنع يقظة العقل ، من جديد ، وعودته على هذه الاعمال بشيء من التنسيق والتشذيب ، ليجعلها اكثر تلاؤماً مع الواقع . (مثال ذلك ، هذه الغرائز التي اشرنا اليها في معرض الحساسية التفاضلية) .

ه ـ **الذاكرة الفردية** : ان الذاكرة الفردية تعمل على حفظ آثار احسن ردود الحيوان على المؤثرات الخارجية ، وتكسبه عادات جديدة تضاف الى جملة الثروات الغريزية ، وتغيرها ، قليلا او كثيراً ، وتعمل على تطورها .

مثال ذلك البحث عن الازهار ، عند النحل ، وذاكرة الامكنة ، عند غشائيات الاجنحة . فهذه تطير مستطلعة قبل ان تترك اوكارها لتحفظ في ذاكرتها صور الاشياء التي تهديها الى اوكارها . ومن الحشرات مايستعمل في الاهتداء الى وكره مجموعة من الصور الشمية والبصرية .

complex instinct.

ه ـ **الغرائز المعقدة** : واما الغرائز المعقدة فيمكن ارجاعها بحسب الاحوال ، تارة الى العناصر التي مرذكرها ، واخرى الى العقل ، وفي وسع العالم الطبيعي ان يكشف عن تركيب كل غريزة بتحليل عناصرها ، وبيان امتزاج بعضها ببعض ، بفضل علم الحياة المقابل ومافيه من طرق مقايسة ومقابلة . ولقد يعتمد في ذلك على دراسة تاريخ الغريزة وملاحظة ادوار تطورها ، وكيفية تحولها ، ودراسة نشوئها وبسيكولوجيتها . مثال ذلك السفكس Sphex والاشريات (١) Terebrants فمن المعروف ان السفكس يصطاد الجداجد (٢) . ولكن من غير ان يقتلها ، بل يخدرها بضرباته السامة المحكمة التي تشلها شللاً وتعطل حركتها ثم ينقلها الى جحره ويبيض فوقها بيوضه ، حتى اذا نمت السرفات وجدت غذاءها «لحماً طرياً قريباً منها» . ويقول علماء التاريخ الطبيعي ان هذه السرفات لم

---

(١) الاشريات : حشرات من ذوات المثاقب من غشائيات الاجنحة .

(٢) الجداجد : جمع جدجد وهو حشرة تشبه الصرصور .

تكن لتستطيع الحياة لولا وجود هذا الغذاء بجانبها ، لاسيما وان امها تموت قبل ظهورها الا ان جماعة السفكس تنحدر عن جماعة الاشريات التي تكتفي بوضع بيوضها فوق جداجدحية ، وبين هذه الاشريات وجماعة السفكس كل مايمكن ان يوجد من المراحل المتوسطة : فمن الاشريات فريق يقتل فرائسه ، ويبيض فوقها ، ومنها فريق يبيض فوق الارض ، وينتظر ظهور السرفات ليحمل اليها غذاءها فرائس ميتة في كل يوم ، ومنها فريق يكتفي بحمل فرائس تصادفها في طريقها ميتة من غير ان تتكلف قتلها ، ومنها فريق يضرب فرائسه في كل ناحية ولايعطل حركتها تعطيلاً تاماً . والامر على مثل ذلك في غرائز النحل والنمل .

وهذه الحوادث كلها كافية للدلالة على ان الغرائز المعقدة اليوم كانت من قبل بسيطة ، وان الحشرة تعلمت تعقيدها تدريجياً بما اضافته اليها خلال الزمن ، من تنسيقات واصلاحات وجدتها مفيدة . فكان هناك تطوراً يبدأ بالبسيط وينتهي بالمعقد ويدل على وجوه ذكاء حيواني ينشيء صور الغريزة مستعيناً باصطفاء التجارب اللامتناهية .

ولنلاحظ ان تحليل هذه الغرائز المعقدة من شأنه ان يوضح اثر فعاليتين اساسيتين من الفعاليات النفسية ، اولاهما هي الفعالية المحافظة التي عرفنا اثرها في الغرائز المتوسطة ، والثانية هي الفعالية العقلية التي تعمل هنا عمل الاصطفاء والانتخاب بين مجموعة كبيرة من الاعمال الآلية فتهذبها وتنسقها وتجعلها اكثر ملاءمه لحاجات الغريزية .

خلاصة عامة

الغريزة فعالية محافظة

لقد عرفنا حتى الآن ان الغرائز مستويات مختلفة بعضها على طبيعة الافعال المنعكسة . وبعضها الثاني يعلل باثر الذاكرة — او الفعالية المحافظة — وبعضها الآخر لابد في تعليله من ادخال اثر بعض العناصر العقلية : ففي الاحوال البسيطة جداً يمكن ارجاع الغريزة الى مفهوم الجاذبية (الترويسم والتاكتسم) من ذلك ارجاع غريزة النبات المتسلق الى الجاذبية النباتيه اللمسية . وارجاع غريزة الفراش في اتجاهه الى النور ، او هربه منه ، الى الجاذبية النباتية . وفي الاحوال الاكثر تعقيداً يمكن ارجاع الغرائز الى الحساسية التفاضلية

كتظاهر بعض الحشرات بالموت ، وتنكر السرطان المسمى عنكبوت البحر واختبائه وراء الاشنية ، او الى الاتساقات الحيوية ، كنزوع الخطاف الى الهجرة عند مجيء الشتاء أو الى الذاكرة العضوية او النوعية او الفردية كغريزة النمل في رجوعه الى الاوكار . وفي الاحوال المعقده جداً نلاحظ أنه لابد من تعليل كلي يجمع أثر هذه العناصر المختلفة ويضيف اليها اثر الفعالية العقلية او فعالية الاصطفاء ، كغريزة السفكس الذي يفترس الجدجد ، بوخزه ثلاث وخزات تشل حركته دون ان تميته .

ومهما يكن من امر . فان الغريزة — قبل كل شيء — فعالية محافظة : يدلنا على ذلك انها صور واحدة تتكرر على الدوام في الأجيال المختلفة دون تغير ظاهر .

ولقد رأينا ان الغرائز المتوسطة بالجملة تنحل الى بعض انواع الذاكرة والفعالية المحافظة كما رأينا انه لابد من الرجوع الى هذه الفعالية في تعليل الغرائز المعقدة .

ويجب ان نلاحظ الآن ان هذه الفعالية المحافظة من الاسس العميقة في الحياة النفسية يدل على ذلك انها تبقى راسخة الوجود في النفس ولو زالت اكثر الفعاليات النفسية الاخرى ونلاحظ مثلا ان اللسان ينطلق بما حفظه الانسان قديماً من شعر او نثر دون ان يعي الانسان مايقول . وما اكثر ما نلاحظ ان ايدينا تقوم — على غير علم منا بحركة اعتادتها في الطفولة على سبيل اللهو . ونستطيع هنا ان نثبت الحوادث التالية :

١ — الحادثة الاولى : تتلخص في ان فتاة شهدت خصومة بين افراد اسرة كانت في زيارتها ، البطل الاول في هذه الخصومة غلام لم يجاوز العاشرة من عمره الا انه تجرأ على قريبة كبيرة له وكاد ان يضربها ، وقالت امه تعتذر عنه ، انه عصبي المزاج فلا يجب ان يؤاخذ على مابدا منه :

وفي اليوم الثاني كانت هذه الفتاة في جلسة عائلية هادئة . فسمعت تقول دون اي مناسبة : انه عصبي المزاج فلا يجب ان يؤاخذ على مابدا منه ، كما لو ان الانطباع الاول لهذه الجملة قد فرض نفسه ، واصبح يتكرر من تلقاء نفسه بحكم مبدأ العطالة .

٢ — والحادثة الثانية : تتلخص في ان احد الناس اعتاد ان يسند رأسه الى الجدار ويضربه به عدة مرات على سبيل اللهو والتسلية ثم يموت هذا الرجل وينقضي عهد غير قليل على وفاته . ويكبر احد ابنائه الصغار واذا به يفاجأ مرة على هذه الحال مسنداً رأسه الى الجدار ، ويفعل خلال ذلك مثل ماكان يفعله ابوه من قبل .

٣ — وهنالك حوادث اخيرة من هذا النوع : منها عودة التلميذ الى قراءة قطعة المحفوظات من اولها اذا اخطأ في جزء من اجزائها ، وهرب المسافرين بعيداً جداً من القطار الذي حاد عن خطوطه او هوى ومثل ذلك ايضاً هذه النحلة التي تثابر على ملء الخلية المثقوبة دون ان تشعر بعقم عملها ، او هذا «الاموفيل» الذي يسد جحره ثم يلقى حشرة ميتة فيفتحه لها بالرغم من انه لايستطيع وضعها فيه ، ويكرر العمل ماشئنا له ذلك .

فالغريزة أذن صورة من صور الفعالية المحافظة التي تكرر الماضي وتعيد الروابط القديمة كما هي ، أو قل هي أفق متوسط بين الفعل المنعكس والعقل ، الا أن عقلها ابتدائي ، قلما يستيقظ وكثيراً ما يخبوا ، فتصبح الحركات آلية متتابعة متكررة وفقاً للروابط القديمة من غير تجديد ولا أبداع .

ومع ذلك فأن الفعالية المحافظة ليست مطلقة التأثير في الغريزة اذ قد يستقيظ العقل ويعيد حسن التلاؤم اذا دعت الحاجة اليه ، فأذا كررنا وضع الحشرة بجانب حجر الاموفيل الممتليء مرات عديدة ، رأيناه آخر الامر يترك الحشرة ويعدل عن فتح الحجر لها .

ولنلاحظ آخر الأمر أننا في كل ماقلناه عن تعليل الغريزة لم نجاوز تعليل صورتها الظاهرية التي تم تبلورها ، ولم نوضح حقيقتها الداخلية ، وقد رأينا عند البحث في شروطها الداخلية — انها تنشأ عن بنية عضوية معينة ، تساعدها افرازات بعض الغدد الداخلية .

الفصل الحادي عشر

العادة

L'Habitude

خلاصة البحث

١ ـ تعريف العادة

أ ـ العادة والذاكرة

ب ـ مفهوم العادة

٢ ـ أنواع العادة

أ ـ الاعتياد . ب ـ العادات الفاعلة . د ـ العادات العقلية

٣ ـ شروط اكتساب العادة

أ ـ الابحاث النظرية : أثر التكرار ، وأثر العقل والارادة

ب ـ الابحاث التجريبية : الحوادث وقوانينها

٤ ـ آثار العادة

أ ـ التلاؤم المتزايد .

ب ـ الآلية المتزايدة .

خلاصة عامة

١ ـ تعريف العادة Definition

تعرف العادة بانها استعداد مكتسب للقيام بذات الاعمال ، وتحمل نفس المؤثرات : فركوب الدراجة عمل نكرره ، عندما يصبح لنا عادة ، وأثر التدخين نتحمله اذا نحن تعودناه .

Habit is defined as a predisposition which is aquired to do the same work.

Disposition - Inclination → effective → Active - Action

وبين الغريزة والعادة فرق واضح : فالاولى استعداد فطري Innate أما العادة فهي استعداد مكتسب Acquired ، ثم أن الغريزة مجموعة آليات متجهة الى الفعل لا الى الانفعال ، أما العادة فهي أستعداد عام للفعل أو الانفعال على السواء ، فنحن نتعود الركوب على الدراجة كما نتعود التدخين ، والفرق الاخير يتعلق بالموضوع : فموضوع الغريزة مصالح الكائن الحيوية الكبرى وقد رأينا أنه يستحيل على الكائن أن يعيش اذا كان محروما من غرائزه الطبيعيـــة اما موضوع العـادة فهو جملة مصالح ثانوية للحيـاة : فركوب الدراجة وحسن الكتابـة ، وسرعة القراءة كلها عادات نافعة في الحياة ولكن الانسان يستطيع الحياة بدونها .

أ ـ العادة والذاكرة : ويظهر لنا من تعريف العادة انها شيء مكتسب ، فنحن نكرر أفعالنا العادية التي أكتسبناها في الماضي ، كما يكرر الانسان مثـلا رواية حادثة جرت له في الماضي . وهذا يعني أن بين العادة والذاكرة شيئاً مشتركا : هو قدرة الحياة النفسيـة على الاستفادة من خبرتها الماضية وتجاربها السابقة ، فكأن العادة ذاكرة عضوية ، وكأن الذاكرة عادة نفسية ، وسنرى أن الذاكرة تختلف عن العادة بعض الاختـلاف ، لانها أكثر تعقيداً بالعناصر ، واشد اتصالا بالفعالية العقلية .

ب ـ مفهوم العادة : لقد رأينا أنه يمكن تعريف العادة بالقول : أنها استعـــداد مكتسب للقيام بذات الاعمال وتحمل نفس الآثار . ولكن يجب أن نلاحظ الآن أن العادة لاتكتسب دفعة واحدة . بل لابد لها من فترتين اثنتين : أحداهما فترة التكون ، والثانية فترة الاستقرار . ففى الفترة الاولى تتكون العادة ويتم اكتسابها شيئاً فشيئاً ، وفي الفترة الثانية تتقلب العادة الى طبيعية ثانية كأنها احدى الغرائز .

وتتألف الفترة الاولى من مجموعة اعمال متحولة او متغيرة ، فلا يصح تعريف العادة عندئذ بالقول : أنها مجموعة اعادات للعمل نفسة ، الا على سبيل التسامح ، لان الحركات البطيئة السيئة المتعثرة التي يقوم بها الطفل عند كتابته الاحرف الاولى ، لاتتشابه أبداً مع الحركات السريعة الحسنة المنتظمة ، التي يقوم بها هذا الطفل ، عندما يتعود الكتابة بسرعة . فكأن هذه المجموعة من الاعمال المتغيرة او المختلفة كانت ضرورية لحسن القيام بالحركات الثانية بعد الاولى . وليست فترة التكون شيئاً آخر غير الفترة الضرورية لتمام هذه التغيرات

التي تبدأ بان تكون سريعة ، ثم تأخذ بالتباطؤ شيئاً فشيئاً (١)

أما فترة الاستقرار فهي الفترة التي تتضاءل فيها هذه التغيرات تضاؤلا يمكن معه اهمالها من الوجهة العملية ، وهنا يقف تطور العادة وتقدمها : بحكم استحالة التقدم ، أو لكفاية ماتحقق منه ، وحسن التوازن الذي نشأ عنه ، فالطفل مثلا أصبح يعرف الكتابة ويحسنها ولو أنه لايحسن الكتابة على أكمل صورة ممكنة . والحق أنه لايمكن القول بان العمل قد بلغ حالة الاستقرار المطلقة . لان الكتابة لاتفتأ تتحسن ببطء مدى الحياة ، واذا أنقطع الانسان عنها مدة ، فانه ولا شك يفقد بعض احسانه لها ، وأما التكرار الطويل ، فلا شك أنه ينتهي دائماً باضافات شكلية صغيرة على الانماط العادية للكتابة وعلى الوضع الذهني المقابل لهذه الانماط كالشعور والاهتمام (والانتباه) ومع ذلك يمكننا القول ان العمل العادي قد اكتسب ثبوتا بالتكرار .

ويعمل التكرار على جمع التغيرات ، وأضافة بعضها إلى بعض وتقريب العمل العادي بواسطتها من نموذجه الكامل ، ولا يمكن تصور حصول أي تغير في العمل العادي ، أذا لم يكن هناك من تغير بين المرة الاولى والثانية ، وبهذا المعنى استطاع بعضهم القول ، أن كل عمل بداية عادة ، أو ان العادة تظهر منذ العمل الاول وليس التكرار في الحقيقة الا شيئاً عرضياً ... ولا شك أن حاجة الانسان إلى تكرار هذا العمل أو ذاك ، تبدو شيئاً عرضياً لاضروريا ولهذا يمكن أن نرى في كل عمل بداية عادة ، بمعنى أننا قد نحتاج إلى تكراره ، وأن هذا التكرار قد يجعله عادة .

٢ — انواع العادات
The classification of habits.

يمكننا ان نميز في العادات ثلاثة انواع رئيسية :

فهنالك نوع يمكن تسميته بـ « الاعتياد » والنوع الثاني هو «العادات الحركية» والنوع الثالث هو « العادات العقلية » .

---

(١) أذا أردنا الوصف بدقة ، قلنا أن الاعمال الاولى التي تقوم بها لاكتساب عادة معينة ، تكون ضعيفة الأثر نسبياً ، ثم ... تأخذ بالتسارع بقوة ، وأخيراً تضعف آثارها من جديد ، وتستقر في حدود نهائية ويمثل ذلك كله بخط بياني على صورة (S)

أ — الاعتياد Customs : ان الكائنات الحية كلها تتمتع بقابلية خاصة لاعتياد شروط الحياة المفروضة عليها (كانواع الغذاء والسموم ، والضغوط والحرارة الجوية) ويمكننا ان نلاحظ في بعض الحوادث تغيراً معينا في العضوية يقابل الشروط المفروضة عليها . فاذا اضطر الانسان الى الحياة في جبال عالية ،رأيناعدد كرياته الحمراء يزداد وينمو . واذا تعود تناول بعض السموم فان الجسد يعمل لمقاومتها بانشاء مادة مضادة للتسمم في الدم،ولكننا لانعرف بالضبط ماهو التغير الذي يقابل كل مؤالفة من هذا النوع .

وفي كل هذه الامثلة، نلاحظ ان هنالك مؤثرات خارجية أثرت في العضوية فحدث شيء من اضطراب المؤالفة والتلاؤم ، في اول الامر ، الا ان العضوية تنتهي اخيراً باحكام التلاؤم من جديد ، ويبدو لنا ما كان يؤذينا ويسبب الاضطراب في عضويتنا لم يعد له اي تأثير فينا وهذا مانسميه بالاعتياد .

ب — العادات الفاعلة motor Habits : هذه العادات تتألف من استعداد مكتسب للقيام بذات الاعمال او لتكرار ذات الحركات . وهي اما ان تكون بسيطة ، كاشارات الكلام ، او معقدة كحركات الكتابة والخياطة والتطريز وما الى ذلك .

ولنلاحظ ان هذه العادات معقدة حقاً . لانها احياناً تتألف من مجموعة كبيرة من الحركات (حركات الضرب على العود او القانون أو على المعزف — البيانو —) وهي مع ذلك لاتخرج عن كونها آليات احكم ارتباط اجزائها بعضها ببعض أشد الاحكام : اما بفضل التكرار او بفضل اكتساب ارادي . فاذا انطلقت اليد بالحركة الاولى منهـا تتابعت ورائها سائر الحركات ، دون اي جهد يبذله الانسان في هذا السبيل .

ج — العادات العقلية mental Habits : وهنالك اخيراً طائفة ثالثة من العادات نسميها عادات عقلية : مثل عادة الكلام او التفكير على شكل خاص ، او على طريقة خاصة . فهنالك مثلا من يتكلم على طريقة الخطيب ، او على طريقة المخاصم ، اوعلى طريق الصديق ، وهنالك من يفكر على طريقة الشاعر ، او طريقة المحامي او طريقة الفيلسوف .

ولكن كيف نكتسب هذه العادات ،وما هي الآثار التي تخلفها فينا . ان هذا ماسنبحث فيه الآن في الفقرات التالية .

Aquisition and supression of Habits.

٣ - شروط اكتساب العادة

Repitition

أ - الابحاث النظرية: يستطيع كل انسان بسهولة أن يعرف اثر التكرار في اكتساب العادة ، حتى ليمكن القول : ان العادة بنت التكرار . والواقع أن الطريقة الوحيدة في اكتساب عادة من العادات ، تقوم على تكرار الاعمال التي تتألف منها .

ولقد اوضحنا اثر التكرار عند الكلام عن مفهوم العادة . ورأينا كيف ان بعض المؤلفين يرونه غير ضروري ، حتى لقد زعم بعض الفلاسفة ان العادة بنت العمل الاول . ولايمكننا الآن الدخول في تفاصيل هذه المشكلة .

ولكن نظرة اخرى الى شروط اكتساب العادة توضح لنا ان اثر الاهتمام والانتباه والعقل والارادة ليس بضئيل ، فالاهتمام يساعد على بذل الجهود بسخاء في سبيل اكتساب العادة ، والانتباه يساعد على طرح الحركات الزائدة وتقويم الحركات الضرورية . والارادة تؤيد الاهتمام ، وتقاوم الصعوبات وتستدر الجهود الضرورية ، عندما يفتر الاهتمام وتزول الرغبة الطبيعية التي كانت تدفعنا من قبل الى تعلم العادة . والعقل اخيرا يقابل بين واقع العادة ، ومثلها الكامل ، ويظهر ما بينهما من فروق . فيتعاظم جهد الانسان في سبيل محو هذه الفروق وتخطي الحدود الفاصله كيما يصل الى قيمة العادة ويحسن افعالها :

ب — الحوادث التجريبية ، الحوادث وقوانينها: ولكن العلماء لم يكتفوا بهذه النظرات المجردة ، بل قاموا بتجارب عديدة بعضها على الحيوانات (مثل الفأرة اليابانية) وبعضها على الانسان .

أما تجارب الحيوانات فقد تعهدها « ثورنديك » و « يركس » والفكرة العامة في هذه التجارب هي انشاء تيه معقد المدخل والمخرج ، إذا نجح الحيوان بالخروج منه تلقى مكفأة طبيعية (كالطعام مثلاً) . وإن لم ينجح تلقى عقاباً ما (كرجفة كهربائية)

وأما التجارب التي أجريت على الانسان ، فكانت ملاحظة كيفية حفظه لمقاطع لا معنى لها ، أو لاعداد ليس بينها وحدة ، أو كيفية تعلمه الضرب على الآلة الكاتبة .

والغاية من ذلك كله ان يلاحظ سير اكتساب العادة ، بصورة مجردة ، لاأثر للتفكير والعقل فيها .

ولقد لاحظ العلماء أن قانون اكتساب العادة واحد في الانسان والحيوان على السواء ، وهو شبيه بقانون ردود الفعل أو الأفعال المنعكسة ، وليس من فرق في

حدود هذا القانون ، بين الانسان والحيوان ، إلا في درجة التعقيد .

أما الخط البياني الذي يمثل هذا القانون ، فهو على صورة الحرف « S » دائماً ومعنى ذلك ان اكتساب العادة ، يكون في أول الأمر (أو خلال التكرارات الأولى) بطيئاً ، ثم يتسارع بقوة حتى يبلغ ذروة الاستقرار التي يصعب تجاوزها .

أما عوامل الاكتساب فبعضها من نظام آلي ، لا أثر للعقل فيه ، وبعضها يتعلق بالعقل والارادة ، ولنذكر الآن كلمة عن كل منها .

أ — قانون التجارب والاخطاء Apprenticeship : إن الحيوانات الدنيئة تتلاءم مع الظروف الجديدة بواسطة مجموعة من ردود الفعل العمياء : فالرد الناجح في التلاؤم ، يوقف فاعلية الحيوان وينتهي الأمر ، ولكنه لا يبقي أثراً ثابتاً في الجملة العصبية يمكن أن يستفيد منه الحيوان ثانية ، لأنه لا يوجد لمثل هذه الحيوانات جملة عصبية نامية ، تختزن آثار التجارب الناجحة .

فاذا وضعنا في قدح من الماء نقطة حمضية ، على مقربة من كائن حي ابتدائي من « النقيعيات » ، فاننا نلاحظ أن هذا الحيوان لا يكاد يصل إلى المنطقة الحمضية حتى يتراجع عنها ثم يعود إلى التقدم ثم يتراجع من جديد ، وربما أدخلته حركاته هذه في المنطقة التي يحاول الخروج منها ، وربما أخرجته منها ، غير أن تغير اتجاه هذه الحركات ، في كل مرة ، يبقى له بعض الأمل في ارتقاء المنطقة الخطرة .

واذا ارتقينا قليلاً في السلم الحيواني ، رأينا ان الذاكرة تدخل كعنصر هام في أحكام التلاؤم ، لأن التلاؤم الموقت يترك آثاراً تساعد على تسهيل التجارب التالية واختصارها ويكتسب الحيوان ما نريد له من « العادات » فاذا حبس حيوان ما (كلب أو قطة) في قفص وهو جائع ، ووضع الطعام خارج القفص بحيث يراه ، فان الجوع يضطر الحيوان الى محاولة بلوغ الطعام .

الا ان الحيوان لا يستطيع الوصول الى الطعام الا بفتح باب القفص . والقفص لا يفتح الا بآلية خاصة بسيطة أو معقدة . فعلى الحيوان اذن ان يكتشف هذه الآلية (كأن يصعد على سطح مائل أمامه ، أو أن يسحب منه ، أو أن يشد على مفتاح ..) وليس ذلك بالسهل عليه ، ولكنه اذا كان نشيطاً ، يبدأ باستعمال جملة حركاته الطبيعية حتى يستنزفها ، ثم يعدو هنا وهناك داخل القفص ، ويعض الشباك ، ويحفر الأرض وهكذا يحصل أخيراً بالعرض ، على الحركة المناسبة التي تفتح له الباب ، فيخرج

ويأكل فاذا تكررت التجربة قل عدد المحاولات الفاشلة، وانتهى الحيوان أخيراً بالخروج سريعاً من الباب للوصول الى الطعام .

ومن الممكن وضع الحيوان في تيه — كما أسلفنا — واغلاق باب الدخول وراءه وعلى الحيوان عندئذ أن يحاول الخروج من باب آخر ، يجد أمامه الطعام المهيأ له فنلاحظ ان الحيوان في باديء الأمر ، يضل الطريق ، ويتجه كيفما اتفق له ، ويدخل في دهاليز كثيرة لا مخارج لها . ثم يرجع على عقبيه ، ولا يزال على ذلك مرة ، بعد مرة ، حتى يصبح الدخول الى التيه والخروج منه شيئاً سهلاً وسريعاً .

ولا شك ان على الحيوان خلال هذه التجارب أن يميز بعض المدركات النافعة في الاهتداء الى الطريق ، وأن يستعين بها خلال المسير ، والا فان العادة تصبح مستحيلة ، ويعسر على الحيوان اكتسابها . ومن السهل أن نعرف أن العادة هنا تنشأ عن كثرة التجارب وحذف الاخطاء بالتدريج .

ولنلاحظ ان اكتساب العادات يتم في كثير من الاحيان بفضل هذه الطريقة عند الانسان والحيوان على السواء : فالحيوانات الدنيئة لا تعرف طريقة غيرها ، والطفل يفضل المحاولة وتكرار التجارب على الطريقة المنظمة أو المعقولة، وخاصة في الاشهر الاولى ، اذ يضطر لصرف قسم كبير من الحركات العضوية المختلفة التي تتحول شيئاً فشيئاً الى أشياء واشارات منظمة ، بل ان الانسان نفسه يستعمل المحاولات والتجارب كلما بدا له انه لا يفهم من الامور شيئاً واضحاً .

conditional Reflex.

ولنلاحظ الآن ان هذه الطريقة في اكتساب العادات تذكرنا بالفعل المنعكس الشرطي. ذلك ان هذه الادراكات التي يستعين بها الحيوان على معرفة طريقه في التيه تشبه تماماً تلك المنبهات الاصطناعية المضافة إلى المنبهات الطبيعية :

فالادراكات الجديدة لم تكن تتمتع باية قيمة قبل تجارب الحيوان الجديدة ، او قبل حاجته الى الاهتداء بواسطتها ، وكذلك المنبهات الاصطناعية لم تكن لها اية قيمة قبل اقترانها مرات عديدة بالمنبهات الطبيعية . وهذه الملاحظة تثبت لنا ان بين العادة المعقدة والفعل المنعكس الشرطي قرابة واتصالاً .

ب — تجربة التمارين وقانون جوست « Jost »

ولقد ادت التجارب الى ايضاح شيء لم يكن من السهل ان يعرف ، وهذا الشيء هو

Repetition

تفريق التمارين وفصلها بعضها عن بعض ببعض الفواصل الزمنية ، فاذا ظن انسان انه يكتسب العادة بالتكرار المتواصل ، فانه يخطيء ظناً . لا لأنه يستحيل اكتساب العادة بمثل هذا التكرار بل لانه في ذلك يضطر الى صرف جهود كبيرة ، يمكن اختصار قسم كبير منها اذا فرقت التمارين وفصلت ببعض الفواصل الزمنية ، وهنالك فاصلة مثلى أحسن أثراً من كل الفواصل ، ويختلف زمن هذه الفاصلة بحسب الحيوانات .

٥ ـ النضج العضوي

واذا كان ترك الفواصل مفيداً ، فذلك لانه يفسح المجال لنضج العادة ورسوخ آثارها في الجملة العصبية . وكثيراً مايلاحظ الانسان انه لم يكتسب من العادة شيئاً يذكر ، بالرغم من كثرة التمارين ، ولكنه يلاحظ ايضاً انه قد خطا فيها خطوات مفاجئة سريعة لم تكن منتظرة ، مما يدل على أنها نضجت عضوياً واستقرت آثارها ، فبدت على صورة تقدم محسوس . وفي الحياة امثلة كثيرة على ذلك ، فالتلميذ يجهد في الليل جهداً كبيراً في سبيل حفظ أمثولاته ، ولكنه لايلاحظ انه اتقن حفظها . فاذا نام ، واستيقظ عند الصباح ، رأى انه يتقن ماحفظه اتقاناً لم يكن يحسنه في الليل . وكذلك حال متعلم السباحة ، وحال العازف على الة موسيقية ، فانه قد يعرض لكل منهما ان يترك عادته مدة طويلة ، حتى يظن انه نسيها تماماً ، فاذا عاد اليها بعد ذلك ، راعه انه يحسنها اكثر من ذي قبل ويتقنها بصورة غير متوقعة ولامنتظرة وما ذلك الا لان النضج العضوي قد استقر وتم خلال فترة الانقطاع .

وتعليل هذا الامر في النظريات الحديثة بسيط بعض الشيء ، اذ يحسب علماء الفيزيولوجيا اليوم ، ان العادة تتكون من اشتراك جملة من الخلايا العصبية في عمل واحد كسهولة جريان التيار العصبي فيها جميعاً «وان التكرار يفيد في تمكين هذا الاثر في الخلايا العصبية ، أو في تمهيد الطرق للتيار العصبي ، وبتعبير آخر يمكن القول : ان كل عمل من اعمال العادة يقتضي عمل جملة من الخلايا العصبية ، والعادة بجملتها هي حسن ارتباط عمل هذه الخلايا المختلفة . والتكرار يساعد على تمكين هذا الارتباط . الا ان العمل العضوي الداخلي لاينتهي بانتهاء العمل الخارجي ، بل نحتاج الى فترة زمنية خاصة به ، حتى يستقر الاثر ، ويتم الارتباط العصبي ، وهذا مايفسر الحاجة الى ترك الفواصل بين التمارين المختلفة كما يفسر

صعوبة اكتساب العادة بمجرد التكرار المستديم .

ويمكننا ان نجد في هذا التفسير ايضاحاً للخرافة التي تزعم ان العادة تكتسب من العمل الاول وان التكرار لاقيمة له . فمن الواضح ان الانسان الذي يتعود عادة من العادات، من القيام بها مرة واحدة ، لم يكن يستطيع ذلك الا لان في جملته العصبية استعداداً سابقاً لاكتساب هذه العادة ، وليس العمل الاول عندئذ الا اضافة بسيطة لابد منها لتفتح الاستعداد فاذا كان هذا الاستعداد ضعيفاً كان لابد من التكرار مرات عديدة حتى يحصل الانسان ، بتراكم لآثار ،على تكون ثابت للعادة . ومثال ذلك كله طهي الطعام ،فانه لابد فيه من كمية معينة من الحرارة لاينضج الا بها، فاذا نقصت كثيراً او قليلاً لم ينضج ولم يكن شهياً .

graduation of the difficulty
د — تقسيم الاعمال وتدريج الصعوبات

تتألف كل عادة من جملة اعمال او اثار بسيطة ، ولا بد في اكتساب العادة من تحليلها الى أعمالها أو اثارها البسيطة وتعود كل منها على حدة ، فاذا أتقن هذا العمل بدأنا بغيره وهكذا ... ومن الواضح أن عدم التقيد بهذا القانون يفضي إلى أخطار جسيمة على الانسان أو الحيوان الذي يتعود عادة من العادات : خذ مثالا على ذلك « مرض الجبال الذى يصيب بعض المصطافين في المناطق الجبلية العالية ، أو دوار البحر ، او تعود السم والرقص أو الركوب على الدراجة . أو سوق السيارة فاذا شرب الانسان مثلاً كمية كبيرة من السم ، لاول مرة ، داهمه الموت وقضى عليه ، اما أذا شرب كميات قليلة متزايدة ، يوما بعد يوم ، فانه يستطيع أن يتناول اخيراً تلك الكمية الكبيرة بدون أن يخشى خطراً

the vitalist spiritualist theory . العوامل النفسية — ٥

ومن العوامل المساعدة على حسن اكتساب العادة في الحيوانات العالية والانسان هذه العوامل النفسية المحضة التي هي المنفعة والاهتمام والجهد الارادي والعقل . ويعمل الاهتمام على اثارة القوى الكامنة وحشدها في سبيل كسب العادة كما يعمل الجهد الارادي على التعويض عن أثر الاهتمام الطبيعي . اما العقل فانه يلاحظ الاعمال الخاطئة ويراقب اتقان الاعمال الحسنة ، فيحذف الاولى ويقوي الثانية . ويتساءل (دولاكروا) عما اذا كانت فعالية العقل لاتتدخل في كل مستويات العادة .

ومهما يكن من أمر ، فان تقدم العادة ، في الانسان والحيوانات العالية ، أمر لا يتعلق بالذاكرة العضوية فحسب ، بل يتعلق بالجملة العصبية ايضاً . وليست العادة بالشيء الذي يقتضي نضجاً عضويا فحسب ، بل انها تقتضي نضجاً عقلياً او نفسياً ايضاً

٤ — آثار العادة

يختلف النظر الى آثار العادة ، فبعض الفلاسفة يرون أن ليس للعادات آثار واحدة مثل ، أغجر egger و « مين دوبيران Maine de Biran » . وبعضهم الآخر يرى أن العادة في أعماقها ذات طبيعة واحدة ، مهما أختلفت صورها ، ولهذا كانت آثارها دوما واحدة .

General Habit Special Habit

ويقسم « أغجر » العادات الى عادات خاصة وعادات عامة ، فالخاصة ليست الا تكرار العمل الذي قمنا به من قبل ، كعزفنا نغما وحيداً تعلمناه ، أو تمثيلنا دوراً وحيداً حفظناه . وأما العادة العامة فهي القدرة على تغيير العمل الذي تعودناه ، وتنويع أساليبة ضمن بعض الحدود ، مثال ذلك الاديب الذي يحسن الكتابة في كل المواضيع مثلا ، والموسيقي الذي يبدع أنغاما جديدة غير التي تعودها من قبل . وعلى هذا تكون العادة الخاصة حفظاً لجزئيات الماضي وتكراراً لها ، وتكون العادة العامة قدرة جديدة على الابداع ، وهكذا تختلف آثار العادة : اذ ليس في العادة الخاصة الا الفعالية المحافظة وحدها ، أما العادة العامة فهي تنمي قوى الابداع manifestation

غير أن الفلاسفة انتقدوا هذا التصنيف ، وقالوا أن كل عادة عامة بطبيعتها أو ليست العادة نوعا من السلوك الثابت في مختلف الظروف والاحوال ، نعوض به عن كل صور السلوك الممكنة ؟ فليس هنالك اذن اي مجال للفصل بين عادات خاصة وأخرى عامة .

وكذلك انتقد الفلاسفة تصنيف (مين دوبيران) للعادات ، اذ زعم هذا الفيلسوف أن هناك عادات منفعلة تتعلق بالاحساسات (كالتعود على بعض الروائح أو بعض الاصوات) passive Habits

وهنالك عادات فاعلة تتعلق بالادراكات التي تقتضي فعالية المتعود كعادة الرسم او التصوير أو التطريز أو مايشبه ذلك ثم زعم أن العادات المنفعلة تخفف وضوح الاحساس وتضعف الشعور به ، فلايعود صوت الناعورة واضحاً ويمضي الانسان في نومه بهدوء ، وكأنه لا يسمعه ولا يحس به . وأما العادات الفاعلة فانها تزيد حدة الادراك وتنميه ، وتجعله Active Habits

اكثر سهولة وكمالاً ، وتخلق في الانسان استعداداً للقيام به ، بصورة عفوية ، فلا يزال الرسام مثلا يتمرن على الرسم مرة بعد مرة ، حتى تنطلق الخطوط سهلة لينة من بين يديه ، وتصبح الدقائق القليلة لديه كافية لانشاء صورة رائعة الفتنة والكمال . والامر كذلك في صانع الخمور وتاجر الاقمشة وبائع الروائح فانهم جميعاً يصبحون بالتدريج أقدر على تمييز البضاعة الجيدة من الرديئة ، وأحسن معرفة بانواع الخمور ، وأصناف الاقمشة ، ومزايا الروائح .

وخلاصة انتقاد الفلاسفة على هذا التصنيف ، انه ليس هنالك ما يبرر انقسام العادات الى منفعله وفاعلة ، لانها جميعاً تقتضي فعالية المتعود ، فان لم تكن هذه الفعالية ظاهرة واضحة ، تراها العين ، او تلمسها اليد ، فانها مع ذلك فعالية حقيقية لامجال للشك في وجودها ، وهل يتم الاعتياد على شرب السموم دون أن تقوم العضوية الداخلية بفعالية معينة تنشيء المناعة ضد السموم ، وهل يكتسب الانسان هذه المناعه بالانفعال المحض ؟

فالعادة ، إذن ، على اختلاف انواعها تقتضي فعالية المتعود . سواء أكانت هذه الفعالية داخلية أو خارجية .

وهكذا نخلص الى نتيجة واحدة : وهي أن للعادات المختلفة آثاراً واحدة لامختلفة ، ولكن ما هي هذه الآثار ؟ انها شيئان معاً : أولهما تحقيق تلاؤم متزايد ، والثاني آلية (أو أوتوماتية) تكتسبها تدريجيا ردود الفعل العادية .

١ — **التلاؤم المتزايد** Augment adaptation : ان هذا الاثر واضح في كل انواع العادة ، فما كان صعباً في العادة يصبح سهلا ، وما كان بطيئاً يصبح سريعاً ، وما كان متردد الخطى ، ضعيف الاتصال ، يصبح قوي الانسجام ، شديد الاتصال . وجملة القول إن العادة تبدأ غريبة عنا كل الغرابة حتى ليتعذر علينا التلاؤم مع مقتضياتها فاذا لابستنا ظروفها ، وكررنا أعمالها زادت الفتنا لها ، وزالت عنا غرابتها ، وأصبحت كأنها شيء منا ، وهذا ما نسميه : تحقيق التلاؤم .

ولنلاحظ ذلك أولا في الاعتيادات فان شرب السم ينشيء ، في بادىء الامر ، بعض الاضطرابات العضوية ، ولكن هذه الاضطرابات تتناقص تدريجياً وتنتهي بالزوال نهائياً ، والامر كذلك في دوار البحر ومرض الجبال .

ولنلاحظ ذلك أيضاً في العادات الحركية (أو الفاعلة) ، فالعادة هنا مؤلفة من سلسلة

Active Habits
Motor habits

أفعال ابتدائية مرتبطة بعضها ببعض ، فاذا انطلقت الحركة الاولى تبعتها الحركات الثانية من تلقاء نفسها، واحدة بعد واحدة، وكأن كل حركة منها دعوة ملحة للحركة الثانية، فاذا قلنا مثلا: «لقد حان وقت الذهاب الى المدرسة» رأينا الجسم يتجه نحو الباب وتندفع الخطى بعضها وراء بعض ، ثم تغير اتجاهها هنا وهناك ، بصورة عفوية ، حتى نرى انفسنا ، آخر الامر، أمام باب المدرسة ، ندخل غرفة المدرسين أو غرفة الصف ، بحسب الظروف ، والامر كذلك في حركات العازف على العود ، فانه مايكاد يحرك الوتر بنغمة معينة ، حتى تنطلق يده بين الاوتار الاخرى ، لتكمل النغمة الاولى بما يناسبها من النغمات ، وهكذا نرى أن حركات العادة المختلفة ، يتتالى بعضها وراء بعض ، بمجرد انطلاق الحركة الاولى أو بمجرد ظهور المنبه الأول ، وذلك بفضل آلية عقلية — حركية مركبة .

ولكن تسلسل الحركات على هذه الصورة ، وانطلاق بعضها اثر بعض بهذه السهولة وهذه المرونة ليس بالشيء الطبيعي الذي يتم لأول وهلة بل هو أمر اكتسابي تهيأ بالتدريج وانتظم بالتكرار والاصطفاء . وما أبعد الحركات المترددة ، المضطربة التي تقوم بها يد الطفل المبتديء ، حين الكتابة ، عن الحركات السريعة المطمئنة التي تقوم بها يده نفسها عندما يتم اكتساب العادة ، فالانتقال من الحالة الاولى المضطربة الى الحالة الثانية المطمئنة هو الشيء الذي نسميه « بالتلاؤم » .

ولنلاحظ هنا صلة العادة بالفعل المنعكس الشرطي فليس هذا الفعل الا جملة من ردود الفعل على منبهات اصطناعية اقترنت بالمنبهات الطبيعية . فاذا تعقد الفعل المنعكس الشرطي بعض التعقد لم يختلف عن العادة بشيء (مثال ذلك العاب الحيوانات المفترسة التي يوجهها المروض) .

ثم لنلاحظ أيضاً ما بين العادة والغريزة من الشبه : فالغريزة جملة من الحركات يتتالى بعضها وراء بعض بمجرد ظهور المنبه المناسب ، والعادة أيضا سلسلة من الحركات يتتابع بعضها اثر بعض بمجرد ظهور المنبه المناسب ، الا ان منبه الغريزة فطري ، في حين أن منبه العادة اكتسابي، وهذا ما يجعل منبه العادة أوضح في الشعور من منبه الغريزة .

وكذلك تتصل العادة بالارادة ، لان أعمال الارادة بالجملة اعمال عادية مختلفة تتصل فيما بينها بالفكرة الارادية التي توجهها، الا ان الفكرة الارادية اوضح بالضرورة من منبه العادة وأعمق اتصالا بالشعور .

وهذا كله مما يساعدنا على فهم أثر العادة في التقدم : اذ ان احكام التلاؤم يزيد سرعة

العمل كما يزيد دقته واتقانه وسهولته ، وهو لايصل الى ذلك الا بعد ان يحذف جملة الاعمال الطفيلية والحركات الزائدة التي تتوضع فوق الاعمال الضرورية للعادة، بل ان العادة لاتتقدم فيما تحذف بمثل ما تتقدم فيما تنشيء ، أي أنها تتقدم بفضل ما تحذفه من الحركات الزائدة بمقدار ما تتقدم في انشاء الصلة واحكام التلاؤم بين الحركات الضرورية ، ولكن كلما ازداد التلاؤم ، وتم احكامه ، انحدرت الاعمال العادية من مستوى الارادة والانتباه الى مستوى الآلية واللاشعور ، وبذلك يفرغ الانتباه من موضوع العادة ليتجه الى أعمال أخرى جديدة ، يمكن اضافتها الى المكتسبات الفردية ، والثروات الطبيعية : فاذا تعود الطفل الكتابة مثلاً لم يعد بحاجة الى الانتباه اليها ، وشغل فعاليته العقلية بموضوع جديد يجب عليه أن يتعلمه ، وبهذا المعنى يقولون ان العادة أداة تقدم أو مساعدة على التقدم . وبهذا المعنى نقول ايضاً ان الفعالية المحافظة أي العادة تساعد الفعاليات المبدعة أي فعالية الانتباه والارادة.

وهذا الامر واضح كذلك في العادات العقلية : وكلنا يعرف ان مهارة الطالب في حل المسائل الرياضية أو الطبيعية ليست ناشئة عن عبقرية خاصة . فحسب ، بل تابعة لتعود هذا الطالب حل مثل هذه المسائل : فكأنما يختزن العقل جملة من الآليات المنطقية ومجموعة من الحيل العقلية ، وثروة من الأساليب الفكرية تساعده على فهم المسائل الجديدة ، والاحتيال عليها ، والوصول الى حلها . والأمر كذلك في المكتشفين في العلوم والمبدعين في الفنون والآداب معاً ، إذ لولا عاداتهم الطويلة في البحث ، وادخارهم جملة من الثروات العلمية أو الفنية أو الأدبية ، لما استطاعوا أن يتقدموا أية خطوة في طريق الابداع الصحيح (١) .

ويرى لتوير بحق أن العادة في القواعد الخلقية لا تختلف عن أية عادة في عمل الذكاء العقلية بمعنى أن الطريقة الأخلاقية لا تعدو أن تكون في الحالة الجيدة مجموعة من العادات المرنة ،

والقواعد الاولى في التلاؤم الخلقي ، بل تتم له بعد ان يكون قد جاوز الشوط الاول ، واستغنى بآلياته المعتادة عن التفكير فيه ، واصبح قادراً على التفكير بامور اعلى مرتبة

---

(١) من المعروف والمشهور ان الشاعر لا يقول الشعر الا بعد ان يحفظ ثروة كبيرة من الاشعار والدواوين وان الفنان لايرسم اللوحة الرائعة الا بعد ان يكون قد استهلك عمراً طويلاً في صناعة الرسوم.

واسمى منزلة من هذه الامور البسيطة (١) . فكأنه لابد للانسان من ثروة اولية من العادات الخلقية . يسعى الى اغنائها تدريجياً . حتى يصل الى مرتبة الابداع الخلقي .

وعلى ذلك نرى بان لافرق بين العادة الخاصة والعامة ، فكل عادة عامة بالضرورة ، لانها تعوض برد واحد عن جملة من الردود المختلفة الممكنة ، او بجواب واحد عن جملة من الاجوبة الممكنة ، ولهذا كانت كل عادة ، مهما كانت خاصة ، خطوة في التطور ، ووثبة نحو التقدم . فالعادة وحسن التلاؤم وجهان لحقيقة واحدة : فالوجه الاول وجه الفعالية المحافظة ، والوجه الثاني وجه الفعالية المبدعة .

وليست العادة اخيراً الا صورة معينة من صور التلاؤم ، ولكنها صورة متبلورة : فلقد نستطيع العزف على آلة من الآلات بألف صورة وصورة ، ولكن العادة تنتخب صورة واحدة من هذه الصور ، وتلزم الانسان بها ، فلا يعزف مثلا الا على صورة واحدة هي صورة العادة التي اكتسبها ، ولكن التلاؤم من ناحية أخرى ، لايتحقق الا في جو مهدت سبله العادات . وهل يستطيع الحائك ان يصطنع في كل يوم ، صورة جديدة للحياكة ، وأن ينتج منها ما يجب إنتاجه ؟ فلا بد إذن من صورة معينة يلتزمها ، ويعمل بحسبها ، ليستطيع العمل والانتاج والتلاؤم مع شروط العمل والانتاج ، وهكذا نرى ان هنالك وحدة بين العادة والتلاؤم . اذ لولا الحاجة الى التلاؤم لما نشأت العادة ، ولولا العادة لما تم إحكام التلاؤم .

و الخلاصة ان الاثر الاول للعادة انما هو زيادة التلاؤم بين الانسان والمحيط الذي يحيا فيه . وهذا التلاؤم داخلي كما هو خارجي ، لان اجزاء العادة تزداد ارتباطاً مع التكرار ، وتقوى وحدة وانسجاماً ، من ناحية اولى ، والعادة ، من ناحية ثانية ، تساعد الانسان او الحيوان على التلاؤم مع شروط المحيط الذي هو فيه ، فتزداد قوة احتماله للمؤثرات الخارجية ، ويحسن عمله في ظروف العمل ، ويفرغ انتباهه لاعمال اخرى تزيده قدرة على التشبث بالحياة ، والانتفاع بما ينميها ويغذيها .

ب — الآلية المتزايدة Mechanistic Theory : والاثر الثاني للعادة هو الآلية والاوتوماتية . ونعني بذلك زوال الشعور والجهد ، اوتضاؤلهما كلما ازدادت العادة رسوخاً . والحق ان شعورنا

---

(١) نلاحظ ان الانسان الذي يحتاج الى التفكير بجواب التحية الملقاة عليه ، او بصور الاحترام البسيطة التي يجب ان يقدمها للاخرين ، لايستطيع ان يفكر باعمال خلقية في مرتبة البطولة .

بالاحساسات اللمسية ، والحروريه ، والذوقية ، والشمية يضعف ويتضاءل ،بحكم تكررها. الا ان ضعف الشعور هنـا ليس نتيجة لقانون العادة ، بل هو نتيجة لقانون النسبية في الاحساس. فالعادة مثلاً تقضي بان يتضاءل الشعور بهذه الاحساسات ،بصورة دائمة ،لابصورة موقتة ، كما هو الامر في هذه الحال . اذ ان احساساتنا الشمية (كشم رائحة زهرة توضع امام فوهتي الانف) تزول وتتلاشى بمجرد استمرارها ، ولكنهـا تعود واضحة قوية ، كما كانت ،بمجرد انقطاعها قليلاً ، على عكس مايجب ان يكون الحال في العادة. اما احساساتنا السمعية فلا تضعف ولاتتضاءل ، ولكن يضعف انتباهنا اليها واهتمامنا بها : فعامل المطحنة يسمع ضجة الطاحون كما يسمعها اي انسان آخر ، لم يألفها ، ولكنه لا يهتم بها او لاتزعجه كما تزعج غيره ، والامر على مثل ذلك في الاحساسات البصرية ، فليس من يرى ان الالوان تزدادا وتقل وضوحاً اذا استمر النظر اليها مدة قليلة او كثيرة . فمن الخطأ القول اذن بان العادة تضعف الشعور وتقوي الادراك اذ العكس هو الصحيح : ان العـادة تضعف الادراك ولاتغير شيئاً في الشعور العفوي ، أوقل انها تخفف الشعور التأملي الذي يشغل الانتباه ويملأ النفس .

ويرى «مين دوبيران» ان العادات الفاعلة تخلق حاجة لتكرارها . والحق ان العادات المنفعلة «او مايسميه كذلك» هي التي تخلق هذه الحاجة ، فالذي يتعود شرب السموم او المخدرات او المشروبات ، لايجد بداً من تناول حصته منها في كل يوم ، حتى ينتهي الى الادمان. اما اذا تعودنا ركوب الدراجة او الخياطة او التطريز . فاننا لانجد هذه الحاجة الملحة الى ممارستها ، كما هو الامر في الحالة الاولى .

واكثر من ذلك اننا نشعر بحاجة الى ممارسة عادة منفعلة ، ذات آثار غير ملائمة :فمن اعتاد الروائح الكريهة في معمل ، او في مكان ، لايشعر انه بحاجة الى البقاء في جوها ، او العودة الى جوها . واذن فلا تخلق مثل هذه الحاجة الا اذا كانت آثار العادة ملائمة من بعض الوجوه ، كنشوة الخمرة ، او تخدير السموم .

ومن الخطأ اخيراً ان يقال ان العادة تخلق حاجة او ميلاً ، اذ لايمكن ان نضيف الى طبيعة الكائن الحي طبيعة جديدة ذات ميول وحاجات جديدة ، والاصح ان يقال ان العادة تعين صورة خاصة للميل يتعود الارتواء بها . مثال ذلك ميل الانسان الى الطعام ، فالعادة لاتخلقه وليس لها ان تخلقه ، ولكنها تعين صورة اروائه ، فلا يجب الانسان ان يأكل الا انواع الاطعمة التي تعودها ، ويصعب عليه ان يستسيغ غيرها « وهذه حال من

يتعود المآكل السورية ، فلا يستسيغ بعدها مآكل اخرى » واذا تعينت بالعادة صور ارواء الميل ، بدت هذه الصور قاهرة. ولم يعد للارادة من سلطان عليها : فشارب الخمرة مثلاً يروي بالخمرة ميله الطبيعي الى الاستراحة والتخدير . ولكن الحاجة الى الخمرة تصبح حاجة قاهرة ، لا سلطان الارادة عليها وهكذا تنظم العادات صورا إرواء الميول المختلفة ولكنها لاتخلقها خلقاً .

خلاصة عامة

العادة كالغريزة من حيث انها فعالية محافظة ، ولاتختلف عنها الا بكونها كسبية لا فطرية . ولكن العادة ليست فعالية محافظة فحسب ، وانما هي فعالية اصطفاء ايضاً : فهي تحذف تدريجياً كل عمل طفيلي حتى لا تبقي اخيراً الا على الاعمال الضرورية .

والعادة في اعماقها واحدة : فقوانين الاكتساب، وقوانين الامحاء فيها واحدة. وآثارها ، على اختلاف انواعها ، واحدة فلا يمكن اذن ان نقبل بفوارق اساسية بين انواعها المختلفة .

ولقد دلت المباحث التجريبية على ان قوانين اكتساب العادة ، وآثارها شبيهة بقوانين بعض الحوادث الطبيعية او الكيماوية « كقانون تأثير حمض الازوت في الحديد او قانون حركة المحركات الميكانيكية في بدايتها ونهايتها » حتى ليمكن ان نلاحظ امكان تعليل العادة بقانون عام مشترك بين عالم المادة وعالم الحياة .

وليس الامر ، من الوجهة النفسية ، بشيء آخر ، لان العادات على اختلاف انواعها متصلة فيما بينها، وليس هنالك من فرق بين العادات الحيوانية والعادات الانسانية :فبقاء الماضي ، وميل هذا الماضي الى الرجوع والتكرر بحيث يتم نوم الشعور في حالات التلاؤم التامة ، هذه الصفات هي الصفات العامة للعادة على اختلاف انواعها . وهكذا نجد ، من جديد ، في العادة ، هذه الفعالية المحافظة التي نجدها في الحجيرة الحية ، وفي كل مادة اخرى كما نجدها ، في اوضح صورها ، في الغريزة .

الفصل الثاني عشر

تداعي الافكار

Association des Idees

خلاصة البحث :

١ ـ تعريف تداعي الافكار

٢ ـ قوانين التداعي

أ ـ القوانين القديمة : الاقتران والمشابهة والتضاد

أ ـ محاولة إرجاعها الى قانون واحد

٢ ـ نقدها

ب ـ قوانين توماس براون

ج ـ القوانين العامة : قانون الجمع وقانون الاهتمام

٣ ـ التداعي والتفكير

٤ ـ الدراسة التجريبية للتداعي

٥ ـ فيزيولوجية التداعي

خلاصة عامة

١ ـ تعريف تداعي الافكار

أن من شأن الاحوال النفسية أن يدعو بعضها الآخر . فاذا ذكرت أمامنا كلمة «فيصل» مثلا انتقلت بنا الخواطر الى الثورة العربية والاتراك والملك حسين والانكليز والفرنسيين

وميسلون ويوسف العظمة تباعاً ، أو خطرت لنا صور هؤلاء جميعاً بآن واحد . وربما شعرنا بمجموعة عواطف تقابل هذه الاحوال وآثارها في نفوسنا . وهذا كله مثال على تداعي الافكار .

ولنلاحظ أن كلمة التداعي هنا ، لاتدل على علاقة منطقية بين الحدود المتداعية ، فلقد رأينا أن الحدود تتداعى بصورة عفوية محضة ، لاأثر للتفكير المنظم فيها ، ومن ناحية أخرى ، ليس التداعي خاصاً بالفكر المجردة أو الكلمات ، بل هو حالة عامة لكل الاحوال النفسية . فالعواطف والصور ، والاحساسات كلها تتداعى كما تتداعى الفكر .

ولقد يتم التداعي بين فكره وصورة . او فكرة وأحساس أو صورة وصورة ، او أحساس وأحساس ، ويلاحظ العالم دالون R, Dallonnes أنه لايوجد في الواقع أي تداع حقيقي ، لان النفس لاتحمل فكراً أو صوراً او احساسات منفصلة بعضها عن بعض ، ثم يتم بينها التجاذب في بعض الاحيان ، بل تحمل ، جملاً ، أو « مجموعات » مؤلفة من عدة حالات نفسية ، يعرض للنفس أن تستدعي بعض اجزائها ، في بعض الاحوال . ومن الخطأ أن نظن مع التداعيين (١) بان الحوادث النفسية المتداعية تعرض لنا متتابعة واحدة بعد واحدة ، فليس هنالك مثلا :

« صيد — صياد — بندقية — كلب — فريسة — خرطوش » بل هنالك مايجب أن يمثل بالشكل التالي :

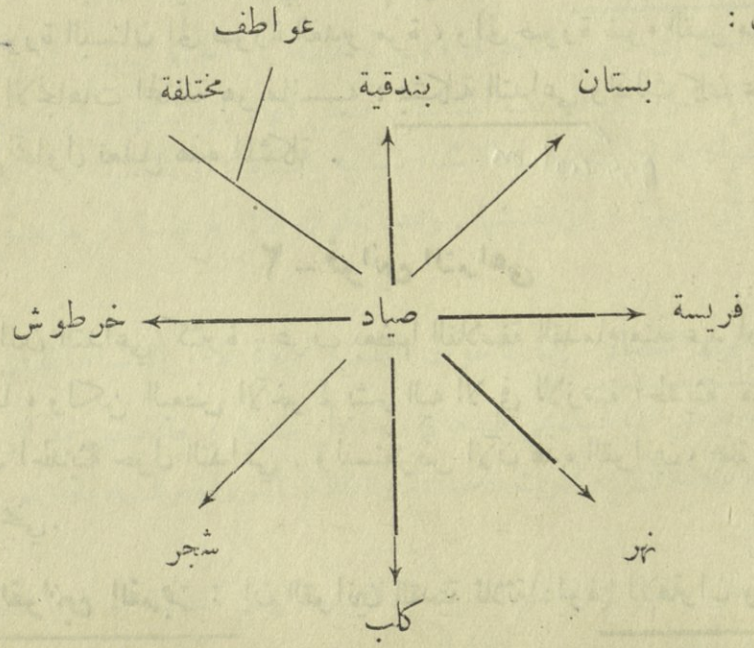

هيئة المؤلفين والناشر

(١) التداعيون جماعة من الفلاسفة يعللون كل الاحوال النفسية بالتداعي اشهرهم هاملتون وستوارت ميل وجيمس .

على أن تعتبر هذا الشكل ابسط تعبير ممكن عن الواقع النفسي

ففي نظرة اولى ، نرى صورة صياد عامة ليس فيها الا الخطوط الرئيسية ، وفي نظرة ثانية نرى البندقية ، وفي الثالثة نرى الفريسة ، وفي الرابعة هذا الشيء او ذاك ... الخ وعلى ذلك نقول ان المركبات او الجمل النفسية اسبق وجوداً في النفس من عناصرها البسيطة . ونحن لانصل الى هذه العناصر الا بنتيجة التحليل . فكأن الملاحظة الداخلية تكشف لنا دوماً عن وجود تيار شعوري ، لانجد فيه حالات جزئية منفصلة ، وكأن الملاحظة الخارجية تؤكد لنا ان مايوجد في النفس انما هو مجموعات او مركبات تتميز بعدئذ عناصرها . وعلى هذا يصح لنا القول بان التداعي هو الحالة الطبيعية للاحوال النفسية . فلا يجب ان نسأل كيف تتداعى حالات الشعور ، بل يجب ان نسأل كيف تنحل هذه المركبات الشعورية الى عناصرها البسيطة .

ومع هذا كله ، نلاحظ ان اتجاهات التداعي مختلفة ، فكلمة الصياد تنقلنا الى فكرة البندقية مرة ، والى فكرة الفريسة مرة اخرى . وفي ظروف ثانية ، ننتقل من فكرة الصياد الى صورة بستان او صورة غدير ، او الى بعض العواطف الحارة أو الهادئة . واذا ذكرت كلمة الصياد امام عدة اشخاص ، لم تخطر لهم جميعاً ذات الخواطر ، فكيف نعلل اختلاف هذه الاتجاهات في التداعي ، بالرغم من وحدة الحالة المنبهة او المؤثرة ؟ ولماذا ننتقل من صورة البستان الى صورة الغدير مرة ، والى صورة ضوء القمر مرة اخرى ؟ ان تعليل هذه الاتجاهات المختلفة هو مانسميه : بمشكلة التداعي ولذلك كان علينا ان ندرس القوانين التي تحاول تعليل هذه المشكلة .

Association

٢ - قوانين التداعي

ان قوانين التداعي كثيرة : عرف بعضها الفلاسفة القدماء منذ عهد ارسطو او قبل ذلك ايضاً ، ولكن البعض الآخر لم يشر اليه الا في الازمنة الحديثة مع التداعيين ، والدراسات الحديثة حول التداعي . ولنستعرض الآن هذه القوانين ، جملة بعد جملة ، بحسب ترتيبها التاريخي .

١ - **القوانين القديمة** : ان القوانين القديمة ثلاثة : اولها الاقتران والثاني المشابهة ، والثالث التضاد .

١ — **قانون الاقتران**: كل حالين نفسيتين كانتا موجودتين معاً، او متتابعتين مباشرة تبقيان متحدتين في النفس، فاذا تحققت واحدة منهما، او ظهرت في تيار الشعور، مالت الثانية الى الظهور: فرائحة الزهرة تذكر بلونها او شكلها، وشكلها يذكر بطعمها او باسمها. ومنظر بستان اقمت فيه وليمة، يبقى ابداً مقترناً بذكرى الوليمة. وهكذا تتحد فكرة الشيء واستعماله والشيء واسمه او الاشارة والشيء المشار اليه بصورة عامة. فاذا كنا امام جزء من مجموعة ما، تداعت للنفس سائر اجزاء المجموعة بحكم الاقتران: فالعادة الحركية، والعاطفة، والانتقال العاطفي نتائج لهذا القانون، وبهذه الصورة نعلل تعلق المحب برسائل المحبوب، وحزن القلب لدى رؤية البيت الذي مات فيه عزيز او صديق ...

والاقتران مكاني اوزماني، فقد يقترن شيئان في المكان كما يقترنان في الزمان. غير ان الشيء المهم بالنسبة الى الانسان هو الاقتران الزمني، فاذا كنا امام شيئين مقترنين مكانياً، ولكن لم يجمعهما في النفس ادراك واحد، في هنيهة واحدة، لم يستطع احدهما ان يستدعي الثاني.

وهكذا نعلل بعض التداعيات باقترانها السابق في التجارب الشخصية لكل انسان.

٢ — **قانون المشابهة**: اذا تشابهت حادثتان نفسيتان أو شعوريتان، فأن ظهور واحدة منهما تدعو إلى ظهور الاخرى، ولو لم تجتمعا في الحياة النفسية الا مرة واحدة.

وليس من الضروري تعريف المشابهة. فلنقل أذن بانها تكون في اي وجه او صفة من وجوه الحوادث او صفاتها. فالاشياء تتشابه باشكالها، او بالوانها، او بمادتها، او ببنيتها. أو بوظيفتها، أو باصلها، او بقيمتها. وقد تكون المشابهة عقلية او عاطفية، عضوية او نفسية.

٣ — **قانون التضاد**: إن الاحوال النفسية المتضادة أو الاشياء المقابلة لها تتداعى ايضاً: فالشيء يمكن أن يستدعي ضده كما يستدعي شبيهه، فالابيض يذكرنا بالاسود، والقزم يذكرنا بالعملاق، والموت بالحياة، والظلام بالنور، والسماء بالارض، والجبل بالوادي .. الخ.

وهكذا تعلل بعض تداعيات الحوادث النفسية بحكم المشابهة أو بحكم التضاد: فاذا ذكرنا عمر بن عبد العزيز بعد عمر بن الخطاب فذلك بحكم تشابه المزايا والصفات واذا ذكرنا الجبل بعد الوادي فذلك بحكم التضاد.

ولقد قلنا أن هذه القوانين معروفة عند القدماء، وحتى عند أرسطو ومن بعده. إلا أن هذه القوانين تصبح المشكلة الرئيسية في علم النفس في فلسفة التداعيين مثل هيوم وجيمس ميل وستوارت ميل وأتباعهم. وخلاصة رأي هؤلاء أنه يمكن ارجاع هذه القوانين كلها الى قانون واحد، كما يمكن بعد ذلك: تعليل كل الحوادث العقليه المركبة «كالحكم والمحاكمة والابداع ومبادىء العقل» بقانون التداعي.

أ — محاولة ارجاع هذه القوانين الى قانون واحد: لقد حاول التداعيون ارجاع هذه القوانين الثلاثة إلى قانون واحد، فقالوا ان التضاد حالة خاصة من أحوال المشابهة. والحق ان الضدين يتشابهان، لأنهما من نوع واحد يتضادان فيه: فالقزم والعملاق رجلان، والأسود والأبيض لونان. فكأن بين هذه الاشياء المتضادة وحدة عميقة لا يمكن أن تتوفر في الأشياء المختلفة، كالأبيض والعملاق لأنه يوجد بين هذين الشيئين أية صفة مشتركة.

ثم ان المشابهة، بدورها، ترجع إلى الاقتران، لأنه لا بد في الاشياء المتشابهة من وجود عنصر مشترك هو عنصر التشابه. ولنقل على سبيل التمثيل ان الشيئين (ب. ح) يتشابهان، لأن بينهما العنصر المشترك (م)، وهكذا نرى أن (ب) ينحل الى (ء هـ ل م) وان (ح) ينحل إلى (ط ي ن م).

فاذا وضعنا هاتين السلسلتين بجانب بعضهما على الصورة التالية:

« ب ح »

(د هـ ل م — م ن ي ط)

اتضح لنا أن وجود هذا العنصر المشترك يدعو الى النفس جملة (د هـ ل) في مرة أولى، ثم يدعو اليها جملة (ن ي ط) في المرة الثانية.

وهكذا يبدو لنا ان التداعي بالمشابهة، ليس إلا تداعياً ثنائياً بالاقتران، لأن العنصر المشترك (م) مقترن بالجملتين معاً.

والخلاصة ان قوانين التداعي الثلاثة تنحل إلى قانون واحد هو قانون الاقتران: فأما التضاد فينحل إلى نوع من المشابهة (هي المشابهة في نوعية الأشياء المتضادة) واما التداعي بالمشابهة فانه ينحل إلى نوع من التداعي المضاعف بالاقتران.

ب — نقد هذه المحاولة: ولكن لنتساءل ما هي الفائدة التي يتوخاها التداعيون من هذا الارجاع إلى الوحدة.

ان الفائدة مزدوجة .

فأما الناحية الأولى ، فهي نوع من البساطة والوحدة يحبهما العلم ويؤثرهما . فالعلم دوماً ارجاع المركب الى البسيط ، والكثرة الى الوحدة . وهكذا تنجح مقاصد العلم بارجاع القوانين الثلاثة إلى قانون واحد (١) .

وأما الناحية الثانية فهي تعليل سير الفعالية العقلية بسير الحوادث في العالم الخارجي ، فالتداعيون ينكرون على العقل كل فعالية خاصة به . ولا يرون فيه شيئاً آخر غير مرآة للعالم الخارجي ، تصور ما يقع فيه ، بدقة قليلة أو كثيرة . ولكنهم لا يستطيعون اثبات رأيهم هذا ، إلا اذا استطاعوا بصورة من الصور ، ارجاع العلاقات العقلية الى علاقات طبيعية . وهذا أمر سهل اذا اقتصرت هذه العلاقات على التداعيات الاقترانية ، لأن هذه التداعيات العقلية ليست الا صوراً نفسية لاقترانات خارجية ، فاذا ذكرنا « ح » بعد « ب » بحكم الاقتران ، فاننا نلاحظ بسهولة ان هذا الاقتران النفسي صورة لاقتران خارجي سابق ، لم تزد عليه النفس شيئاً . أما التداعي بالمشابهة ، فأمر يكشف عن فعالية عقلية خاصة ، لا علاقة لها بالعالم الخارجي ، او ليس العقل هو الذي يكتشف المشابهة ، ويصطفي بحكمها ، بعض الصور دون بعضها الآخر ، بصورة مستقلة عن تتابعها في العالم ؟ فهذا الاصطفاء وحده أذن دليل على وجود فعالية عقلية خاصة ، يؤكد وجودها ايضاً ان المشابهة التي يدركها شخص ما ، لايدركها شخص آخر ، وان الشخص نفسه ، بحسب الظروف التي هو فيها ، يلمح مشابهات مختلفة ، ولذلك حرص التدعيون على ارجاع التداعي بالمشابهة الى التداعي بالاقتران ، حتى يتم لهم حرمان النفس من كل فعالية تركيبية خاصة بها ، وحتى يؤكدوا أن الافعال العقلية الداخلية ليست الا صوراً للافعال المادية الخارجية . وهكذا تزول طائفة الاسرار التي كان العقليون يلمحونها في النفس ، وفي قدرتها الخاصة على التركيب والاصطفاء والأنتقاء .

غير ان ارجاع هذه القوانين الى الوحدة امر لايخلو من النقد :

أ) فالقوانين الاولى كانت اقرب الى الواقع ، والى الحوادث المشاهدة . والملاحظة الشخصية لاتستسيغ ارجاع هذه القوانين الى الوحدة : فنحن ، عندما تتداعى فكرنا ،

---

(١) راجع كتابنا (الوسيط في المنطق) في بحثي : المعرفة العفوية والمعرفة العلمية ، وطريقة العلوم الطبيعية في دورها الاستنتاجي .

او صورنا بالتضاد ، لانشعر بان هناك نوعاً خاصاً من التشابه ، وعندما نلحظ الشبه بين شخص يمر قريباً منا ، وآخر كنا نعرفه ، نجد اننا غير قادرين على معرفة وجه الشبه بين الاثنين ، بصورة واضحة ، فاذا فكرنا في نقاط التشابه ، بعد ذلك ، تمكننا من تعيينها ، سواء أكان ذلك في سمة من السمات الحسية ، او في صفة مجردة نعزلها لوحدها . ولكن هذا لايتم لنا ، بصورة واضحة ، في حادثة التداعي الاولى

ب) ومع ذلك ، فانه يمكن القول بان وجود عنصر التشابه المشترك هو السبب الخفي في التداعي بالمشابهة ، وبالرغم من بقائه مجهولا في الشعور الواضح . ولكنه يحق لنا عندئذ أن نتساءل عن السبب الذي يجعل نقاط التشابه مختلفة بحسب الاشخاص ، وبحسب الظروف ، وكيف يتم لواحد منا الانتقال بالفكر من صورة الى أخرى (١) تبعاً لعنصر تشابه ينفرد برؤيته دون غيره ؟ ان الجواب ، على ذلك ، يحتاج الى تعليلات جديدة ، كالقول مثلا ، أن هنالك ميلا خاصاً ، أو اهتماماً حاليا او عادياً أو حاجة عقلية اوعاطفية أو مسألة مطروحة ، تعين بحسبها اتجاه التفكير : فالتداعي بالاقتران يقابل حاجة المعرفة او التنبؤ ، والتداعي بالمشابهة يقابل حاجة التعرف والتمثل .

وبمثل هذه العوامل يعلل اتجاه الفكر الى ناحية المشابهة او ناحية التضاد . وبمثل ذلك يعلل ايضاً التفكير بيوم قاس كان البارحة ، بالنسبة الى جمال الجو في هذا اليوم . واذا كانت المتضادات نوعاً من المشابهات، فانه من الواجب ان نقول لماذا تحقق هذا النوع من المشابهة وحده ، دون الانواع الاخرى ، في عقل ما ، في هينهة ما ؟ أن التضاد يقابل حاجة ايضاح الفكر ، وتقوية المشاعر بتضادها . فالتداعي بالتضاد صديق الفكر النقاد او فكر التناقض .

ج – ولنعمم هذه الانتقادات بالقول ان هذه القوانين اذا ارجعت الى الوحدة، تصبح غامضة جداً – فليس هنالك من أشياء لايوجد بينها بعض التشابه ، فالكتاب الذي بين يدي يمكنه – بحسب اتجاه التفكير – أن يجعلني افكر بعدد لانهاية له من الاشياء التي تشابهه في صفة من الصفات « كالشكل ، والابعاد ، والوزن ، واللون ، والمادة والمحتوى والموضوع ، والمؤلف واللغة الخ ... »

---

(١) اننا نستعمل هنا كلمة الصورة بمعنى عام جداً نريد به كل حادثة نفسية . وقد أستعمل برغسون هذه الكلمة بمثل هذا المعنى .

وهذا الشخص الذي أراه يجعلني أفكر - بالاقتران - بعدد عظيم من الاشياء أو الحوادث التي أتصلت أو اقترنت به ، وإذا لاحظت تسلسل افكاري ، فاني أستطيع أن أجد فيها علاقات تضاد ومشابهة واقتران . كما أجد أن هنالك الف فكرة مختزنة في النفس كانت تستطيع أن تقوم مقام التي أستعملت ، فلم اتجه الفكر بالتداعي الى فكرة دون غيرها من الفكر المماثلة ؟ أن هذا ماتعسر الاجابة عليه ، بالاستناد الى هـذه القوانين الموحدة .

وأذا اردنا مثالاً واضحاً على هذا النقد قلنا ان الليل مثلاً مقترن بفكر مختلفة كالظلمة والقمر والنجوم والصمت والرهبة والسكون والنوم ، وهو مقترن بفكر اخرى ايضاً بذات القوة كالنهار وما في النهار من أشياء واشياء ، ولكن ، في حين ما ، لايخطر على البال بعد فكرة الليل الا احدى هذه الفكر او سلسلة معينة منها : كالقمر والنجوم ، او الصمت او الرهبة ، او السكون والنوم . والمسألة كلها تنحصر في معرفة السبب الذي جعل النفس تتجه الى سلسلة دون غيرها بين كل اجزاء هذه المجموعة ، مع ان كل السلاسل متساوية في اقترانها مع الفكرة الاولى .

وهكذا نجد ان قانون الاقتران وحده لايعلل هذا الاصطفاء الخاص بين جملة الاقترانات الممكنة . والامر كذلك في قانون المشابهة وقانون التضاد . فلا بداذن لتعليل هذا الاصطفاء في التداعي من الاتجاه الى قوانين اخرى .

٢ - **قوانين توماس براون** : يذهب هذا الفيلسوف الى انه يمكن تعليل هذا الاصطفاء بالاستناد الى قوة المؤثرات نفسها ، بغض النظر عن فعالية النفس الخاصة التي انكر وجودها التداعيون . ولنلخص الآن جملة القوانين التي جاءنا بهـا توماس بروان لايضاح عوامل التداعي .

١ - **قانون التردد** : يتعلق التداعي بكثرة تردد المؤثر ، فكلما كان تردد الذكريات الى ساحة الشعور اكثر ، كان استحضارهـا اسهل ، وهذا القانون مماثل لقانون التكرار في العادة ، ومعنى ذلك ان كثرة استعمال بعض الخواطر او الذكريات مما يزيد في سهولة تداعيها اثر اية فكرة موجهة ، او خاطر منبه ، فاذا كثر الحديث عن عمل من الاعمال ، او مشروع من المشاريع ، او نزهة من النزهات ، رأينـا كل حديث اخر

يسوقنا ، على الرغم من منا ، الى هذا العمل او هذا المشروع ، او هذه النزهة .

٢ — **قانون الشدة** : كلما كان المؤثر اقوى شدة كان خطوره بالتداعي اقرب واسهل ، فحوادث الفرنسيين الاخيرة في سوريا ماثلة بشدتها وقوتها في كل نفس وفي كل شيء ، او كل خاطر له صلة قريبة او بعيدة ، يذكر بها . والامر كذلك في الحديث عن الحرب عند من شهدها ، والحديث عن حريق او طوفان .

٣ — **قانون الاكتساب القريب** : اذا كانت الذكريات حديثة عهد كان خطورها اسهل واسرع . فاذا قرأت قصيدة جديدة للبحتري ، ثم ذكر اسم البحتري بعد هنيهة عادت اليك ذكرى هذه القصيدة قبل غيرها من القصائد القديمة .

٤ — **قانون المدة** : كلما طال زمن الاقتران ، كانت الاشياء المقترنة اقرب الى التداعي . مثال ذلك ان تعاشر صديقاً مدة طويلة ، وتنقطع عنه مدة ، فترى ، بعد ذلك ، ان كل حديث بينك وبين انسان آخر يسوقك اليه ، ويذكرك به . واذا درست احد الشعراء مدة طويلة ، رأيت اسمه وحوادث حياته واشعاره ، تتداعى اليك في كل مناسبة .

٥ — **قانون التباين** : واخيراً اذا اقترن خاطر او حادث من الحوادث بعدة اشياء بقوة واحدة ، لم يتعين التداعي ، في اتجاه دون آخر ، مثال ذلك ان يقوم عدة ممثلين بتمثيل دور واحد في الرواية نفسها ، فأنت اذا تذكرت الدور لم تتذكر بالضرورة احد الممثلين دون غيره ، الا اذا كان هذا الممثل قد اثر في نفسك تأثيراً اشد من غيره ، وعندئذ يعلل خطور ذكراه بالقوانين السابقة .

والخلاصة ان توماس براون يحاول بهذه القوانين ان يعلل اتجاه التداعي ، في طريق دون اخرى ، بقوة المؤثرات وحدها . فكثرة تردد المؤثر ، وقرب اكتسابه ، وطول مدته ، وشدته الخاصة ، كل هذه عوامل تزيد في قوة المؤثر الخاصة ، وتسهل خطوره ، دون ان يكون لفعالية النفس اثر خاص في توجيه التداعي ،

٣ — القوانين العامة للتداعي

ولكن مهما يقل التداعيون في هذا الموضوع ، فأنه لاسبيل الى انكار الفعالية النفسية الخاصة ، واثرها في توجيه التداعي ، وتعيين حدوده المختلفـــة . ولندرس الآن قوانين التداعي العامة التي توضح لنا اثر هذه الفعالية .

١ — **قانون الجمع** :واول قانون للتداعي هو قانون الجمع ، وحاصلة ان جملة الاشياء المقترنة ، بصورة من الصور ، مستعدة لأن تتداعى كلها ، اثر اي جزء من اجزائها،ولكن للاقتران سطوحاً مختلفة ووجوهاً مختلفة ، فما يتداعى في سطح لايتداعى في آخر ، وما يتشابه اويتضاد او يقترن في وجه لا يتشابه او يتضاد اويقترن في وجه آخر .

واذا اردنا مثلاً واضحاً على قانون الجمع ، بصورته القوية الواضحة ، ذكرنا مثال هذا الرجل الكهل الذي لم يجد مكاناً في حافلة (الترام) ، وكان عليه ان يبقى واقفاً ، ولكن رآه احد الشباب ، فآثر ترك مكانه له احتراماً للكهولة، ورفقاً بالضعف،فرأى هذا الكهل أن يحدثه عن قوته المستمدة من الرياضة اليومية وحركاتها المختلفة ، وانواع هذه الحركات وعن فرشاة الاسنان ، ومعاجين الاسنان ، وانواعها جميعاً ، وعن النزهات المسائية وتنسم الهواء الطلق فيها .. وعن اشياء واشياء كلها تتصل بموضوع الصحة الجسميـة ، وطرق توفيرها ، من قريب او بعيد ... ولكن الشاب ضاق ذرعاً بالحديث ، واوشكت الحافلة أن تصل الى حيث يجب عليه النزول ، فلم يلاحظ الكهل ضيقه بالحديث ، وانصرافه عنه ، ومحاولته النزول . واستمر في حديثه كأن ليس هنالك شيء .وازداد ضيق الشاب وهمت الحافلة بالوقوف ، ووقفت . ولم يترك الكهل حديثة ، فرأى الشاب أن ينيب عنه رجلاً آخر في الاستماع الى الحديث . وودع الكهل . ونزل من الحافلة ، ومشى خطوات ، ثم نظر الى الحافلة فرأى الكهل مايزال في حديثه ، كأن لم يتغير في الموقف شيء ، وكلنا يعرف أن العجائز يصلن الى حد من الخرف، يكفي فيه ان تتحدث امامهن عن أي شيء من الاشياء حتى يفضن في الحديث عن كل مايتصل به من قريب أو بعيد ، من ذكرياتهن .

ولنلاحظ ان قانون الجمع يمثل الفعالية المحافظة اتم تمثيل ، لأن النفس فيه تعيد كل ما حفظته في الماضي ، اعادة تامة ، حتى لتستغني احياناً عن المنبه الخارجي الذي يثير فاعلية

التداعي . والعجائز ، في بعض الظروف ، يصلن الى هذا الحد . ويتكلمن لانفسهن عن جزء قليل او كثير من هذا الماضي الذي عشنه .

ولقد قلنا ان النفس سطوح مختلفة ، ووجوه مختلفة ، ونعني بذلك ان للنفس سطوحاً شعورية مختلفة تبدأ من اللاشعور ، وتنتهي بالشعور الواضح . كما نعني ان لفعاليتها وجوهاً مختلفة ، فهي تتألم او تتلذذ ، وتحس او تدرك ، وتتذكر او تحكم ، وتتصور او تتخيل . وتتجه بعملها الى ناحية تعينها العادة او الارادة ، وسرعان ماتنتقل النفس من سطح شعوري الى آخر ، ومن وجه من وجوه الفعالية الى آخر . وهكذا تتهيأ للنفس اقترانات غريبة الانواع ، لانها مختلفة المصادر : فقد تقترن جملة نفسية من سطح شعوري مابجملة نفسية من سطح آخر . وتقترن بعض مواد الذاكرة ، ببعض مواد التخيل ، وينشأ عن ذلك خلائط نفسية عجيبة ، فاذا رأينا من تقترن عنده بعض الالوان ببعض الحروف ، وبعض المشاعر النفسية ببعض الاحساسات ، وبعض المشاهد ببعض الحركات ، وجدنا تعليل ذلك كله فيما تقدمنا به . (١)

والامثلة على ذلك كثيره : فهناك من تقترن عنده بعض الحدود بفعل العوامل اللاشعورية : كهذا الفيلسوف الذي يتحدث اليه اصدقاؤه عن الثورة ، واعدام الملك شارل الاول في انكلترا فيسأل عن الدرهم الروماني ، منتقلاً في ذلك ، من موقف الملك شارل الى موقف المسيح ، وقد باعه احد اصحابه بثمن بخس لايتجاوز عدة دريهمات ، كانت طبعاً رومانية ، او كهذا الرجل الذي يحفظ اسماء بعض الاشخاص مقترنة باسماء بعض البلدان ، دون ان يعرف سبباً واضحاً لذلك ، ثم يكتشف اخيراً في بعض الصحف القديمة ان هذه الاسماء ، اسماء وكلاء بعض الاعمال التجارية في هذه البلدان ، وقد تقترن بعض الحدود بفعل العوامل الحركية فلقد سئل احد من الناس عما توحيه اليه صورة من الصور ، فأجاب بانه يذكر بعض المشاهد في نواحي الجزائر او تونس ، دون ان تكون هنالك رابطة واضحة ، الا انه لاحظ اخيراً ان وضعه وهو يشاهد هذه الصورة ، مثل وضعه يوم كان في هذه البلاد في مرة من المرات ، يطوف في ارجائها المختلفة . وقد تقترن بعض الحدود بحكم تشابه آثارها النفسية : فلقد تذكرني الغرفة الحقيرة المشعثة برجل مقوس الظهر . ناتيء

---

(١) ان في اشعار «بودلير» طائفة كبيرة من هذه الاقترانات ، فتراه يقول احياناً ان هنالك روائح غضة كلحوم الاطفال ، عذبة كالناي وخضراء كالمراعي .

الصدر ، نابي الحلقة . وهذا يشبه ماقلناه سابقاً عن اشتراك الحساسيات المختلفة في امور يعبر عنها الناس بقولهم : هذا لون حار ، وهذا لون بارد، وهذا تقريع واخز ، وهذا تأنيب مر ... الخ

ويظهر لنا مما تقدم ان بالامكان ارجاع قوانين التداعي كلها الى قانون الاقتران ، ولكن هذا القانون لايكون عندئذ في البساطة التي يعرضه بها التداعيون بل هو اقتران معقد ، يصل بين سطوح شعورية مختلفة ، ووجوه نفسية متباينة .

٢ ـ **قانون الاهتمام** : ولنلاحظ الآن انه قلما يتحكم قانون الجمع في الحياة النفسية الطبيعية . والغالب في هذه الاحوال ، ان تخضع التداعيات لقانون الاهتمام ، ومعنى ذلك ان اتجاه النفس في التداعي الى سلسلة دون اخرى امر تابع للميول الفطريه او الكسبية او للمشاغل الحاضرة . فمن الطبيعي مثلاً أن تذكرنا كلمة الجذر بالاعداد والارقام ، اذا كنا رياضيين ، وبالحدائق والمزارع والمياه اذا كنا زراعيين . ومن الطبيعي أيضاً ان يتجه المدرس في تداعياته الى المدرسة والتلاميذ والدروس ،وان يتجه الحاكم في ذلك الى القضايا والخصومات والمحامين وما يتعلق بهذه الاشياء قليلاً او كثيراً .

واذا كانت الثقافة العامة مشتركة ، والحياة العادية للناس واحدة تقريباً ، واتحدت سبل الحياة واختلطت مواطن العمل ، مالت التداعيات الى التقارب والتواحد واعتدلت فيها الاختلافات : ولذلك نرى ان ذكرى كلمة « فيصل » امام مجموعة من التلاميذ في صف واحد ، يثير لديهم ذات التداعيات تقريباً .

ولنلاحظ ان عمل قانون الاهتمام يشبه عمل قانون الاصطفاء : لان النفس بحكمه لا تتجه الى جمع ذكرياتها واعادتها من جديد، على الحالة التي هي فيها ، كما هو الامر في قانون الجمع ، بل انها تصطفي من هذه الذكريات ما يلائم الموقف الذي هي فيه ، ويناسبه او ينسجم معه ، فكأن التداعي اذن محصلة لعمل فعاليتين أساسيتين : احداهما هي الفعالية المحافظة ، والاخرى هي فعالية الاصطفاء .

هذه الملاحظة تكشف لنا عما بين التداعي والحوادث النفسية الاخرى ، التي درسناها من قبل : كالغريزة والعادة ، من صلة وقرابة ، فالغريزة فعالية محافظة فيها شيء قليل من فعالية الاصطفاء ، والعادة كالغريزة ، ، الا ان حظها من فعالية الاصطفاء اكبر وانمى ، واتصالها بالشعور اعظم واوثق . اما التداعي فهو في الحالات الضعيفة

التوتر « في حالات الحزن والضعف النفسي » صورة واضحة كل الوضوح للفعالية . ولقد رأينا ان قانون الجمع هو القانون الوحيد تقريباً في مثل هذه الحالة ولا يعني الحالة قانون لجمع شيئاً آخر غير اعادة الماضي اعادة تامة في الكليات والتفاصيل . وليست اعادة الماضي على هذه الصورة الا الفعالية المحافظة بالذات ، وقد ارتقت من مستوى الحركات ، الى مستوى الخواطر والمشاعر والافكار ، اي من مستوى عضوي الى مستوى نفسي .

غير أن التداعي لايتبع دوماً قانون الجمع ، بل يخضع - كما رأينا - لقانون الاهتمام ، ومعنى ذلك ان فعالية الاصطفاء تتوضع فوق الفعالية المحافظة ، على مثال ما يحدث في العادة . اولا نرى كيف تصطفي العادة تدريجياً جملة الحركات الضرورية لها ، وتستغني عن الحركات الزائدة او الطفيلية . ومع ذلك فانه يبقى هنالك فرق بين العادة والتداعي ، لان كلًا منهما يتعلق بمستوى خاص به : فالعادة للجسم أو للعضوية جملة ، والتداعي للنفس . فهذا وجه من وجوه الحياة النفسية . وتلك وجه من وجوه الفعالية العضوية - النفسية . والارتقاء من هذا المستوى الى ذاك مما يكسب الفعالية مرونة وسرعة انطلاق ، ومظهر نشاط : فالعادة مثلًا حركات سريعة ، ولكن التداعي فكر او خواطر او مشاعر سريعة ، والفرق كبير بين سرعة الحركات وسرعة الفكر والمشاعر .

واكثر من ذلك ان العادة عندما تصل الى درجة الاستقرار ، تصبح فعالية متجمدة ، او متبلورة . اما التداعي فيظل جملة من السلاسل المرنة المتغيرة بحسب الظروف والاحوال ولعله يصبح في بعض الاحيان ، أداة تحليل وتركيب ، فيحلل الجمل النفسية القديمة ، تبعاً لحاجات النفس ومشاغلها ، وينشيء منها مركبات جديدة ذات متعة وطرافة . وسنرى معنى ذلك بوضوح عند البحث عن علاقة التداعي بالتفكير .

٣ التداعي والتفكير

للتفكير معنيان : أحدهما واسع والآخر ضيق . أما الاول فيشمل الفعالية العقلية بجملة أنواعها ، من أدنى صورها الى أعلاها . فتجمع الصور في الذهن ، واختلاط بعضها ببعض ، وأشتباكها في احلام النوم أو أحلام اليقظة ، والتصورات الهيبناغوجية ، وأشراق الفكر بالحدس ، فجأة على النفس ، وتسلسل الفكر او المشاعر أو الخواطر ، بعضها وراء بعض بالتداعي ، والتفكير المنظم الذي ينتهي باحكام موضوعية ، صحيحة ، أو

خاطئة ، كل ذلك تفكير على كل حال . اما المعنى الضيق للتفكير ، فيقتصر من ذلك كله على التفكير المنظم وحده . اي على هذا التفكير الذي ينشيء الاحكام ، ويعين بوضوح مواضيعها ومحاميلها .

فاذا أردنا البحث عن علاقة التداعي بالتفكير ، فانه يجب ان نلاحظ أن التداعي نوع من التفكير ، بالمعنى العام . أما التفكير بالمعنى الخاص ، فبينه وبين التداعي فروق غير قليلة . فالتفكير المنظم يقتضي مستوى عاليا من التوتر ولا يحتاج التداعي الى مثل ذلك ، والتفكير المنظم يوقف سلسة التداعيات وينتخب منها مايصلح لحاجته من المواضيع والمحاميل . أما التداعي فهو سلاسل سائلة ، ليس فيها توقف ولا انتخاب . والتفكير المنظم شكل يفرضه العقل على ماتقدمه التداعيات من مواد ، فكأن التفكير بالتداعي وسيلة من وسائل الفكر المنظم .

ولنضرب على ذلك كله مثلاً واضحاً : يبدأ التداعي من منبه أول ، وليكن هذا المنبه كلمة : كالميرة . فتتداعي الفكر والصور وراء هذه الكلمة على الصورة الآتية مثلاً :

القمح — » الشعير — » الحبوب — » السيارات — » الاموال — » السرقات — » الحصر ... الخ

فهذا هو التداعي .

أما التفكير المنظم فيستعمل هذه التداعيات ، وقد يحتاج اليها ، إلا أنه يستعملها على صورة خاصة مساوقة لرغباته وحاجاته ، أو أتجاهاته . فاذا أتجه الى ناحية النظام في الميرة قال : أن الميرة حصر واحتكار . وإذا أتجه الى محاذير الميرة قال : أنها سرقات . وهكذا ...

غير ان التداعي يلتقي احياناً بالتفكير المبدع ، اذ تكون حاجة الابداع قوية وغامضة معاً ، فتعمل من وراء حجاب الشعور على جمع مايلائم حاجتها ويناسب غايتها ، ويكون التداعي هو العامل الاول في الجمع والاصطفاء . فلقد نشأ اكتشاف الكهربائية الجوية ، عن التقاء سلسلتين مختلفتين من الحوادث : اولاهما شرارة كهربائية ناشئة عن التقاء سلكين كهربائيين ، والثانية برق نشأ عن التقاء قطعتين من قطع الغيوم ، ولقد نشأ اكتشاف قانون الرفع الى القوى في الرياضيات عن نوع من التداعي بالمشابهة ، ومثل ذلك كثير . حتى لقد امكن البحث بارجاع التفكير المبدع الى نوع من التداعي بالمشابهة . فالفول

ان الارض التي لاماء فيها تشبه وجه الخائف ، وقد حبس عنه الدم ، والقول ان الهلال كزورق من فضة ، قد اثقلته حمولة من عنبر ، والقول عن رجل يمسك لسانه عن الكلام. ان لسانه في فمه كالميت في قبره ، كل ذلك مشابهات يكتشفها التفكير بالتداعي .

والحق ان السلاسل التي تجمعت للنفس من ماضيها ، تنحل تبعاً لقانون الاهتمام، ويجتمع من عناصرها المنحلة سلسلة جديدة ، ذات بنية جديدة تلائم حاجة التفكير ، وتؤلف الابداع المطلوب ، فمثل قانون الاهتمام هنا مثل نساج امامه انواع كثيرة من الخيوط الملونة ، وفي ذهنه صورة غامضة لنسيج خاص بالوان معينة ، فتراه ينتقي بعض الخيوط من المجموعة الكبيرة التي يراها بين يديه ، ويجمع بعضها الى بعض وينشيء لها سدى ولحمة فاذا بها ذلك النسيج المطلوب ،

٤ — الدراسة التجريبية للتداعي

قام العلماء بدراسة التداعي بصورة تجريبية ، وكانت الكلمات مادة لتجاربهم هذه ، ومعنى ذلك ان التجربة تتألف من لفظ كلمة امام رجل يجرب عليه ، وعلى هذا الرجل ان يسجل التداعيات التي يحدثها عنده لفظ هذه الكلمة .

ولقد اتخذت هذه التجارب صورتين : ففي الصورة الاولى يترك التداعي حراً لاناظم له ، وفي الصورة الثانية يقيد التداعي بناظم مفروض ، كان يطلب الى الشخص المجرب عليه ان يأتي بكلمة مضادة للكلمة المفروضة «ابيض — اسود» او بما هو نوع من جنس «ذوات الثدي — الكلب» اوبما هو جنس من نوع «الكلب — ذوات الثدي» اوبما هو من ذات النوع « كلب — قط» او بما هو جزء من كل او كل من جزء « غرفة — بيت — حي — مدينة » او العكس .

ولقد اراد العلماء بهذه التجارب ايضاح علاقة التداعي بالتفكير ، وتأييد بعض المذاهب الفلسفية بنتائجها . وهكذا زعم التداعيون ان التداعي الحر والتداعي الموجه صورتان من صور الفعالية العقلية الحقيقية ، وان لافرق بينهما الا في درجة التعقيد كما انه لا فرق بين التداعي والتفكير . وزعم العقليون ان التداعي الحر شيء والموجه شيء آخر . فالاول هو التداعي حقاً اما الثاني فهو التفكير بالذات لانه يقتضي الاصطفاء والانتخاب .

وزعم اصحاب مذهب الصيغ « Gestalt , Theorie » (١) ان لافرق بين صورتي التداعي الحر والموجه الا في درجة الحرية الممنوحة في الحالين . ففي التداعي الموجه تقيد هذه الحرية بالشرط المفروض على التداعي اما في التداعي الحر فان هذه الحرية تمنح تامة غير منقوصة . ولكن ذلك لايجعل التداعي الحر اسهل من التداعي الموجه بل يزيد صعوبته اذ ان القيام بمهمة غير واضحة اصعب من القيام بمهمة واضحة . وهكذا لانرى في التداعي الحر ان الفكر ينعدم او يزول لان وظيفة العقل واحدة لاتتغير كيفما كانت الشروط التي يعمل فيها . ووظيفته هذه هي الاجابة على المسائل التي تطرحها الحياة على الانسان وليس في تجارب التداعي الحر الاوضع بعض المسائل وطلب الاجابة عليها .

وليس بعنينا في هذا الكتاب ان نفصل في هذا الموضوع كثيراً وان نوضح المسائل الفلسفية التي تتعلق به .

٥ — فيزيولوجية التداعي

ان لنظرية التداعي ناحية فيزيولوجية : يترجم فيها التداعيون المسلمات النفسية الى اللغة الفيزنولوجية .

١) فأكثر التداعيين على ان المنبه (الفكرة او الصورة) الذي يصل الى القشرة الدماغية يميل الى الانتشار فيها . الا انه يجد مقامات مختلفة في الاتجاهات المختلفة فاذا كانت بعض النواحي العصبية في حالة العمل كانت مقاومتها اضعف من مقاومة المناطق الاخرى . فيسير التيار العصبي المقابل للمنبه في طريقها لسهولة السير فيها . غير ان الطرق التي يمر فيها التيار العصبي تصبح اكثر قابلية للتأثر من جديد واصلح لمرور التيار . وهكذا تنشأ خطوط عصبية ذات مقاومة صغرى ، وتثبت بالتكرار ، فيتخذها المنبه طريقاً طبيعياً له ويتضاءل انتشاره في المناطق الاخرى .

ومن السهل الاخذ بمثل هذه النظرية لتعليل نشوء ردود الفعل الشرطية (او المنعكسات الشرطية) والعادات والذكريات . فالآثار العصبية ليست شيئاً آخر غير هذه التغيرات في المقاومة الناشئة عن العمل الدماغي نفسه في بعض نواحيه . فاذا تمت هذه التغيرات

---

(١) مذهب الصيغ او نظرية الشكل La Theoirie de la Forme مذهب فلسفي حديث اخذ به بعض فلاسفة الالمان وعلى رأسهم كوهلر وملخص هذا المذهب ان ادراك الاشكال الكلية يسبق ادراك عناصرها .

تعين توزع التيارات في الشبكة العصبية ، وهذا ما يسمح لمنبه بسيط أحياناً بايقاظ فعالية عصبية كبيرة والاستفادة من مجموع نشاطها .

ولنلاحظ ان هذا التعليل يساير مبادىء التداعيين فالاقتران في الزمان يعني وجود منطقتين عصبيتين معا في حالة العمل وهذا التوافق في الفعل يؤدي الى تداخل عناصر هاتين المنطقتين وعملها جميعا لدى عمل جزء منها .

ومن الواضح ان المهم في هذا التعليل هو توافق العمل بين منطقتين تنبهان على صورة من الصور، ولكن ليس لطبيعة المنبه قيمة خاصة في هذا التعليل . لأن المهم في المنبه هو قدرته على اثارة فعالية عصبية معينة، وهكذا وحد الناقدون سبيلا الى النقد لانهم يرون ان لطبيعة المنبه « او لكيفيته » قيمة ذاتية لا يصح اهمالها .

٢ — ورداً على ذلك جاء التداعيون بتعاليل اخرى لاتهمل النظر الى طبيعة المنبه ، فأبدلوا الشبكة العصبية المتجانسة في كل نواحيها (والتي كانت في رأيهم تشبه شبكة كهربائية يصح استبدال بعض اسلاكها ببعضها الآخر والتي لايتعلق توزع الحوادث فيها الا بتغيرات المقاومة المحلية) بفكرة شبكة غير متجانسة لكل عنصر عصبي فيها نمط خاص من العمل له بعض المرونة ويقبل التغير في بعض الحدود. وعندئذ يكون التداعي نوعاً من الاتساق الطبيعي او المكتسب بين هذه الانماط العصبية . فكأن حادثة التداعي تشبه في ذلك حادثة الطنين التي ينشر فيها الصوت امواجه في الرنانات التي تناسب تواتره او التي لها ذات « المناسبات Harmoniques » ، ولكن يجب ان نفرض ان لهذه الرنانات بعض المرونة . وان نترك لها بعض حرية المطابقة :

خلاصة عامة

ان تداعي الافكار حادثة تستطيع فيها اية حادثة نفسية (تعتبر منبهاً) ان تثير سلسلة من الحوادث النفسية الاخرى .

وقد جرب الفلاسفة تعليل حوادث التداعي بقوانين عامة جداً كالاقتران والمشابهة والتضاد . فلم تكف هذه القوانين لتعليلها : ذلك ان كل نفس تختار سلسلة خاصة من التداعيات لاتتفق فيها مع غيرها كل الاتفاق . ولذلك جرب توماس براون ان يرجع هذا الاختيار الشخصي الى قوة المؤثر الذاتية بالنسبة الى التجربة الفردية فأنا انتقل مثلاً من

الحيوان الى البخلاء ثم الى لجاحظ بالتداعي بينما ينتقل البستاني من الحيوان الى الحمار ثم الى الكلب بحكم اختلاف تجاربنا الفردية وشدة المؤثرات الخاصة في كل منها .

الا ان هذه القوانين الجديدة لم تحل المشكلة بصورة نهائية لان النفس تتعالى على قوة المؤثرات وتختار منها للتداعي ما كان ضعيفاً وتهمل مايبدو قوياً في بعض الاحيان. فلابد اذن من ادخال العامل الشخصي الذي سميناه قانون الاهتمام .

ويتبع ذلك ان للتداعي قانونين : احدهما قانون الجمع وفيه تنتقل مبدئيا من حادثة ما الى كل مايقارنها . ولكن هذا القانون لايعلل حوادث التداعي الا في الحالات النفسية الضعيفة التوتر . اما في الاحوال العادية فلا بد من الاعتماد على قانون الاهتمام الذي يوضح سير التداعي من نقطة الى اخرى بحسب حاجات الانسان وميوله وعاداته . وهكذا يمثل التداعي بالجمع هذه الفعالية المحافظة التي رأيناها في الغريزة والعادة ، كما يمثل التداعي بالاهتمام فعالية الاصطفاء التي لمحنا بدايتها في الغريزة قليلاً ونموها في العادة .

ثم ان التداعي مادة للتفكير المنظم وليس بشبيه او قريب. الا ان بعض انواع التداعي بالمشابهة تلتقي ببعض انواع التفكير المبدع .

ويرى الفيزيولوجيون انه يمكن تعليل حوادث التداعي بالعمل المشترك للنواحي العصبية. وعندهم ان هذا الاشتراك ينشيء نوعاً من التداخل او الاتساق بحيث يكفي ان تعمل بعض العناصر حتى تعمل سائر العناصر . فاذا وجد منبه يثير عنصراً ما تنبهت سائر العناصر المتداخلة او المتسقة وانتقل الفكر من المنبه الاول الى المنبهات المقابلة .

الفصل الثالث عشر

الانتباه

Attention

خلاصة البحث

١ ـ تعريف الانتباه

أ ـ الانتباه وحالات الشرود الذهني

ب ـ الانتباه والحلم

٢ ـ تحليل الانتباه

أ ـ التلاؤم الفيزيولوجي

ب ـ التلاؤم النفسي

٣ ـ أنواع الانتباه

أ ـ الانتباه الخارجي والداخلي

ب ـ الانتباه القسري والعفوي والارادي

٤ ـ آثار الانتباه

أ ـ آثار الانتباه من الوجهة النفسية

ب ـ الانتباه ودلالته على الطباع

١ ـ تعريف الانتباه

يحسب الناس أن الانتباه حادث نادر الوجود في الحياة النفسية، وأن الشرود الذهني هو الحالة الطبيعية للنفس. الا ان هذا الزعم باطل لما نعرفه من قبل عن وظيفة الشعور ،

فعلى الشعور أن يوجه النفس، موحدة لا متجزئة، الى ما يهمها في الحياة ويحقق تلاؤمها مع الواقع. فكأن النفس دوماً في حالة انتباه، قوي أو ضعيف، ولولا ذلك لما بقيت لها الحياة، ولن يتجلى لنا معنى الانتباه بصورة واضحة، الا اذا قابلناه باحوال الشرود الذهني، فلنحاول ذلك.

أ - الانتباه وحالات الشرود الذهني : ليس الشرود الذهني نوعاً من الانسياق مع الآليات النفسية. فاذا نحن تعوضنا عملا من الاعمال، أمكننا ان نقوم به دون تفكير، فلقد أتكلم مع الناس وتنساق يدي الى تخطيط الورقة التي أحفظ فيها بعض الذكريات امامي، بخطوط ورسوم مختلفة، وأنتبه فاذا بي قد افسدت الورقة التي كنت أحاول قراءة مافيها، والاستفادة منه، فيسوءني ذلك، واشعر ان عملي كان آلياً، او كان حركة ميكانيكية تعودتها اعصاب اليد.

ولكن كثيراً مايلاحظ الشرود الذهني، خلال حوادث الانتباه العميق، فهذا العالم (آمبير) يقف وراء عربة سوداء يكتب عليها بعض حساباته، ويستغرق في الانتباه اليها، ولكن العربة تجري فيجري وراءها، غير منتبه الى ان جدار العربة ليس بسبورة، والى أنه لايحمل بالعالم او بالانسان ان يغفل عن حسن السير في الطريق. فهذا نوع من الشرود الا انه ينشأ عن الاستغراق في الانتباه.

وهنالك نوع من الانتباه الى الحياة، يسميه علماء النفس شروداً او طيشاً. مثال ذلك ان يمر الرجل في الطريق، وان يكتفي بنظرة سريعة يلقيها على مايراه هنا وهناك. فهذا انتباه سريع يساعد صاحبه على حسن السير في الطريق، الا أنه ليس بانتباه مركز حول موضوع خاص، ولذلك لايمكن القول بان العقل في حالة طيش، بل هو في حالة انتباه الى الحياة.

وهؤلاء التلاميذ الذين يرهقهم الانتباه الى الدرس، فينصرفون عنه الى موضوع جديد يتلهون به، كالنظر الى ذبابة تطير، او رفيق يصغي، وهؤلاء المحزونون الذين يتسلون عن حزنهم، وبالاستماع الى قطعة موسيقية، او باللعب في الورق، كلهم ينتقلون بالانتباه من موضوع الى موضوع، وليسوا في حالة شرود.

ب - الانتباه والحلم : ولنفرض الآن ان الشعور لم يعد يراقب مايجري في النفس

مطلقاً ، وانه لايعمل لتنظيم المشاعر ، وتوحيد الفكر ، من أجل التلاؤم مع الواقع . ففي مثل هذه الحال يصح القول ان النفس في حالة شرود او طيش ، الا ان وقوع مثل هذه الحوادث امر نادر .

Day Dream's

١ – ففي احلام اليقظة ، يتراخى توتر النفس ، وتنقطع الحاجة الى التلاؤم مع الواقع ، ويشرد الذهن عما فيه ، ليتأمل مجموعة جديدة من الصور او الذكريات او المشاعر ، يخيل الينا أنها مجموعة لا وحدة فيها ، ولا رابطة تجمع اجزاءها ، ومع ذلك فاننا نلاحظ أن عاطفة من العواطف هي المركز الطبيعي لتجمع هذه الصور ، او هذه الذكريات ، او هذه المشاعر ، كالحب ، او الحزن ، او الفرح ، أو الطمع . فليس هنالك اذن تشتت في الفكر اوعدم اتساق كلي. بل هنالك نوع من الوحدة وشيء من الاتساق ، بالرغم من كثرة الفكر والخواطر وتزاحم الذكريات والمشاعر .

ومع ذلك فان هذه الحالة ليست بالانتباه ، بل هي على عكس الانتباه او مضادة له ، فكلما اشتد الانتباه ، قوي اتساق الفكر ، واشتدت وحدة الموضوع ، وتعاظم التوتر النفسي . اما في حالة احلام اليقظة ، فيلاحظ ضعف هذا الاتساق ، وتشتت هذه الوحدة بعض الشيء ، وتراخي التوتر النفسي : فالانتباه حالة جهد واحلام اليقظة حالة من تراخي الشعور وفقدان الجهد .

٢ – أما في احلام النوم ، فينعدم الانتباه الى الحياة ، ويزول كل شاغل عاطفي وتفقد كل مراقبة عقلية . فنلاحظ عندئذ تتابع الصور على مسرح الحلم ، وليس بينها في اكثر الاحيان توافق ولا انسجام. ومع ذلك فان صور الحلم قد تنشأ عن عاطفة مكبوتة (كما يقول فرويد واتباعه) او عن حالة فيزيولوجية تحاول النفس تعليلها : فقد نرى في الحلم ان الطبيب يداوي قرحة في العنق ، وانه يزعجنا بعملياته ويؤلمنا . ونستيقظ بعد ذلك ، فاذا بالقرحة وخزة حشرة ، واذا بعمليات الطبيب وآلامها ، مما يدل على ان الشعور لاينقطع عن وظيفته في الشرح والتعليل ، حتى في النوم .

وعلى هذا فان الانتباه لاينقطع ، ما دامت هنالك حاجة الى التلاؤم مع مقتضيات العمل ، او ضرورات الحياة ، او مشاغل الفكر ، فاذا انعدمت هذه الحاجات القوية ، واستولت الاحلام على الفكر ، وتقاسمته بصورها ، لم نعدم هذا الانتباه السطحي الذي تسيره حالة فيزيولوجية واقعة ، او عاطفة شخصية مكبوتة .

١ - تحليل الانتباه

ان اليقظة حالة انتباه دائم ، كما تقدم : فاذا استيقظ الانسان ، فمعنى ذلك ان النفس عادت الى الشعور بذاتها وجمعت قواها للاجابة على مقتضيات العمل ، او حاجات الفكر ، ومع ذلك فان مفهوم الانتباه اضيق من معنى اليقظة ، اذ هو حالة تتجمع فيها فعالية نفسية وتتركز بقوة حول موضوع من المواضيع . فلنجرب الآن وصف ما يجري في الجسم او في النفس اثناء حالة الانتباه .

التلاؤم الفيزيولوجي : ان اول ما نلاحظه في الشخص المنتبه ، هو الوضعية الخاصة التي يكون فيها الجسد ، وتتميز هذه الوضعية بتلاؤم مزدوج : فهنالك تلاؤم حسي وعضوي اولا ، وهنالك تلاؤم عقلي او نفسي ثانياً .

١ - التلاؤم الحسي : عندما ينتبه الانسان الى شيء خارجي ، نلاحظ ان الحاسة التي يهمها الامر قد اتخذت احسن وضع يسهل فيه عملها . ويلاحظ ذلك بصورة خاصة عند الحيوانات ، فالكلب مثلاً يوجه اذنيه الى مصدر الصوت ، والقطة تقرب انفها من قطعة اللحم . وكذلك الانسان فانه يفتح عينيه بقوة ، ويحني رأسه قليلا الى الامام ليرى الشيء الذي يريد ملاحظته . وفي بعض الاحيان نرى اليد قد وضعت بجانب العيون او فوقها ، من اجل تحسين الرؤية ، ومنع ما يشوشها . اما اذا كان الانسان يلاحظ شيئاً داخلياً ، فاننا نلاحظ أن اعضاء الحواس تحاول تعطيل عملها : فالعيون مغلقة او مثبتة ، والاذنان في شبه صمم اصطناعي . والجسم في شبه انطواء على ذاته .

٢ - التلاؤم العضوي : ويظهر التلاؤم العضوي في العضلات بصورة واضحة : فاذا كنا ننتبه الى عمل يجب ان نقوم به ، نرى عضلاتنا متقلصة ، كأنها في حالة الاستعداد للعمل : فالقطة متحفزة للوثوب ، والرياضي مستعد للقفز . واذا كنا في حالة تأمل داخلي توقف جسدنا عن العمل وانقطعت صلته بالعالم الخارجي ، ما خلا هذه الحركات الآلية التي تعودها الجسم ورسخت فيه . فبعض الناس يمشون جيئة وذهاباً في داخل الغرفة . وبعضهم يفرك يديه ، وبعضهم الآخر يضع يده على ذقنه . ومع هذا كله ، نلاحظ تغيراً

تاماً في نظام الحياة العضوية : فالتنفس يتضاءل . وينشأ عن ذلك التشاؤبات الكبيرة المعوضة. اما دوران الدم، فيتسارع او يتباطأ ، ويشتد في المناطق الدماغية ، ويضعف في الاطراف . فاذا خرج التلميذ من درس اطال الاصغاء فيه ، رأيت رأسه ساخناً ويديه باردتين. وأما الهضم فانه يضطرب ايضاً. ولذلك كانت المحادثات التافهة ضرورية على المائدة. وكانت المحادثات الجدية مزعجة او مسيئة فيها . ولقد لوحظ أيضاً ان بعض الافرازات تصبح نشيطة . فاذا طال الانتباه تسمم الجسم بها . وزبدة القول : ان كل عمل عضوي خلال الانتباه ، يخمل ويتضاءل . وهذا ما يعلل ظهور ردود الفعل العنيفة بعد ازمات الانتباه الطويلة : فترى الطلاب يصرخون ويقفزون بعنف عند الخروج من الدرس .

٣ — **التلاؤم العقلي** : فاذا لاحظنا الآن مايجري في النفس رأينا نوعاً من تمركز الشعور واستقطابه . ولكن ماذا يعني هذا التمركز وهذا الاستقطاب ؟

يرى ريبو ان الانتباه « فكرة وحيدة » ينشئها التلاؤم الفيزيولوجي . ويرى آخرون ان الانتباه نوع من توقف تيار الشعور مصحوب بتلاؤم فيزيولوجي. ولكن اذا قلنا ان الانتباه فكرة وحيدة مصحوبة بتلاؤم فيزيولوجي ، فان ذلك يكون تعريفاً للنوم المغناطيسي ، لاتعريفا الانتباه . والنوم المغناطيسي ليس بافراط في الانتباه ، كما كان يحسب ريبو ، بل هو نفي للانتباه واعدام له . فالنفس في هذه الحالة مستعبدة لفكرة المنوم ولا ترى سبيلا الى العمل الحر .

والحق أن الانتباه يقتضي وجود فكر كثيرة لافكرة وحيدة . اما الوحدة فهي في اتجاه تيار الشعور لا في الفكره . فالفكر تجري وتنمو ، وتزداد غنى . أما الموضوع فيبقى ثابتا. فاذا كنا ننتبه الى موضوع من المواضيع، فمعنى ذلك أننا ثبتناه في الذهن وحاولنا ايضاح غموضه، او حل مشكلته، او تعيين قيمته، ولا يتم لنا ذلك الا باستدعاء مجموعة من الصور والذكريات والفكر نستعين بها على الوصول الى الغاية المطلوبة من الانتباه. وهذا يعني أيضاً ان النفس تحذف العناصر الغريبة التي تعرقل حسن التأمل أو وتزيد غموض المشكلة المفروضة. فليس الانتباه توقفاً وسكونا ، بل هو حركة وحسن تمييز وتلاؤم عقلي بعد التلاؤم الجسمي .

٤ — **الجهد العقلي** : ولنلاحظ ان فعالية الانتباه مصحوبة بعاطفة خاصة هي شعور بالجهد . وهذا الشعور بالجهد العقلي مختلف عن الشعور بالجهد العضلي الذي يرافقه، لأنه ينشأ

– فيما يظهر – عن الصعوبة التي يلاحظها العقل في حل المشكلة المطروحة عليه وعن صعوبة استدعاء العناصر النفسية المناسبة لحل المشكلة ، وايضاح الغموض ، وحذف العناصر التي تعرقل هذا العمل . والبرهان على ذلك أنه اذا تم حل المشكلة زال الشعور بالجهد بل يكفي لذلك ان يسير العقل في طريق هذا الحل . وهكذا يصح ان نقول ان هنـــاك : جهداً مفرحا يعرفه كل منا عندما يلاحظ توفر العناصر التي يبحث عنها لحل مشكلة من المشاكل . أولا ترى التلميذ الذي يحاول كتابة موضوع انشائي ، كيف يفرح عند ما تتهيأ له العناصر الضرورية ويجد التعابير المناسبة او الكلمات الملائمة ؟ إلا أن العضوية ، خلال ذلك ، ليست أقل تعباً ، وكثيراً ما يبدو هذا التعب قوياً وعنيفاً في آلام تصيب الرأس بعد أزمات الانتباه الناجحة . ولهذا نقول ان الجهد العقلي غير الجهد العضلي .

٣ – انواع الانتباه

يمكن النظر الى انواع الانتباه من وجهتين : ١) اولاهما وجهة موضوع الانتباه ٢) والثانية سبب الانتباه .

١ – فأما من وجهة الموضوع فان الانتباه ينقسم الى **نوع خارجي وآخر داخلي** .

فاذا كان موضوع الانتباه خارجياً سمي **ملاحظة** . وهكذا يسمى انتباه العالم الى نبات او حيوان او مادة كيماوية او حادثة طبيعية ملاحظة علميه . واذا كانت غـــاية الملاحظة اكتشاف مواطن الجمال والاستمتاع بها ، سميت الملاحظة **تأملا بديعياً** .

واذا كان موضوع الانتباه فكرة داخليـة سمي الانتباه **تفكيراً** . مثال ذلك عالم النبـات الذي يفكر في مكتبه بالزهرة التي رآهـا . واذا كان التفكير طويلا ومنظما سمي : **تأملا** ، مثال ذلك تأمل الفيلسوف في مشكلة فلسفية او تأمل العالم في قضية علمية .

واذا اتجه الانتباه الى حادثة نفسية داخلية ، سمي الانتباه **استبطاناً** .

٢ – واما من وجهة السبب ، فالانتباه انواع ثلاثة : **قسري وعفوي وارادي** .

فالانتباه القسري Involuntary : ينشأ عن سبب خارجي مفاجىء يحمل النفس ويقسرها قسراً على الانتباه اليه ، مثال ذلك انتباه انسان الى ضجة مفاجئة او حركة عنيفة او ماهو من هذا

القبيل ، فاذا كنا في الطريق ، وانطلقت رصاصة من بندقية قريبة منا ، رأيناانا بصورة قسرية نلتفت الى مصدر الصوت .

ولنلاحظ ان حركة الالتفات — في هذا الانتباه — اقرب الى رد الفعل منها الى الانتباه ، بل ان الانتباه الصحيح لايكون الا بعد نهاية الحركة ، وزوال المفاجأة . وعندئذ ينقلب الانتباه القسري الى نوع من الملاحظة .

وفي الانتباه القسري وحده ، يمكن ان نقول : ان الانتباه توقف في تيار الشعور ، فالضجة المفاجئة تستولي على الشعور استيلاء تاماً ، وتوقف كل فعالياته ايقافاً تاماً ريثما يصحو الذهن من المفاجأة التي أسرته واستولت عليه .

والانتباه العفوي (spontaneous) : هو انتباه الانسان الى مايلائم ميوله الفطرية ، واتجاهاته العادية ، فالطفل مثلاً يطيل الوقوف على دكان الحداد ، الذي يسوي قطع الحديد المحمية ، ويطيل الانتباه الى حركات اللاعبين وهرج الهازجين : والامر كذلك في الجزار والحائك والخياط والكاتب والصحفي والأديب ، فكل منهم ينتبه الى المناظر التي تهمه ، ولذلك كان الانتباه العفوي دليلاً على ميول الطباع .

ويتميز الانتباه العفوي بسهولته على النفس ، وذلك لان الجهد الذي يبذل فيه يستمد مباشرة من قوى الميول الطبيعية الموفورة ، لامن جهد ارادي يقسر النفس على غير ماخلقت له ، ولهذا كان من الطبيعي ان يتابع الانسان دراسته في اتجاه ميوله الطبيعية ، لابصورة مخالفة لها .

وأما الانتباه الارادي (voluntary) : فهو الانتباه الذي يستند الى الارادة ، ويتوجه بتوجيهها ، مثال ذلك انتباه الطالب الى درس لايميل اليه او موضوع لايهمه .

وليس من شك ان الانتباه يبدأ قسرياً ، ثم يصبح عفوياً ، ثم يتطور فيصبح ارادياً ، وليس صحيحاً ان الانتباه الارادي مجرد تعقيد للانتباه العفوي ، لان تطور الارادة وتكاملها امر متأخر بالنسبة الى ظهور الميول الفطرية وعملها . ويتميز الانتباه الارادي بشدة الشعور بالجهد فيه ، والسبب في ذلك واضح ، اذ يضطر الانسان في هذا الانتباه ، الى صرف جهود اضافية غير مستمدة من قوى الميول الطبيعية .

٤ — آثار الانتباه

ان آثار الانتباه في الحياة النفسية عميقة جداً ، فلابد لنا من دراسة هذه الآثار اولاً ،

وتحديد علاقة الانتباه بالطباع والسجايا ثانياً ، ولنحاول ذلك في الفقرات التالية :

١ ـ آثار الانتباه من الوجهة النفسية : ا ـ يمكننا ان نلاحظ اولاً ان الانتباه يزيد شدة الحوادث النفسية التي يتركز عليها سواء اكانت حسية او عاطفية او عقلية . وزيادة الشدة هنا تعني الاغناء بعناصر جديدة . وقد رأينا ـ من قبل ـ أن الانتباه يستدعي جملة من الصور والذكريات والفكر حول موضوعه توصلاً الى ايضاحه أو حل مشكلته ، وهكذا يمكن القول ان الانتباه يزيد شدة الحوادث التي يتركز عليها ، ويغنيها ويوضحها ، فالرؤية تصبح ملاحظة ، والسمع يصبح اصغاء .

ب ـ ونلاحظ أيضاً ان الانتباه يعزل الحادث أو الشيء الذي يتجه اليه ، ولهذا كان الانتباه آلة تجريد ، لانه يخص بالنظر شيئاً واحداً من جملة أشياء ، أو جزء من مجموعة أجزاء ، أو عنصراً من مجموعة عناصر .

فاذا انتقلنا الآن بالانتباه ، من جزء الى جزء ، او من عنصر الى عنصر ، بصورة منظمة ومتتابعة ، كان الانتباه آلة تحليل . وينتهي الانتباه أخيراً بان يصبح أداة اصطفاء وانتخاب ، وذلك عندما يوجه تيار الشعور في وجهة خاصة ووحيدة وهذا ماسنلاحظه عند البحث في الفعل الارادي ، وخاصة في مرحلة التقرير .

ح ـ ثم ان الانتباه يجمع جملة الامور التي اتجه اليها ، ويؤلف بينها في عمل فكري واحد . وبهذا يبدو الانتباه كأنه فعالية تركيب ، وينشأ عن ذلك انه يصل بين معارفنا المختلفة وينظمها ويرتب علاقاتها بعضها ببعض .

وعلى ذلك فان الانتباه أساس المعرفة ، لانه لابد في المعرفة من التحليل والتركيب والتنظيم . والانتباه ، من ناحية أخرى ، مصدر كل استقلال فربما عاش رجلان معاً ، حياة واحدة ، وشهدا ذات الحوادث ، ولابستهما ذات الظروف ، ومع ذلك فكل منهما ينظر الى ماحوله بعين خاصة به ، ويتعلم مما حوله أشياء لايتعلمها الاخر ، وهكذا تختلف تجربة احدهما عن تجربة الآخر ، كأنما يعيشان في ظروف مختلفة .

ولكن كيف تعلل هذه الآثار كلها ؟

أن لكل هذه الآثار سبباً واحداً فيما نرى ، لان معنى الانتباه هو الرجوع الى الماضي لنستمد منه مايعيننا على فهم الحاضر .

أ ـ ولكن اذا عدنا الى الماضي ، أتينا منه بمعلومات نلقيها على الحاضر المجهول ،

فيغنى هذا الحاضر بها ويزداد شدة . ثم أن المقابلة بين المعلومات القديمة والحاضر الجديد ، من شأنها أن توضح هذا الجديد ، حتى لترى العين فيه مالم تكن تلمحه من قبل ، ولهذا كان أثر الادراكات أو المكتسبات السابقة عظيماً في الانتباه ، وقد لايجدي الانتباه اذا لم يكن مسبوقاً بمثل هذه المكتسبات ، فاذا مرض لدينا مريض كنا أول من يلاحظ بداية مرضه وتطور آلامه ، ومعرفة مواضع الألم ، ولكننا مع ذلك لانستطيع معرفة المرض ولا تشخيص الداء ، فاذا أتى الطبيب ، لم يستطع أن يعرف عن المريض مثل مانعرف ، ولكنه مع ذلك ، يشخص المرض ، ويعين الداء . والسبب في ذلك أن الادراكات الجديدة ، تنضم في عقل الطبيب ، إلى المكتسبات القديمة ، التي نجهلها نحن ، فيتضح له بواسطتها مايظل علينا غامضاً ، والامر كذلك فيمن يصغي الى حديث بلغة لايفهمها ، وفيمن يقرأ في علم لايعرف عنه شيئاً ،وهذا معنى قولهم : أنناندرك مانستدرك أو لا ندرك الا مانستدرك .

ب — وإذا كان الانتباه آلة تحليل ، فلذلك ناشيء عن السبب نفسه . والواقع أن موضوع الانتباه وحده يزداد غنى ويكتسب وضوحاً ، اما المواضيع الاخرى فتحتفظ بفقرها وغموضها ، فكأنما يطفو موضوع الانتباه ، واضحاً ، على سطح الشعور الذي يبقى كل ما فيه غامضاً ، ولهذا يقولون: ان الانتباه يغني الشعور ويفقره معاً. فأما الاغناء فواضح فيما تستدعيه النفس من فكر وصور وذكريات توضح بها موضوع الانتباه ، واما الافقار فظاهر ايضاً،لان النفس تنصرف عن كل شيء آخر عدا الموضوع الذي تهتم به .

ج—وهذا السبب نفسه هو الذي يوضح لنا كيف يكون الانتباه آلة تركيب. فكل ما تستدعيه النفس لايضاح موضوع الانتباه ، ينضاف الى هذا الموضوع ، وينشيء معه كلاً جديداً ، فكأن النفس تقدم الاطار الذي يجب ان تدخل فيه الفكرة الجديدة ، وهكذا تمتزج كل تفاصيل هذه الفكرة مع ما تقدمت به النفس من ذكريات وفكر ، في تركيب متصل العناصر . وهكذا ايضاً ينعكس الماضي على الحاضر فيغنيه ويوضحه ، وينشيء له الاطر التي يجب ان يدخل فيها ، ويفهم من خلالها .

والخلاصة ان الانتباه يغني الحاضر ويزيده وضوحاً وشدة ، ويفصله عن الاشياء الاخرى لينتظمه بعد ذلك في تراكيب جديدة . فليس الشعور مجرد انفعال يقبل الامور الجديدة دون أن يردعليها،بل هو فاعلية ترد على الحاضر بالماضي وعلى المجهول بالمعلوم، وهكذا يبدو الشعور كآلة اصطفاء واغناء وتحليل وتركيب .

ب - الانتباه ودلالته على الطباع : اذا كان الانتباه ، في انسان من الناس ، يتجه الى بعض النواحي دون غيرها ، فمعنى ذلك أن ميوله الطبيعية هي التي تختار هذه النواحي ، وتوجه الانتباه اليها . فقيمة الانسان تتجلى في اتجاهات انتباهه ، وتقاس بمقياسها ، ولكن لنتساءل الآن عن الاشياء او الصفات التي تعين قيمة الانتباه .

١ - اتجاه الانتباه : ان قيمة الانتباه تتعلق ، أول ما تتعلق ، باتجاهاته الطبيعية . فهنالك اشخاص يتركون للظروف امر توجيه انتباههم فاذا رأوا جماعة وقفوا عندها يستطلعون اخبارها ، واذا رأوا اعلاناً وقفوا يقرأونه ، واذا سمعوا ضجة اسرعوا اليها . فهؤلاء اشخاص ينقصهم الاتزان . وضعف الاتزان دليل على ضعف الشخصية ، وبرهان على اضطراب العقل ، وعلامة على ضعف الارادة . وهنالك اشخاص يهتمون بالتفاصيل الجزئية التافهة : فهؤلاء اناس سطحيو التفكير ، مضطربو الطبع . وهنالك على العكس أشخاص لايهتمون الا بالشيء الاساسي في كل موضوع ، فهؤلاء أناس عميقو التفكير ، جديو الطباع . وهنالك من لايهتم الا بمنفعة الاشياء وقيمتها العملية ، وهؤلاء أناس عمليون ، واضحو الانانية . وهنالك من لايهتم الا بما يرضي حاجة العقل الى الفهم والتعليل ، فهؤلاء أناس يتميزون بعقول خلقت للتأمل ، وطباع تحسن التجرد . ومن الناس من لا ينتبه الا الى مايرضي اهواءهم ، ويشبع رغائبهم ، فهؤلاء نفوس متفسخة وطباع ثائرة لاتحسن الخضوع للنظام . ومن الناس ، على العكس ، من لايهمه الا البحث عن العدالة والظلم ، وهؤلاء نفوس مستقيمة وطباع شريفة . والخلاصة ان الميول الطبيعية أو المكتسبة هي التي توجه الانتباه ، ولذلك كان الانتباه دليلاً على الميول التي تحملها كل نفس ، وبالتالي ، على الطباع المختلفة التي تتميز بها النفوس .

٢ - خصوبة الانتباه : وتتعلق قيمة الانتباه بخصوبته أيضاً . فهنالك عقول فقيرة لايستطيع انتباهها الثبات ، لأنها عاجزة عن ان تجد في ذكرياتها الثروات التي تغذي الانتباه . ولما كان الانتباه في هذه الحالة ، بطيء التنبه ، سريع الخمول ، فانه يبقى ضعيفاً لاتجمع فيه ولا فائدة منه . وهنالك ، على العكس ، عقول غنية ، سريعة الانتباه ، لأنها تستطيع ان تجد في ذواتها ثروات زاخرة تحسن تغذية الانتباه . ولكن لنلاحظ أن هذه الثروات النفسية ناشئة عن مكتسبات التجربة التي تم تمثيلها وهضمها ، واعتادت النفس استعمالها والاستناد

اليها في كل مناسبة . ولكن اذا لم تكن هنالك تجربة شخصية كانت التربية العقلية كافية للقيام بهذا الدور ، وان لم يكن هنالك لاتجربة شخصية ولا علم فالخيال يعوض عنهما ، وبذلك يستطيع العقل ان يستبق المسلمات التجريبية الحاضرة ، وان يتعالى فوقها، بما ينشئه حولها من تراكيب جديدة . فللخيال اذن دور هام ، ولا سيما اذا أدى الانتباه الى الابداع والاكتشاف .

وعلى ذلك يمكننا ان نقيس قيمة الانسان بمقياس خصوبة الانتباه لديه ، وذلك لان خصوبة الانتباه تتعلق بالمعارف التي يملكها هذا الانسان ، ولاشك أن قيمة الانسان ليست في مواهبه فحسب ، بل هي في معارفه ايضاً .

٣ - قوة الانتباه: ثم ان قيمة الانتباه تتعلق بقوته .

١ — والحق ان الانتباه لايتعين دوماً بمقتضيات المنفعة المباشرة ، او الاهتمام الحاضر، بل إن على الارادة أحياناً ان نتدخل في توجيه الانتباه ، ولكن هناك عقولا موهوبة تحسن الاهتمام ببعض المواضيع بصورة طبيعية وتنجح في ذلك بدون جهد ولا صعوبة ، ما دامت مواضيع الانتباه لاتتجاوز دائرة الميول الطبيعية . غير أن سهولة النجاح تجعلهم أخيراً يخشون الجهد وينفرون منه،وهذا مايبعدهم عن معالجة المواضيع الغريبة عن ميولهم الطبيعية .غير ان الحياة تطرح عليهم في بعض الاحيان بعض المشاكل التي لا يستطيعون الاهتمام بها بصورة طبيعية ويكون عليهم عندئذ ان يبذلوا بعض الجهد في حلها ، فيرون عندئذ أنهم عاجزون عن بذل هذا الجهد ، وعن ذلك ينشأ فشل كثيرين من الناس :كانوا في حياتهم الدراسية لامعين أو مبرزين .

٢ — وعلى العكس من هؤلاء ، تجد أحياناً بعض الناس الضعيفي المواهب ، الذين عودتهم الحياة أن لاينجحوا الا بالصبر الطويل والدراسة المستديمة ، والتغلب على الصعاب، فاذا جابهت الحياة هؤلاء بمشاكل جديدة لم يتعودوا مثلها من قبل، استعانوا عليها بالصبر، ومضوا في دراستها ، وتقليب النظر فيها ، بذات الجهد الذي ألفوه من قبل وعرفوه ، فتراهم أخيراً ينجحون على ضعف مواهبهم ، فيما فشل فيه الموهوبون ، فأصحاب المواهب عقول غنية ، وهؤلاء عقول قوية ، والمثل الاعلى يكون في ائتلاف غنى المواهب وقوة الجهد ، الا أن الموهبة بنت الفطرة والطبيعة ، اما التعود على بذل الجهد فشيء اكتسابي، فكأن قوة الانتباه نتيجة لبعض الصفات الخلقية اكثر مما هي نتائج المواهب الطبيعية ،

أو هي دليل على قوة إرادة ، ومضاء العزم ، والارادة أمر شخصي لاشك فيه . ولذلك كانت قيمة الانسان لافي مواهبه ولا في معارفه فحسب ، بل هي ايضاً في إرادته ومضاء عزمه .

والخلاصة إن الانتباه مجموعة فعاليات نفسية ، فهو فعالية محافظة بمقدار ما يحتاج الى المكتسبات السابقة ، وهو فعالية اصطفاء ، بمقدار ما ينتخب بين هذه المكتسبات ولكننا نلاحظ ايضاً أنه فعالية تحليل وتركيب معاً ، لعزله موضوع الانتباه عن غيره من المواضيع ، من ناحية اولى ، ولتأليفه بين هذا الموضوع وبين المكتسبات السابقة من ناحية اخرى ، وسنرى أن هذه الفعاليات كبيرة جداً في الافاعيل النفسية المركبة .

خلاصة عامة

لقد رأينا من قبل أن الميول تقوم على أساس الحياة العاطفية كلها : فاللذات والآلام مثلاً تنشأ عن أرتواء الميول أو عدم أرتوائها ، والهيجانات تنشأ عن أثارة هذه الميول اثارة قوية ومفاجئة ، والاهواء تنشأ عن تضخم أحد الميول ، واستنزافه قوة كل الميول الاخرى .

ونرى الآن في دراسة الغرائز والعادات وتداعي الأفكار والانتباه أن الفعالية المحافظة وفعالية الاصطفاء تقومان على أساس هذه الحوادث ، كما تقوم الميول على أساس الحياة العاطفية . فالغريزة فعالية محافظة لانكاد نلمح فيها الا أثراً ضئيلا لفعالية الاصطفاء ، والعادة كالغريزة في ذلك ، الا أن فعالية الاصطفاء فيها أوضح وأظهر ، وما تزال الفعالية المحافظة تصغر وتتضاءل ، وفعالية الاصطفاء تنمو وتكبر حتى نجد الانتباه الذي ياخذ من الثانية أكثر مما يأخذ من الاولى ، كما يعتمد على فعاليتي التحليل والتركيب اللتين يكبر أثرهما تدريجياً في الافاعيل النفسية المركبة كالذاكرة والادراك ، والحكم والمحاكمة وغيرها .

وسنرى ان هذه الفعاليات الاربع هي المواد الاولى التي تنشأ من امتزاجها تلك الافاعيل النفسية المركبة .

الفصل الرابع عشر

الذاكرة

La Memoire

خلاصة البحث :

١ ـ تعريف الذاكرة :

ا ـ الذاكرة والاحياء
ب ـ الذاكرة والعرفان
ح ـ الذاكرة وحسن الاصطفاء

٢ ـ وظائف الذاكرة :

Conservation des Souvenirs

أ ـ الحفظ والتثبيت
ب ـ ١ ـ الخطور . ٢ ـ النسيان Forgetting
ح ـ العرفان ودرجاته Recognition

١ ـ العرفان العملي
٢ ـ العرفان الشعوري
٣ ـ العرفان العقلي والتحديد

٣ ـ عوامل الذاكرة :

ا ـ العامل الفيزيولوجي
ب ـ العامل الاجتماعي
ح ـ العامل النفسى

٤ ـ امراض الذاكرة :

ا ـ الامنزيا وأنواعها
ب ـ الديسمنزيا
ح ـ الهيبرمنزيا

خلاصة عامة

١ — تعريف الذاكرة

لقد رأينا — من قبل — أن الذاكرة مفهوم عام بعض الشيء . يشمل الذاكرة العضوية — ذاكرة الجسم — والذاكرة النفسية بمختلف درجاتها . وربما كان علينا أن نستعرض الآن مختلف درجات الذاكرة ، لنخلص — بعد ذلك — الى تعريفها .

ولنلاحظ أن هنالك ذاكرة نباتية ، نعرفها في هذه النباتات الذي تتفتح أزهارها صباحاً ، وتغلق مساء ، تبعاً لشروق الشمس وغروبها ، ووجود الضياء أو الظلمة فاذا ماجئنا الآن بهذه النباتات إلى مكان مظلم دائما رأيناها تستمر على عادتها السابقة في تفتح الأزهار وإنغلاقها في المواعيد نفسها . أن هذه الذاكرة عادة عضوية ، ليس فيها اي أثر للصور النفسية .

وهنالك ذاكرة حيوانية ، نجد مثلا عليها ، في كلاب الصيد التي تنتفض من الفرح لدى رؤيتها صاحبها في ثياب الصيد ، فتجرى أمامه ، فرحة طربة ، ولا شك أن هذه الكلاب تذكر صور الصيد السابقه . إلا أنها — فيما نرى — لاتفصل هذه الصور كذكريات مستقلة ، بل تخلطها بالموقف الحاضر الذي يوقظها .

وهنالك أخيراً ذاكرة انسانية ، نلاحظها في قدرة الانسان على إحياء ماضيه ، والتحدث عنه ، كما نلاحظها في قدرته على الاستفادة من تجارب الماضي والانتفاع به في التلاؤم مع الحاضر ، فاذا قص لنا أحد الناس قصة وقعت له ، كنا أمام « ذكرى » تعاد ، وإذا رأينا هذا الانسان يقودنا في منعطفات الطريق ، إلى مكان نقصد اليه ، ولا نعرف موقعه كنا أمام « ذاكرة » نحسن الاستفادة من الماضي وتنتفع به .

أ — الذاكرة والاحياء

ولكن تعريف الذاكرة أمر يحتاج — بعد هذا كله — إلى شيء من الايضاح فلقد تعرف الذاكرة أحيانا بالقول أنها مجرد الحفظ البسيط ، أي مجرد بقاء الماضي والقدرة على استعادته . فكأنها مجرد أحياء للماضي ، لاأكثر ولا أقل . وهذا مايراه العالم « ريبو » عندما يقول أن في الذاكرة ثلاثة عناصر : أولها حفظ بعض الحالات النفسية ، والثاني

قدرة النفس على إعادتها وإحيائها ، والثالث حسن تمكينها في الزمان ، وان العنصرين الاوليين ضروريان ، أما الثالث فثانوي ، يتمم الذاكرة ولكنه لايؤلفها .

ولكن الذاكرة ليست ملكة إحياء فحسب ، لاننا قد نجد إنسانا يتحدث عن قصة وقعت له . ثم تجري به القصة إلى أحاديث أخرى متصله قليلا أو كثيراً بها ويخرج عن الموضوع ، ويرهق السامعين . وقد نجد تلميذاً يسأل مثلا عن صفات الغريزة فيكتب جوابه ببحث الغريزة كله ، من أوله إلى آخره ، دون تقيد بالموضوع . ومن الواضح أننا هنا أمام حادثه تداعي الافكار ، لاأمام الذاكرة . ومن المعروف أن الاطفال والابتدائيين ، ذاكرة نامية أو عجيبة ، ولكنهم لايملكون الاستفادة منها ، كما يستفيد الرجل المثقف او المتمدن ، بل انها تبقى لديهم ذاكرة آلية تقريباً لاتحسن الا اعادة الماضي واحياءه من غير ان تستفيد منها في حسن التلاؤم مع الحاضر . ولذلك كله نرى ان مجرد احياء الماضي ليس بذاكرة بالمعنى الصحيح .

ب — الذاكرة والعرفان

ان الذاكرة الصحيحة تقتضي العرفان . ومعنى ذلك اننا عندما نعيد الماضي ، نعرف انه ماض ، وانه كون جزءاً من حياتنا السابقة ، والفرق الوحيد بين الذكريات والمعارف أو المعلومات المحفوظة ، أن الاولى تحتفظ بطابع تاريخي او انها تذكر تاريخها وظروف وقوعها . اما الثانية فانها تستقر في الذهن بصورة مغفله لاتاريخ لها . فانا أعرف مثلا متى سافرت الى تدمر وفي اي الظروف ، بينما لا اذكر في اي حين حفظت شعرا من الاشعار او كلمة من الكلمات ، فالمعارف اذن ذكريات فقدت تواريخها أما الذكريات ، فهي جملة حوادث محدودة التاريخ أو متمكنة في الزمان ،

واذا كنا نعيد الماضي دون عرفان . فذلك يعني اننا نتخيل اكثر مما نذكر . وليست الصورة البسيطة (صورة جبل غير معين مثلا) او العادة (عادة الكتابة أو القراءة) الا مجرد احياء للماضي ، وليستاقط بذكريات .

ج — الذاكرة وحسن الاصطفاء

ليست الذاكرة مجرد احياء الماضي ، وعرفانه ، بل هي ايضاً حسن الاصطفاء ونعني بذلك ان الذكرة الصحيحة تعيد من الماضي هذه الذكريات التي تفيد في التلاؤم مع الواقع

فلو سئل تلميذ مثلاً عن صفات الغريزة ، فان على ذاكرته ان تمده بما يتعلق بهذا الموضوع وحده من المعلومات . ولو تحدث انسان بحديث امامنا واقتضت المناسبة ان نشاركه بالحديث لكان علينا ان نأتي بالذكريات المناسبة للمقام والحديث ، لاان نأتي بكل ما لدينا من الذكريات .

والخلاصة ان الذاكرة ملكة عالية ، تتطلب مستوى عاليا من الرقي اوالتوترالنفسي (كما يقول جانه) . وسوف نرى ان امراض الذاكرة تقابل — في كثير من الاحيان — ضعفاً عقلياًواضحاً، وهي تبرهن لنا ان هنالك وظيفة تثبيت للذكريات، ووظيفة استدعاء متميزة عن الاحياء ، لانها وظيفة تقوم بعملها بتأثير الارادة في الحين المناسب . كما ان هنالك وظيفة عرفان مختلف الدرجات ، قد يصل أحيانا الى درجة تحديد وضع الذكرى في الزمان .

٢ — وظائف الذاكرة

يتبين لنا — مما تقدم — ان للذاكرة جملة وظائف :

١ — أولاها وظيفة الحفظ والتثبيت .

٢ — والثانية وظيفة الخطور او الذكر ، ويتبع هذه الوظيفة البحث عن التذكر والنسيان .

٣ — والثالثة وظيفة العرفان بجملة درجاته .

ولنتكلم الآن عن كل وظيفة من هذه الوظائف على حدة .

١ — الحفظ والتثبيت :

ان تثبيت الذكريات امر اكثر تعقيداً من مجرد عمل الفعالية المحافظة التي رأينا اثرها واضحا في الغريزة والعادة . فالفعالية المحافظة تستطيع الاحتفاظ بالماضي ، كما تستطيع اعادته، ولكنها غير كافية لوظيفة التثبيت . ومع ذلك فان حفظ الذكريات مما يقتضي عمل الفعالية المحافظة . ولو لم يكن هنالك ذكريات .

وإذا تساءلنا الآن عن شروط تثبيت الذكريات ، أمكننا أن نلاحظ :

١ — أن كل ماقيل عن شروط أكتساب العادات، يمكن أن يعاد هنا أيضاً : فالتكرار المنظم ، المفصول ببعض الفواصل ، والذي تقسم فيه الصعوبات ، أمر لا بد منه في اكتساب الذكريات .

ولكن يجب أن نلاحظ أن التكرار ليس ضروريا في كثير من الذكريات ، لان الانسان يحفظ البارز من حوادثه اليومية ، دون أي تكرار . أما اذا أراد تثبيت بعض الذكريات ، غير البارزة ، فانه لابد من تكرارها والتوقف عليها .

٢ — ونلاحظ أيضاً أن هنالك بعض الشروط النفسية الخاصة ، كالعاطفة والاهتمام . ومن الواضح أن الانسان يحفظ مايحبه من الأشياء ، بسهولة ، لايستطيعها في الاشياء التي لايحبها . فالذاكرة هنا طوع القلب أو طوع العاطفة ، وكذلك نحفظ مانهتم به، ومانسأل أنفسنا عنه ، ولذلك كان من شروط القراءة المفيدة أن يسبقها في أنفسنا سؤال عنها وأهتمام بها .

٣ — وهنالك أيضاً عمل الانتباه والتفكير . فاما الانتباه فواضح الاثر ، لان الانسان لايستطيع أن يحفظ ويلهو بآن واحد . ولقد برهنت التجارب على أن الذاكرة التي تحفظ عرضا، دون الذاكرة التي تحفظ بارادة وانتباه. وأما التفكير فانه يعمل على ربط الذكريات الحديثة بالمعارف القديمة ووصلها بها . ويلاحظ (جيمس) أن الاحتفاظ باحدى الذكريات تابع لعدد أرتباطاتها بغيرها .

والواقع أن فعالية الذاكرة تتطور تبعاً للسن ، فهي — في أول الامر أو في زمن الطفولة — تعتمد على مجرد التكرار . أما في زمن النضج ، فانها تأخذ بالاعتماد على العلاقات المنطقية ، وتستعين بها لحفظ اجزاء الذكرى المختلفة . واذا لم يكن في الذكرى مثل هذه العلاقات ، حاول التفكير خلقها أو اضافتها . ويتضح لنا هذا من ملاحظتنا كيفية حفظ بعض الاسماء أو الكلمات الغريبة . وصناعة الحفظ كلها مرتكزة على هذا المبدأ . ونعني بصناعة الحفظ مايتعمده الانسان من حيل لحفظ بعض الاشياء الصعبة أو الغريبة : مثال ذلك وضع خاتم في الاصبع ، أو ربط خيط ، او إنشاء كلمة ملخصة، أو شعر ملائم ، كقولهم :

« مروانه وادع وسل عرض لحضهم تمن وارج كذاك النفي قد كملا »

في معرض حفظ بعض القواعد اللغوية المناسبة لفاء السببية . وليس في هذه الصناعة

شيء آخر غير محاولة جعل الغريب مألوفا ، ووصل الجديد بالقديم ، والمجهول بالمعروف.

٤ — وربما بدا لنا في هذا الموضوع ان بعض الاشياء أسهل حفظاً من بعض : فالشعر بالجملة أسهل حفظاً من النثر ، والشعر المنثور اسهل من النثر الحر ، والنثر الحر الذي يحمل معنى معقولا أسهل من النثر الذي لايصل بين مختلف أجزائه رابطة من المعاني المنظمة ، وهذا أسهل ايضاً من الكلمات المنفردة التي لارابطة بينها ، والكلمات التي لامعنى لها أصعب على الذاكرة من الكلمات التي لها معنى ، وهكذا ... مما يدل على أن الوحدة الموسيقية أو المعنوية أو المنطقية قيمة كبيرة في حسن تثبيت الذكريات .

٥ — ثم أن تثبيت الذكرى عمل مختلف عن مجرد تسجيل الصور ، بل هو عملية ذهنية معقدة تتعلق بالذكاء وبالارادة ، وتقتضي ، ككل الفعاليات العقلية المركبة ، أصطفاء خاصا . ويعني هذا الاصطفاء بانتخاب مايجب حفظه وتسجيله ، بين جملة مايمكن حفظه . اولا نرى أن الرجل الذي يفقد زوجته مثلا لايحفظ من ذكرياتها ، آخر الامر ، إلا مايحسن ويجمل أن يذكر في المناسبات المختلفة ؟

٦ — وآخر ماهنالك أن تثبيت الذكرى مما يقتضي وضعاً نفسياً خاصاً ليس من الطبيعي أن نكون فيه دوماً . فكأننا ، عندما نحاول حفظ بعض الذكريات ، نحسب أننا سنتكلف يوماً ما ، رواية هذه الذكريات للاخرين . والواقع أن الطلاب لايحفظون شيئاً الا وهم يحسبون انهم مسئولون يوما ما عن أعادة مايحفظون ، بل كأنهم يتصورون أن هنالك استاذا سيسألهم يوما ما عن هذا الموضوع الذي يحفظونه الآن . ولعلهم ، في كثير من الاحيان ، يراقبون انفسهم بانفسهم ، ويعيدون لها ، بعد كل قراءة ، ما استطاعوا حفظه ، كأنهم يجربون أن يعيدوا لانفسهم الآن ، ما سيعيدونه من بعد للاخرين .

ولنلاحظ أن هذا الوضع الخاص بعملية التثبيت ، هو الذي يتبدد أو يضعف في امراض الذاكرة ، او في الامنزيا ، ولنلاحظ أيضاً انه ربما كان الطفل عاجزاً عن تثبيت ذكريات الطفولة ، التي لايبقى منها في العادة ، الا بعض خيالات شاحبة ، بسبب عجزه عن اتخاذ هذا الوضع .

وخلاصة كل ما تقدم أن حفظ الذكريات يقتضي مثل هذه العوامل التي تساعد على اكتساب العادة ، وفضلاً عن ذلك فاننا نلاحظ قيمة الاتجاهات العاطفية ، واثر العقل في الوصل بين قديم الذكريات وجديدها ، وأثر الارادة في اتخاذ وضع مناسب للحفظ ، يحول

دون انصراف النفس الى اعمال أخرى ، وتشتت الانتباه بين المؤثرات المختلفة .

Recall

ب - الخطور وانواعه :

١ — الخطور : إذا تم حفظ الذكريات ، انصرفت النفس عنها الى مشاغلها الاخرى، وانسابت الذكريات الى عالم اللاشعور ، حتى تحين فرصة مناسبة ، فتعود من جديد الى ساحة الشعور ، وليس الخطور شيئاً آخر غير هذه العودة .

وإذا عادت الذكريات ، من تلقاء نفسها ، بدون أن يلاحظ الانسان مناسبة ظاهرة بين عودتها ، وبين الوضع الذي هو فيه ، قلنا أننا أمام خطور عفوي ، مثال ذلك ان نكون في درس الكيمياء ، ندرس كلور الصوديوم، وأن تخطر على بالنا ذكرى رفيق قديم، لم نره منذ مدة طويلة، أو أن نكون في غرفة نكتب بعض المواضع، ونذكر بعض اقاربنا ، في بلدة أخرى ، دون وجود أي داع ظاهر . فهذا كله من حوادث الخطور العفوي ، الذي يصح أن نسميه بالذكر .

والغالب أن عوامل الخطر العفوي أو الذكر هي ذات العوامل التي تستثير سلاسل التداعي ، أي عوامل الاقتران والمشابهة والتضاد ، وما يتبعها من قوانين فرعية اخرى، كقوة المؤثر، او شدته ، أو قربه . بل لعلنا نكون أقرب الى الصواب إذا رأينا ان هذه العوامل هي ، أولاً وأخيراً ، قانونا الجمع والاهتمام ، اللذان رأينا كل قوانين التداعي تنحل اليهما . فاذا كنا نذكر عند قراءة بحث، كلور الصوديوم هذا الرفيق الذي طال علينا فراقه، فما ذلك إلا لأننا مشينا ذات يوم معاً ، نسأل الباعة ، عما إذا كانت لديهم هذه المادة، فيجيبوننا سلباً ، وهي مبذولة أمامهم ، إلا أنهم لا يعرفون أن اسمها ما نسميه نحن بها ، وهكذا نرى أن هنالك جملة نفسية اقترنت جملة اجزائها في تجربة سابقة ، وقد عاد أحد هذه الاجزاء ، فأيقظت عودته سائر اجزاء الجملة التي هو احد أعضائها . وإذا كنت اذكر بعض الاقرباء ، في بلدة اخرى ، وأنا أكتب في مكتبي هذا الموضوع ، فما ذلك إلا لانني مشغول البال بهؤلاء الاقرباء ، وكل حادثة تعرض في الحياة ، مهما كان نوعها ، قادرة على إيقاظ ذكراهم في نفسي ، وهذا أثر قانون الاهتمام .

غير أن الخطور لا يكون عفوياً فحسب، بل يكون ارادياً ايضاً ، وإذا سمينا الخطور العفوي « ذكرا » فاننا نسمي الخطور الارادي « تذكرا » وهكذا يكون التذكر نوعاً

remembering — recalling

من توجيه الانتباه الى « الذكريات المفقودة » والبحث عنها والسعي لاستحضارها ، وردها من اللاشعور الى الشعور ، فكأن هنالك « جهداً » لابد من بذله ، في البحث عن الذكريات المفقودة ، وكأن هذه الذكريات ، عندما تغيب عن الشعور ، تترك في مكانها ما يدل عليها . وكأننا لانبحث عن المفقود إلا لمعرفتنا أنه « موجود » . وهكذا يصح قول باسكال لو لم تجدني لما بحثت عني .

وإذا حاولنا تذكر المفقود من ذكرياتنا ، احتلنا لذلك بمختلف الحيل ، فتارة نستعيد الجملة التي هو أحد أجزائها ، كمن يتذكر شعراً من الاشعار ويحتال لذلك باستعادة كل القصيدة التي هو منها . وتارة نقرب الشيء الضائع من الشيء الحاضر وننتقل من حد قريب الى حد أقرب ، حتى نبلغ الشيء المفقود ، كمن يتذكر اسماً من الاسماء ، ويحتال ، لذكره ، بمجموعة اسماء قريبة منه .

ولنلاحظ أن هذا الجهد الارادي الذي يستعمله الانسان في سبيل التذكر لايوفق الى النجاح دوماً . وكثيراً ما تستعصي الذكرى ، فلا تعود إلا اذا انصرف الانسان عنها ، وتلهى بشيء آخر غيرها . فكأن جهد التذكر يحول دون التذكر .

وكثيراً ما تخوننا الذاكرة ، فلا نذكر مما نريد الا بعض نقاط رئيسية ، ويبقى علينا ان نتمم الباقي ، بما نضيفه من عمل الخيال . ويذكر (روسو) انه كان يكتب اعترافاته عن الذاكرة رأساً ، ولكن ذاكرته كانت تخونه في بعض الاحيان . او كانت لاتقدم له الذكريات الا مشوهة او ناقصة ، فيضطره ذلك الى تخيل الامور الناقصة ، على مثل ما كان يجب ان تكون ، أو على مثل ما كانت فعلا ، ولكن دون ثقة بانها كانت كما يتخيلها . وفي هذا دليل على اننا كثيرا ما نرمم ثغرات الذاكرة بما نتخيله ونضعه في مكان الامور الناقصة ، ودليل على أن الذكرى ليست مجرد إحياء بل هي في كثير من الاحيان ، انشاء جديد ، يكونه العقل ، ويخلقه التفكير .

والخلاصة ان الحظور نوعان : عفوي وارادي ، وإذا كان عفويا سمي ذكرا . وإن كان ارادياً سمي « تذكرا » ولا بد في التذكر من توجيه الانتباه وعمل الارادة التي توجه التفكير العفوي ، وتبعد عنه كل الشواغل ، وتهيىء انبثاق الذكريات . إلا أن الذكريات كثيراً ماتعود ناقصة ، وعندئذ يكون على التفكير ان يملأ ثغراتها ، ولهذا صح القول بان الذاكرة انشاء بقدر ما هي احياء .

٢ — النسيان

تبين لنا — فيما سبق — أن الذكريات لاتبقى ماثلة في ساحة الشعور ، بل انها تتحول عنه وتصبح لاشعورية . ولكن إلى أين تذهب الذكريات المكتسبة ، وما هو اثر الزمان فيهـا ؟

لقد تساءل الفلاسفة القدماء عن مصير الذكريات ، فزعم قوم أنها تبقى في النفس ، ولاتضيع مطلقاً ، وأن النسيان ظاهرة سطحية تنشأ عن فقدان الشروط الملائمة للذكر او للتذكر ، مستندين في ذلك إلى حوادث فرط الذاكرة (الهيبر منزيا) التي تعود فيها الى الانسان كل ذكرياته ، وكل مافيهـا من تفاصيل ، (كما هو الامر في حوادث الاختنـاق او الشنق) . والحق ان هذه الحوادث النـادرة ، بعيدة كل البعد عن تـأييد الرأي المستند اليها .

والواقع اننا كلما اوغلنا في الماضي ، رأينا عدد الذكريات يتضاءل ، ووضوحها يخف وتفاصيلها تمحي : فالزمن يمحو الذكريات او يضعفها او يحولها .

آ — ولكي ندرس قانون إمحاء الذكريات . علينا ان نقيس عدد الارقام او المقاطع التي يمكن حفظها بعد سماع جملة منها ، مرة واحدة . فنلاحظ ان هذا العدد يتضاءل بسرعة كبيرة .

ويمكننا ايضاً ان نحفظ جملة من المقاطع الصوتية ، بعد تكرارها عدة مرات ، بحيث يصبح الحفظ كاملاً لاخطأ فيه . فاذا حاولنا بعد مدة من الزمن — قصيرة او طويلة — ان نعيد ماحفظناه ، رأينا اننا لانملك الاعادة بغير خطأ . فاذا فرضنا اننا احتجنا في الحفظ الكامل إلى تكرار المقاطع (٥٠) مرة ، واننا احتجنا في المرة الثانية إلى تكرار هذه المقاطع (١٠) مرات ، من اجل العودة إلى الحفظ الكامل ، امكننا القول باننا اقتصدنا (٤٠) قراءة بالنسبة الى التثبيت الاول ، فهذا العدد الاخير يقيس قوة الاحتفاظ بالذكرى ، والاول ، أي العشرة ، يقيس قوة النسيان .

ولنلاحظ ان النسيان يبدأ سريعاً ، ثم يستمر عمله ، ولكن ببطء متزايد ، فاذا مضت مدة طويلة ، بقيت بعض آثار الحفظ الاول ، بالرغم من شعور الانسان بانه قد نسي كل شيء .

وليس هذا القانون خاصاً بنسيان الذكريات ، بل انه ينطبق على حوادث نسيان العادات الحركية ، عند الانسان والحيوان معاً ، كما ينطق على حوادث نسيان الافعال المنعكسة الشرطية .

ب — ولكن ليس معنى ذلك ان الذكرى تضيع فحسب ، بل انها تتغير ، او تتبدل مادتها . ويجب الا نعتقد ان الذكرى شيء متجمد في المكان الذي تحفظ فيه ، بل انها تمثل الحوادث

النفسية ، تتطور وتتغير بتأثير الفعاليه العقلية اللاحقة . اما إحياء الذكرى ، من جديد ، بشكلها الكامل ، فذلك امر نادر الوقوع .

وما نذهب اليه الآن ، تثبته التجارب الكثيرة على حوادث الشهادة . ومن الواضح ان شهادة الناس في امر من الامور ، إنما هي ذكرى يصيبها شيء غير قليل من التشويه. ويلاحظ من كل التجارب التي تمت في هذا الموضوع ،ان من الصعب الثقة في امانة الذاكرة وانه ليس هنالك من نسبة بين صحة الذكرى ، وعاطفة الوثوق التي يدعيها لها صاحبها ، وان انحرافات الشهادة تتناسب طرديا مع طول الزمن الذي انقضى عليها ، وان الاخطاء تزيد بمعدل ٣٣ ٪ يومياً ، وان عاطفة الوثوق تزداد بنفس الوقت ، واذا طلبنا من بعض الاشخاص ان يؤدوا ذات الشهادات في ازمنة يتأخر بعضها عن بعض ، فانه يلاحظ ان بعض الاخطاء تتكرر بقوة متزايدة ، وان اخطاء جديدة تظهر ايضاً ، من جديد . اما عند الطفل ، فيلاحظ ان أسوأ الذكريات مقترنة لديه باكبر الثقة .

وينشأ الخطأ والتشويه في الذكرى عن أسباب مختلفة ، ولقد طلب الى بعض الاشخاص أن يعيدوا رسم بعض الاشكال ، من الذاكرة ، فلوحظ أن هناك ميولا منتظمة تعمل على احكام أو تبسيط أو تقوية إحدى التفاصيل الممتازة ، وعلى تكبير المقادير الصغيرة ، وتصغير الكبيرة (حتى في المقادير الزمنية) . وإذا كان الامر يتعلق بالحوادث الجارية، فانه يرى أن هذه الحوادث تشوه بميل الشهود إلى إحكام روابطها في علائق منطقية وتعليلها ، وحذف التفاصيل غير المفهومة منها . وهنالك اخيراً اثر العوامل العاطفية ، التي ينقاد لها حتى الاشخاص النزيهون . ولا تؤثر هذه العوامل في الادراك الاولي فحسب، وإنما تؤثر أيضاً في التغيرات اللاحقة التي تصيب الذكرى ، وينتهي الامر بالاعتقاد باننا رأينا ما كنا نحب ان نرى .

ولنلاحظ أن التجارب السابقة تتناول ذاكرة الحوادث ، إذ كنا نحاول فيها إحياء قسم او قطعة من ماضينا الشخصي . ولكن هذا النوع من الذكريات أسرع الذكريات الى العطب لان التطور الطبيعي يحول الذكريات الى معارف . والفرق بين هاتين ، هو أن الثانية لاتقتضي تذكر أصولها .

«ان معظم الأشياء التي أعرفها الآن ، ازاني قد تعلمت متى وكيف تعلمتها . واذا تعلم الطالب كلمة جديدة من

لغة اجنبية ، تكون ذكراه عنها ، في اليوم الثاني غنية بلوان عاطفية كثيرة ، فهو يراها في صفحتها ، ويسمعها من فم أستاذه ويتخيلها مكتوبة على السبورة ... وهذا يعني ان معرفة الكلمة تظل مدة ، تحمل ذكرى الساعة التي عرفت فيها وتفاصيل اخرى احاطت بمعرفتها . فاذا مرت سنوات عشر على الحادث نسي هذا كله ويبقى ان الانسان يعرف الكلمة ، ويفهم معناها ، ويحسن إستعمالها . فغاية هذا التطور إذن هو انقلاب الذكرى الى عادة . فهنالك اذن افتقار وانتظام بآن واحد .

ولا شك أن المعرفة والعادة خاصة ، تمتازان بثبوتها ، فاذا تعلمت القرود او دربت على انتخاب الافتح بين لونين ، أو الاكبر بين مربعين ، حفظت هذا الاستعداد مدة (١٨) شهراً ، بعد انقطاع التمرين . ومثل ذلك لسان أجنبي ، أو معلومات علمية أو مهنية ، فانها تبقى ، مدة طويلة ، بدون مران ، أو تتعلم ، من جديد ، بكثير من السهولة ، وهـذا أيضاً أكثر صحة ، وأكبر حقيقة فيما يتعلق بالعادات الطبيعية (كالتوازن على الدراجة ، أو السباحة او الرقص) . فما كان أكثر أنتظاما داخليا ، يبقى كثيراً بعد زوال الاقل انتظاماً .

وهذه النتيجة هي التي وصل اليها العالم ريبو بنتيجة تجرياته في هذا الموضوع ، فلقد أنتهى الى أن النسيان يصيب الذكريات الحديثة ، ثم يمتد الى الفكر عامة ، ثم الى العواطف ثم الى العادات أخيراً . ومن ناحية ثانية نلاحظ أن النسيان يصيب الاسماء الخاصة اولا ، ثم الاسماء العامة ، ثم الصفات ثم الأفعال ، ثم الاشارات (إشارات الاستفهام والاستغراب وأدوات الوصل ... الخ)

وللنسيان ناحية سلبية ، يظهر فيها بالغ الضرر ، لأنه يحرمنا من معلومات كثيرة نحن بحاجة اليها ، كما يحرمنا من مجموعة عواطف نحب أن لاننساها ، إلا أن له ناحية أيجابيه يظهر فيها عظيم الفائدة ، لأنه يتيح لنا تعلم أشياء جديدة ، لم نكن نستطيع تعلمها لو ظلت الحجيرات الدماغية مشغولة بالمعلومات القديمة ، وقد يكون من الخير أن ينسى الانسان بعض العواطف المؤلمة . ولولا النسيان لعاش أسير الاحزان ، مكبلا بالآلام والاشجان .

٥ — العرفان

ولنتابع الآن تطور الذكرى : فنلاحظ أن الذكرى او المعرفة تعود فتلامس

الواقع ، بعد مدة طويلة كانت خلالها كامنة ، أو في طور الكمون . ويجب أن نميز بين العرفان والاستدعاء أو التذكر ، فان الانسان إذا وضع امام الاشياء التي كان قد رآها في الماضي ، أو أمام اشباه هذه الأشياء ، فانه يتعرف اليها ، ولا نقول أنه يتذكرها ، غير أن للعرفان معاني مختلفة وكثيرة :

١) فهنالك **عرفان عملي** يتجلى في بعض الافعال المنعكسة العادية او الحركية او العاطفية التي نقابل بها الاشياء التي نتعرف اليها : مثال ذلك أن يتبع الانسان طريقه المعتادة ، مع أنه يفكر باشياء بعيدة جداً عنها ، وأن يستعمل السكين أو المشط أو القلم ، مع أنه لا يعيرها أقل انتباه ، ومعنى ذلك ان الادراكات الاولية البسيطة أصبحت كافية لتنظيم الاعمال ، والامر كذلك في عرفان الاشخاص ، فاذا تعرفت الى شخص ما ، فمعنى ذلك انني اتخذ تجاهه الاوضاع العادية ، بصورة آلية .

٢) **وهنالك عرفان آخر ، يتجلى في حالة شعورية خاصة ، هي عاطفة العرفان ،**

أي هذا النوع من الشعور الذي يخالجنا عندما نكون أمام اشياء أو أشخاص ، نشعر أننا رأيناهم من قبل .

ولهذا العرفان وجوه كثيرة ، ودور كبير الاهمية فلقد يكون العرفان قليل الوضوح أو كثيره ، عظيم الاتصال بالشخص او ضئيله ، ولقد يكون غامضاً أو جنسياً أو نوعياً (كأن نذكر أننا رأينا شيئاً من النوع ذاته او من الجنس ذاته او نذكر ان الاسم الذي يذكر أمامنا شبيه بالاسم الذي نبحث عنه ، أو قريب منه) ولقد يكون العرفان سلبياً : (فالاسم الذي يدور في الخاطر ليس هو الاسم الحقيقي) . وهذا يعني أننا نقاوم هذا الاسم الغريب ونقف دون اختلاطه بالاسم المطلوب . ولقد نشعر بان شيئاً ما قد تغير في هذا الشيء الذي نراه ، ولكن الانسان ، في كل الاحوال ، لا يتصور بوضوح موضوع الادراك القديم . ومن الممكن ان لا يعود اكثر الذكريات إلا على هذه الصورة ، أو قل إن الذاكرة التي تكتفي بهذا العرفان ، أوسع بكثير من الذاكرة التي تستدعي الاشياء ، حين غيابها ، والحوادث الماضية بعد اختفائها . وهذا النوع من الذاكرة هو الصورة العامة للذاكرة الحيوانية ، وهو يكفي لكثير من أنواع التلاؤم العملي .

وعلى هذا كله نقول بان هنالك فرقاً كبيراً بين معرفة الدرس بالصورة التي تكفي

لعرفانه إذا عدنا الى قراءته ، وبين معرفته بدرجة تسمح لنا باغلاق الكتاب ، وإسماعه.. ولا شك أن الطالب يهتم خلال الفحوص ، بجعل ذكرياته من النوع الثاني .

وليس من شك أن من عوامل تشويه الذكريات الماضية ، استخدامنا إياها لحاجاتنا العملية ، فنحن لانعود الى الماضي ، إلا على ضوء ظروف الحاضر ، ولا نستعين بالماضي إلا لانارة الحاضر وإضاءته. ومعنى ذلك أننا نطلب من الماضي أن يكون على صورة الحاضر. وفي هذا وحده ما يكفي لتشوية الذكريات ، وإلباسها صورة جديدة : مثال ذلك أن ندرس في كتاب جديد ، موضوعاً قرأناه من قبل ، في كتاب آخر ، وأن نلاحظ كيف نذكر ما قرأناه سابقاً ، بصورة ملائمة لما نقرؤه حالياً .

وإذا استغنت الفعالية النفسية عن ضرورات التلاؤم ، واستعادت ذكرياتها لذاتها ، لا على ضوء الحاجات العملية ، نلاحظ أن صور الماضي تعود الى وضوحها الاول الذي اكتسبته يوم اكتسبت ، وتعود اليها ألوان الماضي الذي رافق اكتسابها ، وهكذا يكون إحياء الماضي ، واسترجاع أحلامه ، بصورة مجردة ، مما يعيننا على رؤية الماضي بالوانه الاولى التي رأيناه فيها اول مرة .

٣) وهنالك عرفان أخير نسميه **العرفان العقلي** . ونعني بذلك عودة الذكرى بصورة واضحة جداً ، الى الزمان والمكان اللذين وقعت فيهما. فنعرف متى وأين اكتسبنا الذكرى وهذا ما نسميه بتحديد الذكرى.

وهنالك تحديد مباشر ابتدائي ، أو شعور أولي يبدو لنا معه أن الحادث الذي نذكر ، حديث العهد بنا او قديمه ، قليل الاتصال بدائرة المشاغل الحاضرة ، أو كبيره . ومع هذا كله نشعر بان الحادث شخصي ، وهذا الشعور اقرب الى العاطفة منه الى المعرفة ، فكأنه شعورنا بالمرئي سابقاً . ولهذا كان شعورنا هذا هدفاً للكثير من الاخطاء ، فنحن ، بآن واحد ، نشعر بان الحادث قريب من أنفسنا ونتردد أمامه ، وهاتان العاطفتان تصحبان أكثر الذكريات المفاجئة ، التي تحيي لنا هنيهة عاشها ماضينا .

غير أن تحديد وضع الذكريات الزمني ، تحديداً واضحاً ، يقتضي وضعها ضمن مجموعة حوادث متتالية ، أو في إطار زمني معين ، وقد ينشأ هذا التحديد عن نوع من اتساق الذكريات وتعاقبها في نظام لاينعكس ، ولكنه ينتهي الى نقطة معينة ، او إلى إحدى النقاط المعروفة من قبل ، أو ينتهي الى حادث آخر معروف التاريخ لدينا ، مثال ذلك

كله أن أقول : إنني نلت الشهادة الثانوية بعد ست سنوات أو سبع سنوات من دخولي المدرسة الثانوية ، ولما كان ذلك في سنة ١٩٢٨ م ، فيجب إذن أن اكون قد نلت الشهادة في سنة ١٩٣٤ ، وقد تكون عملية التحديد غير مباشرة ، فلا نصل اليه ، إلا بفضل بعض المحاكمات التي تستخدم محتوى التصورات ،أو الذكريات. مثال ذلك ان أقول لقدمررت على (س) قبل ان اصل الى (ع) ، لان الطريق الوحيدة الى (ع) يجب أن يمر من (س) . فهذا الحادث إذن قد سبق الآخر ، لانه سبب له .

ويجب ان نلاحظ ان اطر التحديد الزمنية ، اطر اجتماعه ، لان التقسيمات الزمنية تقسيمات اجتماعية . وسنفصل البحث عنها في الاقسام التالية :

٣ — عوامل الذاكرة

يتعلق الطبيعي للذاكرة بعوامل شتى ، منها ما هو فيزيولوجي ومنها ماهو اجتماعي ومنها ماهو نفسي ، ولنلخص فيما يلي اثر كل من هذه العوامل .

١ — **العامل الفيزيولوجي** يذهب علماء النفس القدماء منذ القرن السابع عشر الى ان كل حادث يشهده الانسان يخلف اثرا في احدى الحجيرات الدماغية ، فاذا عرض لهذه الحجيرة أن تهتز من جديد ، بعد انقضاء الحادث ، عادت ذكراه الى النفس .

ولقد شارك بعض علماء النفس المعاصرين ، هؤلاء القدماء في رأيهم ، على صورة اقرب الى المسلمات التشريحية العلمية ، ومن ابرز هؤلاء ، ريبو اومودسلي والدكتور سوللير Sollier وبيرون .

والحق ان هنالك مايثبت علاقة الذاكرة ببعض الحوادث الفيزيولوجية .

ا — فهي تتعلق مثلا بنشاط التغذية ، فالطفل سريع تثبيت الذكريات ، والكهل على عكسه تماماً . ولكن نشاط التغذية مختلف في الحالين ، ففي الطفل تنمو المبادلات العضوية ، وتنشط حوادث التغذية ، اما الكهل فخاملة فيه هذه المبادلات وضئيل فيه هذا النشاط .

ويلاحظ ان التعب عدو لتثبيت الذكريات ، لان التغذية فيه خاملة او ضئيلة .

ولدوران الدم والتنفس اللذين تتم بهما التغذية ، اثر واضح في الذاكرة . فاذا كان في هواء التنفس اقل من ٨ ٪ من مولد الحموضة ، استحال تثبيت الذكريات ، أما المخي فيمكنها أن تحي ذكريات يظنها الانسان ميتة .

واذا كنا نثبت بعض الذكريات ، ونحن في هيجان ملائم يزيد في نشاط الدورة الدموية ، كان التثبيت أعمق واقوى ،

ب — ثم ان خطور الذكرى ينشىء ذات الاثار الفيزيولوجية التي ينشئها الاحساس والحق ان التفكير بصورة اللون اللامع مما يتعب العصب البصري ، شأنه في ذلك شأن إدراك هذا اللون .

ح — إلا ان أمراض الذاكرة هي التي تقدم اكبر البراهين على ما بين الذاكرة والحوادث الفيزيولوجية من علاقة .

ولقد لاحظنا خلال البحث عن النسيان ان اكثر الذكريات ثبوتا، هي اكثرها رسوخاً ، ورسوخ الذكرى يعني كثرة تكرارها واستعمالها المتتابع ، ويلاحظ ان زوال الذكريات، عند الكهل ، يتبع دوما ذات النظام، فتزول الذكريات الحديثة اولا ، ثم القديمة ، ثم العواطف ثم العادات الحركية ، والامر كذلك في الكلمات فتزول الاسماء الخاصة ، ثم العامة ، ثم الصفات ثم الاسماء التي تعبر عن الافعال ، ثم الافعال ثم اشارات الاستغراب والاستفهام المتصلة اعمق الاتصال بالحياة العاطفية ، ثم الاشارات اخيرا ، وكل هذه الحوادث تبرهن على اتصال الذاكرة باساس عضوي .

ومن ناحية أخيرة ، نلاحظ ان أمراض الذاكرة (الامنزيات المختلفة) متصلة بفساد دماغي محدود او غير محدود (١) .

والخلاصة إن للذاكرة علاقة وثيقة بالحوادث الفيزيولوجية ، تبرهن عليها حوادث للتغذية ونشاط التنفس والدورة الدموية ، وامراض الذاكرة .

٢ — **العوامل الاجتماعية** : إن من الواضح أن للعوامل الاجتماعية اثراً كبيراً في نمو الذاكرة وتطورها .

ويرى بعضهم أن الحاجة إلى الذاكرة قد نشأت عن الحياة الاجتماعية ، فهذه الحياة هي التي تتطلب منا الاعتماد على الذاكرة ، لرواية الحوادث ، وحفظ التجارب وضبط المواعيد وتحضير الأعمال . ثم أن تربية الأجيال الصاعدة قائمة، إلى حد كبير، على حفظ علوم وتجارب الأجيال السابقة . وبهذا المعنى يمكننا القول بأن التربية تمرين كبير للذاكرة ، وأعتماد عليها . فكأن حاجة المجتمع الى الذاكرة قد خلقت هذه الوظيفة اولا ، ثم عملت على تطورها ونموها ، ثانياً ،

وللذاكرة من ناحية أخرى ، أطر اجتماعية . لاتكتمل الا بها ، فانتظام الحياة وتتابع

---

(١) راجع بحث علاقة الحوادث النفسية بالحوادث الفيزيولوجية ، في الفصل الثاني من الجزء الاول من هذا الكتاب .

السنين، ووجود التواريخ الاجتماعية الكبرى (كالميلاد، والهجرة، والحروب الكبرى) وتقسيم الزمان في سنين وأشهر وأسابيع وايام، كل ذلك مما يساعدنا على ضبط الذكريات، وتعيين حدودها، ولولا هذه التقسيمات الاجتماعية لتبددت الذكريات في غموض الزمان النفسي.

ولنلاحظ أخيراً ان الذكرى ليست مجرد أحياء للماضي، بل هي تركيب له وإنشاء، فنحن ننشيء الماضي إنشاء بما بقي لنا منه من آثار غامضة ومبهمة، لانزال نلح عليها، ونضيف اليها، ونهندس فيها، حتى نعيد بناءها، خلقة جديدة. ونستعين على ذلك كله بمجموعة عادات اجتماعية، وتقاليد سائدة. واذا كان الطفل يذكر، بعد الزمان الطويل، موت جده، فما ذلك الا نتيجة لما أضافته الجماعة من احتفالات تقليدية. على مثل هذا الحادث.

والخلاصة: ان للذاكرة علاقة كبيرة بالحياة الاجتماعية، لان هذه الحياة وما فيها من أعمال عامة، وصلات بين الافراد، هي التي تنشيء الحاجة الى الذاكرة وتعمل على تطورها، وتضيف اليها بما أصطنعته من تواريخ وتقاويم، تحديداً أو ضبطا، وترمم ثغراتها بما تحيطها به من ركائز اجتماعية.

٣ ـ العامل النفسي: ومع ذلك كله فان للعامل النفسي اثراً كبيراً، فنحن سريعون الى حفظ وذكر مايتصل بميولنا وعواطفنا ومشاغلنا الحاضرة، وبطيئون في حفظ مالا يتصل بأنفسنا. ثم أننا لانحفظ الجديد الا اذا عرفنا كيف ننشيء بينه وبين القديم بعض الصلات والاواصر، فكأن الجديد من الذكريات لايدخل الى النفس الا بثوب القديم، وكأن الغريب اللاشخصي لايدخل الى النفس الا بالاستعانة بما هو قريب وشخصي.

ثم إن التذكر عملية نفسية فيها جهد يبذل، وارادة تعمل، وانتباه يصطفى ويوجه، ومقابلات مختلفة تعدل وتنسق. وكذلك العرفان في درجاته العاليه، فانه يتألف من جملة محاكمات تعمل على تجديد الذكرى وتعيين وضعها الزمني. ومهما يقل الاجتماعيون في حاجة الذكرى الى الاطر الاجتماعية، فان هنالك طنيناً نفسياً أوليا في كل ذكرى، تستطيع هذه الاطر أن تنسج حوله ماتشاء من صلات وارتباطات، ولكنها لاتستطيع أن تخلقه.

٤ — أمراض الذاكرة

يطأق على أمراض الذاكرة اسم عام هو « الامنزيا » وليس النسيان من هـــذه الامراض ، لانـه حادث طبيعي ، أما الامنزيا فحوادث مرضية غـير طبيعية . وينشأ النسيان عن أسباب نفسية مبعثها فقدان الحاجة الى الذكريات المنسية ، قبل كل شيء ، اما الامنزيات المختلفة فتنشأ أكثر ماتنشأ ، عن فساد عضوي في الحجيرات الدماغية . ويتبع ذلك أن النسيان حادث شائع أو عام ، يستوي فيه الناس جميعا ، على حين أن الامنزيات . حوادث خاصة تصيب مرضى الذاكره وحدهم دون غيرهم .

وتصنف الامنزيات في ثلاثة أصناف رئيسية هي :

الامنزيا والهيبرمنزيا والديسمنزيا ولكن هنالك أصنافا خاصة اخرى لاتدخل في هذه الاطر العامة

آ — **والامنزيا** : انواع عديدة ، منها مايكون في التثبيت ، ومنها مايكون في الحطور . ومنها مايكون في التحديد . والمعنى الطبيعي للامنزيا هو فقـــدان الذاكرة بصورة مرضية ، أو فقدان إحدى وظائفها .

وأكثر ماتكون امنزيا التثبيت عند الكهول : فترى هؤلاء عاجزين عن تثبيت الجديد من الحوادث . ومما يروى عن احد هؤلاء الكهول المرضى ، انه كان في المستشفى مرة ، فراعه ان يكون عدد الممرضات كبيرا فيه ، لدخول واحدة بعد واحدة منهن الى غرفته ، في كل حين ، والحقيقة انه لم يكن يدخل الى غرفته الا ممرضة واحدة ، الا انه لم يكن يستطيع تثبيت صورتها في نفسه ، ولهذا كان يظنها ، في كل مرة تدخل فيها ، ممرضة جديدة

وهنـالك **امنزيا الخطور** ، ويتجلى لنا معناها في المثال التالي :

وقع احد الناس من سطح عال ، فبقي عدة أيام بلاوعي . ولما استيقظ وعيه كان شبيهاً بطفل ذكي ، لايعرف شيئاً . فعاد الى الدراسة ، من جديد ، بالرغم من سنة المتقدمة ، تحت ارشاد اساتذة يعلمونه اللغة الانكليزية ، والدراسات التقليدية . وفي خلال عدة اشهر كانت ذاكرته تعود اليه بالتدريج ، حتى اصبح بعد عدة اسابيع يعرف كل ماكان يعرفه من قبل .

وهنالك امنزيات عامة ، واخرى خاصة ، فالعامة شبيهة بامنزيا الخطور التي ذكرنا مثالاً عليها ، والخاصة لاتكون عادة الا في إطار ضيق ، فتذهب مثلاً بذكريات عهد من عهود الحياة ، او بذكريات شخص معين .

ومن الامنزيات الخاصة مايتعلق بامراض اللغة ، **فالاغنوزيا** Agnosie مرض يسمع فيها المريض الكلام ، او يرى الكتابة ولايفهمها بالرغم من انه يبقى قادراً على الكتابة والقراءة ، **والابراكسيا** Apraxie مرض يعجز فيه المريض عن التعبير عن فكره سواء بالكلام او بالكتابة .

ب — **والبارامنزيا** : مرض يمكننا تسميته بانحراف الذاكرة ، وهو يتجلى في إعتقاد المريض ان كل حادث جديد ، إنما هو حادث قديم معروف من قبل . ويذكر الدكتور جانه مثلاً على هذا المرض ، موضوعه ضابط متقاعد ،درس حالته الاستاذفلاري Flaret ، وكان يدعوه الى مشاركته على المائدة ، ليلاحظ طلابه هذا النوع من المرض ، ولنذكر هذا المثال فيما يلي :

«ان جاري يظل اول الامر صامتاً» وينظر الي بانتباه كبير . ثم يلتفت إلي ، بعد ذلك بقليل ، ويطرح علي السؤال التالي :

الاتجد ، ايها السيد فلاري ، ان هذاالمزاح مسل ؟ حقاً انه مضحك ، انه كثيراً مايعيده ، ولكن اذا كان هذايسليك فانني اعذره .

— ولكن اي مزاح هذا ؟ .

— انه هذا الذي تراه في اطعامنا الواحد بقرب الآخر ، دوماً في نفس الترتيب وبذات الصحاف ، ومع نفس المدعوين ، وذات الاضاءة ، وبنفس الكلمات التي يقولها هؤلاء الاشخاص الذين يحيطيون بنا ، انه يتسلى باعادة الامور نفسها . ان هذا مضحك أليس كذلك ؟ فهل اخبروك عن الدور الذي يجعلونك تمثله ؟

فقلت له انهم لم يخبروني بشيء ، ولكني اجد الامر واجده هو ايضاً شيئاً ممتعاً جداً .

ولعل في التشابه الجزئي بين الماضي والحاضر مايعلل هذا الانحراف في الذاكرة. ويرى برغسون ان تعليل ذاك يكمن في انطلاق اثر الحاضر رأساً الى ساحات الذاكرة ويرى (دولاكروا) ان هذا الانحراف يعلل بالتنبؤ بالحاضر، فيشعر المريض انه رأى من قبل ، لأنه تنبأ من قبل .

ح — **الهيبر منزيا**(او فرط الذكرة) . وهذا اخيراً مرض يتجلى في قدرة المريض على استعادة ذكريات كان يجب ان لاتذكر قط ، لفرط قدمها ، او لقلة استعمالها .

وقد ذكر جملة من الاطباء حكاية فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها ، وهي جاهلة لاتعرف القراءة ، وقد مرضت ذات يوم ، وكانت خلال ذلك تروي مقطعاً كبيرة من اشعار اللغة اللاتينية والاغريقية . والعبرانية الدينية . وكان مراقبوها يكتبون ماترويه من هذه القطع ، ولدى السؤال عن تاريخ حياتها امكنهم ان يعرفوا انها ، في التاسعة من العمر ، كانت عند عمها — وكان هذا رجلاً مثقفاً جداً وكان يتنزه في العادة ، بعد العشاء ، في ممر قريب من المطبخ . ويعيد مجموعة من هذه القطع المفضلة لديه من الاغريقية والعبرانية، فلما عادوا الى كتبه وجدوا كثيراً من هذه القطع التي نقلوها عن لسان هذه الفتاة .

خلاصة عامة

إن للذاكرة وظيفة معقدة من وظائف الحياة النفسية ، وهي فوق فعالية التداعي ، لانها تقتضي الانتباه في التثبيت والاصطفاء في الاحياء ، والارادة في التذكر ، والفعاليات العقلية العالية في العرفان والتحديد ، وهي فوق التداعي لانها فعالية اكتساب وانضاج معاً .

والذاكرة اساس عضوي ، يبرهن عليه ما بين حوادث الامنزيا وفساد بعض المراكز الدماغية من علاقات وصلات ، ولها أساس اجتماعي ، لانها تجيب على حاجة اجتماعية ، هي الحاجة الى عمل مؤجل ، ولكنها قبل كل شيء وظيفة نفسية لانها تضعف او تكبر بنسبة ضعف الحاجات النفسية ونموها .

ويعرض للذاكرة مجموعة من الأمراض نسميها الامنزيات ، وهي فقدان الذكريات بصورة عامة او خاصة ، وقد تنحرف الذاكرة فيحسب الانسان ان كل جديد ـ مما يرى ـ قديم ، وقد تفرط الذاكرة فيذكر الانسان ما تقادم العهد عليه ، وضل في زوايا النسيان .

الفصل الخامس عشر

الادراك

١ — مفهوم الادراك :

أ — تحليل مثال

ب — عناصر الادراك : إدراك المكان، ادراك الشيء، موضوعية الادراك

٢ — ادراك المكان :

أ — اثر التجربة الحسية المباشرة

ب — أثر العوامل الكسبية

ح — المكان الحسي ، والمكان الرياضي

٣ — ادراك الشيء :

أ — الادراك الاجمالي

ب — إدراك الاشياء المستقلة

ح — أثر العوامل المساعدة في هذا الادراك

٤ — موضوعية الادراك :

ا — واقعية الادراك

ب — أخطاء الادراك

١ — مفهوم الادراك

يدرك الانسان جملة اشياء خارجية عن نفسه ، تؤلف بمجموعها مانسميه بالعالم الخارجي، فاذا فرضنا أن الانسان في غرفته ، يقرأ أو يكتب ، فانه يدرك وجود قلمه وكتابه

وطاولته ، كما يدرك الغرفة التي تحتوي هذه الاشياء ، وغيرها : من أثاث او ما يتصل بالاثاث .

ولكي نعرف تماماً ما هي العناصر التي يتألف منها الادراك ، يمكننا أن نحلل مثالاً معيناً ، كادراك المدفأة ، أو إدراك الكتاب ، أو إدراك برتقالة .

أ — تحليل مثال : ادراك البرتقالة

أمامي الآن ، كرة برتقالية اللون ، كروية الشكل ، ذات رائحة خاصة منعشة . وأكاد احس نعومة ملمسها ، وأنزع عنها قشرتها ، وارى منظرها الداخلي ، وأقسامه المختلفة ، وطعمها الحامض الحلو ، فاقول : هذه برتقالة .

ومن الواضح انني لم اقل : برتقالة ، عن مجموعة هذه الاحساسات المشتركة التي تصل الي من هذا الشيء الذي أراه إلا لأن وراء الاحساسات الحاضرة ، احساسات غائبة عادت إلي ذكراها ، بصورة عفوية ولا شعورية ايضاً ، وانضمت اليها ، واوضحت معانيها ، فلو لم اكن قد قلبت البرتقالة بيدي مئات المرات لما احسست الآن عن بعد ، بنعومة ملمسها ، ولو لم انزع قشرتها ، وأر منظرها الداخلي ، واقسامه المختلفة . ولو لم أذق طعمها ، لولا هذا كله ، لما استطعت ان أدرك البرتقالة ادراكاً تاماً ، ولبقيت البرتقالة شكلا اجوف لامعنى له. وعلى هذا كله نرى ان الادراك يقوم على جملة احساسات حاضرة ، تتبعها وتنضم اليها صور عن إحساسات قديمة او غائبة .

ب — عناصر الادراك :

وأول شيء يبدو لي في هذا الموضوع ، أن هذه البرتقالة تحتل موقعاً معيناً في هذا الفراغ الواسع الذي هو المكان ، والشيء الثاني هو أن هذه البرتقالة شيء مستقل عن غيره من الاشياء ، بالرغم من اتصاله بها . والشيء الثالث هو انني لا اشك قط في ان هذه البرتقالة شيء خارجي ، له حقيقة مستقلة عن حقيقتي انا الذي ادركه ، وهكذا ينحل إدراك البرتقالة الى ثلاثة عناصر متميزة ، اولها ادراك المكان والثاني ادراك شيء مستقل داخل المكان ، والثالث ، الاعتقاد بحقيقة الادراك الموضوعية . ولنحاول الآن البحث عن كل عنصر من هذه العناصر ، على حدة :

٢ — ادراك المكان

لاحظنا في المثال السابق ، ان البرتقالة تحتل موقعـــاً معيناً في فراغ لامتناه تقريباً نسميه بالمكان ولاشك انه يمكن غض النظر عن الاشياء التي تحتل موقعاً معيناً في المكان ، وادراك المكان وحده ، ولاشك ايضاً أن إدراك البرتقالة يقتضي فيما يقتضي إدراك الحيز المكاني الذي تشغله . إلا أننا نبحث هنـــا في كيفية ادراك المكان وحده ، فكيف يتم هذا الادراك ؟

أ — اثر التجربة الحسية المباشرة

لنلاحظ ، أول كل شيء ، أن وجودنا الطبيعي يقوم في المكان ، وان فعالياتنا العضوية بمختلف صورها ، تتم داخل المكان . فاذا مشينا في الطريق ، أو حركنا ايدينا او أرجلنا فانما نحركها في المكان . ولولا المكان لاستحالت هذه الفعالية ، ولما امكننا تحقيقها .

وغير أن هذه الفعالية العضوية لا تكفي لادراك المكان ادراكا واضحاً في الشعور ، فلقد يتحرك الطفل ، ويغدو ويروح ، ويلعب ويلهو ، دون ان يعرف بوضوح أن المكان ضروري لفعاليته وبهذا يصح القول بانه يدرك دون ان يعرف انه يدرك .

ويلاحظ (وليم جيمس) أن للاحساسات طابعاً مكانيا واضحاً ، فنحن نسمع الصوت الضعيف ونتخيل مصدراً ضعيفاً او صغيراً له ، ونسمع الصوت القوي ، ونتخيل مصدرا كبيراً ينشأ عنه . بل إن صوت الرعد يظهر لنا كما لو انـه كتلة عظيمة الحجم من المادة الصوتية ، والامر كذلك في احساس الحرارة والبرودة ، وكل الاحساسات الاخرى ، فاذا كنا في حمام ، وشعرنا ببعض البرودة ، خيل الينـــا ان الحرارة طبقة رقيقة جدا ، تجاورها طبقة اصغر أو أكبر من البرودة بحسب قوة الاحساس او ضعفه ، إلا ان حجمية الاحساسات هذه غامضة ، لا تكفي لادراك المكان بصورة واضحة .

ولهذا كله نلاحظ بان الفعالية العضوية تنشيء ادراكا غامضاً للمكان . فاذا تكامل نمو العقل شيئاً فشيئاً ، أدرك الانسان معنى المكان وجملة اتجاهاته وابعاده ، بصورة طبيعية .

غير ان هنالك تجارب حسية اخرى تساعد على ادراك المكان بصورة اقرب الى الوضوح :

فالاحساسات البصرية مثلا تكفي لادراك السطوح (الطول والعرض) بصورة واضحة ، دون استعانة بالخبرة او الاكتساب . والاحساسات اللمسية قادرة على إدراك الحجوم (أي المكان بابعاده الثلاثة) لانها تستطيع احتواء الحجوم .

ولقد تناقش الفلاسفه طويلا في قدرة الاحساسات البصرية على إدراك البعد الثالث (أي العمق) فزعم قوم أنها محرومة من هذه القدرة ، وزعم آخرون أن لها بعض الاثر ، والحق ان العين تدرك هذا البعد الثالث ، بشيء من الغموض ، لانها حركات التوجه والمطابقة وارتسام الاخيلة في الشبكية ، على نقاط مختلفة بعض الشيء ، كل ذلك مما يتناسب مع ضرورة إدراك هذا البعد الثالث .

ولنفرض الآن أننا ننظر الى لوحة معلقة في الجدار ، ولنبين كيف يتم للعين أن تدرك بعده عنها . فهي مثلا لا تجد عناء في إدراك طول اللوحة وعرضها . أما بعدها ، فتدركه بحركات التوجه اولا ، ونعني بذلك أن على العينين أن تثبتا نظرتيهما في نقطة واحدة ، هي اللوحة في هذا المثال . ولكن لا بد في ذلك من تقارب خطي بصرهما ، أي لابد من تقارب العينين تقارباً قليلا أو كثيراً ، من بعضهما ، حتى يتطابق خطا البصر على بعضهما . وهذا التقارب القليل أو الكثير متناسب بالضرورة مع بعد اللوحة الكبير او الصغير . ولنلاحظ كيف يعسر علينا رؤية شيء قريب جداً من عيننا ، وذلك لضرورة تقارب العينين من بعضهما في هذه الحال تقارباً كبيراً ، لاتستطيعه عضلات العين . ولهذا نرى أن حركات التوجيه مع ابعاد الاشياء عنا ، هي بمثابة اشارات طبيعية لهذه الابعاد .

وهنالك ايضاً حركات مطابقة : والمطابقة في العين هي احديداب الجسم البلوري قليلا او كثيراً ، في سبيل التلاؤم مع ابعاد الاشياء ، فاذا كنا ننظر الى جسم أقرب او ابعد من المدى البصري العادي ، كان لابد من هذه المطابقة ، حتى يقع الخيال في مركز الرؤية الواضحة على الشبكية ، وكذلك تتناسب هذه المطابقة كبراً وصغراً مع ابعاد الاشياء الكبيرة او الصغيرة ، ولهذا نرى ان هذه الحركات وسيلة اخرى طبيعية لادراك الابعاد .

وهنالك اخيراً اخيلة الاشياء المرتسمة على الشبكية . فمن المقرر ان كل عين ترسم للشيء الذي تراه خيالا في شبكيتها ، في نقاط معينة منها . إلا ان الخيالين لايرتسمان على نقاط متناظرة تماماً ، بل على نقاط مختلفة قليلا . ويصغر هذا الاختلاف او يكبر بحسب

قيم الابعاد ايضاً . وهذه وسيلة ثالثة لادراك البعد الثالث ، استفاد منها العلماء في إدراك الاشياء او المناظر المسطحة ، على صورة مجسمة ، وذلك بفضل هذه الآلة المسماة « الستريئسكوب » التي تعطينا صورتين متباعدتين قليلا لما وراءها من مناظر مسطحة ، فتتيح لنا ان نراها مجسمة .

ومع ذلك كله ، فان قدرة العين على إدراك هذا البعد الثالث محدودة ، لان آلاتها او وسائلها في ذلك محدودة الاثر ، وحركات التوجيه والمطابقة ، واختلاف مواقع الاخيلة ، لاتكفي لادراك بعد يتجاوز الاربعة او الخمسة امتار . وعلى ذلك فانه مما لا شك فيه ان التجربة هي التي توضح لنا إدراك البعد الثالث ، وتعيننا على حسن تمييزه .

والخلاصة ، إن التجربة الحسية المباشرة (تجربة العين واللمس بالاضافة الى الفعالية العضوية) هي التي تقوم على إدراك المكان بجملة ابعاده ، ولكنها لاتكفي لادراكه بصورة واضحة تماماً ، ولهذا كان لابد من تجارب اخرى ، يتضح بها هذا الادراك (إدراك المكان) ، وتتميز بها ابعاده .

ب — اثر العوامل الكسبية :

يرى الانسان ان للمكان ثلاثة ابعاد رئيسية هي (الطول والعرض والعمق) . ولقد رأينا ان التجربة الحسية المباشرة (اي تجربة الحس اللمسي والبصري) تكفي مبدئياً لادراك هذه الابعاد ، فاللمس يدرك السطوح والحجوم معاً ، والعين تدرك السطوح اولا ، كما تدرك العمق (او البعد الثالث) بشيء من الغموض ، بفضل حركات التوجيه والمطابقة ، وفروق مواقع الاخيلة على الشبكتين .

غير ان هذا الغموض في إدراك البعد الثالث ، يتبدد شيئاً فشيئاً ، بفضل التجارب الحسية المختلفة التي يقوم بها الانسان بصورة طبيعية ، اثناء حياته .

١ — واول هذه التجارب ، الحركات ، فالانسان يتحرك ويمشي ، إذا رأى ساحة مكانية معينة ، لايقف عادة عند حدود رؤيتها ، بل كثيراً ما يكون مضطراً الى قطعها ذهابا وإيابا ، مرات ومرات ، بحكم ضرورات الحياة . وهكذا يتاح له ان يقارن بين الاحساس البصري بالبعد ، وبين الحركات اللازمة لاجتياز هذا البعد . وبنتيجة هذه التجارب التي

تتكرر بلا إنقطاع، يتضح إدراك البعد، ويكتفي الانسان بالنظرة البسيطة، في معرفة طول ارض مغينة، او بعد نقطة معينة، يراها امامه. ولذلك نرى ان اصحاب الاراضي، والمعماريين ومهندسي البناء اقدر منا — في العادة — على معرفة مساحات الاراضي، وقياس ابعادها.

وإذا عرفنا أن الانسان، في زمن الطفولة، عاجز عن القيام بفعالية حركية كبيرة سهل علينا أن نقدر غموض إدراكه للبعد، فمن الاطفال من يحسب أن العالم كله ينتهي عند آخر البستان الذي قضت أسرته فيه بعض أيام نزهاتها، ومنهم من يحسب أن الصين مثلا، واقعة وراء الجبل الذي يحيط بمدينته. وما ذلك الا لان هؤلاء الاطفال عاجزون عن بسط فعاليتهم الحركية إلى أبعد من هذه الحدود فيظنون أن كل شيء ينتهي عندها، والفلاحون الذين يقيمون في قراهم، ولا يتركونها إلا الى المدينة المجاورة، يحسبون أن وطنهم لايتجاوز حدود الاماكن التي رأوها إلا قليلا. ومعنى ذلك أن ادراك الابعاد مسألة كسبية، تتناسب، أول ماتتناسب، مع نشاط الفعالية الحركية.

ولما كانت الفعالية الحركية لاتنبسط، في العادة، الا في اتجاه أفقي فانه يسهل على الانسان تقدير الابعاد الأفقية، ويصعب عليه تقدير الابعاد العمودية، والواقع اننانستسهل تقدير أبعاد الاراضي، ولكننا كثيراً مانخطىء في تقدير ارتفاع المآذن أو الابراج، أو طوابق الأبنية، وذلك لأننا تعودنا السير في الاولى ولم نتعود ذلك في الثانية.

ب — أما التجارب الأخرى، فكثيرة: منها تغير النسب الطبيعية في كبر الأشياء المعروفة، فنحن نعرف للانسان طولاً او حجما معيناً، فاذا تضاءل هذا الحجم، وبدا لنا الانسان صغيراً جداً، أو اصغر مما هو مألوف، فمعنى ذلك أن بعده عنا هو الذي يرده الى هذا الصغر.

ومنها (التوضع) ونعني بذلك اننا قد نرى القمر والغيوم على ارتفاع واحد، فاذا سارت الغيوم وحجبت القمر، او توضعت عليه، عرفنا ان القمر اعلى منها، واكتسبنا هذه المعرفة بصورة نهائية، ولو لم تتكرر التجربة.

ومنها حيلولة بعض الاشياء دون رؤية بعضها الآخر، فاذا اخفى جدار قسما من شجرة نرى اعلاها، عرفنا ان الشجرة ابعد من الجدار حقا.

ومنها اخيراً، غموض الرؤية، فاذا كانت الاشياء قريبة بدت واضحة العالم، اما اذا ابتعدت، فانها تضيع وضوحها.

ويمكن القول بان الاحساسات السمعية تشارك في تقدير الابعاد ، وتعين المصادر والجهات . وعلى الرغم من سرعة الصوت ، فانه اذا صدر عن الجهة اليمنى وصل الى الاذن اليمنى ، قبل اليسرى ، واستطاع الانسان الحكم بذلك على جهة مصدر الصوت . واذا وصل الصوت ضعيفاً عرف انه بعيد ، واذا وصل قويا عرف أنه قريب ، ولكن لابد في ذلك كله من الاستناد الى التجربة المكتسبة السابقة ، فالانسان يعرف تقريباً أنواع الاصوات المختلفة ، ويقدر مايجب ان يكون فيها من ضعف او قوة ، ويحكم بذلك على مايتلقاه منها من احساسات ، ويقدر ، بالتالي ، بعدها او قربها .

والخلاصة ان التجربة الحسية المباشرة ، يمكنها ان تقدم لنا ادراكا غامضاً للمكان ، بجملة ابعاده ، اما التجربة الكسبيه (من حركات وتوضع ، وحيلولة ، وتغير النسب ، والاحساسات السمعية) فانها تستطيع ان توضح هذا الادراك ، وتميز عناصره .

٥ — المكان الحسي والمكان الرياضي

ومع ذلك كله ، فانه يبقى ان هنالك فرقا كبيرا بين المكان الحسي الذي تدركه الحواس ، وبين المكان الرياضي (الاقليدي) الذي تعلمنا الهندسة جملة صفاته .

١ — فالمكان الحسي اولا وآخراً ، محدود بمدى البصر ، أو هو محدود بالافق على كل حال (مع العلم بان المكان اللمسي اضيق من ذلك بكثير ايضاً) . اما المكان الهندسي فغير محدود ، لأنه فراغ لا متناه ، وليس له حدود .

٢ — والمكان الحسي ، غير متجانس : فهو بارد هنا حار هناك ، فارغ هنا ، ممتلىء هناك ، وهو جبل تارة ، وسهل اخرى ، بل لعل جهاته المختلفة ، مختلفة القيمة ايضاً : فاليمين للسعد ، والشمال للنحس ، والاعلى لله ، والاسفل للشيطان ، اما المكان الهندسي ، فمتجانس كل التجانس ، وليس للاشياء التي تملؤه هنا او هناك اي تأثير في تغيير هذه الصفة فيه .

٣ — والمكان الحسي اخيراً ، متعدد الاتجاهات ، كيفي غير كمي ، ففيه الاعلى والاسفل ، واليمين والشمال ، والامام والوراء ، اما المكان الهندسي فثلاثي الاتجاهات له طول وعرض وعمق ، ولاشيء غير ذلك .

ولعلنا نستطيع ان نجد فروقاً كثيرة بين مكان حاسة ، ومكان حاسة اخرى . فالمكان

الذي تدركه العين غير المكان الذي يدركه اللمس ، ولكن ليس يهمنا الآن ان نفصل في هذه الفروق ، لانها فروق اولية لاتلبث ان تمحي بنتيجة تربية الحواس بعضها لبعض ، واقتران مسلماتها ، بل يهمنا ان نعرف كيف يتم الانتقال من المكان الحسي الى المكان الرياضي .

إن الجواب على ذلك غير بسيط ، ولكننا مع ذلك نستطيع ان نذكر اثر جملتين من العوامل ، بعضها من نظام حيوي ، وبعضها الآخر من نظام اجتماعي .

أ — **فالعوامل الحيوية** ، هي فعاليتنا العضوية الخارجية ، بصورة عامة ، فنحن نتحرك في المكان ، ونغير اتجاهاتنا فيه ، فتارة نمشي الى الامام ، وتارة نمشي الى وراء . والامام والوراء يصبحان بسهولة خطاً واحداً ، او جهة واحدة ، نعتبرها طولا او عرضاً ، وقد نمشي في جهة اليمين ، او جهة الشمال ، بل نمشي في كل الاتجاهات دون ان نلاحظ أية صعوبة في تعيير الاتجاه والمشي فيه ، وهذا كله هو الاساس الحيوي لمفهوم تجانس المكان .

ولما كانت تجربتنا الحركية قادرة دوماً على تخطي الحدود التي تقف عندها ، حيناً بعد حين ، فان العقل ينتهي آخر الامر بادراك مكان لامتناه ، أو ليس له حدود . فهذه عوامل حيوية لانها تتعلق بفعاليتنا العضوية الخارجية ، او بتجاوبنا الحركية ، وهي تكفي — كما نرى — لانشاء فكرة ما عن تجانس المكان ولا نهائيته .

ب — **العوامل الاجتماعية** : يعيش الانسان في وسط اجتماعي معين يفرض عليه منذ الطفولة ، لغته ومفاهيمه وصور إدراكه للاشياء ، والمكان مفهوم من هذه المفاهيم التي يتصورها المجتمع على شكل ما ، ويفرض تصوره هذا على افراده المختلفين . فاذا كنا في بيئة ابتدائية ، لاحظنا ان الاعتقاد السائد (او الرأي السائد) هو مثلا الاعتقاد بان المكان دائرة كبيرة ، واذا كنا في بيئة اخرى ، رأينا ان الرأي السائد في جهات المكان ، هي انها ست ، وطبيعي ان يحمل كل فرد من افراد هذه المجتمعات صورة هذا الاعتقاد ، وان يأخذ بها .

والامر كذلك في المتمدنين : فنحن نرى ان المكان ثلاثة ابعاد ، ونعتبره متجانساً ولا متناهياً ، لاننا تعلمنا الهندسة ، او لان المفاهيم الهندسية الاقليدية قد شاعت في مجتمعنا

وإذا تساءلنا لم يتصور بعض الابتدائيين أن المكان دائرة ، فاننا نرى الجواب في تصوراتهم الاجتماعية ، وعقائدهم السائدة ، وليس بغريب في مجتمعنا ان يتصور الناس الارض مسطحة وقد قامت على قرن ثور هائل . ومثل هذا التصور يرافقه ويناسبه جملة تصورات تحب تعليل كل شيء على طريقة خاصة ، ومن جملتها تصور المكان على صورة دائرة ، او على غير ذلك من الصور .

ولا شك ان الابتدائيين ، في كل الامم ، لاينظرون مثلنا الى المكان ، ولا يرونه متجانساً : فالجهة اليمنى تتميز كيفياً عن الجهة اليسرى ، لان التفاؤل في الاولى والتشاؤم في الثانية ، وكلمات البارح والسانح دلائل واضحة على التصور الكيفي الخالص للمكان .

ولعلنا نحن ايضاً عندما ننظر الى المكان بابعاده الثلاثة ، ننظر الى اجسامنا وصورنا ، فنراها ذات ثلاثة ابعاد . ومن ثم نخلع صفاتنا الخاصة على المكان الذي نعيش فيه ، او نتصوره من خلال انفسنا ، وهذا ما يسمى « بالتأنيس » اي النظر الى الاشياء على صورة الانسان . ولكن قد لايكون للمكان ثلاثة ابعاد في الواقع ، وقد تخطيء هندسة اقليدس في تصور المكان متجانساً او لامتناهياً . الا ان تصورها هذا مفروض علينا ، ولا نكاد نستسيغ رأياً آخر في موضوعه ، لانه اصبح جزءاً من التصورات الاجتماعية السائدة .

وهكذا فان للعوامل الاجتماعية أثراً واضحاً في تحديد صفات المكان وتعيين شكله .

ويخلص لنا من هذا كله أن مفهوم المكان الرياضي إنشاء عقلي وتركيب ذهني وليس بصورة بسيطة عن المسلمات الحسية .

٢ — ادراك الشيء في المكان

يحسب الناس أن أدراك الاشياء أمر طبيعي جداً ، وان التفريق بين النافذة والجدار ، وبين الطاولة والكرسي ، أمر بسيط يحسنه الانسان لاول وهلة ، وإن إدراك الصغير للاشياء لايختلف عن إدراك الكبير لها ، فهو يراها كما نراها ، ويفصلها عن بعضها كما نفصلها ، وإذا كان ينقصه شيء من ذلك ، فهو أسماء هذه الاشياء وطرق استعمالها ، وليس هنالك اي فارق آخر .

أ - الادراك الاجمالي : إلا أن الامر في الواقع أكثر تعقيداً مما يظنه الناس لان الطفل لايميز ، فيما يدرك ، مثلما نميز ، ولا يفصل بين الأشياء مثلما نفصل ، وقد أصبح من المقرر الآن ، لدى علماء النفس ، أن الطفل يبدأ بنوع غامض من الادراك ، لاتنفصل فيه المدركات بعضها عن بعض ، بل تؤلف كلها مجموعة واحدة مختلطة الالوان والاشكال ، والاصوات ، والروائح ، فالباب والجدار والنافذة والمقاعد وكل أثاث الغرفة أشياء مختلطة ، ممتزجة الحدود ، لا تميز نفس الطفل منها شيئاً مستقلا . وإذا كنا نراه ، يصل تدريجياً ، الى هذا التمييز بين الأشياء المختلفة ، فما ذلك الا نتيجة تجربة طويله ، واكتساب مستديم .

وعلى هذا فأن الطفل يبدأ بادراك العالم الخارجي كوحدة غامضة غير منفصلة الاجزاء ، ثم تعلمه التجارب المختلقة أن يميز في هذه الوحدة العامة ، وحدات جديدة يتزايد عددها بالتدريج . وهذا الادراك الأول الغامض ، هو مانسميه بالادراك الاجمالي ، أي الادراك الذي يجمل النظر الى الاشياء ، ويراها جمله واحدة دون تمييز .

ولكن كيف يصل الطفل الى الفصل والتمييز بين الاشياء المختلفة ؟ إن هذا ماسنبحث عنه في الفقرات التالية

ب - ادراك الاشياء المستقلة : إن سبيل الطفل الى إدراك الأشياء المستقلة سبيل معقد قليلًا ، لانه يتأثر تارة بامور من العالم الخارجي ، ويتأثر تارة أخرى ، بامور من نفسه .

فاما من العالم الخارجي ، فيمكن أن نلاحظ أن الأشياء مستقلة بصفات خاصة فيها ، كالشكل أو اللون أو الصوت . فاذا كان الطفل يصل اخيراً الى فصل الكرسي عن الجدار القريب منه ، فذلك لأن للكرسي شكلا ولوناً ، ليسا للجدار ، وإذا كانت أجزاء الجدار كلها تؤلف وحدة منفصلة عن غيرها ، فذلك لأنها متجانسة الشكل واللون ، وهكذا يبدو العالم الخارجي كجملة من الوحدات المستقلة ، المنفصلة بما لها من صفات موضوعية ، وكأن هذه الوحدات تفرض نفسها على الأدراك فرضاً بحكم قوة أشكالها ، وتماسك اجزائها ، وإختلافها عما يجاورها من الأشياء .

وأما من العالم الداخلي ، فان الحواس تبدو مما يساعد على هذا الفصل أو هذا التمييز

والحواس ، في الواقع ، أدوات تحليل ، وكل منها — كما رأينا — نافذة نطل منها على العالم الخارجي ، غير أن كل نافذة تطلعنا على ناحية خاصة من هذا العالم ، فالبصر يطلعنا على الاشكال والألوان ، والسمع على الأصوات والضجات .. ، الخ

فكل حاسه من هذه الحواس ، إذن تحلل جملة خاصة ، أو وجهاً خاصا من وجوه العالم الخارجي ، وهكذا تنفصل طائفة المرئيات عن طائفة المسموعات ، كما تتميز طائفة المشمومات من طائفة المذوقات .

غير أن التجربة لاتقف عند هذا الحد من التحليل ، بل أنها تشفع عملية التحليل هذه بعملية تركيب ، تقرن فيها مسلمات الحواس المختلفة بعضها الى بعض . ذلك أن الأشياء ليست بسيطة بحيث يكفي في أدراكها عمل حاسة واحدة : فالبرتقالة مثلا لها شكل ولون تراهما العين ، ورائحة يحسها الشم ، وطعم يحسه الذوق ، وملمس خاص يحسه اللمس ، ولما كان أكل البرتقالة تجربة ، تجتمع فيها آثار كل هذه الحواس فان تكرار هذه التجربة ، في إحدي عناصرها ، مما يدعو بحكم قوانين الاقتران ، الى تذكر سائر العناصر الغائبة . ومعنى ذلك أنه يكفي أن نرى البرتقالة حتى نذكر رائحتها وطعمها وملمسها .

وبهذا تثقف الحواس بعضها بعضاً ، ويتألف من اجتماع آثارها ما يشبه القاموس الذي يترجم بسائر لغات الحواس ، ما عرف بلغة إحداها .

وعلى ذلك فان ادراك الاشياء المستقلة في المكان تابع لعملية معقدة طويلة ، تقوم فيها الحواس بدورين مختلفين ، فتارة تحلل وتميز وتارة تصل وتركب .

١ — ومن كل ما تقدم ، يتضح لنا ان معنى إدراك الاشياء ، هو تحليل من ناحية وتركيب من ناحية أخرى .

فاما التحليل ، فانه فصل اجزاء هذه الجملة الغامضة التي تؤلف عالم الطفل ، الى وجوه حسية مختلفة ، مثل الوجه البصري او السمعي او غير ذلك .

وأما التركيب ، فهو ضم بعض هذه الوجوه الحسيه الى بعضها الآخر ، كضم الاطلس الشمي الى الاطلس البصري ، أي اثر البرتقالة في البصر ، الى اثرها في الشم .

٢ — ولكن الادراك لايعني هذا وحده ، بل يعني ايضاً عرفان الاشياء ، فاذا رأى الطفل برتقالة ، كان أكل مثلها من قبل ، تعرف الى البرتقالة من جديد .

ولنلاحظ ان لهذا العرفان دوجات تشبه درجات العرفان في الذاكرة ويعني بهذا العرفان هنا ، احاطة الشيء المدرك بطائفه من ردود الفعل المناسبة لاستعماله ، اولا ،

ووضعه ، ثانياً ، في جملة المفاهيم التي تتألف منها اللغة ، اي تسميته ، واحاطته اخيرا بطائفة من الذكريات الشخصية .

والحق أن عرفان الطفل الاشياء يبدأ بمعرفة كيفية استعمالها ، ثم يتدرج الى معرفة اسمائها ، وينتهي اخيراً بدمجها ببعض الذكريات الشخصية ، ولنوضح الان عوامل هذا التركيب .

م — **اثر العوامل المساعدة في هذا الادراك** : قلنا إن الحواس تحلل العالم الخارجي ، الى جملة عناصره المحسوسة ، والتجربة تركب هذا العناصر ، في بعض الوحدات الحسية ، وتؤلف من ذلك مفهوم الشيء .

ولكن ما الذي يدفع الحواس الى هذا التحليل ، ويقسر التجربة على هذا التركيب؟ ولماذا لاتبقي الحواس والتجربة مستريحة بدون عمل ، وبتعبير اعم ولماذا تدرك الأشياء منفصلة بعضها عن بعض ولا تتركها في جملتها الغامضة الأولى ؟

إن الجواب على ذلك لايكون تاماً إلا في ذكر أثر ثلاثة انواع من العوامل ، بعضها من نوع حيوي ، والثاني من نوع اجتماعي ، والثالث من نوع نفسي .

١ — **اثر العوامل الحيوية** : إن الحواس أدوات تحليل . ولكنها لاتحلل إلا بدافع من الرغبات ، وهكذا ترى الطفل يميز أول مايميز من الاشياء ، ثدي امه ، ثم وجهها . ومعنى ذلك ان الحواس لم تحلل ولم تفصل ولم تميز إلا ماتدفع اليه الرغبة في الرضاعة أو في التغذية :

وكذلك يميز الطفل من الاشياء مايتحرك ، لأن الحركة تغريه ، وتثير انتباهه . ولذلك يفرح الطفل باللعب المتحركة اكثر بكثير مما يفرح باللعب الجامدة .

ولما كان الطفل ميالاً بطبعه إلى الحركة ، فانه لايترك شيئاً يقع في يديه ، إلا ويعبث به ، ويقلبه ، ويمزقه ، او يلوكه ، اويحطمه . وكأن هذه الحركات كلها تجارب يتعلم بها الطفل تمييز بعض الاشياء ، ولقد لوحظ على احد الاطفال أنه فتح علبة ، وقعت بين يديه ، واغلقها (٦٩) مرة ، وطبيعي بعد ذلك ان يسهل عليه عرفان هذا الشيء الذي فتحه واغلقه هذا العدد الكبير من المرات ، وان يميزه عن غيره من الاشياء .

ولنلاحظ أن الاشياء التي تقع خارج دائرة رغبات الطفولة ، تبقى غير متميزة فلا يهتم الطفل مثلا بغير أمه ، وبغير لعبانه ، إلا أن دائرة هذه الرغبات تمتد وتكبر تدريجياً ،

وتساعد بالتدريج على التمييز بين الاشياء المختلفة ، بحكم استجابتها لرغبات انسان .

ويبدأ التمييز هنا ، من مجموعات ، ثم يحلل المجموعات الى عناصرها : فالحديقة والبحيرة واللعب فيها ، كل ذلك يتميز كمجموعة متحدة ، ثم تتميز الحديقة عن البحيرة وعن اللعب .

وهذا كله يعني ان تميز المدركات ، تابع لتجربة الطفل الحيوية الحركية ، وأن مايميزه الطفل ، قبل كل شيء ، هو ما احاطه بجملة من ردود الفعل العاطفية او الحركية .

٢ — **العوامل الاجتماعية** : لايعيش الانسان بين الاشياء وحدها ، وإنما يعيش في مجتمع غني بالتصورات الفكرية والروحية ، ولا يكاد الطفل يخلق ، حتى يسارع المجتمع الى تزويده بكل هذه التصورات ويملأ مخيلته بها .

ولنلاحظ ان الاشياء التي نعيش بينها ، ليست من نتاج الطبيعة ، بل من عمل الانسان . فالغرفة والنافذة والباب والمقعد والثياب ، وآلة الاذاعة ، والهاتف ، والقلم والدواة ، كل هذه اشياء يصنعها الانسان بيديه ونحن لاننظر الى هذه الاشياء الا من خلال مجموعة التصورات التي نعرفها عنها . فنحن نعرف مثلا آلة الاذاعة وكيفية استعمالها وطرق الاستفادة منها ، ونعرف القلم ، وكيف يصنع مثلا وكيف يستعمل الخ ... وما اكبر الفرق بين رؤية الانسان هذا الصندوق الخشبي ، ذا الوجه البلوري ، وبين قوله عنه : انه مذياع .

وكذلك الاشياء الطبيعية ، فنحن لا نراها كما هي ، ولكن نراها أيضاً مغمورة بمجموعة التصورات التي ينسجها المجتمع حولها : فالليل بالنسبه الى القطة مثلا ، ظلام وحسب ، أما الليل بالنسبة الى الانسان العادي ، فهو ظلام تغمره الشياطين والجن والارواح المختلفة ، وتتنزه في ظلماته . وهكذا نلاحظ اننا لاندرك الاشياء كما هي ، ولكن على الصورة التي يعينها المجتمع ، واكثر الناس ثقافة ونضجاً لايستطيع ان يتخلص من كل هذه التصورات .

وقد يبدو لنا ان نظرة الفنان الى الاشياء ، انقى من كل نظرة اخرى ، لانه يحاول ان يراها كما هي ، وان يجردها من كل ما يغمرها به المجتمع من تصورات . ولكن هذه النظرة الفنية النقية ، لايمكنها ان تتعرى من تأثير الثقافة الفنية ، او الذوق الفني ، الخاصين بالفنان : فمن الفنانين مثلا من يرى كل ما حوله مجموعة خطوط ، ومنهم من يرى ذلك كله مجموعة ألوان ، ومنهم من يراه على صور اخرى غير هذه وتلك ، وهذا كله يعني ان النظرة

الفنية بذاتها ، مملوءة بتصورات اجتماعية حقيقية ، ولكنها ليست عامة ، بل خاصة ، تنشأ عن ثقافة الفنان .

ولنلاحظ ان هذا النظر إلى الاشياء من خلال التصورات الاجتماعية ، يساعد من ناحية اولى ، على ترميم ثغرات الادراك كما انه يعمل ، من ناحية اخرى ، على إضعاف طرافة الاحساس ، وقتل جدته ونضارته وروعته .

ويذكر (باوندل) مثال هذا الطفل الذي وقف مشدوهاً امام جمال حشرة طائرة لما رآه فيها من ألوان زاهية ، واجتمع الناس حوله يعجبون لتأثره بهذا المنظر حتى إذا مر رجل راشد ، ووقف يسأل عن الخبر : ورآه يتعلق بهذه الحشرة ، ترك الناس ومضى في سبيله قائلا : ان هي الا حشرة ، وفي هذا دليل على ان التصورات الاجتماعية تقف حائلا دون إدراك الانسان طرافة الاحساس وروعته ، وكذلك يلاحظ ان رسوم الاطفال لا تقف عند الحدود المدركة ، بل تتعداها الى رسم ما يجب ان يدرك ، فيرسم الطفل الجرس الموضوع امامه ، ولا ينسى « رنانته » الداخلية بالرغم من انه لا يراها .

ويتبع ذلك كله ، هذه الاسماء التي نضعها على الاشياء وهي تساعد مساعدة كبرى على تميزها وافرادها . وكل اسم جزء من لغة عامة ، لها نظرة خاصة الى الكون ، ولكل لغة فلسفة معينة في إدراك الكون ، فاذا ذكرت اسماً لشيء ، وضعته بالضرورة ضمن مجموعة عامة ، وعينت مرتبة ، بالنسبة الى سائر الاشياء ، وكثيراً ما تقف هذه الاسماء حائلاً بيننا وبين إدراك الاشياء في طرافتها الطبيعية ، على مثل ما رأينا في المثال المذكور آنفاً عن العالم « باوندل » .

٣ ـ **العوامل النفسية** : إن إدراكنا للاشياء لا يقف عند حدود التصورات الاجتماعية ، بل يتعداها الى إدراك شخصي تعينه التجارب الشخصية ، ويذكر (مارسل بروست) انه قد يرى كتاباً ، فيرى فيه نسيجاً حلواً من اشعة القمر ، لانه لا ينسى انه كان يقرأ فيه يوماً ، على ضوء القمر ، وينظر الانسان قليلا الى مكتبته ، فلا يرى كل كتاب وحسب ، وإنما يدرك وجود كل كتاب مقترناً بتاريخ هذا الكتاب ، وكيفية شرائه ، ونوع سهولته او صعوبته ، وكل ذلك نتيجة للتجارب الشخصية التي تقترن بجملة مدركاتنا المتكررة ، وتساعد على تعيينها وتميزها ، من كل ما يشبهها قليلا او كثيراً .

واذا لاحظنا ان المدركات لا تكون دوماً واضحة ، بحيث تعرف هوياتها مباشرة

وانها ، على العكس من ذلك ، كثيراً ما تكون غامضة ، فيضطر الانسان الى اعمال الذهن والمحاكمة ، حتى يعين بالتدقيق حقيقة ما يرى ، مثال ذلك ان نرى في الظلمة شيئاً يتحرك ، ونتساءل عن حقيقة هذا الشيء : أهو رجل أم حيوان أم شجرة ، وما نزال في هذا التساؤل ، وهذه المحاكمات ، حتى نستقر على واحد من هذه المدركات .

وإذا أردنا أخيرا ان نتجاوز دائرة المدركات النموذجية ،او العادية ،لننفذ الى الصفات المميزة للشيء الذي ندركه ، كان لابد لنا من جهد عقلي خاص ، ينزع قشرة المدركات النموذجية ، وينظر الى صفات الاشياء كما هي ، وهذا ما نراه في جهد الفنان الذي يحاول ان يرى الاشياء التي يريد رسمها في نقاوتها الطبيعية .

والخلاصة إن ادراك الاشياء يبدأ اجماليا غامضا ثم يتضح ويتميز شيئاً فشيئاً ، بتأثر العوامل الحيوية ، والفنسة .

٤ — واقعية الادراك

يلاحظ الانسان بسهولة أن الادراك يصله بعالم خارجي ، غريب عنه ، كما يلاحظ ان هذا العالم ذو حقيقة موضوعية مستقلة كل الاستقلال عن وجوده الشخصي ، فكيف يصل الانسان الى ادراك هذه الحقيقة المستقلة .

أ — موضوعية الادراك : لقد بحث الفلاسفة طويلا في هذا الموضوع ، فمنهم من قال اننا ندرك وجود هذه الحقيقة بالحدس ، او بالمعرفة المباشرة ، ومنهم من قال : اننا نصل الى مثل هذه الحقيقة ، عن طريق المحاكمة ،فنحن نلاحظ مثلا أننا امام إحساسات لسنا سببها، فنقول اذن يجب ان يكون مصدرها خارجياً .

والواقع ان هذه المسألة ،ليست بهذه البساطة ، وانما هي نتيجة لتطور بطيء يبدأ منذ عهد الطفولة الاولى. وفي هذا العهد ، نجد أن الانسان أو الطفل لايميز نفسه من العالم الخارجي ، ولكنه يدرك نفسه والعالم الخارجي معاً ، في كتلة غامضة ، ولا ينتهي إلى التمييز بينهما إلا بعد مراحل كثيرة .

١ — وأول هذه المراحل فصله جسده عن العالم الخارجي ، وينفصل هذا الجسد ، بفضل تجارب عديدة ، منها تجارب الالم ، فالطفل يتألم ، وتتركز آلامه في مواضع معينة من جسمه ، كالرأس او العين ، اوالفم ، اواليد ، او غير ذلك. وكلما تألم عضو من هذه

الاعضاء ، كان في ذلك مايبعث على فصله عن غيره من الاشياء .

ومنها حيوية الاحساس اللمسي ، فنحن عندما نلمس الاشياء الخارجيـة ، لا نحس إلا باحساس واحد ، اما عندما نلمس جسدنا ، فاننا نحس باحساس ، اللامس والملموس معاً ، وهذا ايضاً مما يساعد على فصل الجسم عن غيره .

ومنها ثبوت الاحساس بالجسد ، فالجسم مجموعة إحساسات غامضة او واضحة ،تلازم الانسان،ولا تفارقه على عكس الاشياء الاخرى،التي تظهر لنا تارة ، وتغيب عنا اخرى ، وهذا الثبوت في الاحساسات الجسدية ، مما يبعث على فصل الجسم عن غيره ، من الاشياء المحيطة به .

ولنلاحظ ان هذا الفصل بين الجسم والعالم الخارجي ، امر تابع ، اولا واخيراً لقوة الوعي ، او لشدة التوتر النفسي ، فاذا ضعف هذا التوتر ، او تضاءل هذا الوعي عـاد الانسان الى خلط نفسه بالعالم الخارجي، وكلما ازداد الوعي ، واشتد التوتر،عاد الانفصال قوياً وشديداً . ومما يذكر عن روسو انه وقع ذات يوم على الارض ، فأصابه الاغمـاء ، ثم عادت اليه اليقظة ، فرأى نفسه متمدداً على الارض المعشبة ، والدم يجري من رأسه ، ولكنه لم يجد اية غرابة في وضعه هذا ، كأنه يرى نفسه جزءاً من الارض التي وقع عليها. وفي حالات الذهول امثلة كثيرة على ذلك ، إذ يغيب الانسان في طائفة المشـاهد والاحساسات التي يراها ، وكأنه وإياها شيء واحد .

ب ـ اخطاء الادراك : للادراك أخطاء يمكن تقسيمها الى ثلاثة أقسام :

١ ـ فهنالك مايسمى باخطاء الحواس ، ومثاله رؤية الملعقة الموضوعة في كأس الماء معوجة اعتباراً من سطح الماء ، ومثاله ايضاً رؤيتنا الاشياء بغير ألوانها الحقيقيـة ، اذا كنا مصابين بامراض التسمم ، وتعرف أخطاء الحواس بالقول : انها تغـير في صفة من صفات الشيء المدرك ، كاستقامته (في مثال الملعقة) أو لونه (في مثال أمراض الدالتونيسم) أو طوله في مثال الخطوط المستقيمة المحاطة باسهم خارجية أو داخلية او غير ذلك .

٢ ـ وهنالك مايسمى بالضلال illusion وهو خطأ في طبيعة الشيء ، لا في احدى صفاته ، مثال ذلك ان ننظر ليلاً الى الشجرة ، ونحسبها رجلا ، أو إلى الحشبة طافية على سطح الماء ونحسبها غريقا ، أو الى بصيص يلمع في الظلام ونحسبه بعض الجن ويعلل هذا الضلال ، بتوضع صورة مدركة قديماً ، على أحساس حاضر ، غير مطابق لهـا : فالشجرة

أحساس حاضر ولكنه غامض ، والرجل صورة مدركة قديما توضعت على الاحساس الغامض بالشجرة وانطبقت عليه . وهذا دليل على أن الضلال ، خطأ في التأويل وتسرع في الحكم على حقيقة الادراك .

٣ — وهنالك مايسمى بالوهم Hallucination ، وهو إدراك غير صحيح ، لأن الانسان يرى فيه مالا حقيقة له ، أي هو الاعتقاد بوجود شيء ، غير موجود في الواقع . وأنواع الاوهام كثيرة ، وعددها بالجملة عدد الحواس ، فهنالك أوهام بصرية وأخرى سمعية ، وثالثة شمية ... الخ . وحالة الوهم ، في الغالب ، حالة مرضية ، فالكحولي يرى أشخاصاً يعذبونه ويكلمونه جارح الكلام ، مع أن أحداً غيره ، لايرى مايرى . وفي كثير من الامراض النفسية مجال خصب لنمو هذه الاوهام . وكلما تضاءل التوتر النفسي استعدت النفس لخلق الاوهام .

ويمكننا هنا أن نقف قليلا على قول الفيلسوف (تين Taine) الذي يرى أن الادراك وهم حقيقي ، والحق إن الادراك يشبه الوهم لان الآلية واحدة في الحالين ، فنحن ندرك كما نتوهم ، أي أن التغيرات الفيزيولوجية التي تحدث في الحواس أولا وفي الجملة العصبية ثانياً ، واحدة تقريبا ، في الوهم وفي الادراك وإلا أن مصدر هذه التغيرات في الادراك هو العالم الخارجي وفي الوهم هو الجسم بالذات . والواقع أن بعض الامراض التعفنية ، أو بعض التسممات العضوية ، من شأنها ان توثر في الجملة العصبية تأثيراً يشبه أحيانا هذا التأثير الذي نتلقاه من منبهات العالم الخارجي ، ولذلك يخيل الينا أن هنالك مدركات حقيقية ، مع أنه ليس هنالك شيء من ذلك ، والغالب أن تكون هذه المدركات الموهومة متناسبة مع حالة الجسم ، واضطراباته ، فاذا كان الجسم معذبا ، أو متألماً ، فان الصور تكون معذبة أو مؤلمة ، وإذا كانت العضوية جائعة أو عطشى ، تمثلت صور الموائد اللذيذة ، والمآكل الشهية ، وهكذا ...

والخلاصة ، إن أخطاء الادراك ثلاثة أنواع ، فهنالك أخطاء الحواس ، وهي تغيرات في صفة من صفات الاشياء المدركة ، وهنالك الضلال وهو خطأ في طبيعة الاشياء المدركة ، وهنالك الاوهام ، وهو أدراك مالا حقيقة له في الواقع .

خلاصة عامة

إن الادراك — كما نرى — حادثة معقدة ، نستطيع بواسطتها الاتصال بالعالم الخارجي وتمثل مافيه من أشياء . ويعتمد الادراك على الاحساس ، في الدرجة الاولى ، فادراك البرتقالة مبدئياً يعني مجموعة هذه الاحساسات التي نتلقاها من البرتقالة وهـــذا مايسمى بالادراكات الطبيعية أو الفطرية ، ولكن الادراك يعتمد ، ايضاً ، على الذاكرة ، الـتي تغني الاحساسات الحاضرة بصور الاحساسات الماضية ، فلو رأينا البرتقالة مثلا عن بعد ، لادركنا مباشرة ، كل مايتصل بالبرتقالة من احساسات غير حاضرة ، كالرائحـة والطعم واللمس ، بصورة واضحة أو غامضة ، وهذا مايسمى بالادراكات المكتسبة . ولذلك كان من المعقول أن نضع هذه المعادلة :

الادراك = الاحساس + الذاكرة

إلا ان الادراك لايعتمد على الاحساس والذاكرة فحسب ، بل كثيراً مايعتمد على فعاليات عقلية عالية كالحكم والمحاكمة ، والجهد الفكري ، وخاصة عندما يكون موضوع الادراك غامضاً ، أو تكون لنا حاجة (علمية أو فنية) من الادراك .

الفصل السادس عشر

الحكم والاعتقاد

le Jugement

خلاصة البحث :

١ — تعريف الحكم

أ — مفهوم الحكم
ب — انواع الاحكام

٢ — تحليل الحكم من الوجهة النفسية

أ — تكون الحكم
ب — تكون الحكم المنطقي

٣ — الاعتقاد

أ — تعريف الاعتقاد
ب — درجات الاعتقاد
ح — أصل الاعتقاد : ١ — العامل العقلي
٢ — العامل الاداري
٣ — العامل الاجتماعي
٤ — النتيجة

٤ — مفيقة الحكم

أ — الحكم والاحساس
ب — الحكم والتداعي
ح — الحكم والعقل

خلاصة عامة

١ — تعريف الحكم

أ — مفهوم الحكم :

١ — إن الحكم تأكيد علاقة بين معنيين ، أوموضوعين ، او شيئين . ومظهر الحكم ، هو القضية التي تعبر عن وجود علاقة بين حدين . كقولنا مثلاً : الهواءرطب.

ويجب أن نفرق بين الحكم كحادثة نفسية ، وبين قوة الحكم التي يمتاز بهابعض الناس وتجعلهم قادرين على تقدير المواقف المعقدة ، والوصول الى حكم صائب فيها ، بالرغم من تعقد عناصرها ، ويمكن أن نجد صلة من القرابة بين قوة الحكم هذه ، وبين الذوق أو الحس السليم ، ويعنى بالذوق السليم عادة قدرة المرء على الاهتداء الى الحقيقة ، في موقف معقد ، وينحصر الفرق بين هذين المفهومين بما تقتضيه قوة الحكم من ذكاء خارق ، قادر على معرفة الحقيقة ، في المواقف المعقدة وتعليل الوصول اليها ، باسباب ومبررات ، أما في الذوق السليم ، فليس هنالك الا الاهتداء الى الحقيقة دون القدرة علي معرفة الاسباب والمبررات .

٢ — ويلاحظ المناطقة أن في القضية حدين اثنين بينهما رابطة او ما يدل عليها كقولهم السماء غائمة ، والمطر نازل ، فالسماء حد ، وغائمة حد آخر ، والعلاقة هنا مضمرة تقديرها هي .

ويميز علماء النفس والمناطقة بين نوعين اساسيين من الاحكام ، فهنالك أحكام وجود، غايتها الاخبار عن الواقع ، كقولهم عمر بن عبد العزيز ميت ، والشمس طالعة ، والربيع قريب ، وهنالك احكام قيم أووجوب ، غايتها التعبير عن مثل اعلى ، خلقي أو بديعي ، كقولهم : إن اداء الواجب امر جميل ، والصداقة كنز ثمين ، وخضرة الربيع شيء جميل ، والبطولة حلوة .

ب — انواع الاحكام : تصنف الاحكام على اساس مبادىء مختلفة ، اهمها مبدأ الكمية ، ومبدأ الكيفية .

فاذا كنا في المبدأ الاول ، صنفنا الاحكام في نوعين ، لانها تكون عندئذٍ ، اما كلية ، وإما جزئية .

فالاحكام الكلية هي التي يدخل كل موضوعها في شمول محمولها كقولك : كل من عليها فان ، أو قولك ، كل مخلص جريء . ويقال عندئذ بان الموضوع مستغرق كلياً في المحمول .

والاحكام الجزئية ، هي التي يدخل بعض موضوعها في شمول محمولها كقولك : بعض من عليها فان ، او بعض المخلصين جريئون ، ويقال عندئذ ، بان الموضوع مستغرق جزئياً في المحمول .

وإذا كنا في المبدأ الثاني ، أي مبدأ الكيفية ، صنفاً الاحكام في نوعين ايضاً لانها تكون عندئذ ، أما موجبة وأما سالبة .

والاحكام الموجبة : هي التي تثبت علاقة بين الموضوع والمحمول ، كقولك الربيع جميل ، والارض زاهية ، والعشب مخضوضر ، ومن الواضح أنك تثبت هنا علاقة بين الربيع والجمال ، والارض والزهو ، والعشب والاخضرار .

والاحكام السالبة ، هي التي تنفي العلاقة بين الموضوع والمحمول ، كقولك : ليس الله ظالماً ، وليس البشر بعادلين ، وليست المعادن باجسام عازلة ، ومن الواضح انك هنا تنفي وجود النسبة او العلاقة بين الله والظلم ، وبين البشر والعدل ، وبين المعادن ، والاجسام العازلة .

وإذا جمعنا بين هذين المبدأين ، وجدنا ان الاحكام تصبح انواعا اربعة :
فهي إما كلية موجبة ، أو كلية سالبة ، أو جزئية موجبه او جزئية سالبة .
ويمكن تصنيف الاحكام بحسب مبدأ ثالث تكون فيه الاحكام أما تحليلية أو تركيبية .

فاما القضايا التحليلية ، فهي التي يكون محمولها صفة ذاتية للموضوع ، تكتشفها فيه بمجرد التحليل العقلي ، كقولك : الجسم ذو أمتداد ، والكل اكبر من الجزء .

واما القضايا التركيبية : فهي التي لايمكن أكتشاف المحمول فيها بمجرد تحليل الموضوع ، كقولك : هذه الطاولة من ذهب ، إذ أن معنى الطاولة لايتضمن كونها من ذهب ، فالمحمول هنا أذن صفة غير ذاتية للموضوع .

وبديهي أن هنالك أحكاماً ضمنية لايعبر عنها صاحبها بقول ، وأن الطفل يحكم قبل ان يعبر تعبيراً كلامياً ، وأن الحكم من الوجهة النفسية ، لايحتاج في كل صورة الى ما تحتاج اليه الاحكام المنطقية من حدود واضحة ، وصلة بينه بين الحدود ، وفصل بين الموضوع والمحمول .

٢ - الحكم من الوجهة النفسية

لابد في بحث الحكم ، من الوجهة النفسية ، من التعرض لمسألتين اساسيتين : في اولاهما نتساءل عن كيفية تكون الحكم . اي كيف يستطيع العقل انشاء علاقة بين مفهومين ، وفي الثانية نتساءل عن الاعتقاد المرافق للحكم ، اي كيف يعتقد الانسان بصحة الحكم الذى ينشئه ويقبله ، ولنبحث الآن عن كل من هاتين المسألتين .

أ - تكون الحكم

صور الحكم المختلفة : إن المناطقة لايهتمون بغير الحكم التام اي بغير الحكم الذي يتم التعبير عنه بموضوع ومحمول ورابطة تصل بينهما ، ولهذا نراهم يبحثون في القضايا اكثر مما يبحثون في الاحكام (١) .

أما علم النفس فانه يبحث في الاحكام على اختلاف صورها . سواء أكانت ضمنية ام ظاهرة ، ذات حدود واضحة او غامضة ، معقولة أو غير معقولة ، ولهذا كانت دراسة الاحكام في علم النفس اوسع منها في المنطق ، لان علم النفس — كعلم — يبحث في واقع الحكم ، والمنطق يبحث في واجب الحكم ، فالاول يبحث في الحكم كما يلاحظه في الواقع ، والثاني يبحث فيه على ضوء مايجب أن يكون عليه ،وبتعبير اخر ،ان عالم النفس لايهتم بالقيمة المنطقية للحكم ، في حين ان المناطقة لايبحثون في الحكم الا إذا كانت له قيمة منطقية .

والواقع أن هنالك صوراً كثيرة للاحكام ، ذلك :

---

(١) يمكن الرجوع الى كتب المنطق لمعرفة الفرق بين القضية والحكم ،فالحكم هو نشوء العلاقة بين حدين، في الذهن ، أما القضية فهي الرداء اللفظي للحكم ، راجع كتابنا الوسيط في المنطق ص ٤٥ .

أ — أن هنالك تفكيراً غامضاً نلاحظه في الناس الذين لم يتح لهم حظ كاف من الثقافة ، او في الاطفال ، او في الامم الابتدائية ، وفي هؤلاء جميعاً لانلاحظ تميزاً واضحا بين الاحكام والميول ، أو بين الاحكام والرغبات ، إن جميع أحكام الطفل صور لرغباته ،

ب — وهناك أحكام ضمنية ، لاتحتاج الى اي تعبير ، إلا أنهـا ، مع ذلك موجودة واكيدة ، فاذا كنا نبذل جهداً ما ، في سبيل رفع بعض الاثقال ، فمعنى ذلك أننا نقدرما يجب بذله من الجهد ، امام مثل هذه الاثقال ، وهذا حكم ضمني أكيد . وهناك اوضاع نفسية مختلفـة ، كالترقب ، والتردد والاستغراب ، وهي تتضمن حتما مجموعة معقدة من الاحـكام .

ح — وهنالك احكام لا نعبر عنها تعبيراً كاملاً بل نكتفي فيها بالاشارة ، اوبوضعية التعجب ، او بمجرد السكوت . مثال ذلك ان نقابل حديثاً غريباً يأتينا به رجل «معروف» ببسمة او بايماءة هزء نتبادلها مع صديق قريب .

ج — وهناك اخيراً احكام نعبر عنها تعبيراً تاماً ، ولكننا لانريد من ذلك تقريرها بصورة نهائية ، بل نريد تجربتها او معرفة مدى صحتها . مثال ذلك ان نقول : هـل الاجسام كلها تسقط بسرعة واحدة ؟ او : الاجسام كلها تسقط بسرعة واحـدة ... او متغيرة ... او ؟..

٢ — تكون الحكم المنطقي

إن الناس العاديين والمناطقة القدماء يحسبون ان الانسان يملك ، بصورة طبيعـية مجموعة من الحدود ، هي جملة كلمات اللغة التي يتكلم بها ، فهو يعرف مثلاً كلمات الانسان والفاني ، والربيع ، والجميل ، والبطولة والتضحية ، فاذا اراد ان يحكم ، انتخب حدين من هذه الحدود المختلفة ، ووصل بينهما برابطة ما ، او فصل بينهما . ينفي الرابطة كأن يقول مثلا : الانسان فان ، والربيع جميل ، والتضحية بطولة ، او ان ينفي ذلك .

غير ان علماء النفس المعاصرين لايقبلون هـذا التفكير البسيط ويعتبرون ان ليس هنالك من حد او مفهوم مفرد لاصلة له بغيره ، وان كل حد هو بداية حكم ، وان العقل ، قبل ان يميز حكمه ، يطوف على جملة من التأكيدات او الاحكام المختلفة الغموض .

ومعنى ذلك ان الحد ، اي كلمة (الانسان) مثلاً ، لاتبدأ وجودها في النفس مستقلة ، بل إنها لاتوجد ، قبل ان يكون العقل قد عرف لها جملة صفات متصلة بها ، كالفانى ، والناطق ، والضاحك ، وغير ذلك ... وعلى هذا فان النفس تحمل او تملك مجموعات من الحدود : كالانسان الناطق ، او الانسان الضاحك ، او غير ذلك وهي لاتملك هذه المجموعات بصورة واضحة ، بل بصورة غامضة قليلا او كثيراً ، بحسب درجة الوعي ، ولهذا فان الحكم الغامض سابق في الوجود للحد او المفهوم الواضح ، والمفهوم هو ابن الحكم (١)

أ — إن الطفل لايبدأ إذن حياته العقلية باستعمال مفاهيم عامة ، بل يبدؤها باحكام مضمرة او ضمنية ، وإذا كان يستعمل — اول مايستعمل — كلمات مفردة فان من المؤكد ان معانيها لديه ، اكثر بكثير من معاني الكلمات نفسها . وكل كلمة يقولها تدل — في اغلب الاحيان — على جمله يريد ان يقولها . وإذا قال (تاتو) مثلا فانه قد يريد ان يأكل « كاتو » ، او يشير الى ان الذي بيده قطعة من هذه الحلوى او انه قد اخفيت عنه قطعه الحلوى ، او ان غيره يأكلها ، ولكن الطفل لا يقف عند هذا الحد من التفكير الغامض ، بل يصل تدريجياً الى تميز العناصر المختلفة ، والمفاهيم العامة والحدود التي تدل عليها ، وعلى ذلك فالطفل يبدأ غامض التفكير ، وينتهي بالتدريج الى ايضاح هذا الغموض ، ويبدأ من احكام عامة مجملة ، وينتهي بمعان مفردة واضحة .

ب — والامر كذلك في الانسان العادي ، الذي شب عن طوق الطفولة ، فهو لا يبدأ تفكيره بالاستناد الى معان مفردة واضحة ، بل يبدؤه بشعور عام معقد ، لا يزال يحلله قليلا فقليلا حتى يرده الى الوضوح : فاذا كنت اقرأ وظيفة طالب مثلا ، فاني انتهي بحكم غامض حولها ، واقول مثلا ، ان اسلوب هذا الطالب ، اسلوب معقد او مضطرب او ملتو ، او منحرف ، غير اني ألاحظ ان كل هذه الصفات لاتتفق تماماً مع الشعور الذي انتهيت اليه من قراءة الورقة ، فأحلل من جديد ، شعوري وابحث عن الكلمة المناسبة لهذا الشعور ، واقول اخيراً : إن الاسلوب « متحذلق » .

وهكذا نرى اننا نبدأ في الحكم — كما نبدأ في إدراك العالم الخارجي — من شعور

---

(١) الفرق بين الحد والمفهوم ، كالفرق بين القضية والحكم ، ونحن نستعملها هنا ، بمعنى واحد ، راجع كتابنا الوسيط في المنطق ص ٤٥

تركيبي مبهم ، نأخذ بالتدريج بتحليل عناصره شيئاً فشيئاً ، حتى ننتهي اخيراً الى تركيب جديد واضح . فالحكم يوحد بين العنصرين « الحدين » الواضحين اللذين يجمع بينهما .

٣ — الاعتقاد

أ — تعريف الاعتقاد : يعنى بالاعتقاد عادة ، قبول الانسان فكرة ما في موضوع من المواضيع ، فالتلميذ يعتقد مثلا ان للحظ علاقه بالنجاح في الفحوص ، والعامل يعتقد مثلا ان صاحب العمل يظلمه في الاجور ، الخ . . .

ويمكن التمييز بين نوعين من الاعتقاد ، احدهما يصدر عن العاطفة ، والثاني يصدر عن العقل ، ومعنى ذلك اننا قد نقبل فكرة او اخرى ، في موضوع من المواضيع ، إتجاهاً مع عاطفة من عواطفنا الخاصة ، مثال ذلك أن يرى الاقطاعي في الاشتراكية شراً خطيراً ، لانها تناقض مصلحته الخاصة في الاستثمار ، ولكننا قد نقبل فكرة ما في هذا الموضوع نفسه ، بعد شيء من البحث والتفكير ، فنقول مثلا : ان الاشتراكية أحسن من النظام الرأسمالي لان فيها عدالة اكبر من عدالة هذا النظام الخ . . .

ومن الممكن أن يجتمع اعتقادان ، متناقضان ، في مسألة واحدة : ذلك عندما تتجه العاطفة او المصلحة الشخصية الى شيء ، يعترف العقل بعدم مشروعيته ، مثال ذلك : اعتقاد الاقطاعي المثقف بان الاشتراكية خير من النظام الرأسمالي ، مع انه ، في الواقع لايجهر بهذا الاعتقاد ، ويحاول تكذيبه .

ب — درجات الاعتقاد : ليس الاعتقاد درجة واحدة دوما ، لانه قد يكون ضعيفاً في منتهى الضعف ، وقد يكون قويا في منتهى حدود القوة ولنحاول الان أن نعرض ثلاث درجات مختلفة للاعتقاد :

١ — حالة القناعة : فاما القناعة ، فهي نوع من الاعتقاد ينتفي معه كل شك ، وهي انواع مختلفة ، منها القناعة الميتافيزيكيه ، ومثالها الاعتقاد بان الكل اكبر من الجزء ، ومنها الطبيعية ، أو القناعة بحكم الواقع ، ومثالها الاعتقاد بان السماء تمطر (اذا كنا نرى المطر) ، ومنها القناعة النفسية ، وهي تستند الى احتمال كبير جدا ، بوقوع حادث

من الحوادث ، ومثالها الاعتقاد بانه لا بد من أن تجود السماء بالمطر في خلال الاشهر الستة الآتية .

ولنلاحظ أن القناعة تستند الى بداهة الحدس ، او بداهة العقل فاذا رأيت الجدار أمامي أبيض اللون اقتنعت بالبداهة ، بان لونه أبيض ، واذا قلت : الكل اكبر من الجزء ، فان قناعتي هذه مستندة الى بداهة العقل .

والبداهة أم القناعة ، ويعني بالبداهة أن الانسان عندما يعرض عليه رأي من الاراء يراه واضحا ، أو صحيحاً لاسبيل الى الشك فيه . ولكن البداهة عفوية او تأملية ، فاذا كانت عفوية ، كان معناها ان العقل لم يفطن الى دواعي الشك ولم ينتبه الى ضرورة فحصها وتأملها ، واذا كانت تأملية كان معناها أن العقل قد فطن الى دواعي الشك ، واستعرضها جميعاً ، ورأى صحة الرأي فوقها . وهذه البداهة هي التي يطلبها العالم ، ولا ينتهي بحثه قبل الوصول اليها .

٢ ـ **حالة الشك** : ان هذه الحالة مختلفة كل الاختلاف عن حالة القناعة لان صاحبها يتساءل عما اذا كان الرأي الذي يبدو له صحيحاً اوخاطئاً ، فاذا قيل لي مثلاً ما هورأيك في مشروع (بيفردج) في التأمين الاجتماعي ، ولم أكن اعرف شيئاً واضحاً عنه ، لم استطع ان ادلي باي رأي في موضوعه ، واذا سئلت عن كروية الارض ولم اكن قد درست الجغرافيا فانني اقف حائرا لا استطيع ان ادلي باي جواب .

وهنالك شك ايجابي ، ينشأ عن وجود فكرة او عدة فكر ، يعترض بها على صحة رأي ما ، وهنالك شك سلبي ينشأ عن فقدان الادلة على صحة هذا الرأي .

٣ ـ **حالة الرأي** : إذا كان الشك يحول دون الوصول الى القناعة ، فانه قد يسمح ، مع ذلك ، باتخاذ رأي معين يكفي لحاجات العمل ، بالرغم من وجود بعض الاعتراضات النظرية ، مثال ذلك ان يكون رأينا في الثقة باحد الناس حسنا ، وان نعطيه أموالنا يتصرف بها ، بالرغم من اننا لانملك على هذه الثقة برهانا قاطعاً .

والخلاصة ان الاعتقاد درجات ثلاث : قناعة وشك ورأي ، فاذا وجدت اسباب الاعتقاد وحدها ، دون اسباب الشك كنا في القناعة ، وإذا تساوت اسباب الاعتقاد واسباب الشك ، كنا في حالة الشك ، واذا غلبت اسباب الاعتقاد على اسباب الشك كنا في حالة الرأي .

م - اصل الاعتقاد : ليس الحكم مجرد ادراك علاقة بين حدين او مفهومين ، بل هو ايضاً تأكيد هذه العلاقة ، والاعتقاد بصحتها في الواقع ، فهل الاعتقاد مسألة عقلية ، أو هو مسألة ارادة وعاطفة ؟

١ - العامل العقلي : ان اول ما يتبادر الى الذهن أن الاعتقاد مسألة عقلية خالصة ، والحق أننا لانعتقد ما نريد ، بل نعتقد مانراه وندركه في الواقع . بل إن هنالك مجموعة اعتقادات نؤمن بها ، بالرغم من تعارضها مع ميولنا وعواطفنا . فاذا رسب الانسان في الفحص او اضاع محفظة نقوده ، فهو مضطر الى الاعتقاد بصحة هذه الامور ، بالرغم من انها تؤلمه ، وتسوءه . وهكذا يرى سبينواز ان لكل الاعتقادات أصلاً عقلياً ، فاذا بدت لي فكرة صحيحة ، آمنت بها وقبلتها على انها صحيحة . والعقل والارادة هنا يصبحان شيئاً واحداً .

ومع أننا نعتقد بصحة هذا الرأي ، ونرى أن الاعتقاد مسألة تابعة للعقل ، وأن الارادة ليست حرة ، في جعل الانسان يعتقد بصحة ما يذهب اليه ، فانه لابد لنا من القول بوجود اعتقادات كثيرة ، لاتنشأ عن العقل ، بل عن العاطفة والارادة .

٢ - العامل الارادي : يرى ديكارت بان العقل يقتصر على تصور الاشياء ، او الفكر ، بصورة منفعلة ، وليس بامكانه ان يفرض قبولها او رفضها ، إلا أن الارادة الفاعلة هي التي تفرض هذا القبول او هذا الرفض ، وأن الخطأ ينشأ عن تأكيد الارادة علاقة لم يرها العقل ، بصورة واضحة . أي أنه شيء إيجابي تضيفه الارادة على ماراه العقل .

ويرى الاراديون ، مثل « رونوفيه » ان الارادة هي أصل الاعتقاد ، لان البداهة لاتنشأ في الذهن إلا من وقوفه على بعض الادلة والبراهين ، وانصرافه عن الفكر المخالفة ، والارادة هي السبب في بقاء الادلة وثبوتها في الذهن ، وهي ايضاً سبب إزاحة الفكر المخالفة ، والارادة اخيراً هي التي تقطع المناقشة في امور لا يمكن البرهان على صحتها بصورة نهائية ، وتوحي باعتقاد هي مصدره ، لا العقل .

ويرى اصحاب فلسفة الذرائع « البراغماتيست » بان وظيفة العقل هي خدمة حاجات الانسان في التلاؤم ، مع الواقع . فاذا قبلنا رأياً من الآراء ، فذلك لاننا نرى فيه منفعة وخيراً . وإذا رفضنا رأياً آخر ، فذلك لاننا نلاحظ فيه مضرة وشراً .

ولا ريب ان للارادة والعاطفة أثراً في الاعتقاد . إلا أن اثرهما هذا ليس كل شيء في موضوع الاعتقاد، اولا نرى اننا احياناً مضطرون الى قبول هذه الفكرة او تلك ، إضطراراً لانجد معه سبيلا الى الرفض او الاعتراض ؟ اولا تفرض البديهات نفسها فرضاً ؟ اولا نحكم على لون شيء نراه ، كما نراه ، دون ان نستطيع التردد . وإذا رسب الانسان في فحص ، او اضاع محفظة نقوده ، فهل يمكنه ان يشك في ذلك ، لمجرد رغبته في النجاح ، وميله إلى بقاء النقود .

اما اصحاب فلسفة الذرائع ، فيمكن الرد عليهم بالقول ، إن العقل لا يعنى بخدمة حاجات التلاؤم وحدها ، بل يعنى أيضاً بالبحث المجرد الخالي من المنفعة ، وعندئذ يتعرى الاعتقاد من تأثير هذه المنافع ، ويتعين باسباب اخرى ، لايمكنها ان تكون الا عقلية .

٣ — **العامل الاجتماعي** : ولنلاحظ اخيراً ان النظريتين السابقتين : العقلية والارادية ، تستويان في إهمال العامل الاجتماعي . مع ان اكثر اعتقادات الانسان ، تنشأ عن المجتمع الذي يعيش فيه : ألا ترى ان الانسان يؤمن تقريباً بكل ما يؤمن به مجتمعه ، ويميل الى الاعتقاد بخطأ كل رأي غير شائع في وسطه ؟ اولا يستثمر اصحاب السلع هذا النوع من الضغط الاجتماعي لاغراء الناس بسلعهم وبضائعهم ، بما يستعملونه من إعلان ودعاية ؟

٤ — **النتيجة** : يمكننا ان نفرق بين الاعتقاد — كما يجب ان يكون — وبين الاعتقاد — كما هو في الواقع — فالاول — ولا شك — لاينشأ ولا يمكنه ان ينشأ إلا عن العقل . اما الثاني فهو ينشأ عن العاطفة او الارادة او المجتمع .

وعلى ذلك فان لاعتقادات الناس — من الوجهة النفسية مصادر مختلفة : فبعضها ينشأ عن العاطفة والارادة — كاعتقاد العمال بصحة الآراء الاشتراكية ، والرأسماليين بخطئها ، وبعضها ينشأ عن الوجود في مجتمع معين ، مثل اعتقاد اليهود بحقهم في فلسطين ، وإيمانهم بعدالة قضيتهم ، واعتقاد الفرنسيين « قديماً » بحقوقهم التاريخية في سوريا ولبنان، واعتقاد اكثر الناس بصحة القيم الاخلاقية التي يعيش عليها مجتمعهم

اما من الوجهة الفلسفية ، او من وجهة قيمة الاعتقاد ، فانه مما لاشك فيه ان لا قيمة لاعتقاد لم يثبته العقل بادلة واضحة ، ولكن انى للانسان — في الواقع — ان ينسج اعتقاداته كلها على هذا المنوال ؟

٤ - حقيقة الحكم

نريد بهذه المسألة ، ان نعرف ما إذا كان الحكم شيئاً يمكن إرجاعه الى شيء آخر ابسط منه ، او انه شيء قائم بذاته ، لايمكن إرجاعه إلى اي شيء آخر .

أ - الحكم والاحساس : لقد زعم « كوندياك » أن الحكم هو مقابلة بين شيئين ، وهذه المقابلة ليست غير انتباه مزدوج ، وهذا الانتباه ليس إلا احساساً منحصراً او غالباً ، ولهذا يمكن إرجاع الحكم الى الاحساس . مثال ذلك أن يجتمع إحساسا الثلج والبياض وأن نقول بعد ذلك : الثلج أبيض .

إن هذه النظرية غير صحيحة ، لان الاحكام لاتنحل كلها الى مقابلات ، واي مقابلة في قولنا : السماء تمطر ، والطفل ينام ؟ واذا انحلت الاحكام الى مقابلات ، فانه يصعب القول بان كل مقابلة هي انتباه مزدوج ، لان من الممكن الانتباه الى شيئين متشابهين ، دون ان نلمح نشابههما ، ودون تأكيدها .

ب - الحكم والتداعي : يرى « ستوارت ميل » أن الحكم ينحل الى تداعي الافكار ، فاذا قلت إن الماء يتجمد في درجة الصفر ، او إن ذات الاسباب تؤدي الى ذات النتائج ، فاني اخضع في ذلك الى قوانين تداعي الافكار : فالتجارب الكثيرة التي شهدتها ، انشأت في عادة التفكير بالجليد ، عند التفكير بالماء في درجة الصفر ، او عادة التفكير بذات النتائج ، عند التفكير بذات الاسباب ، والاحكام ليست الا تداعيات تمتاز بثبوتها .

ولقد رأينا — من قبل — إن الحكم والتداعي شيئان مختلفان ، ولقد يكون الحكم المضمر او الضمني صورة للتداعي ، ولقد يهيء التداعي صورة الحكم ، ويقدم له مادته ، إلا ان التداعي جملة فكر او صور تتداعى بصورة آلية ، غير واعية ، في حين ان الحكم قطع لهذا التسلسل ، واصطفاء في حدوده ، ووقوف واع على بعض هذه الحدود .

ج - الحكم والعقل : ويذهب العقليون من الفلاسفة الى ان الحكم غريب عن التداعي ، وانه ليس هو التفكير بشيئين متصلين ، بل التفكير بانهما متصلان ، وليس هو التفكير بشيئين بينهما علاقة ، بل التفكير بهذه العلاقة ، وعندما اقول : إن العلم نافع ، فاني

أؤلف بين مفهومين ، لكل منهما اصل خاص به . فالحكم عملية عقلية ، والعقل هو القدرة على إدراك العلاقات وهكذا نوحد بين الحكم والعقل.

ويهمنا من هذا كله ان نلاحظ ان الحكم عملية معقدة، تحتاج الى مواديهيئها التداعي ، كما تحتاج الى فعالية تحليل خاص ، تفصل الموضوع عن جملة محمولاته بعد اتصالها الغامض ، وفعالية اصطفاء تحسن عزل المحمول المناسب ، وفعالية تركيب ، تؤلف بين ذاك الموضوع وهذا المحمول ، في تركيب متميز العناصر .

وبديهي ان الحكم لاينشأ عقلياً محضاً بل انه فعالية تمتد اصولها حتى في الضرورات الحيوية التي ترغم الطفل على الانتباه الى ما ينفعه وما يضره ، فيقوم بالفعل النافع ، وكأنما يحكم بذلك حكماً إيجابيا ، ويترك الفعل الضار وكأنما يحكم بذلك حكماً سلبياً .

وبديهي ايضاً ان الحكم لاينشأ بين موضوع ومحمول مستقلين عن الذات او عن الانا، بل إنه ينشأ من موضوع رئيسي هو الانا ومن جملة محاميل ذات علاقة وثيقة بالانا ،فالطفل لايحكم على الاشياء إلا من خلال علاقتها برغباته ، واتصالها بحاجاته ، ولقد يتطور الحكم ويتكامل ، ويصل إلى آخر حلقة من حلقات كماله ، وهو لايزال — في جوهره — شديد الاتصال بهذه الانا — المركز — ، وإذا قلت : إن هذا الرجل كريم فمعنى ذلك أنني أراه — أنا — كريماً ، وقد لايكون كذلك بالنسبة إلى الآخرين .

وهكذا تتطور فعالية الحكم ، فتبدأ من الضرورات الحيوية وتنتهي في الآفاق العقلية المجردة ، وتبدأ من موضوع « الانا » التي تنسب إلى ذاتها كل ما تراه في الوجود من محاميل ، وتنتهي إلى شيه موضوعية ، تصل بين موضوع ومحمول مستقلين ظاهراً عن هذه « الانا ».

خلاصة عامة

إن الحكم الضمني او الظاهر حادثة تغمر حياتنا النفسية كلها في درجاتها المختلفة . فالادراك يحتاج اليه ، كما تحتاج اليه كل فعالية اخرى ، في درك الميول ، او في أفق العقل، وسنرى أن المحاكمة ليست إلا تأليفاً بين الاحكام، وأن التفكير — في جوهره — ليس — كما يقول كانت — إلا الحكم .

الفصل السابع عشر

التجريد والتعميم

خلاصة البحث

١ — المشخص والمجرد .

آ — المدرك والمفهوم

ب — الفرق بين الصورة والمفهوم

٢ — كيفية تكون المعاني العامة والمجردة

٣ — درجات التعميم والتجريد

٤ — عمل الالفاظ في تثبيت نتائج هذه العمليات الذهنية

٥ — خدمات اللغة والنطق في تقدم الفكر البشري

٦ — الاخطار الفكرية التي تنجم عن سيطرة الالفاظ على الاذهان

١ — المشخص والمجرد

يدرك الانسان جملة أشياء مختلفة كالطاولة أو الكتاب أو المدفأة أو الشجرة ،أو النهر أوالبستان. ومن الواضح أن الحواس هي التي تساعدنا على إدراك هذه الاشياء ، وتعين لنا وجوهها المختلفة : فالبصر مثلاً هو الذي يرينا الطاولة،وينبئناعن شكلها ولونها ومادتها،واللمس هو الذي يطلعنا على نعومتها أو خشونها ، ويمكننا أن نصطلح على تسمية هذه الاشياءالتي

ندركها بالحواس ، باسم : « المشخصات » وعلى ذلك يكون المشخص كل شيء نستطيع إدراكه .

وإذا رجعنا الآن بالذهن أو بالخيال ، إلى هذه الاشياء التي كنا أدركناها من قبل ، كنا طبعاً أمام الصور الذهنية التي تمثلها ، ومهما تكن الصورة فقيرة أوضئيلة ، فانها ، على كل حال ، متصلة بالاصل الحسي الذي انبثقت منه ، وهي تمثله بجملة صفاته الحسية تمثيلاً صادقاً او قريباً من الصادق ، فصورة الطاولة التي رأيتها عند جاري بالامس ، تعود إلي الآن ، وتكاد أن تعوض عن إدراكها نفسه ، لان شكلها شكلها ولونها لونها .

ولاأ كاد أرى فرقاً واضحاً بين هذه الصورة الذهنية ، وذلك الادراك المشخص . وعلى هذا نقول : إن مثل هذه الصور تمثل أشياء مشخصة ، ويمكن أن يقال : إنها صور مشخصة أيضاً . والتشخيص في اللغة يدل على البروز أو التعيين وهكذا يقال : شخص المرض ، أي تعين وبرز وعرفت حقيقته .

ولكن لنلاحظ الآن أن الانسان لايقف عند حدود إدراك الاشياء المشخصة ،بل يرتقي منها إلى « معان عامة » تنطوي تحتها سائر المدركات الجزئية ، فاذا قلنا مثلاً : شجرة ، لم يتجه خيالنا بالضرورة الى هذه الشجرة أو تلك ، بل عرفنا أننا نتحدث عن نوع خاص من الاشياء ، هو الاشجار وحدها . ولايهمنا بعد ذلك أن تكون الشجرة التي نتحدث عنها تفاحاً أو إجاصاً ، مثمرة أو غير مثمرة ، مزهرة أو عارية ، طويلة أو قصيرة . بل إن كلمة الشجرة نفسها لاتكفي لتعيين مثل هذه الصفات الخاصة التي قد توجد في شجرة دون أخرى ، وانما تكفي لتعيين «هيكل عظمي» عام للشجرة ، يمكنه أن يكتسي ، بحسب الظروف ، بهذا اللون أو بذاك ، وبهذه الصفه أو بتلك .

ومن الواضح أن مفهوم الشجرة العام الذي يمثل كل الاشجار بدون تعيين ، إنما ينشأ ، مع ذلك ، عن إدراك هذه الشجرة وتلك ، أي عن إدراك أشجار معينة خاصة ، ولكنه لاينشأ كما تنشأ الصوره من الادراك ، بل ينشأ بعد جملة « تجريدات » يعري فيها العقل المدركات الحسية من جملة صفاتها الخاصة ، ويقتصر منها على الصفات ويمكننا الآن أن نسمي قدرة العقل على إهمال بعض الصفات ، والاحتفاظ بصفات أخرى ،باسم «التجريد» .

وعلى ذلك نعرف التجريد بأنه قدرة العقل على عزل صفة أو عدة صفات من الشيء المحسوس ، أو المدرك ، والنظر اليها وحدها دون غيرها .

واذا كان المشخص هو شيء تستطيع ادراكه ، فان المجرد هو كل شيء لاتستطيع هذه الحواس ادراكه كشيء مستقل ، اذ ان الشجرة – كمفهوم – لاترى في الواقع ، ولايجدها الانسان في اي مكان ، ولكن العقل يدركها بالاستعانة بما يراه من نوعها في الواقع

وربما زاد معنى « المجرد » على ماقدمنا ، لانه ليس من الضروري ان يكون للمعاني المجردة صور حسية في الواقع ، فالحكمة مثلاً والكرامة ، والطموح والنبل والعفة ، كل هذه مفاهيم مجردة ، ليس لها في الواقع أمثلة مشخصة ، واذا كان لمفهوم الشجرة ما يمثله في الواقع تمثيلاً قريباً او بعيداً ، فانه ليس للمفاهيم السابقة مايمثلها بهذا الشكل ، وكل مايمكن قوله ، هو أن في الواقع مناظر واعمالاً وحوادث توحي بهذه المفاهيم ولكنها لاتمثلها حقاً ، كما تمثل الشجرة مفهومها .

ولما كان الاطفال عاجزين عن فهم المجردات ، بحكم حاجتها الى عقل نام اومثقف فانه يحتم على المربين ان لايكلموهم بلغتها ، وان يخاطبوهم – اكثر مايخاطبون – بلغة المحسوسات التي يفهمونها .

١ – المدرك والمفهوم

ان المدرك – كما قدمنا من قبل – هو شيء من اشياء العالم الخارجي التي يمكن ادراكها بالحواس ، فهذه الطاولة مدرك ، وهذا الكتاب مدرك .

أما المفهوم فانه هذا المعنى القائم في الذهن ، والذي يمثل طائفة او نوعاً او جنساً من الاشياء . فالطاولة ، والكتاب ، كلمتان كل منهاتدل على طائفة من الاشياء ، متشابهة في صفاتها العامة ، والحق ان كلمه الكتاب مثلاً ، لاتدل على هذا الكتاب الذي استمد موضوعي الآن منه ، فحسب ، بل تدل على كل كتاب يمكن ان اجده في هذا العالم ، وهذا يدل على ان المدرك شيء مفرد ، اما المفهوم فمعنى عام .

ثم ان المدرك نتيجة طبيعية لحادثة الادراك ، فمتى تفتحت حواسي ، أدركت بها مباشرة هذا الكرسي وهذه الطاولة ، ولكن الحصول على المفهوم امر يتطلب مستوى آخر من نمو الحياة النفسية ، وطوراً اسمى من اطوار العقل . وعلى هذا نرى ان الحيوانات

عاجزة بالجملة عن انشاء المفاهيم ، في حين انها قادرة على تصور المدركات . واذا امكن التسليم جدلاً بانها قادرة على انشاء مقابل للمفاهيم الحسية ، فانها على كل حال عاجزة عن انشاء المفاهيم العقلية ، وهل يستطيع الحيوان ان يؤلف معنى التابع والخط البياني ومفهوم الحكمة والمثالية ؟

ويمكننا أن نبحث عن المفاهيم من ناحية شمولها وتضمنها على ماهو مألوف في المنطق ، فنقول إن للمفهوم شمولاً هو عدد الافراد التي يدل عليها . وتضمناً هو عدد الصفات التي يتألف منها ، فكلمة المعدن مفهوم يشمل كل انواع المعادن ، ولكنه لايتضمن إلا فكرتي البريق ونقل الحرارة والكهرباء . ولهذا يرون أن الصلة بين الشمول والتضمن إنما هي نسبة عكسية ، فاذا ازاد الشمول قل التضمن والعكس بالعكس (١) . غير أن الفيلسوف (غوبلو) يلاحظ وجود نسبة طردية ، لاعكسية ، لأن قوة الشمول في رأيه ، تحمل جملة كبيرة من إمكانيات التضمن . فاذا قلنا : كلمة المعدن ، فنحن ، في الواقع ، نشير بها إلى طائفة من الاشياء تتصف بما قدمناه من البريق والناقلية للحرارة والكهرباء . ولانشير بها إلى أي معدن خاص ، أي لا إلى الحديد مثلاً ، ولا إلى النحاس . إلا أننا في الحقيقة نلاحظ في مفهوم المعدن إمكان تحققه في الحديد او في النحاس ، أو في معدن آخر معروف ، أو في معادن أخرى غير معروفة ، أوغير موجودة . وهكذا يتناسب الشمول والتضمن تناسباً طردياً ، من حيث الامكان لامن حيث الواقع ، أومن الوجهة النفسية لامن الوجهة المنطقية .

أما المدرك فلا يمكن أن يبحث عن شموله ، لانه مفرد دوماً . فالكتاب الذي اقرؤه شيء مفرد ، والطاولة التي أراها واكتب عليها شيء مفرد أيضاً . ولكن يمكن البحث عن تضمنه ، وهذا التضمن واسع أولا متناه ، لان الاشياء المفردة ، في الواقع ، عديدة الصفات ، وأنى لنا أن نحصي صفات شخص نراه ، أوغرفة نقيم فيها ؟

ومع ذلك كله فان بين المدرك والمفهوم صلات أكيدة ، لان المدرك هو الاساس المادي للمفهوم . وهذا يشتق منه وينشأ عنه . ولاقيمة لمفهوم يتعالى على التجربة ، وينفصل عنها ، ولايمكن رده إليها .

---

(١) راجع كتابنا : الوسيط في المنطق ، الطبعة الثانية ،

ب - الفرق بين الصورة والمفهوم

يمكننا الآن أن نقابل بين الصورة والمفهوم ، على سبيل التمييز بينهما ، وإيضاح صفات كل منهما .

١ - فأول مايقال في هذه المقابلة ، هو أن المفهوم تمثيل عقلي للشيء ، أما الصورة فهي تمثيل حسي له ، فمفهوم الحصان أو الخروف يمثل الحصان أو الخروف تمثيلاً عقلياً ، بمعنى أننا قادرون على فهم المعنى المقصود من هاتين الكلمتين عند الحديث عنهما . أما صورة الحصان أو الخروف ، فهي تمثل هذين الحيوانين تمثيلاً حسياً ، بمعنى أن الخيال قادر على إحياء صورة هذين الحيوانين .

٢ - ثم إن المفهوم عام ، أما الصورة فخاصة ، بمعنى أن للمفهوم شمولاً كبيراً يمتد حتى يحيط بالنوع أو بالجنس الذي نخصه بالذكر ، فمفهوم الحصان لايعني هذا الحصان او ذاك ، بل يحيط بكل ماوجد أو يوجد أو سيوجد من الأحصنة في هذا العالم . ومفهوم الانسان ، لايعني السوري وحده ، ولا المصري وحده ، وإنما يعني كل إنسان موجود . أما الصورة فجزئية لانها تمثل شيئاً معيناً بالذات ، فصورة الحصان مثلاً تمثل هذا الحصان أو ذاك ، بلونه وشكله الخاصين وبجميع صفاته الاخرى المعروفة له .

وآخر مايمكن قوله هو أن المفهوم «معنى مجرد» ، أما الصورة «فمشخصة» ومعنى ذلك أن المفهوم يقتصر على بعض صفات الكائنات التي يمثلها ، وهي الصفات العامة المشتركة بين سائر أفراد النوع ، مثل الحيوانية والنطق ، للانسان ، ومثل اللبونة والفقرات والظلف للغنم أو أشباهها ، ومثل البريق ونقل الحرارة والكهرباء للمعادن . أما الصورة فانها تحتفظ بكل صفات الشيء الذي تمثله ، كاللون والشكل والمنظر الخاص ، وغير ذلك .

٢ - كيفية تكون المعاني العامة والمجردة

آ - **وضع المسألة** : لنلاحظ أنه لايوجد في الحقيقة إلا كائنات فردية ، أو اشياء خاصة ، إذ لايوجد إلا هذه الطاولة او تلك ، وهذا الكتاب أو ذاك ، فمن أين إذن يكتسب العقل هذه المفاهيم العامة ، التي هي الطاولة مثلاً أو الكتاب ، والتي يكفي مجرد

ذكرها للتفكير بها بصورة عامة ، دون الحاجة إلى تعيين فرد منها ، بصورة خاصة ؟

ب — **الحلول** : إن الفلاسفة العقليين ، مثل إفلاطون وديكارت وكانت يذهبون إلى ان إنشاء هذه المفاهيم خاصة اساسية من خواص العقل ، وأن ليس للتجربة ، وعمل الحواس ، أي قيمة في هذا الموضوع ، لان من المفاهيم ماهو سابق للتجربة الحسية . ويرى أتباع هذا الرأي أن المفاهيم الرياضية مثلاً ، كالدائره ، والمثلث ، والخط المستقيم والنقطة الهندسية ، كلها من ابداع العقل ، وليس للتجربة قيمة في إنشاء وجودها .

أما الفلاسفة التجريبيون مثل لوك وكوندياك وهيوم وستوارت ميل ، وتين ، وسبنسر ، فانهم يرون أن هذه المفاهيم من عمل التجربة الحسية ، فالمثلث العقلي ينشأ عن المثلث الحسي ، والدائرة العقلية تنشأ من الدوائر الحسية ، فالمفاهيم إذن ليست إلا إحساسات معينة اكتسبها العقل من التجربة ، والعقل أخيراً ليس إلا صفحة بيضاء تسجل صور التجربة . إلا أن من المهم أن نقصر اسم التجريد على « التجريدالعقلي » الذي يفصل عقلياً ماليس مفصولاً في الادراك .

وهنالك طائفة من الفلاسفة تجمع بين هاتين النظرتين وتؤلف بينهما ، لانها ترى ان المفاهيم تحتاج الى عمل العقل والتجربة معاً ، فالتجربة ضرورية ولكنها ليست كافية لانشاء المفاهيم ، والعقل هو الذي يكمل اثر التجربة لانه قادر على انتزاع العام من الجزئي ، اي على انتزاع مفهوم «الشجرة» العام مما تعرضه التجربة من «أشجار» جزئية خاصة .

والحق ان العمل الاساسي الذي يحتاج اليه إنشاء المفاهيم إنما هو تجريد المدركات الجزئية ، من صفاتها الثانوية ، والنظر الى الصفات العامة المشتركة بينها وحدها ، ورؤية سائر المدركات الجزئية من خلال هذه الصفات العامة ، فأما عزل الصفات الثانوية عن الصفات العامة ، فنسميه بالتجريد ، وأما النظر إلى المدركات الجزئية من خلال هذه الصفات العامة ، فنسميه بالتعميم ، وهذا كله يعني اننا نصل الى انشاء المفاهيم العامة ، عن طريق التجريد والتعميم ، ولنبحث الآن عن كل منهما .

١ — **التجريد** : التجريد هو قدرة العقل على فصل ماليس مفصولا في الواقع ، والنظر اليه وحده . مثال ذلك ان ننظر الى لون الطاولة دون شكلها ، أو الى شكلها دون لونها .

ويجب الحذر من الخلط بين التجريد وبين عمليات عقلية اخرى مشابهة له قليلاً او

كثيراً ، مثل التقسيم الذي يفصل الاشياء الى اجزاء متجانسة ، او التحليل الذي يرجع المركبات الى عناصرها ، ذلك ان التجريد كما بينا في المنطق يكتفي بفصل عنصر من الكل ، او هو تحليل جزئي .

وللتجريد انواع ، منها الحسي الذي يتجلى في قدرة الحواس على فصل مدركاتها الخاصة ، من شيء يوضع أمامها ، فالعين تفصل لون الشيء وشكله ، والانف يفصل رائحته ، والفم يجرد طعمه ، ومنها الاصطفائي الذي يتجلى في انتخاب بعض الاشياء التي تهم الانسان ، وادراكها وحدها دون غيرها ، مع وجود اشياء كثيرة اخرى في ساحة الادراك ، مثال ذلك ان لانرى في واجهات المكاتب الا الكتب التي تهمنا دراستها ، اوان لايرى الخياط من المارة الاثيابهم ، والمزين الا شعورهم وذقونهم . ويمكننا ان نلاحظ جملة درجات وعدة اشكال للتجريد العقلي :

أ — ونلاحظ في العلوم ، ان الرياضيات — وهي علوم مجردة — تحتوي على علم خاص ، هو الهندسه وهو احد فروعها .

يقول الفلاسفة : ان الهندسة علم مشخص بالنسبة الى العلوم الرياضية الاخرى (كالحساب او الجبر) . ولكن الهندسة ، مع ذلك ، أكثر تجريداً من علم الطبيعة ، وعلم الطبيعة أكثر تجريداً من علم المعادن .

ب — ونلاحظ في المفاهيم ، ان منها مايدل على شيء دون صفاته : فنحن نتكلم مثلاً عن الشجرة ، بصورة مستقلة عن طولها وعمرها ونوعها ، ونحصل بذلك على «مفاهيم الماهية (١) ومنها مايدل على صفة مستقلة عن الشيء الموصوف بها ، كالصفات الفردية [بياض الجدار] أو الصفات النوعية [البياض] ، أو صفات الجنس [اللون] وبهذا نحصل على مفاهيم الاعراض . ثم ان العقل يستطيع أن يلاحظ نسبة شيئين الى بعضهما بغض النظر عن ماهية هذين الشيئين (كالتشابه ، أو البعد او التتابع) وهذا النوع من التجريد ينشيء مفاهيم النسبة أو العلاقة ، كمفهوم الضرورة أو التقيد أو الحرية .

٢ — **التعميم** : إن التعميم هو انتقال الذهن من الحالات الخاصة الى المفهوم العام ولكن يجب التمييز بين نوعين من التعميم ، اولهما التعميم العلمي او الاستقراء الذي

---

(١) ماهية الشيء هي مادته الاساسية ، او صفاته الرئيسية ، ومفاهيم الماهية هي التي تقتصر على تجريد هذه المادة الاساسية ، او هذه الصفات الرئيسية وتغفل الصفات الثانوية أو العرضية .

يعمم على طائفة من الحوادث ، مالاحظه في بعض منها ، كأن نقول مثلا ان المعادن كلها تنقل الحرارة والكهرباء ، بعد أن نلاحظ صحة ذلك في بعض المعادن . والثاني هو التعميم المجرد ، الذي يجمع تحت فكرة واحدة ، صفة او جملة صفات مشتركة بين جملة اشياء خاصة ، وهكذا نقول عن الكلب والقطة والسمكة والطير ، إنها « ذات فقرات » لانها جميعاً تشترك بهذه الصفة ، وهذا النوع من التعميم هو موضوع الكلام في بحثنا هذا .

ويحب الفيلسوف (بيير جانه) أن يلاحظ نوعاً من التشابه بين المعنى العام الذي ندل به على طائفة كبيرة العدد من الاشياء وبين السلة التي تسمح لنا بان نحمل عدداً من التفاحات لم نكن نستطيع حمله بايدينا وحدها . فاكتشاف السلة ، او المفاهيم العامة يمكن ان يعتبر نقطة التحول التي فصلت الانسان عن الحيوان .

ويقول (بيير جانه) في كتابة : التطور النفسي للشخصية : ان جماعة من الناس دربت كلباً ، بسهولة ، على ارجاع طابة يرمونها امامه ، وقد احب هذا التدريب فتعلمه جيداً واصبح يقوم به احسن القيام . . . ولكن لنجرب معه هذه التجربة الفطيعة : ولنرم امامه عشر طابات بدلاً من طابة واحدة فسنرى انه يداهمه الاضطراب ويتحير في معرفة مايطلب منه ، فهو يأخذ طابة ويمشي خطوتين ، ويرميها ، ثم يأخذ طابة اخرى وثالثة الى مالانهاية ، وينتهي اخيراً بالضجر من هذا التدريب الذي لايحسن هضمه ويترك الطابات لايرجع منها شيئاً .

والاطفال الصغار يشبهون في السلوك هذا الكلب ، فهم لايحسنون حمل عدة اشياء يرونها أمامهم : وقد يجربون ان يجمعوها في ايديهم ، او على صدورهم ، فاذا سقطت الاشياء منهم فلتسقط ، فهم لايعرفون كيف يعيدون جمعها ، واذا قدمت لهم سلة ، فانهم لايعرفون استخدامها في حاجتهم ، ولقد احتاج البشر الى زمن طويل ، حتى جاء من الرجال البدائيين العباقرة ، من استطاع اختراع مثل هذه الاختراعات الهائلة ، كالنار ، وتدرجوا منها الى اختراع السلة .

٣ — **علاقة التجريد بالتعميم** : لايمكن الفصل بين التجريد والتعميم الا لضرورات الدراسة والتحليل ، اما في الواقع فاننا نرى هاتين العمليتين ممتزجتين ، او مختلطتين تقريباً

أ — لاشك انه يمكن ، من الوجهة النظرية ، تصور تجريد بدون تعميم ، إلا انه لا

يمكن تصور التعميم بدون تجريد سابق. وهكذا يمكنني ان اجرد بياض هذه الورقة ، او هذا البياض ، لا البياض بصورة عامة (وهذا تجريد بدون تعميم) الا انه لا يمكنني ان اتصور البياض بصورة عامة ، قبل تجريد بياض بعض الاشياء البيضاء .

ب) أما من الوجهة العملية ، فانه لايمكن تجريد صفة من شيء إلا بعد ملاحظة عدة أشياء لاتملك هذه الصفة ، اي بعد الملاحظة العام في الخاص . ومثل ذلك ما يلاحظه ويليم جيمس في الاشياء الباردة الرطبة، فلو ان كل الاشياء الباردة كانت رطبة،لما تسنى لنافصل مفهوم البرودة عن مفهوم الرطوبة ، ولكن لما كنا نلاحظ الرطوبة في اشياء ساخنة او حارة ، ونلاحظ البرودة في اشياء جافة ، فانه أمكننا فصل هذين المفهومين عن بعضهما .

ج) ولهذا نرى أن المفهوم ، من الوجهة النفسية ، ينشأ عن الحكم ، فلو لم يلاحظ الطفل أن للجدار والورق والثلج صفة عامة واحدة ، لما امكنه ان ينشيء مفهوم البياض.

٣ — درجات التجريد والتعميم

إن التجريد والتعميم درجات ومراتب مختلفة ، بعضها دنيء وبعضها عال ... وكأنها مستويات مختلفة العلو والترتيب . مثال ذلك قولنا : الوليد بن عبد الملك — خليفة المسلمين — ملك — رئيس دولة . أو : اسود الحبشة —أسود — الهررة —ذوات الاسنان والمخالب — اللاحمة .

ونلاحظ أننا في كل مرتبة من هذه المراتب نجرد بعض العناصر ، ونترك الاخرى ، فنحن نترك كل ما يميز الوليد من صفات ، ونأخذ منها صفته كخليفة للمسلمين أولا ، ثم صفة الخلافة الاسلامية وحدها ، ونأخذ منها صفة الخلافة المجردة ، أو الملكية في الاسلام وغيره ، ثانياً ، ثم نجرد من هذه الملكية صفاتها الخاصه كملكية ونأخذ منها صفة رئاسة الدولة ، التي توحد بينها وبين رئاسة الجمهورية ، ودكتاتور الحكومات الجماعية. . . الخ .

ولا شك أن العقل يرتقي من مرتبة من هذه المراتب ، إلى مراتب أعلى منها ، بحسب حاجاته ووجهات نظره . إلا أن الاطفال غير قادرين على بلوغها جميعاً ، أو على الارتقاء من المراتب الدنيا إلى المراتب العليا فيها . وذلك يعني أن للنمو العقلي أثراً كبيراً في القدرة على التجريد والتعميم .

ويمكننا أن نفصل بين ثلاث درجات مختلفة التجريد .

١ — الاولى منها تجريد شيء **معين** ، داخل ساحة الادراك الكبيرة . ومن المعلوم أن الطفل لايرى الاشياء مستقلة بعضها عن بعض ، كما نراها نحن بعد تجربة وثقافة طويلتين ، بل يرى كل ما يبدو له في العالم الخارجي كتلة واحدة مختلطة الاشكال والالوان والاصوات والروائح . فاذا ماوصل إلى التمييز بين الاشياء ، وفصل بعضها عن بعض ، فقد جرد الاجزاء من الكل ، وهذا ما سميناه من قبل بادراك الاشياء وهذا تجريد يقابل حاجات العمل .

٢ — وفي المرحلة الثانية ، نلاحظ **تجريد الانواع او الاجناس** وتبدأ هذه المرحلة عندما يستطيع الطفل ملاحظة التشابه بين الاشياء المتشابهة ، او عندما يعين اسم شي يراه من جديد ، على ضوء تجاربه السابقة ، وهذا تجريد يقابل حاجات اللغة . ولا شك ان في هذه المرحلة مستويات كثيرة : بعضها أعلى من بعض ، ولا يمكن ان نقول إنها ننتهي في زمن معين ، لان العمر ينتهي قبل ان ينتهي تصنيف الاشياء .

٣ — والمرحلة الثالثة ، او المستوى الثالث على الاصح ، هو **التجريد العلمي** الذي يقوم على تحليل الاشياء ، واكتشاف التجانس العميق بين انواعها ، ورد كثرتها إلى وحدة أعمق من المظاهر السطحية . فاذا فرضنا مثلاً إننا عرفنا المعدن بقولنا إنه كل ما ينقل الحرارة والكهرباء ، ويتصف بالبريق ، فاننا نكون هنا قد انتهينا الى تجريد من نوع لايصل اليه التجريد العلمي ، وهذا تجريد يقابل حاجات العلم والنظر .

ولنلاحظ أن في كل درجة من هذه الدرجات طائفة من التجريدات ينضم بعضها إلى بعض ، أو ينفصل بعضها عن بعض ، فتجريد الاشياء داخل المكان ، يحتاج أول كل شيء ، إلى تجريد بعض صفات مشتركة مجتمعة بعضها الى بعض ، في موضوع معين ، لا يشترك غيره معه فيها جميعاً ، او لايشترك معه في اكثرها ، ويعني ذلك أن تجريد مجموعة مبهمة قليلاً او كثيراً ، أو واضحة قليلا او كثيراً ، كان امراً لابد منه في فصل شيء من الاشياء داخل ساحة الادراك ، فادراك البرتقالة مثلا يقتضي تجريد البرتقالة مما حولها ، وفصل لونها وشكلها الخاصين عن الوان والاشكال القريبة كالليمون او التفاح او غيرهما ، والامر على مثل ذلك في المراحل الاخرى .

ويظهر لنا مما تقدم ان مراحل التجريد ودرجاته متصلة أوثق الاتصال بدرجة النمو النفسي والتطور العقلي ، فاذا كنا في المرحلة الاولى ، مرحلة تجريد الاشياء كانت

البواعث الحيوية هي العامل الاول في التجريد : فالطفل بحاجة الى الطعام قبل كل شيء، وهو يلتمس في الوسط الذي يعيش فيه ارواء هذه الحاجة ، ولذلك تراه ينظر الى كل الاشياء من خلال هذه الحاجة ، ويراها جميعاً صالحة لارواءها : فالخبز والفحم والقماش والملعقة كل هذه تدخل إلى فمه كأنها طعام ، لذلك كان التجريد ، في هذه المرحلة ، مقيداً بالحاجة : ينمو بنموها ، ويتعقد بتعقيدها ، ويتسع باتساعها . ففي البدء كان كل شيء طعاماً ، ولكن بعد حين قليل يصبح كل شيء « حاجة لعب او إرواء حركة ، او تطمين إحساس » وهكذا يقوم كل تجريد خارجي على اساس حاجة داخلية يستجيب لها ويوازيها .

اما في المرحلة الثانية ، فان العامل الاول في التجريد ، إنما هو الكلمات ، والكلمات لغة اجتماعية يتفاهم بها الناس ، وينقل بعضهم الى بعض افكارهم بواسطتها ، وكل كلمة تقابل شيئاً يجب فصله عن غيره ، وكلما تعلم الطفل كلمة ، تعلم معها فصل طائفة من الاشياء التي تطلق عليها ، ومن الواضح أن هذا الفصل يتم شيئاً فشيئاً ، وينتي الى تصنيف الاشياء بحسب مسمياتها .

وفي المرحلة الاخيرة — في مرحلة التجريد العلمي — يكون العامل الاول في التجريد ، هو هذه الفعالية العقلية التي تعرف التحليل والتركيب . ولا شك ان المفهوم لا يكون واضحاً وبيناً ، إلا إذا استطعنا تعريفه ، والتعريف لا يقوم بغير جهد التحليل والتركيب .

٤ — عمل الالفاظ في تثبيت نتائج هذه العمليات الذهنية

للالفاظ اثر كبير في إنشاء المفاهيم وتجريدها ، ويتجلى لنا هذا الاثر في ظروف عديدة ، نستعرض الآن بعضها .

لاشك ان الحاجة الحيوية هي التي تدفع الطفل إلى تجريد الاشياء المقابلة لحاجاته ، أو المطمئنة لرغباته ، ولذلك نراه ينظر إلى كل شيء ، في اول الامر ، بمنظار حاجة الطعام ، وبخال كل شيء طعاماً . إلا أن الطفل يعيش في العادة وبالضرورة في محيط اجتماعي هو على الاقل ، أفراد أسرته : أمه وأبوه وأخوته ، ومن هؤلاء يتعلم اسماء الاشياء التي تفصلها حواسه ، بل من هؤلاء يتعلم فصل مالم يكن مفصولا وتجريد مالم يكن مجرداً ، لان الوظيفة الطبيعية للاسرة ، مهما كانت صورها ، هي تعليم ابنائها معنى ما يحيط بهم من الاشياء ، فكلما مس الطفل شيئاً ، كان اهله تجاهه في موقف سلبي او إيجابي ، يعرونه به

او ينفرونه منه ، وفي كل الاحوال يسمونه له . وكلما تعلم الطفل اسماً جديداً تعلم معه فصل الذي يقابله. ومن النادر ان يتعلم الطفل اسماً مجرداً لم يقترن بالشيء الذي يدل عليه ، لان اسماء الاشياء لا تلفظ امامه، ولا تؤثر فيه، إلا إذا كان قريباً من هذه الاشياء ، او يحاول الاتصال بها .

ومن ناحية اخرى ، نلاحظ ان الاسماء ليست بعدد الاشياء . وكل طائفة من الاشياء المتشابهة ، يطلق عليها اسم واحد . فكلمة خروف مثلاً لا تعني هذا الخروف او ذاك ، ولكنها تعني نوعاً من الحيوانات ، معروفاً بصورة عامة ، بغض النظر عن الصفات الثانوية التي تميز خروفاً من آخر . وكلمة (حيوان) لاتعني هذا الخروف او هذا الحصان فحسب ، بل إنها تعني مجموعة كبيرة من الكائنات، يعرف الانسان، بوضوح او غموض، أن لها بعض الصفات : فكل ما احس وتحرك فهو حيوان ... وهكذا نتعلم ، مع اللغة، فصل الاشياء بعضها عن بعض ، وتصنيفها بحسب اسمائها ، ووضع بعضها فوق بعض في المرتبة والمستوي .

هذا في دوائر الاشياء التي تدركها حواسنا من خارج .

فاذا انتقلنا إلى دائرة المشاعر الداخلية ، وجدنا ان الصفة البارزة في هذه المشاعر ، هي التغير باستمرار ، والانتقال من حال إلى حال . وكثيراً ما اشار الباحثون إلى اثر الالفاظ في تثبيت هذه المشاعر وتجميدها ، فنحن مثلاً نسمي هذه العاطفة « قلقاً » او «حزناً» او «خوفاً» او «تعجباً» .. الخ. ونلاحظ ان الاسم او الكلمة مما يساعدنا على توضيح مشاعرنا ، للاخرين ، ولانفسنا . وكأننا نجهل مانشعر به قليلاً او كثيراً ، إن لم نسمه ونعبر عنه [بلوندل] .

ومن ناحية اخيرة ، نلاحظ ان حاجات العلم تضطرنا إلى ابتداع مفاهيم جديدة ليس لها في المعارف العامة مقابل واضح ، فنحن نفهم تماماً الآن معنى «شدة» التيار و«مقاومة» السلك ، والقوة المحركة الكهربائية ، كما نفهم معني «معامل التمدد» و «الحرارة النوعية» ، ولولا البحث العلمي لما اخترعت هذه المفاهيم . ولا كانت هنالك حاجة اليها . ولاشك ان مخترعي هذه المفاهيم لم يكونوا لاهين ولا عابثين باختراعها . ولكن الحاجة إلى تحليل الحوادث الكهربائية اولاً ، وحوادث التمدد ثانياً . هي التي اضطرتهم اضطراراً الى إنشائها . وكأن الكلمة رداء طبيعي للمفهوم ولايظهر المفهوم بدونها .

ولذلك لايكاد المفهوم يتجلى للعقل حتى نسارع إلى وضع كلمة مناسبة له ، تعيننا على

تثبيته ، واستدعاء جملة صوره وظروفه والاحوال المقاربة له .

وكثيراً ماتصطدم أعمال الترجمة أو التعريب بكلمات ليس لها مايقابلها في لغتنا ، فنقف عندئذ حائرين لانعرف كيف نعرب . وقد نضطر حينئذ إلى إستعمال جملة في مكان كلمة . إلا أن ذلك لايرضينا ، ونبقي أبداً في بحث عن الكلمة المناسبة ، حتى نوفق إليها .

والخلاصة إن الالفاظ تساعدنا مساعدة كبرى في تثبيت نتائج فعاليات التجريد والتعميم ، لانه متى قام في الذهن معنى من المعاني ، اشتدت الحاجة إلى كلمة نعبر عنه ، ولولا هذه الكلمة ، تثبته وتعينه لتبدد وتلاشى ، أو لغمض واضطرب ، ولنلاحظ أن التفكير الضمني الذي لايعبر عن نفسه بكلمات واضحة ، دون التفكير الكلامي المنظم ، في المراتب المنطقية .

وليس معنى ذلك أن الالفاظ متأخرة دوماً عن المعاني ، بل قد تسبقها وتساعد على تكوينها : فالطفل مثلاً يسمع الكلمه قبل أن يفهم معناها بوضوح (والرجل في بعض الاحيان كذلك) ، إلا إن هذه الكلمة تغريه بالبحث عن المعنى الذي يقابلها ، كما تغري الرجال بالبحث في القواميس .

٥ — خدمات اللغة والنطق في تقدم الفكر البشري

إن اللغة هي مجموعة الاساليب التي يستخدمها الانسان في التعبير عن المعاني المختلفة ، مشخصة كانت أو مجردة ، وقد تكون هذه الاساليب أصواتاً ،فتسمى اللغة «لغة صوتية». وقد تكون إشارات أو رموزاً كتابية ، فتكون اللغة «لغة بصرية » .

ولاشك أن اللغة الصوتية أعلى من غيرها من اللغات منزلة ، لانها ـ فيما يظهر ـ أقرب إلى الطبيعة البشرية ، وأقل حاجة إلى العناء والجهد (فالف كلمة مثلاً أهون من عمل بسيط) . وأحسن تلبية للحاجة ، لان الانسان يستطيع استعمالها في مختلف الظروف (في الليل والنهار مثلاً) .

إلا أن أكثر اللغات الشائعة تصور اصواتها برموز كتابية ، يمكن تسجيلها ، وهكذا ترى ان لكل لغة صورتين : واحدة صوتية يتلقاها السمع ، والاخرى بصرية ، تدركها العين .

واللغة ، على كل حال ، وسيلة كبرى من وسائل ارتقاء الفكر البشري . ولقدرأينا

انها تساعد على تثبيت المعاني في اطر الالفاظ والكلمات . ولنذكر الآن انها الوسيلة الطبيعية لانتقال الافكار من شخص الى شخص ، ومن مجتمع الى مجتمع ، ومن جيل الى جيل .

واذا كانت اللغة صوتية ، ساعدت على انتقال الافكار من جيل الى جيل عن طريق الكلام والحديث ، اما اذا كانت كتابية ، فانها تساعد على انتقال ثقافات الاجيال المختلفة ، والمجتمعات المتباينة ، الى بعضها البعض ، وهكذا نستطيع الآن ان نقرأ مؤلفات افلاطون وارسطو ، وكتب اقليدس وارخميدس ، بالرغم من مضي اربعة وعشرين قرناً على كتابتها . ولولا اللغة التي حفظتها لضاعت هذه المؤلفات كلها ، ولاضاعت البشرية معها انتاج اكبر العقول ، واعظم العبقريات البشرية . وبهذا تكون اللغة آلة حفظ للثقافة البشرية .

ولكن اللغة ليست آلة حفظ فحسب . بل هي ايضاً اداة هامة من أدوات تقدم الفكر البشري . فالاجيال الجديدة التي تقرأ — بفضل اللغة المكتوبة — ثقافة الاجيال القديمة ، ترى نفسها بالضرورة معفاة من العمل لاكتشافها من جديد . وهكذا يصح القول باننا نتعلم في سنين قلائل ، ما تعبت الاجيال قبلنا في سبيله قروناً كثيرة ، ثم يبقى لدينا متسع من العمر والنشاط لاضافة نتائج بحثنا ونشاطنا إلى الثروات العقلية والعلمية المتقدمة .

ثم إن اللغة التي دونت بها ثقافة الاجيال السابقة . لا تساعدنا على قراءتها والانتفاع بها فحسب ، بل تساعدنا على مقابلة مختلف أجزائها ، بعضها بعض ، ومناقشة ما أتى في بعضها على ضوء ما نراه في البعض الآخر ، وتكون بذلك سبباً لأمتع التمارين العقلية ، وأقوى الرياضات الذهنية . فكأن اللغة هي السبيل الوحيد للانتفاع بثقافة المتقدمين ، وبكل ما لهذه الثقافة من نتائج في تثقيف العقول ، وإغناء النفوس .

والخلاصة إن اللغة من اكبر الوسائل المساعدة على ترقية الفكر البشري لانها تستطيع ان تكون آلة التفاهم بين الاجيال القديمة والحديثة ، فتنقل إلى الحديثة نتائج تجارب الاجيال القديمة ، وجملة معارفها ، وتستطيع ان تحفظ ثقافة الاجيال الماضية ، وبذلك تريح الاجيال الجديدة من عناء البحث عما تعب فيه غيرها وتهيء لها شروط العمل في إنتاج جديد يتجاوز الثقافة القديمة ويغنيها ، ولعلنا نستطيع تشبيه الثقافة

العالمية بسلسلة طويلة ، يضع فيها كل جيل حلقة جديدة ، إلا أن هذه الحلقة لم تكن لتحتل مكانها ، لولا ما سبقها من حلقات .

٦ — الاخطار الفكرية للالفاظ

قلنا — فيما سبق — إن الفكرة المجردة تنشأ مبدئياً عن المدركات العادية المقابلة لها ، ففكرة الحصان تنشأ عن إدراكنا لحصان او لجملة أحصنة ، وفكرة الشجرة تنشأ عن إدراكنا لشجرة او لجملة اشجار ، وفكرة « القلق » تأتي عن شعورنا مرة او عدة مرات بهذه العاطفة النفسية المعقدة . ومعنى ذلك كله ان لكل فكرة ركازاً مادياً ، او قواماً واقعياً ، تنشأ منه وتستند اليه . ثم إن الكلمة التي نسمي بها هذه الفكرة ، ليست بشيء آخر غير الرداء اللفظي للفكرة ، ووظيفتها ان تعيد للذهن جملة الاحساسات او المشاعر التي قامت عليها الفكرة ، بفعل الاقتران . غير انه قد يحدث ان تنشأ الفكرة المجردة عن الكلمة مباشرة ، فنقرأ مثلاً في الكتب كلمة « العنقاء » او « يحرق الارم » او « الاثباج » ولا نحاول الوصول الى معانيها بصورة طبيعية . وهكذا تنشأ في اذهاننا معان غامضة لهذه الكلمات نستقيها من معاني الكلمات المجاورة . او نفهمها من سياق الكلام ، او مما يوحي به النص المقروء . ونتيجة ذلك ان ينفصل الرداء اللفظي عن المعنى المقابل له ، وان يستعمل الانسان الكلمات بدون ان يكون في ذهنه فكرة واضحة عن معناها .

ولكن المفهوم (او الفكرة) إن لم يقم على اساس الحدس بقي فارغاً ، كما يقول (كانت) وإذا أصبحت مادة التفكير من هذه المفاهيم الفارغة ، فمعنى ذلك ان هذه المادة قد تضاءلت او انعدمت ، وهكذا يقال إن التفكير اصبح كلامياً ، اي لا مادة له .

وقد يسمى هذا التفكير (ببغائياً) وذلك لان الببغاء تردد الكلمات ولكنها لا تفهم معانيها . وعلى هذا كله ، نقول أن لا قيمة لاي عمل فكري مادته هذه الكلمات الغامضة : ولذلك تحتم الوصل بين الكلمة والمعنى المقارن لها ، وبين هذا المعنى والركاز المادي او النفسي الذي يقوم عليه ، ويشتق منه ، وبتعبير آخر لابد من الوصل بين الحدس والفكرة .

ولهذا كله ينصح المربون بان لا نتكلم للاطفال عن اشياء لا يعرفونها ، او لا نضعها تحت سمعهم وبصرهم ، او بمتناول حواسهم ، إذ لقد ينشأ عن ذلك ملء اذهانهم وعقولهم بكلمات فارغة لا يفهمون معانيها ، ولهذا ايضاً يرى هؤلاء المربون ان تبدأ التربية ،

بالتربية الحسية ، واقامة التربية العقلية عليها .

وخلاصة ذلك كله ان سيطرة الالفاظ على العقول ، تحول دون التفكير الجدي الصحيح ، وتوقعنا في بلبلة المعاني المشوشة ، والفكر المضطربة ، وقد يؤدي ذلك إلى اضطراب العمل العقلي نفسه .

خلاصة عامة

لقد اشرنا — في الفصول الاولى من هذا الكتاب — إلى صعوبة استعمال الطريقة الداخلية ، او الاستبطان في علم النفس ، ونلاحظ الآن ، في دراسة التجريد والتعميم ، ان هذه الصعوبة تبدو واضحة وقوية . والحق أننا نحاول هنا دراسة عمل الفكر نفسه ، وكأن هذه الدراسة مخالفة لطبيعة الاشياء ، لان الفكر فيها يدرس نفسه ، ولايمكننا — كما يظهر — ان نعرف عن عمل تفكيرنا شيئاً واضحاً حقاً ، ومع ذلك فان هذا الفكر نفسه ، الغامض العمل من الوجهة العلمية ، هو الذي ينير كل غموض ويوضح كل مبهم ويفسر كل مجهول .

ويقول (سابيه Sapier) ان الفهم هو الرؤية الواضحة ، والاتفاق عام حول هذه النقطة ، إلا انه عام حول نقطة اخرى ، هي أن عمل الفكر يظهر كأنه عمل سريع جداً ، آني ، غير قابل للتحليل في اول وهلة ، فكأنه شيء لايدرك او كأنه لغز وكأنه كلمة واحدة ، أوسر مبهم بطبيعته ، وهكذا ترى الانسان العادي — طفلاً كان او رجلاً — يعلن انه فهم ، ولكنه مع ذلك يعجز عن ايضاح الصورة التي تم بها هذا الفهم . ثم ان الفنان والعالم لايستطيعان ان يكونا اقدر منه على وصف وتعريف وتعليل هذا الاشراق الذي يكثر كلامهم عنه .

ولهذا كله يفضل عالم النفس دراسة نتائج العمل الفكري ، بدلاً من دراسة الفكر بالذات ، ولهذا يتطلع الى المنطق او الى النمو . ولكنه بذلك يتحول عن الفكر الحقيقي هذا الفكر الذي يحاول الظهور فيتيه ويتلمس طريقه ويمشي بصعوبة موجهاً الى غايته بصورة لاشعورية ليصل اخيراً الى غايته المنشودة .

وليست المفاهيم التي حاولنا دراستها ، وكنفية وصولنا الى انشائها الا نتيجة عمل فكري ، صامت ، واضح في اقل الاحيان ، غامض في اكثرها . ولاشك ان على علم النفس ، في المستقبل ، ان يوضح مابقي من الغموض في هذا المجال وغيره .

الفصل الثامن عشر

المحاكمة

خلاصة البحث :

١ — تعريف المحاكمة

١ — انواع المحاكمة

أ — الاستنتاج
ب — الاستقراء
د — التمثيل
ج — منطق العواطف

٣ — المحاكمة وتداعي الافكار

٤ — تحليل المحاكمة من الوجهة النفسية

٥ — عوامل المحاكمة

أ — العوامل النفسية
ب — العوامل الاجتماعية
ج — العوامل النفسية

١ — تعريف المحاكمة

رأينا في بحث الاحساس ، أن الحواس تصلنا بالعالم ، وتطلعنا على مافيه من اشياء ، وما لهذه الاشياء من صفات . فبالاذن نسمع الاصوات ، وبالعين نرى الاشكال والالوان . . . الخ

ويمكننا ان نلاحظ الآن ، أن هذه المعارف الحسية ، معارف نحصل عليها مباشرة ، بمجرد عمل الحواس الطبيعي ، والحق اننا لا نكد الذهن ، ولا نتعب الفكر في سبيل معرفة الصوت الذي نسمعه ، واللون الذي نراه ، اما في المحاكمة فاننا نلاحظ امكان الحصول على معارف جديدة بالاستناد الى معارف قديمة ، وأننا في سبيل ذلك ، نكد الذهن ، ونتعب الفكر قليلا او كثيراً ، مثال ذلك ان نحكم على قرب نزول المطر ، بالاستناد الى مظاهر طبيعية مختلفة نعرف بالتجربة انها تسبق او توافق نزول المطر ، او ان نحكم على المريض بالسرطان انه ميت لامحالة ، بالاستناد الى الحوادث السابقة التي رأينا فيها اقتران هذا المرض والموت ، أو ان نحكم على قابلية معدن من المعادن لنقل الحرارة والكهرباء ، بالاستناد الى تعريف المعادن فكل هذه محاكمات ، تحصل فيها على معارف جديدة بالاستناد الى معارف قديمة .

ولهذا يمكننا تعريف المحاكمة مبدئياً ، بانها استخلاص العقل حكما من حكم ، او نتيجة من مقدمة او من بعض المقدمات .

٢ — انواع المحاكمة

ليست المحاكمة نوعاً واحدا ، ولا صورة واحدة ، بل هي جملة انواع ، منها الاستنتاج والاستقراء ، والتمثيل ، والمحاكمة العاطفية او ما يسمى بمنطق العواطف ولنقل كلمة عن كل نوع من هذه الانواع .

أ — الاستنتاج : هو استخلاص الاحكام الخاصة من الاحكام العامة ، او هو الانتقال من المبادىء الى النتائج ، مثال ذلك قولنا :

كل فاضل نزيه
زيد فاضل
إذن زيد نزيه

إن هذا النوع من الاستنتاج ، يسمى القياس . وهو يتألف من ثلاثة أحكام ، هما المقدمتان والنتيجة ، وفي هذه الاحكام ثلاثة حدود ، الاكبر (وهو هنا نزيه) والاوسط (وهو فاضل) . والاصغر (وهو زيد) . وهي تسمى كذلك تبعاً لدرجة شمولها (١) .

(١) راجع كتب المنطق في هذا الموضوع ، وخاصة كتابنا الوسيط في المنطق صفحة ٧٩ وما قبلها .

ولكن المحاكمة الاستنتاجية ليست القياس وحده ، بل هنالك نوع آخر يسمى الاستنتاج الانشائي او البنائي ، مثال ذلك جملة البراهين الرياضية ، وجملة احكام القضاة التي يصلون بها الى إتهام شخص معين بجريمة معينة .

ومن الممكن البحث عن الاستنتاج من الوجهة المنطقيه وبيان القواعد التي يصح الاستنتاج بمراعاتها ، وذكر اشكال القياس وضروبه . الا انه ليس علينا في علم النفس ان نبحث عن مثل هذه الاشياء .

والفرق بين القياس والاستنتاج الانشائي ، غير صغير ، لان الاول لايزيد على نقل الفكر من حكم عام الى حكم خاص ، فنقول مثلاً: زيد نزيه ، بعد ان نمهد لهذا القول بالمقدمة : كل فاضل نزيه . ومن الواضح ان زيداً واحد من الفضلاء . وهذا يعني أننا في القياس ، نضيق المقدمة العامة ونخصصها . أما في الاستنتاج الرياضي فان الفكر ينتقل من حكم او جملة احكام خاصة الى حكم عام . مثال ذلك انك تنتقل من الحكم بمساواة زوايا المثلث لقائمتين ، الى الحكم على مساواة زوايا اي مضلع من المضلعات : ٢ (ن-٢) قائمة ، باعتبار (ن) عدد الاضلاع .

ونلاحظ ايضاً ان القياس العادي لايبدع جديداً قط ، بل هو يضيق المعرفة بدلاً من ان يوسعها . اما الاستنتاج الانشائي ففي كل خطوة من خطواته شيء جديد يغني المعرفة ويوسعها . ولهذا يقال بان القياس صوري ، مفتقر للمعرفة عقيم بها ، اما الاستنتاج الانشائي، فمغن للمعرفة خصب بها. وذلك لانه يركب المقدمات ويؤلف بينها بدلاً من أن يحللها .

ومع ذلك كله فان الاستنتاج ، بصورتيه ، محاكمة تلزم فيها النتيجة عن المقدمات لزوماً منطقياً ضرورياً ، وهو الانتقال من المبادىء الى النتائج . غير ان القياس استنتاج صوري تحليلي . أما البرهان فهو استنتاج انشائي وتركيبي .

ب — **الاستقراء** :الاستقراء هو حكم على كلي لوجود ذلك الحكم في جزئيات ذلك الكلي ، او هو الانتقال من الجزئي الى الكلي . او من الحوادث الى القوانين . مثال ذلك ان نرى بعض المعادن تنقل الحرارة . وبعض الكواكب تدور حول الشمس ، فنقول تبعاً لذلك : كل المعادن تنقل الحرارة ، وكل الكواكب تدور حول الشمس .

ولنلاحظ ان نقطة الابتداء في هذه المحاكمة ، هي الحوادث المشخصة (معدن ينقل الحرارة ، أو كوكب يدور حول الشمس) ، أما نقطة الانتهاء فهي القوانين أو العلاقات

الثابتة التي تربط بين عناصر هذه الحوادث ، فعلاقة المعدن بالحرارة ، هي قدرته على نقلها وعلاقة الكواكب بالشمس هي الدوران حولها .

ولا شك أن في هذه المحاكمة نوعاً من التعميم ، لاننا نشاهد حوادث جزئية ، ونصل الى قوانين كلية ، على ان هذه القوانين لا تشمل الا الحوادث الاخرى الشبيهة بالحوادث التي لاحظناها . فأذا رأينا معدناً ينقل الحرارة ، قلنا كل المعادن تنقل الحرارة ، واذا رأينا معدناً يتمدد بالحرارة ، قلنا كل المعادن تتمدد بتأثير الحرارة .

وليس التعميم هنا مجرد تمدد الحكم من جانب واحد ، بل انه تمدد من جوانب مختلفة ،لاننا لا نعمم في دائرة الحوادث وحدها ، وانما نعمم في دائرة الزمان والمكان معاً ، وكأننا نرى ان ما لاحظناه في هنيهة ما من الزمان سيلاحظ في كل هنيهات الزمان ، وما لاحظناه في مكان ما سيلاحظ حتماً في كل مكان . ونحن نفعل ذلك تبعاً لمبدأ السببية او التقيد اللذين بحثنا عنهما في المنطق .

م — **التمثيل** : هو الانتقال من بعض المشابهات الملاحظة بين شيئين ، الى المشابهات الاخرى غير الملاحظة . مثال ذلك أن نحكم بضرورة وجود الحياة في المريخ (وهي صفة غير ملاحظة) بالاستناد إلى تشابه المريخ والارض بالجو النسيمي (وهذا هو الصفة الملاحظة) . او ان نحكم بضرورة وجود اضطراب عقلي في شخص نراه زائغ العينين ، بالاستناد إلى ملاحظتنا السابقة ، رجلاً اجتمعت فيه هاتان الصفتان ، او ان نحكم بتماثل شخصين في الطباع ، بالاستناد إلى تماثلهما في السمات .

ويسمى المثال المقيس عليه (الارض مثلا) اصلا ، والمثال المقيس (المريخ) فرعاً ، والصفة او الصفات التي هي اساس الحكم ، جامعاً ، فكأن العقل يدرك في هذه المحاكمة الصلة بين الصفة التي يقع فيها الاشتراك والصفة الاخرى ، فيميل الى تعميم هذه الصلة . ولذلك يحكم بوجود الصفة الثانية في كل شيء وجدت فيه هذه الصفة الاولى .

والاستدلال بالتمثيل لايفيد الا الظن او مجرد الاحتمال ، لان اشتراك مثالين في صفة أو عدة صفات ،لايفيد بالضرورة اشتراكهما في صفة أخرى ، فلقد يشبه المريخ الارض من كل الوجوه ، ولكن ذلك ليس بدليل على ان المريخ آهل بالسكان كالارض .

ويرى ريبو ان هذه المحاكمة هي آلة العقل الرئيسية عند الطفل والانسان الابتدائي ، كما يلاحظ (كرسون) انها تلعب دوراً عظيما في حياة الحيوانات العالية ، فكأنها الصورة

الاولى التي تتطور عنها صور المحاكمات الاخرى .

د - منطق العواطف : وهنالك صورة للمحاكمة تسمى منطق العواطف ، يتجه الانسان فيها الى تبرير نتيجة مقبولة سلفاً في نفسه : مثال ذلك روسو الذي يريدان يكون رجلا عسكريا مع كونه قصير البصر ، ومثله (جحا) الذي اراد الزواج بابنة الملك ، واعتقد بامكان هذا المشروع نظراً لموافقة ابيه وامه عليه ، (وهما نصف من يهمهم الامر ... الخ .) .

وفي هذا النوع من المحاكمات ، يمكننا ان نصنف محاكمات التبرير عند المحامين ومحاكمات التعزية وسفسطات حب الذات والمنفعة .

ومن مميزات هذه المحاكمات ، ان النتيجة فيها تسبق المقدمات ، والواقع ان صاحب الهوى يرى مبدئياً ان عاطفته مشروعة ، ثم يبدو له ان يبررها بما يمكن أن يجده من الاسباب .

قلنا ان العاطفة المقبولة في النفس هي التي تؤلف النتيجة في منطق العواطف ، اما المقدمات فتكون في اول الامر غامضة او مجهولة . الا ان الباعث العاطفي لايلبث أن يغتني بها . فاذا فرضنا ان الانسان يحب شيئاً من الاشياء تخيل بعد ذلك ان مايحبه يجب ان يملك جملة مميزات تجعله محبوبا ، لا بنظره فحسب ، بل بنظر الناس جميعاً . ومثل ذلك هذا التاعس البائس الذي لايرى سبباً لتعاسته ، وشقاوته ، وتراه مع ذلك ، يبحث عما يمكنه ان يكون سبباً في ذلك ، فينسب لنفسه أخيراً جملة جرائم خيالية يعتبرها ذلك السبب ، ومثل ذلك هذيان التعذيب ، الذي يصاب به بعض المرضى ، ويتلخص هذا الهذيان في جملة من القصص المؤلمة ينسجها المريض من خياله ، ويجعلها السبب فيما يشعر به من آلام داخلية . الخ .

والخلاصة ان منطق العواطف ليس الا عاطفة مقبولة في النفس ، يبحث صاحبها عن مبرراتها ، أي انه يجعلها كنتيجة ، يبحث عن مقدمات لها هي المبررات .

ومن كل ماتقدم ، يخلص لنا :

أ - ان ضروب المحاكمة كلها كلامية ، ومعنى ذلك انها تقتضي حركة فكرية وانتقالا من حكم الى آخر .

ب - وان بين الاحكام التي تشتمل عليها المحاكمة ارتباطاً يؤدي الى نتيجة ، وتعني

بالنتيجة قولا ينهي حركة الفكر ويبلغ به القصد .
وعلى هذا ، تكون المحاكمة ربط احكام مختلفة بعضها ببعض بحيث ينشأ عنها نتيجة .

٣ - المحاكمة وتداعي الافكار

١ - هل هنالك جملة انواع من المحاكمة حقا ؟

يميز المناطقة عادة بين نوعين من المعارف الكلامية (أي المعارف الناشئة عن المحاكمة) هما الاستقراء والاستنتاج . وقد رأينا انه يمكن البحث عن محاكمات من نوع آخر : مثل المحاكمة بالتمثيل ومنطق العواطف . واذا اعتبرنا الآن ان منطق العواطف ليس الا نوعا من الاستنتاج . المقلوب ، تتقدم فيه النتيجة على المقدمات ، فانه يبقى لدينا ثلاثة انواع من المحاكمات ، هي الاستقراء والاستنتاج والتمثيل .

والسؤال الذى نريد الاجابة عليه الآن ، هو ماذا كانت هذه الانواع الثلاثة مختلفة حقا ، او انها على العكس يمكن ارجاعها الى صورة واحدة او نوع واحد .

ولنبحث اولا في المحاكمة بالتمثيل ، ولنر بعد ذلك ماذا كان من الممكن ارجاع الاستنتاج الى الاستقراء .

أ - اما المحاكمة بالتمثيل ، فان الفلاسفة - رأوا فيها آراء متناقضة ، فلقد اراد بعضهم ارجاعها الى الاستنتاج او الاستقراء ، واراد بعض آخر ارجاع كل انواع المحاكمة اليها .

أما في الرأي الاول ، فاننا نجد ان المحاكمة التمثيلية ترجع الى استقراء متبوع باستنتاج ، والمحاكمة الآتية : الارض المحاطة بجو نسيمي معمورة بالاحياء .

اذن فالمريخ المحاط بجو نسيمي معمور بالاحياء، يمكن ارجاعها الى مايأتي :

١ - **الاستقراء** : الارض معمورة بالاحياء . ولكن الارض محاطة بجو نسيمي .

اذن فكل ماهو محاط بجو نسيمي معمور بالاحياء

٢ - **الاستنتاج** : كل ماهو محاط بجو نسيمي معمور بالاحياء . والمريخ محاط بجو نسيمي .

اذن : المريخ معمور بالاحياء

وهذا يعني ان المحاكمة بالتمثيل تتضمن محاكمتين ، اولاهما استقرائية والثانيـــة استنتاجية .

المناقشة : ليس من شك انه يمكن رد المحاكمة بالتمثيل ، من الوجهة المنطقية ، الى استقراء متبوع باستنتاج . اذ أن تبرير هذه المحاكمة ، على صورة منطقية ، لايكون الا بارجاعها الى الاستقراء او الى الاستنتاج . اما من الوجهة النفسية ،او من وجهة الواقع ، فان هذا الارجاع غير صحيح ، والواقع ان الفكر لا ينشيء المحاكمتين السابقتين ، في المحاكمة التمثيلية ، بل يستند الى رابطة معينة ،ينتهي منها الى النتيجة المطلوبة ، مثال ذلك اننا لانقول ،في المحاكمة السابقة :

الارض معمورة بالاحياء

اذن فالمريخ معمور بالاحياء

بل نقول :

الارض المحاطة بجو نسيمي معمورة بالاحياء

اذن فالمريخ المحاط بجو نسيمي معمور بالاحياء

ومعنى ذلك اننا بحكم الرابطة (بين الجو النسيمي – ووجود الاحياء) ننتقـل من الارض الى المريخ . وليس من شك بعد ذلك ان هذه الرابطة تنشأ عن تداعي الافكار او عن قانون الاقتران في التداعي .

٢ – هل يمكن ارجاع المحاكمة الى تداعي الافكار

يذهب ستوارت ميل والفلاسفة التجريبيون الى انه يمكن ارجاع كل انواع المحاكمة الى التمثيل : ورأيهم في ذلك اننا ننتقل في المحاكمـة ، دوما ، من جزئي الى جزئي ، كما هو الامر في المحاكمة بالتمثيل .

ويرى ستوارت ميل ان الاستقراء كالمحاكمه التمثيلية ، اذ هو يبقى في حدود الاحكام الجزئية . فاذا رأيت بعض الناس يموتون ، وخلصت من ذلك الى حكم عام هـو قولي :

كل انسان فأن . فمعنى ذلك انني أقول : كل من عرفت من الناس فان . لا كل انسان فان . اذ ان هنالك اشخاصاً مايزالون احياء ولا استطيع ،منطقيا، ان اعمم عليهم حكما، لم يتحقق فيهم بعد . وكذلك الاستنتاج ، فما دامت الاحكام العامة غير موجودة ، أو مادامت هذه الاحكام العامة جزئية في جوهرها ودلالتها ، فمعنى ذلك ان الاستنتاج ليس إلا انتقالا من الجزئي الى الجزئي ، فاذا قلت :

كل انسان فان
خالد انسان
خالد فان

فمعنى ذلك انني اقول : كل من عرفت من الناس فان .
وخالد انسان كالذين عرفتهم
واذن فخالد فان ، مثل اشباهه

وهذا يدل على ان التشابه بين خالد وغيره من الناس هو الذي يجعلني احكم عليه بالفناء ، كما حكمت على اشباهه وكل ذلك بفعل التداعي . والواقع انه لايمكن الانتقال من حكم عام الى حكم خاص الا بارتكاب خطأ منطقي ، واذا أردنا ايضاح هذا الخطأ في القياس السابق . كل انسان فان ، خالد انسان... خالد فان ، قلنا انه لايمكن الحكم بان كل انسان فان ، الا اذا كنت اعرف من قبل ان خالداً فان ايضاً ، ومعنى ذلك ان على المقدمة الكبرى الكلية ان تستند الى النتيجة اي ان تستند الى الشيء الذي تريد البرهان عليه ، وهذا هو الخطا المنطقي الذي اشرنا اليه ، اذ لايصح قطعا في المنطق ، ان نحاول البرهان على قضية ، ثم نستند اليها خلال البرهان ، فبقي اذن ان يكون الانتقال في الاستنتاج ، من حكم جزئي الى حكم جزئي آخر ، بحكم التمثيل او المشابهة ، كما بينا من قبل .

المناقشة : لاشك ان الانسان يفكر بالتمثيل او بالتداعي اكثر ما يفكر . وليس للمحاكمة التي تأتي متأخرة إلا ان تراقب عمل التفكير ، ولكن إلى جانب التفكير بالتمثيل ، تفكيراً عقلياً ، يعتمد على مقدمات عامة ، وليست هذه المقدمات — كما يرى ستوارت ميل — مجرد تلخيصات للتجربة ، بل هي تتجاوز هذه التجربة لان الفكر قادر على التعميم .

ومن طبعه التعميم . وانه ليكفي ان نرى بعض الناس يموتون حتى يحكم العقل ان من صفات الحياة الاساسية الانتهاء إلى الموت .

ولهذا نرى ان المحاكمة بالتمثيل هي نوع من انواع التفكير لا نوع من انواع المحاكمة، وأن المحاكمة لايمكن ردها أو إرجاعها الى تداعي الافكار ، وقد رأينا من قبل أن التداعي لا يكفي لتعليل الحكم ، فكيف يكفي اذن لتعليل المحاكمة ، وهي جملة احكام مترابطة .

ولو صح اخيراً ان انواع المحاكمة ، المختلفة، بمكنة الارجاع إلى المحاكمة التمثيلية لما صح إرجاع المحاكمة جملة الى تداعي الافكار ، لان التداعي لا يزيد على إعادة الماضي وتكراره ، اما في المحاكمة التمثيلية فاننا نلاحظ حكماً على المستقبل بالاستناد الى الماضي، وهذا هو وجه الاختلاف ما بين التداعي والمحاكمة .

٤ — تحليل المحاكمة من الوجهة النفسية

وما دامت نظرية التداعيين عاجزة عن تعليل المحاكمة ، وعن اكتشاف العنصر المشترك بين جملة أنواعها ، على نحو ما رأينا من قبل ،فلنجرب إذن ان نحلل أنواع المحاكمة، تحليلاً نفسياً خالصاً ، لعلنا نستطيع ان نجد هذا العنصر المشترك بينها ، ولا شك ان علينا الآن ان نبحث في المحاكمة ، في صورها المختلفة : المتواضعة والعالية على السواء ، لا في المحاكمة التي اكتملت ، وأصبحت مستوفية الشروط المنطقية .

أ — تحليل الاستنتاج

١ — إن الاستنتاج — كما رأينا — قياس وبرهان ، والقياس هو المحاكمة التي تعتمد على مقدمتين ، كبرى وصغرى ، نخلص منهما إلى النتيجة ، مثل قولنا :

كل كائن حي ينمو
الجراثيم كائنات حية
∴ فالجراثيم تنمو

ونلاحظ هنا ان الحد الاوسط (أي كائن حي) هو سبيلنا الى الانتقال من المقدمات إلى النتيجة، او هوصلة الوصل بين الحدين الاصغر والاكبر ، أي بين الجراثيم والنمو،ولا

شك أن هذه المحاكمة لم تكن بضرورية لولا سؤال يطرح عن نمو الجراثيم او عدم نموها . وأمام هذا السؤال، لا بد لنا من الرجوع إلى احكام عامة ينطوي تحتها الحكم على الجراثيم. ومعنى ذلك أننا نضع نتيجة القياس قبل ان نعرف مقدماته ، إلا أننا لانضعه على صورة حقيقية مقررة نهائياً ، بل على صورة سؤال يصح الجواب عليه بالايجاب او بالسلب . وعندئذ نحلل موضوع السؤال ، او نحاول ان نجد رابطة بين الحد الاصغر والحد الاكبر. وهكذا نبدأ بتحليل الحد الاصغر فيتجلى لنا في مضمونه عدة صفات ، منها : ان الجراثيم كائنات حية ، وإن الكائنات الحية تنمو .. الخ . وعلى ذلك نقول إن العمل الاساسي في القياس إنما هو اكتشاف الحد الاوسط ، هذا الحد الذي يشمل الحد الاصغر ، كما يشمله الحد الاكبر ، أو الذي يتصل بالحدين الاصغر والاكبر بحكم وحدة التضمن .

ومن ذلك كله يبدو لنا أن النتيجة في القياس سابقة للمقدمات ، وأن عمل الفكر فيه ، إنما هو الكشف عن حد اوسط يستطيع أن يؤكد العلاقة التي وضعتها النتيجة على صورة الاستفهام وإنه لايمكن اكتشاف الحد الاوسط إلا بعملية تحليل لتضمن الحد الاصغر . فكأن جوهر القياس إنما هو التحليل الذي يهدف إلى التأليف بين حدين او تركيبهما . إن القياس تحليل بقصد التركيب .

٢ ـ **البرهان** : البرهان كما رأينا هو المحاكمة المتعددة المقدمات التي نرى البراهين الرياضية أوضح مثال لها . ونلاحظ أن سير المحاكمة في البرهان يشبه سيرها في القياس، لأن العمل الذهني واحد تقريباً في الحالين .

ومثالنا على ذلك البرهان على أن مساحة المعين تساوي جداء القطرين ، فنحن نصل الى هذا البرهان بمجرد ملاحظة انقسام المعين إلى مثلثين متساويين بقاعدة مشتركة ، ويمكننا القول بان مفهوم المثلث هنا هو الحد المتوسط الذى تظهر لنا الروابط الجديدة بواسطته كأنها نتائج ضرورية للحقائق المعروفة . ومعنى ذلك ان برهاننا على مساحة المعين قد اصبح سهلاً جداً عندما اكتشفنا أنها مساحة مثلثين متساويين .

ولنلاحظ ، مرة أخرى ، ان المحاكمة ليست هي التي توصلنا إلى تقرير الحقيقة ، بل الحدس هو الذي يتكلف ذلك ، أو هو الذي يكشف عن الحقيقة ، أما المحاكمة فهي التي تضع الحدود الصالحة للبرهان .

وكل ما هنالك من فرق بين القياس والبرهان هو ان الحد المتوسط ينكشف بالتحليل

المباشر في القياس ، أي بتحليل تضمن الحد الاصغر ، أما في البرهان فان الحدالمتوسط أو الحدود المتوسطة لا تكتشف الا برد المعقد إلى البسيط ، أي باكتشاف مفهوم المثلث في مفهوم المعين ، في مثالنا السابق ، ولا شك ان المثلث هو المفهوم البسيط الذي رد اليه مفهوم المعين المعقد .

ثم ان الحد المتوسط في البرهان لايهدف ، كما هو الامر في القياس ، الى استخلاص النتيجة من المقدمة العامة التي تتضمنها ، كجزء من اجزائها ، بل هو يساعدنا على انشاء النتيجة بالاستناد الى المبادىء . ومعني ذلك كله اننا في البرهان نحتاج الى تحليل من ناحية اولى ، في سبيل اكتشاف الحدود المتوسطة ، ونحتاج الى تركيب من ناحية اخرى في سبيل انشاء النتيجة . وكأن البرهان في ذلك كله ، كالقياس ، تحليل يتبعه تركيب .

ب — تحليل الاستقراء والمحاكمة التمثيلية

١ — **الاستقراء** : من الواضح ان الاستقراء هو المحاكمة التي نرتقي فيها من ملاحظة الحوادث الى اكتشاف القانون . فنقطة البدء هي الحوادث المحسوسة أو المشخصة لا المفاهيم المجردة ، كما هو الامر في البرهان . أما النتائج فهي القوانين المجردة التي هي علاقات ثابتة ، بين العناصر الاساسية في الحوادث .

واذا قلنا : ان القانون علاقة ثابتة بين العناصر الاساسية للحادثة ، فمعنى ذلك اننا نجرد هذه العناصر عن غيرها من العناصر الثانوية أو العرضية ، ونلمح في الوقت نفسه ان تلك العناصر الاساسية مشتركة بين كل الحوادث المتشابهة ، مثال ذلك دراستنا لقانون تمدد المعادن ، فنحن لايهمنا في حوادث التمدد الا التمدد ودرجة الحرارة ، ومعامل التمدد ، ولا يهمنا قط نوع المعدن ولا وزنه ولا لونه ولا المكان الذي وجد فيه ، ومعنى ذلك اننا نجرد من هذه الحوادث كلها طائفة من العناصر الثابتة التي يرتبط بعضها ببعض بعلاقة ثابتة هي القانون . وكل مانحن بحاجة اليه في هذا الموضوع ، هو التساؤل عن عوامل التمدد وعن نسبة بعضها الى بعض .

ومن الواضح ان الانتقال من الحادث الى الفرضية هو استقراء ضمني لأن الفرضية هي مشروع القانون . وهي نوع من التحليل الغامض لعناصر الحادث المعقد . وعمل المحاكمة هو ان تعين الاستقراء ، وان تكمل تحليل الحادث ولايمكن انشاء القانون الا اذا حلل

الحادث الى عناصره الثابتة ، علاقتها بعضها ببعض .

واذا تم تحليل الحادث الى عناصره المجردة العامة ، فمعنى ذلك انه تم التعويض عن الحادث التجريبي ، بمفاهيم عقلية هي التي تمنح الاستقراء قوة توسيعه وتعميمه ، اذ ان هذه العناصر التي اكتشفها التحليل بعد طول البحث والتأمل ليست خاصة بالحادث او بجملة الحوادث التي لاحظها المجرب ، بل هي عناصر مشتركة بين كل الحوادث المشابهة لها . ولذلك كان التعميم صفة أساسية في المحاكمة الاستقرائية لاحادثة مضافة اليها .

ومعنى ذلك كله بتعبير آخر ، ان العالم عندما يلاحظ حادثة ما (كالتمدد) يرى نفسه أمام حادثة معقدة العناصر ، فاذا حاول اكتشاف قانون التمدد لم يسعه النظر الى كل مافي الحادثة من عناصر ، بل ترك منها ما لا يراه ذا اثر في التمدد ، وجرد مايراه ذا اثر فيه ، وانشأ فرضية تصل هذه العناصر بعضها ببعض بالاستناد الى الملاحظة . فاذا اثبت التجريب اخيراً صحة الفرضية ، فمعنى ذلك انه انشأ قانوناً للتمدد ، قوامه مفاهيم عقلية يمكن تقدير قيمتها وحسابها ، مثل القيم (ط = ط (١ + ب ء) باعتبار ط ،

د ٠ ٠

الطول في درجة الصفر ، ط = الطول في درجة د من الحرارة ، و ب = معامل التمدد)

د

وهذه كلها مفاهيم عقلية يعوض بها العقل عن الحادث التجريبي المعقد العناصر ولذلك كان القانون الذي اوضح صلة هذه المفاهيم بعضها ببعض صحيحاً ، لافي حادثة واحدة من حوادث التمدد بل في كل حوادث التمدد . وهذا هو التعميم .

ويبدو لنا ان الاستقراء، في هذا كله ، كالاستنتاج ، لانه ينشىء نتائجه بمفاهيم على مثال مفاهيم الاستنتاج ، الا ان علينا أن نلاحظ ان مفاهيم الاستقراء ليست مفاهيم عقلية كاملة كما هو الامر مثلاً في المفاهيم الرياضية ، بل هي مفاهيم تجريبية خاضعة للتبديل والتحوير ، والتضييق والتوسيع ، بحسب تقدم العلم . ويقول (لالاند) : ان الاستقراء نوع من تسوير الطبيعة بمفاهيم .

ولنلاحظ ، آخر الامر ، ان العالم التجريبي يصل الى الفرضية بنوع من الحدس ، أي أنه يقرر نتائج الاستقراء ، قبل ان يبرهن بالتجربة على صحتها ، كما هو الامر في سائر انواع المحاكمة الاخرى .

ومن الواضح ايضاً ان في المحاكمة الاستقرائية تحليلاً وتركيباً معاً ، فالتحليل يتناول الحوادث المعقدة ، ويردها إلى عناصرها أو عواملها أو أسبابها . والتركيب يؤلف بين

هذه العناصر او هذه العوامل في قوانين ، او علاقات ثابتة .

٢ - التحليل : واذا حللنا المحاكمة التمثيلية وجدنا انها كالاستقراء تقريباً ، ولكنها استقراء ضعيف ، يستند الى مشابهات غامضة . ينشأ عنها مفاهيم غامضة ايضا ، مشوشة الحدود ، مشوشة التعريف ، مثل مفهوم الحياة وعلاقته بالجو النسيمي ، او مثل مفهوم زرقة العيون وشقرة الشعر وعلاقتهما بالذكاء ، في رأي النظريات العرقية . وعلى كل فان في التمثيل تحليلاً وتركيبا ، كما هو الامر في المحاكمات الاخرى .

ج - تحليل منطق العواطف

لقد ذكرنا من قبل ان هذه المحاكمة تتميز بتقريرها النتيجة قبل المقدمات ولكننا نعرف الآن ان هذا الفرق غير صحيح ، لان كل المحاكمات واحدة في هذه الناحية والعقل يكتشف دوماً قبل ان يبرهن ، وليس منطق العواطف إلا نوعاً من الاستنتاج . واذا تميز بشيء فانما يتميز بضعف الرابطة بين النتيجة والمقدمات ، او بتفاهة هذه الرابطة مثال ذلك اعتقاد جحا بامكان الزواج بابنة الملك ، وتبريره هذا الاعتقاد برضاء ابويه . ورغبة روسو بالحياة العسكرية ، وعدم اهتمامه بما في عينه من ضعف على مثال ما لاحظه من ضعف بصر احد القواد المشهورين ..الخ .

وربما تميزت هذه المحاكمة عن الاستنتاج بانها تضع نتيجتها سلفاً ، وتؤكد صحتها على حين أن المحاكمات الاخرى ، تضع النتيجة ، وتعتبرها موضع نظر حتى يثبتها العقل أو التجربة ، فليس الفرق إذن في وضع النتيجة . ولكنه فرق في سرعة تقريرها ولذلك يرى بعض الفلاسفة أن براهين المحاكمة العاطفية براهين زائدة على حاجة الاعتقاد ، غير ضرورية له .

والخلاصة إن تحليل أنواع المحاكمة يكشف لنا عن التشابه العميق في جملة صورها ذلك انها جميعاً تقرر النتيجة ، ثم تبحث عن البراهين المؤيدة لها ، وأنها تشترك جميعاً بحاجتها الى التحليل والتركيب .

٥ — عوامل المحاكمة:

يخلص لنا من كل ما تقدم أن المحاكمة انشاء عقلي غايته إثبات حكم، اكتشفه الحدس. ويلاحظ (هوفدينغ) ان طريقتنا في اكتشاف حكم من الاحكام ، هي في الغالب غير طريقتنا في إثبات هذا الحكم ، فعمل المحاكمة إذن هو البرهان لا الاكتشاف. وهذا الامر صحيح ، حتى في منطق العواطف ، إذ المحاكمة هنا تبرر العاطفة المقررة وليس لها أي عمل في خلقها .

ولهذا نرى أن ليس من عمل آخر للمحاكمة غير البرهان او التبرير . ولا يتم هذا البرهان او هذا التبرير إلا بانشاء مفاهيم عقلية ، نعوض بها عن مسلمات الحدس والعاطفة، ونضع ، مكانها ، بذلك ، عالماً معقولا يتمثله الذهن ، وينشئه على مقتضى قوانينه ، وعلى ذلك فالمفهوم هو ركاز هذا العمل ، وهو مصدر الخصوبة والابداع في المحاكمة ، أما التداعي فانه إعادة وتكرار وتذكر وليس قط بابداع .

ونستطيع الآن أن نعين أثر كل عامل من العوامل التي يتألف منها تفكير المفكر او المحاكمة جملة .

أ ـ العوامل الحيوية في المحاكمة ، والتجربة العقلية

١ ـ يرى بعض المؤلفين ان خطى السلوك العادي تؤلف بداية المحاكمة : فاذا رأينا طفلا يتخذ أحد المقاعد أو الكراسي وسيلة للارتقاء الى مكان عال في خزانة الطعام ، ليأتي بتفاحة ، يذكر ان امه وضعتها فيه فمعنى ذلك ان الكرسي والارتقاء عليه مقدمتان نتيجتها الوصول الى التفاحة . فكأنما كانت الغاية المحبوبة باعثة على التشبث لبعض الحيل وكأنما كانت خطوات السلوك المادي هي بداية العمل الفكري الذي نسميه المحاكمة (ريبو) .

٢ — الا ان بعض المؤلفين الآخرين ، مثل برغسون ، يرون ان المحاكمة دون السلوك المادي في البداهة والوضوح ، فليست المحاكمة الا تقهقر العمل المادي ، وانحطاط السلوك الحقيقي . ويؤيد ذلك ان الناس يحاكمون ، او يفكرون عندما لايكون سبيل العمل واضحاً امامهم .

ويبين ماخ وغوبلو ورينيانو بان المحاكمة في كل صورها ليست الاسلة من التجارب العقلية ، يقوم بها الانسان ذهنياً قبل ان يقوم بها عمليا . والباعث على المحاكمة باعث عاطفي وشرطها الانتباه ، لان الانسان لايفكر الا فيما يراه ضروريا لتلبية حاجاته او رغباته ولكن هؤلاء يرون ان المحاكمة هي اعلى واعقد مظاهر غائية الحياة .

وخلاصة هذه الآراء جميعها ان المحاكمة سلوك عقلي يتقدم على السلوك العملي ويهيئه ، ويساعد على تنظيمه .

المناقشة : والحق ان بين السلوك العملي والنظر العقلي بعداً كبيراً لان الانتقال من احدهما الى الاخر ليس بالسهل . وهو على كل حال مما لايستطيعه الاطفال . ومما يذكر في هذا الموضوع ان خادمة اعتادت النوم بجانب سيدتها ، في غرفة واحدة . واعتادت السيدة ان تنام في اتجاه خاص لاتغيره ، غير انه بدا لها ان تغير وضع الوسادة وان تعكس اتجاه نومها . فلما جاءت الخادمة ، ولاحظت هذا التغيير ، لم يسعها الى تغيير وضع فراشها كله ، في سبيل تغيير وضع الوسادة . وقد كان يمكنها طبعاً الاكتفاء بنقل الوسادة وحدها دون الفراش كما فعلت سيدتها ، الا انها — في سلوكها العملي — لم تستطع تحليل الموقف تحليلا عقليا وملاحظة التغيير الذي يجب احداثه وحده دون غيره . ومما يذكر في هذا الصدد ايضاً ان امرأة كانت مدينة الى احد الناس بمبلغ (١٢) قرشاً ، وكان لها معه (٧) قروش فلما جاءت لتصفية الحساب لم تعطه الخمسة قروش التي بقيت له عندها ، بل اعطته الاثنى عشر قرشاً اولا ثم طلبت منه السبعة قروش كأن النتيجة ليست واحدة في الحالين . وهذا كله اشارة الى الفارق الذي يوجد بين التفكير النظري ، وبين السلوك العملي ، او بين المحاكمة ، والتجربة الحيوية .

ثم ان المحاكمة لاتقوم الا على المفاهيم الواضحة ، وقد رأينا في بحث التجريد والتعميم ان العوامل الحيوية ، لاتكفي لانشاء المفاهيم ، وانما تنشيء بدائل تعوض عنها وتكفي لحاجات العمل ، دون حاجات التأمل والنظر .

ب — العوامل الاجتماعية في المحاكمة : ان الانسان يحاكم ليبرهن على صحة النتائج التي يتقبلها عقله . ولكن البرهان ليس بحاجة طبيعية ، بل هو حاجة اجتماعية ، تنشأ عن احتكاك العقول بعضها ببعض ، وعدم اتفاقها على نتائج واحدة . ولذلك يطلب الانسان البرهان ، ليستطيع اقناع الآخرين بصحة نتائجه .

والمحاكمة المنطقية هي مناقشة النفس للنفس ، كما لوكانت النفس تستطيع أن تتبنى وجهات نظر الآخرين ، وأن تناقش باسمهم ، وكل منا يعرف انه يفهم مايقرأ ولكنه اذا حاول افهام الآخرين وجد صعوبات غير منتظرة وثغرات في فهمه غير مقدرة ، فكأن التفكير الذاتي ، دون التفكير الاجتماعي منزلة وقيمة ، وكأن هذا التفكير الاخير يحتاج الى اكثر مما يحتاج اليه التفكير الذاتي ، من الجهد والتأمل والوعي .

وعدا ذلك فان للمحاكمة وجهاً صورياً خالصاً ومعنى ذلك ان المحاكمة تقتضي قبول بعض المقدمات دون الاهتمام بامكان تحقيقها ، كأن نقبل موقتاً ، في سبيل البرهان على أمر ما ، فرضية غير واقعية ، مثل فرض باستور ان الهواء وحده يمكنه أن ينشيء الجراثيم من العدم ، وذلك في سبيل انتظار نشوء الجراثيم ، حتى اذا لم يتحقق ذلك ، استطاع ان يبرهن أنها لاتنشأ من الهواء ، ولا من العدم ، بل من جراثيم اخرى . ويعني ذلك كله اننا نقبل صورياً ما لا نعتقد بامكان وقوعه في الواقع ، مجاراة لآراء الآخرين ، واخذاً بوجهات نظرهم .

والخلاصة ، ان الفكر المنطقي في كل صوره ، يحتاج إلى تصور وجهات نظر الآخرين ، وهذا كله تابع للحياة الاجتماعية .

٣ ـ **العوامل النفسية** : ليس للشروط السابقة من عمل آخر غير تهيئة الجو النفسي للقيام بالمحاكمة . والمحاكمة ـ كما أسلفنا القول ـ تقتضي عمليتين : الاولى عملية تحليل ، نرجع بها المركبات ، والحوادث إلى مفاهيمها المعقولة . وفي هذا يقول ويليام جيمس ، بأن معرفة المحاكمة ، هي معرفة الانسان تجريد بعض الاخبار او بعض المحاميل ، لا أي محمول كان ، بل المحمول الذي يؤدي إلى النتيجة المتوخاة . وهذا التجريد تحليل كما هو معلوم . والثانية عملية تركيب ، وقد عرفنا أثناء تحليل المحاكمة من الوجهة النفسية ، معنى التركيب الذي تقتضيه المحاكمة . وإذا كان الحكم بحاجة إلى نوع من التركيب ، فمن الاولى ان تكون المحاكمة في مثل هذه الحاجة ، والحق أن الاستنتاج يقتضي اتصال عملية الحكم ، واستمرار النظر إلى المفاهيم بعين واحدة ، كأن نحتفظ دوماً لهذه المفاهيم بحدود شمولها وتضمنها ، ومعنى ذلك كله أن المحاكمة بحاجة إلى التحليل والتركيب ، وهما فعاليتان نفسيتان خالصتان ، لاتتم بدونهما المحاكمة .

ويجب أن نشير إلى أن التركيب الذي تقتضيه المحاكمة ، ليس تركيباً للمفاهيم وحدها ،

او للاحكام وحدها ، بل هو تركيب يجمع مسلمات الحوادث إلى مباديء العقل ، ويؤلف منهما المعرفة . ومباديء العقل هي مباديء الهوية وعدم التناقض والسببية التي كنا أشرنا اليها في كتاب المنطق ، وكل منا يعلم اننا لانستقبل الحوادث الطبيعية إلا على ضوء مبدأ السببية ، وإننا لانرى ولا نسمع ولا نشم ولا نحس ، لاندرك بالجملة إلا ونتساءل عن السبب فيما رأينا وسمعنا .. وأدركنا . وكأننا في ذلك كله ، نؤلف بين مبدأ السببية الذي هو مبدأ عقلي ، وبين مدركاتنا الطبيعية ، وهذا هو الوجه الثاني للتركيب الذي تقتضيه المحاكمة .

خلاصة عامة

المحاكة هي الانتقال من المباديء الى النتائج او من الحوادث على القوانين ، وهي انواع مختلفة : فيها الاستنتاج والاستقراء والتمثيل ومنطق العواطف ولكنها على اختلافها ، تحتاج الى فعاليات نفسية واحدة ، هي التحليل والتركيب .

وليس الاكتشاف وليد المحاكمة ، بل هو وليد الحدس ، وعلى المحاكمة ان تبرهن على صحة المكتشفات الحدسية . وقد رأينا أن الحياة الاجتماعية هي التي تدفع الى هذا البرهان ، وتجعله امراً محتوماً .

غير أنه قد يمكن ان تساعد المحاكمة السلوك العملي ، وقد يقلدها السلوك العملي . ومهما يكن من امر ، فان الحياة هي التي تبعثنا على التفكير في غاياتها ومنافعها ، وهي التي تسلحنا بالفكر او العقل في سبيل تحقيقها .

الفصل التاسع عشر

الذكاء

l'Intelligence

خلاصة البحث

١ — تعريف الذكاء
٢ — مستويات الذكاء عند الحيوانات
٣ — مستويات الذكاء عند الانسان والاستعدادات العقلية
٤ — مناهج القياس
٥ — امثلة على مقاييس الذكاء
٦ — امراض الذكاء
٧ — امثلة على بعض النماذج المريضة

١ — **تعريف** : يعرف الذكاء بالقول : انه مردود الجهاز العقلي . او هو إمكان حل بعض المسائل والمشاكل ، النظرية او العملية . وليس الذكاء وظيفة خاصة ، بل هو ثمرة التعاون بين وظائف نفسية عديدة كالخيال والتجريد والحكم والمحاكمة .

أ — والذكاء لغة هو القدر على سرعة الفهم ، وقيل ان الذكاء هو سرعة الفهم وحدته . والبلادة جموده . وعندما تصل السرعة الى اقصى حد يقال عن الشخص : انه ألمعي ، فالالمعي هو الفطن الذكي الذي يتبين عواقب الامور بادنى لمحة تلوح له .

ب — وليست سرعة الفهم كل شي في تعريف الذكاء ، بل هنالك عنصر آخر : هو القدرة على تحصيل المعلومات واكتساب المعارف وهذا يعني أن الذاكرة القوية عنصر من عناصر الذكاء ، بالاضافة الى الملكات الضرورية الاخرى ، كالتخيل والتفكير .

ح — ولقد يضاف الى تعريف الذكاء حسن التدبير ، والتبصر بعواقب الامور . واذا

كان الرجل عاجزاً عن إدراك مغبة الامور التي يأتيها هو ، او يأتيها من حوله ، فمن العبث أن نصفه بالذكاء .

والخلاصة إن الذكاء هو **سرعة العلم ، والقدرة على تحصيل المعلومات ، وحسن التدبير .**

ولقد ذهب الفلاسفة في تعريف الذكاء مذاهب مختلفة ، فقال بعضهم إنه القدرة على تحقيق التلاؤم بين الشخص وبين المواقف الجديدة التي تعرض له ، وهذا يعني أن الانسان يستطيع حل المشاكل الجديدة ، او يحسن تدبير الامور الطارئة ، وقال آخرون ، إنه القدرة على القيام بعمليات التفكير العليا ، والتفكير المجرد خاصة ، وهذا يعني أن الانسان يتجاوز دائرة التفكير العملي او المشخص ، ويستطيع ان يبحث في المجردات التي لاتدركها الحيوانات . وقال آخرون إنه القدرة على التعلم ، وهذا يعني أن الانسان يملك ذاكرة مواتية تساعده على تحصيل المعارف . ومن الواضح أن هذه التعاريف المختلفة تلتقي فيما بينها ، وتؤلف التعريف الذي ذكرناه .

وإذا قلنا ان الذكاء ثمرة التعاون بين الوظائف العقلية المختلفة ، أو قلنا ، إنه مردود الجهاز العقلي ، فذلك إشارة الى أن للذكاء مستويات مختلفة : بعضها دنيء هو الغباوة أو الحمق أو البلادة ، وبعضها عال كالألمعية والنبوغ . ولاشك أن علينا ، في علم النفس ، أن نبحث في الذكاء كما هو في الواقع لا كما يجب أن يكون .

٢ — **مستويات الذكاء عند الحيوانات :** والآن نستطيع أن نتساءل عما إذا كان ذكاء الحيوانات وذكاء الانسان من نوع واحد ، لايختلف إلا في درجة قوته في هذا النوع أو ذاك ؟ إذ لقد يكون ذكاء الحيوانات من نوع آخر غير نوع الذكاء الذي يتمتع به الانسان . إلا أن هذا التساؤل عسير الجواب . وقد لانصل فيه إلى حل مقنع .

غير أن العلماء حاولوا تعريف الذكاء تعريفاً جامعاً يستطيع أن يشمل ذكاء الانسان والحيوان على السواء ، فقالوا إن الذكاء هو حسن الخروج من المآزق ، أو هو القدرة على حل المشاكل العملية او النظرية . وبذلك استطاعوا إخضاع الحيوانات المختلفة لتجارب يستبين فيها ذكاؤها من سلوكها . وليست هذه التجارب إلا مآزق يجب على الحيوان الخروج منها بالاعتماد على سلوك ذكي ، لا على سلوك غريزي ، او سلوك عرضي ، يخطيء

أو يصيب بالمصادفة . والفرق بين السلوك الذكي والسلوك الغريزي ، مرونة الاول وجمود الثاني ، فليست النحلة ذكية لأنها تصنع هذه الخلايا السداسية العجيبة ، بل هي ذكية ، إذا استطاعت الخروج من فوهة زجاجة ، دخلت فيها عرضاً ، بدون تردد كبير .

ولنذكر على سبيل المثال بعض التجارب التي قام بها كوهلر عن ذكاء مختلف القرود.

« اذا قدمنا الى قرد غذاءه سلك اليه الطريق الطبيعي اي سار اليه على خط مستقيم . فاذا كان الطريق مسدوداً بحاجز متغير الشكل والابعاد وجب على القرد ان يتبع طريقاً ملتوياً . وقد تبين أنه ما من قرد تعوقه الحواجز المعقدة عن الوصول الى هدفه خلافاً للكلب او الهرة ، او الدجاجة خاصة .

ولنفرض الآن ان الحاجز لا يمكن الاحتيال عليه ولكن الطعام مربوط بسلك يستطيع الحيوان ان يمسك بطرفه. ان القرد يستطيع أن يستعمل هذا السلك ويجر اليه الهدف المقصود . في حين ان الكلب عاجز عن ذلك ولو ان تركيب جسمه لا يحول بينه وبين ذلك .

ولنفرض الآن ان الاداة غير مربوطة بالطعام. ولنفرض انها عصا ينبغي استعمالها على نحو يقرب الهدف الى الحيوان . فما من قرد منحط يستطيع ذلك بالرغم من ان تكوين يديه لا يعوقه عنه . فاذا رأى العصا ملتصقة بالهدف سحبها اليه ثم لم يستطع ان يعيدها الى الالتصاق بالهدف بل ولا حاول ذلك ، في حين ان القرود الراقية ، مثل الشمبانزي تستعمل العصا في هذه الحالة كما يستعملها الانسان .

ولنزد الآن في تعقيد المسألة . ولنفرض الهدف موضوعاً في درج مفتوح من الأعلى ومن الجانب ، وملقى امام القفص ، فلكي يستولي القرد على هدفه ، ينبغي له اولا ان يدفعه بالعصا ، وان يبعده عنه ، وذلك حتى يخرجه من الدرج ، ثم يجذبه اليه . فالغاية الاخيرة هي ان يقرب اليه الهدف . والغاية المتوسطة هي ان يخرجه من الدرج بابعاده عنه ، فالفعل المتوسط ليس له معنى في ذاته ، بل ليس له معنى الا بالنسبة الى الفعل الاساسي . وهو يضطر الحيوان الى التغلب على ميله الطبيعي ، واعني تقريب الهدف اليه . وقد تبين انه لا يستطيع حل هذه المسألة المعقدة الا الاذكياء من قرود الشمبانزي » .

إن هذه الظروف الاصطناعية جميعها جديدة على الحيوان وتقتضية اختراعاً يجب ان تخضع تفاصيله للظروف .

واذا رأينا الحيوان يسلك سلوكا صحيحاً بدون ان يكون غريزيا فانه يجب ان نتساءل كذلك : ألم يكتسب هذا السلوك عن طريق التلمس الاعمى ، اي عن طريق المحاولات والاخطاء ؟ وهذا يعني انه يجب ان نميز بين التلاؤم الذكي والتلاؤم العارض .

٣ — مستويات الذكاء عند الانسان والاستعدادات العقلية :

إن مسألة الذكاء عند الانسان تعرض لنا كثيرا ، وهي ذات قيمة عملية كبيرة : فنحن نحاول أن نعين ونقدر ذكاء التلاميذ لنعرف مدى تأخرهم او تقدمهم في النمو ، ونحاول معرفة الاستعدادات الذكائية لنحسن التوجيه والاصطفاء لمختلف المهن ، ونحاول أن نقارن

الحالات العادية والحالات المرضية (كحالات البله ، والتأخر والخرف) .

أ) ويقول بعضهم ان كل اختبار أو كل تجربة في الحياة يفيدنا في تصنيف الافراد . فالحياة المسلكية والحياة المدرسية تعينان لنا مستوى الافراد . وهذا صحيح . الا أن الاختبارات التي نريدها هنا يجب ان يتوفر فيها عدد من الشروط :

أولاً : يجب أن يكون الحكم **سريعاً** : اذ ليس في وسعنا أن ننتظر التلميذ حتى يظهر أنه غير قادر على السير في صف من الصفوف ، ولا أن ننتظر الموظف حتى يبرهن على أنه غير قادر على القيام بوظيفة ما . بل الافضل ان نتنبأ بذلك ونعرفه مقدماً .

ثانياً : يجب أن يكون الحكم **موضوعياً** ، مستقلاً عن تقدير الحكم ، فما يتغير بتغيره . ويجب أن نقارن بين الاحكام التي يصدرها معلمون واطباء وموجهون مختلفون .

ثالثاً : ويجب على قدر الامكان ان **نعبر عن الحكم بعدد** حتى نستطيع ان نقوم بمقارنات دقيقة :

ب) ومن جهة اخرى يجب ان تكون **غاية الاختبارات تقدير الذكاء** . وهنا تعترضنا صعوبات جسيمة ، يمكن ان نحاول ازالتها او تخفيفها بحسن انتخاب الاختبارات أو المقاييس .

١ — فالاختبار لايستفيد من المؤهلات الذكائية فحسب ، بل يستفيد كذلك من بعض الميول الطبيعية والخصائص الخلقية . فالنجاح يتوقف على مقدار ما للعمل من قيمة سواء في ذاته او في نظر الفرد الذي يجري علية الاختبار . انه يتعلق بحب الاطلاع ، وحب الذات ، وتصلب الرأي ، والصدق . وهذه الصفات التي يستفاد منها في هذه الاختبارات ليست هي الصفات التي تتدخل فيما يشبه هذه الاعمال في الحياة الحقيقية (المدرسية، المهنية) . اذ ان الاجتهاد الذي يرجع الى حب الاطلاع موقت لن يستمر دائماً في العمل المنظم المطرد الرتيب الذي ستقتضيه الحياة الواقعية . كما ان العمل الحقيقي من جهة اخرى يمتاز على عمل الاختبار بأن له فائدة حيوية ، وانه يستفيد من قوة العادة . ومع ذلك فان النجاح يدل على امكان القيام بالفعل المطلوب .

٢ — ان الاختبار يستفيد من معارف مكتسبة . فهو يقيس في آن واحد الاستعداد الفطري

والمعرفة المكتسبة ، اعني الذكاء والذاكرة . ومن الصعب فصل هذين العنصرين . فنحن لانستطيع مثلا ان نقيس الذكاء الرياضي لفرد ما ، بدون حد أدنى من المعلومات التي تتوقف احيانا على الصدفة . ان الذكاء هو بالدرجة الاولى القدرة على الاستفادة من المعرفة : فلا تستطيع ان تقيس الذكاء بدون ان يكون هناك شيء من الاطلاع . وعلى اختبارات الذكاء ان تتحاشى على قدر الامكان استفادة الممتحن من معلومات خاصة .

٣) كثير من الاختبارات تستعمل اللغة ، سواء في منطوق المسألة او في حلها . وقد يرجع عدم نجاح الفرد الى عجز خاص عن استعمال اللغة فهناك ذكاء عياني أو واقعي أو عملي ، وهناك ذكاء لفظي ، أو نظري .

٤) وهنا يؤدي بنا البحث إلى التساؤل عما إذا كان هنالك ذكاء عام ، مستقل نسبياً عن طبيعة المسائل التي تطرح عليه . او إذا لم يكن هنالك غير استعدادات عقلية (١) (أو ذكائية) خاصة ، يظهر الانسان ذكياً جداً في حل المسائل المتعلقة بها . وغبياً جداً في حل المسائل غير المتعلقة بهـــا ؟ ولقد ذهب بعض العلماء الى البحث عن مقاييس واختبارات ، نستطيع أن نقيس بهـــا قوة مثل هذه الاستعدادات الخاصة كالخيال ، والذاكرات الخاصة (ذاكرة الأرقام ، ذاكرة الموسيقى ، ذاكرة الاسماء) والانتباه الارادي ، ومعرفة اللغة ، وتمييز صفة عامة أو قانون ، أو نظام ، والمحاكمة ، وحس النقد ثم إنهم ميزوا بين هذه المقاييس الخاصة ، وبين المقاييس التي تقدر بها قوة الذكاء العام . وذلك عن طريق النتائج التي نحصل عليها هنا وهناك . وقد لوحظ ان الفروق الفردية ، في المقاييس الخاصة ، أعظم من الفروق بين المستويات العقلية للأعمار المختلفة .

٤ - مناهج القياس

وضع بينيه وسيمون ، وكثير غيرهم بعد ذلك ، سلما متريا لذكاء الاطفال وتلامذة المدارس . وهو يحتوي على اختبارات بسيطة لكل سن ، ابتداء من السنة الثانيـة الى السنة الخامسة عشرة ، وحددوا بالتجربة المسائل (او المقاييس) التي يمكن ان يحلها اكبر

---

(١) لقد اشار (سبيرمان) الى ان في الذكاء عاملين احدهما عام نشير اليه بالحرف (ع) ، والثاني خاص ، ونشير اليه بالحرف (خ) . وربما كانت (ع) اي المستوى العقلي العام اكثر ثبوتاً بحسب الاعمار من (خ) اي من الاستعدادات الخاصة .

عدد من الاطفال الذين في سن معينة (٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ سنين . . الخ) وهذا مايسمى بالتدرج في الاختبار او في المقياس . فاذا حل طفل معظم اسئلة سنه ، وأخفق في حل معظم اسئلة السن التالية ، قيل ان عمره العقلي مساو لعمره الحقيقي أي : ع.ع = ع.ن وبالعكس اذا لم يستطع طفل في السادسة ان يحل غير مسائل سن الرابعة كان عمره العقلي في الرابعة ، وقيل انه متأخر سنتين . ويقال انه متقدم سنة او سنتين او عدة سنين اذا استطاع أن يحل مسائل سن اعلى من سنة بسنة أو سنتين او ثلاث سنين . ولما كان التقدم والتأخر ليس لهما قيمة واحدة في مختلف مراحل النمو ، فقد عمدوا الى قياس الذكاء بالنسبة القائمة بين السن العقلي والسن الحقيقي ، فاذا كانت النسبة اكثر من واحد صحيح كان الطفل متقدما على سنه ، واذا كان اقل كان الطفل متأخراً عنه .

ولا تنطبق هذه المقاييس إلا على النمو العقلي للطفل في الزمن . وقد نقدر الاجابات الصحيحة بعلامات ، وتقدر الاجابات الخاطئة بعلامات أخرى ، فاذا طرحت هذه من تلك كان حاصل الطرح يعبر عن علامة الذكاء للطفل . ويقدر مستوى ذكاء الطفل بنسبة العلامات التي حصل عليها ، إلى متوسط العلامات التي يحصل عليها من في سنه .

ويمكن ان يصنف الممتحنون على درجات عددها مائة وفقاً للعلامات التي يحصلون عليها فالفرد المتوسط تكون درجته قريبة من الدرجة ٥٠ اي في الربعين الثاني والثالث من المائة ، والمتأخر في الربع الاخير ، والمتقدم في الربع الاول .

ويمكن ان تجمع نتائج اختبارات المؤهلات في خط بياني شامل .

٥ — امثلة من مقاييس الذكاء

ولنذكر الآن بضعة منتخبات من سلم لاختبار المستوى الذكائي العام ، وهو شائع الاستعمال في اختبار صغار الاطفال .

٣ سنين : بيان اجزاء الجسد - ترديد جملة مؤلفة من ست مقاطع - تعداد عناصر صورة - ذكر اسم العائلة .

٥ سنين : ترديد جملة مؤلفة من عشرة مقاطع - تعريف بعض الاشياء باستعمالها - حساب اربع قطع نقود - ترديد اربعة ارقام .

٧ سنين : ملاحظة الاشياء الناقصة في بعض الصور - تعيين اليد اليمنى والاذن اليسرى - نقل شكل هندسي (معين) - ترديد ٥ ارقام - التعرف على قيمة ثلاث قطع نقدية مختلفة .

٩ سنين : التعريف بغير الاستعمال - ترتيب خمسة اشياء متصاعدة بحسب وزنها - رد باقي نقود - ذكر

تاريخ اليوم – شرح صورة مع الاستعانة بالاسئلة ... الخ .

ومن الاختبارات ما يساعد على دراسة القدرة على اكتشاف علامة او ترتيب او صفة مشتركة بين بعض الاشياء او المفاهيم . وبعض الاختبارات يستعمل اللغة وبعضها لا يستعملها بصورة صريحة (ولعل اللغة الداخلية تساعد الممتحن هنا بعض المساعدة) .

– فمثلاً تعطى ثلاث كلمات ، ويطلب ايجاد كلمة رابعة ، هي من الثالثة بمنزلة الثانية من الاولى في المعنى :

برد – شتاء　　حرارة – صيف

كسل – معاقبة　　اجتهاد – مكافأة

أو يطلب اتمام جملة تنقصها كلمة او كلمتان (وتوضع الجملة في سياق قصة توضح معناها) . ويمكن ان يتخذ هذا الاختبار صوراً مختلفة بحسب ما يكون الفراغ الذي ينبغي سده اسماً او صفة او فعلاً .. الخ . فاذا كان حرف وصل مثلاً كان اختباراً للاستعداد المنطقي ، وكذلك حين تعطي كل عناصر الجملة ثم يطلب تركيبها تركيباً منطقياً .

ويطلب اكمال سلسلة من اسماء الانواع : شجرة السنديان ، شجرة البلوط ، شجرة الجوز ، شجرة التفاح...(شجرة الزان–شجرة الاجاص).ويطلب إيجاد الجنس المشترك الذي تنضوي تحته كل هذه الانواع.

ويمكن ان تطرح هذه الاسئلة نفسها بصدد احكام او حكايات قصيرة فيطلب معرفة العنصر المشترك الذي تنطوي عليه آراء مختلفة ، والفكرة العامة التي يشترك فيها عدد من الحكايات القصيرة الخ ...

ونستطيع الاستغناء عن اللغة فنقدم الى الممتحن سلسلة من الاعداد او الصور ونطلب اليه ان يكملها وفقاً لمبدأ كامن فيها وعليه ان يكتشفه .

مثال :

١ ، ٤ ، ٧ ، ١٠ ، ... (١٣ ، ١٦)

٢ ، ٦ ، ٣ ، ٧ ، ٤ ، ٨ ... (٥ ، ٩)

٣ ، ٤ ، ٦ ، ٩ ، ١٣ ، ١٨ ... (٢٤ ، ٣١)

أو نقدم للممتحن حكاية مصورة بدون كلام ، ولكن صورها متفرقة على غير نظام ثم نطلب اليه ان يعيد اليها الترتيب المنطقي بحسب معناها .

ويمكن ان تتم دراسة الاستعدادات المنطقية او النقدية بواسطة جمل او حكايات او رسوم يطلب الي الممتحن ان يزيل ما فيها من تناقض .

مثلاً نقول لبعض الاطفال : ان العربات الاخيرة من القطار هي التي يصيبها الاذى اكثر من غيرها في حالة وقوع حادث ، فهل يكفي اذن ان نستغني عن العربات الاخيرة ؟

أو نريهم صورة تمثل الريح وهو يحني الاشجار في اتجاه ويوجه الدخان في اتجاه آخر ، وصورة تمثل ميزاناً ترجح الكفة الخفيفة منه على الكفة الثقيلة ، او نسأل الكبار منهم هل يمكن استخلاص نتيجة ما من بعض المقدمات ، وهل يمكن حل مسألة ما بواسطة بعض المسلمات .

مثال : الفضة اثقل من الحديد

النحاس اخف من الفضة

فهل يمكن ان يستنتج من ذلك ان الحديد اثقل من النحاس ؟ او ما الذي نستخلصه عن النسبة بين الحديد والنحاس ؟

٦ — امراض الذكاء

لا شيء أدل على صعوبة تعريف الذكاء عامة ونقص فكرة المستوي، من الامراض التي تعتري هذه الوظيفة .

فللخلل العقلي اشكال كثيرة ، فهو تارة دائم ونهائي (كالعته) وتارة عابر موقت (كالهذيان الموقت) . ولأسبابه أشكال كثيرة أيضاً ، فهي تارة انعدام النمو العقلي الطبيعي او توقف هذا النمو ، فيكون المريض متأخراً او متخلفاً او أبله او معتوهاً ، على حسب فداحة الاختلال. وهي تارة تقهقر عقلي بتأثير المرض وتارة بتأثير الشيخوخة (خرف الشيخوخة او الخرف المبكر) . وقديماً قيل الجنون فنون .

وهنا نجد نفس الصعوبات التي نجدها في علم النفس العادي . فمن الصعب ان نعزل الجهاز العقلي اولا : عن القوى التي تحركه ، أعني العواطف والميول ، وثانياً: عن الادوات التي يستعملها ، كالذاكرة واللغة . فالخمول العقلي قد يرجع إلى الخمول الانفعالي . وكثير من المرضى يرجع ضعف قدرتهم على العمل العقلي إلى عجزهم عن الانتباه الى الاسئلة التي تلقى عليهم وإلى مشكلات الحياة التي تعرض لهم . وينقص الذكاء بنقص ادواته كذلك. فان فقدان ذاكرة الحوادث القريبة مثلاً يجعل من المستحيل على المريض ان يقوم باي انتباه واي عمل مستمر . ونسيان المعارف الاساسية يقلل القدرة على العمل المنتج والتلاؤم مع الحياة العملية . كما أن امراض اللغة تجعل من الصعب على المريض أن يقوم بعمليات معقدة .

٧ — امثلة على نماذج المرضى

لسنا نطمع في تصنيف أنواع الخلل العقلي ، وانما نقدم بعض الامثلة من نماذجها الاساسية .

أ — في حالات **توقف النمو** تكون المكتسبات الطبيعية هي التي تعوز المريض فيبقى الطفل في مستوى منحط لا يتعلم او لايكتسب إلا العادات الاولية البدائية . ويرجع السبب في ذلك إما الى ضمور وراثي في الدماغ ، وإما إلى أمراض عامة تصيب هذا العضو اثناء الطفولة (كالتهاب السحايا او شلل الطفولة). حتى ان وزن الدماغ في حالات

العته يمكن ان يظل دون الالف جرام (ولنلاحظ ان الوزن الطبيعي للدماغ الانساني ١٤٠٠ غرام ، فاذا نقص إلى هذا الحد الكبير ، كان دليلًا على انحطاط عقلي دائم في حين ان الفروق الفردية اليسيرة التي تلاحظ بين السليمين لا تبدو قابلة لان تؤول تأويلاً نفسياً) . وفي حالة العته الفادح يظهر تأخر الطفل مبكراً جداً : فتراه يكبر دون ان يمشي او يتكلم ويردد حركات متشابهة أو اندفاعية بدون انقطاع ، ولا يتعلم كيف يأكل لوحده . أما البلهاء فبعضهم يفهم الكلام ولكن لا يستطيعه ، وبعضهم يستطيع الكلام ، ولكنه لا يتوصل إلى تعلم القراءة بسهولة . ومن الصعب ان نعلمهم الكتابة (النسخ) والجمع والطرح . وقد يستطيع القيام ببعض الخدمات . ويمكن ان تجتمع البلاهة مع بعض الاستعدادات الخاصة (كالحساب الذهني والمواهب الموسيقية) — اما المتأخر في المدرسة فاصابته اخف . فقد يتمتع بشيء من الذكاء العملي ، ويكون تأخره في الغالب تأخراً في اللغة ولهذا يمكن تعليمه في صفوف خاصة بمناهج خاصة .

ب) . نلاحظ ضروب **التقهقر العقلي** في الشيخوخة وفي بعض الامراض الدماغية المتأخرة .

وافكار الخرف عبارة عن سؤر معلومات قديمة . وقد يحتفظ ببقايا آليات العادة ، فتراه حسن الهندام ، نظيفاً ، أنيق الحركات ، لطيف المعشر ، صحيح اللغة ، والخرفون يفقدون ، على وجه العموم ، حس الزمان والمكان ، فلا يعرفون اين هم ، ومنذ متى ، ولا يعنيهم ان يعرفوا . أما إجاباتهم فهي صحيحة الشكل ، ولكنهم لا يبالون مطلقاً بمعناها ، ولا يحفلون بالتناقض الذى ندلهم عليه في هذه الاجابات .

جرت المحادثة التالية مع خرف كحولي :

س : هل زارك احد ؟

ج : أمي وأختاي

س : ما سن أمك

ج : ٣٨ سنة

س : وأنت ما سنك

ج : ٧٦ سنة (إجابة صحيحة)

س : غريب . أيكون عمرك ٧٦ ويكون عمر أمك ٣٨ ؟

ج : هذا هو عمرها المعتاد فيما أعتقد

س : ألا تستغرب ذلك ؟

ج : وعلام استغرب ؟
س : أتكون اكبر من أمك سناً ؟
ج : آه . حقاً . إن هذا ليدهشني ؟
س : ولكن كيف يكون هذا ؟
ج : لا أدري .
س : إذن فقد ولدت قبل أمك ؟
ج : نعم .
س : كيف يمكن ان تكون امك اصغر منك سناً ؟
ج : ؟ . وهنا لم يحاول المريض ان يجيب ولم يعد يكترث بالموضوع .

وهذه الآن صورة أخرى من التقهقر العقلي ، يختلف مظهرها عما ذكرنا ، وهي **الشلل العام التدريجي** الذي يؤدي هو الآخر إلى الخرف ، ولكن المريض يكون مزوحاً كثير الحديث عن نفسه ، أليفاً ، فائضاً ، وأحياناً فظاً ، وهو يتحدث بتعاظم وفخفخة ومبالغة ، ويتغامز كالاطفال ، وقد فقد كل إحساس دقيق ، وكل قدرة علي ضبط لسانة ، وكل حس نقدي .

مثال : (لقد انقذت كل الاطفال الذين التهمهم حريق شيكاغو ، وانا ارسلهم كل يوم إلى الحمامات البخارية في نانت . لدى لآلىء في كل مكان ، يقوم على حراستها اسود يطلقون رصاصات المسدس بخراطيمهم (وليس يبدو ان هذه الكلمات تمثل له شيئاً واضحاً ، فما هي إلا دلالات على الرضى والتفاؤل والغبطة) .

ج — وهناك حالات **الاختلاط العقلي** وقد تكون عابرة موقتة في حين ان الحالات السابقة تدل على سقوط لا إرتفاع بعده . وتلاحظ حالات الاختلاط في التسممات (الكحولية مثلا) ، وفي الامراض الانتانية (التعفنية) الحادة وهنا ايضاً يلاحظ فقدان حس الزمان والمكان ، وتكون الذاكرة مضطربة واللغة غير منسجمة .

وإذا كانت الحالة خطيرة وقع صاحبها : في خبل عميق ، وتباطأت وظائفه العقلية جميعها تباطؤا كبيراً . فتراه ينظر الى محدثه طويلا ، ويلقي عن يمين وعن شمال نظرات حائرة ، ولا بد ان تكرر عليه السؤال مرات عديدة حتى تحصل منه على اجابة قصيرة مؤلفة من كلمات منعزلة وجمل غير منتهية . وهناك حالات يكون فيها النشاط اكبر ولكنه يكون اشبه بحلم مع ادراك ناقص او مشوه للمحيط الحقيقي ومع اوهام مخيفة هي في بعض الاحيان امتداد في حالة اليقظة لحلم حقيقي . وفي كل الحالات لايكون لهذا

المريض ما للخرف من هدوء وعدم مبالاة ، فهو يبذل مجهوداً ويحاول ان يفهم ويتوصل في بعض الاحيان الى الرجوع الى صوابه .

مثال : وقع (ن) ، بعد افراط في تعاطي الا بسنت في حالة اختلاط : واستطاع بعد مدة ان يروي احلامه الهذيانية ، وهي خليط من ادراكات حقيقية وأوهام . انه يتذكر انه سيق في عربة الى الملجأ . وادخل الى قاعة فيها كثير من الناس ورفض ان يأكل خشيه ان يدعوا الملعقة في فمه . وقضى الليلة في غرفة تعج بالاشباح ثم في غرفة اخرى تصور انهم يريدون شقة فيها قطعتين ، ثم لصقها بعد ذلك ، وكان يخشى الاغتسال بالماء لئلا يكون فيها كبريتات (فتريول) وبعد ذلك كان يرى اخته معه وكان يرى انهم وضعوها في شيء من قش . . والناس يأكل بعضهم بعضا . . ثم رأى فرنا على كل فرد ان يدخله بالدور . . وكان الناس يقطعون قطعاً ورأى حربا يشترك فيها الناس جميعاً ، حتى النساء وهو وحده الذي ظل في فراشه وعلى مخدة السرير المجاور له رأى تابوتاً . . وفي داخل التابوت رأى والده ، الخ ...

واحيانا لا تزول هذه الاحلام الا ببطء : تزول تدريجياً بنسبة ما يشفى المريض من تسممه .

د) وهناك الهذيان المنظم وهو مختلف عما ذكرنا كل الاختلاف ، فهو جنون حقيقي . وهنا قد تحتفظ الوظائف العقلية الاساسية بسلامتها . وقد يكون نشاط المريض طبيعيا فتراه ينجح في اختبارات الذكاء حين نوفق الى الحصول على رضاه باجرائها عليه ويمكن ان يستخدم في عمل عقلي وان يؤدي خدمات حقيقية . ولا يخطر على بالك انه مجنون مالم تمس الناحية الخاصة من افكاره الهذيانية . وحتى في هذه الحالة ، رغم انه يشوه كل الحوادث تشويها غير معقول ويؤولها تأويلات خيالية ، تلاحظ انه يربط بينها بمحاكمات لاغبار عليها من الناحية الشكلية ، ويظهر كثيراً من الرصانة والعند في دفاعه عن آرائه الجنونية . ومن ثم سمي بالمجنون المحاكم .

ويظهر هذا التباعد بين المحاكمة الصورية والتقدير الصحيح للوقائع ظهوراً واضحا لدى العقول المزيفة او لدى المخترعين او المصلحين الاجتماعيين المزيفين الذين يوجدون نظريات منطقية وصبيانية في آن واحد ، مثال ذلك :

كتب احد المرضى في ملجأ ب يقول : هناك كثير من العصافير في ب . وفي وسع رجل مسلح ببندقية ان يصطاد تسعين عصفورا منها في الدقيقة ، اي ٤٥٠ في خمس دقائق ، اي ١٨٠٠ في ربع ساعة ، اي ٧٢٠٠ في ساعة ، اي ٧٢٠٠٠ في عشر ساعات . ويمكن ان نستخدم في هذه العملية مائة رجل . اي يمكن اصطياد ٧٢٠٠٠٠٠ عصفورا في اليوم فاذا بيع كل عشرة بجزء من عشرة من الفرنك امكن الحصول على ٧٢ مليون فرنك يومياً ، تعطى لأعمال الاسعاف .

ويظهر هذا التباعد بين المحاكمة الصورية والتقدير الصحيح للوقائع في جنون الاضطهاد والعظمة على وجه الخصوص .

والشيء البارز هنا هو تضخم الذات وتضخم غرائز الدفاع عن الذات . والمنطق

الذي يوحي بالتركيبات المنطقية هو المنطق الانفعالي .

ويحصل هذا الجنون ببطء « ففي اول الامر لايكون هنالك الاشك غامض . فيقول المريض : إنهم يهتمون بي انهم يراقبونني ، انهم يسخرون مني » ثم تتضح الشكاوى وتتوافق ، فتصبح شخصية المريض كانها مركز العالم . فتراه ينير جميع الحوادث ، حديثها وقديمها ، على ضوء تاريخه الخاص ، فيقول عنها : انها اضطهادات يوجهها الي خصومي . وايمانه بذلك قوي مطلق لايتزعزع . ومثل هؤلاء المرضى خطرون ، يهاجمون كل السلطات ، ويزعجونها بالشكاوى الكثيرة والوشايات ، حتى لقد يتقدمون على بعض الجرائم ضد من يعتقدون انهم يضطهدونهم .

مثال : (ن) مستخدم في الحكومة . يعتقد ان رئيسه ينومه تنويما مغناطيسياً بواسطة مستخدمين آخرين وانه يريد ان يجعله مجنونا حتى يدخله مستشفى المجانين . ثم يكتشف بعد ذلك ان هؤلاء المغناطيسين على اتصال بعصابة سبقت ان نومت اباه وقامت بحوادث سلب (هنا تنصب الذكريات القديمة في الهذيان) وحين أدخل المستشفى زعم ان المرضى ليسوا بمجانين حقيقيين ، وإنما هم منومون لايجوز إدخالهم إلى مستشفى المجانين . انهم يضطهدونه لأنه يعرف فضائح حكومية ، وبسبب آرائه السياسية . وهو يسمي رئيس هؤلاء الذين يضطهدونه ويذكر لك عنوانه ، ويكتب الى البوليس يبلغ عن الامر ...

مثال آخر : الآنسة (ل) لها من العمر سبعون عاماً ، وقد بدأ هذيان الاضطهاد عندها في الثالثة عشرة ثم زاد عليه هذيان العظمة . تزعم انها ابنة نابليون وأن الشعب قد هلل لها وكبر . ولئن لم يدخل الألمان باريس عام ١٨٧٠ فذلك بفضلها هي .. الخ ... (يلاحظ في هذه الاحوال بقاء الذاكرة ، رغم تقدم السن وبقاء المعلومات المدرسية ، والقدرة على النجاح في اختبارات الذكاء) .

خلاصة عامة

والخلاصة ، ان الذكاء ليس الا صورة الفعالية العقلية بمجموعها ، عندما تتجه الى التلاؤم مع اي واقع مادي ، او عقلي ، او خلقي . ووظيفته دوما انما هي حل المشاكل والمعضلات ، ولكنه يختلف في الانواع الحيوانية ، كما يختلف من فرد لآخر .

وقد يصاب بمجموعة من الامراض تحذف منه قليلا او كثيرا . وليس لمقاييس الذكاء من اهمية اخرى اكبر من قدرتها على التمييز بين اسوياء الذكاء والمرضى ، وما يتبع ذلك من نتائج مختلفة في اعمال التربية ، وتنظيماتها الاجتماعية .

الفصل العشرين

التخيل المبدع

Imagination Créatrice

خلاصة البحث :

١ ـ تعريف الخيال

أ ـ التخيل التمثيلي
ب ـ التخيل الابتداعي

٢ ـ صورة التخيل المبدع

أ ـ الصور المرضية
أ ـ الوهم
ب ـ الخيال الخرافي (الميتومانى)
ب ـ الصور العفوية : الحلم واحلام اليقظة
ج ـ الصور العالية : الابداع
أ ـ الابداع الفني
ب ـ الابداع العلمي
ج ـ الابداع العملي

٣ ـ درجات الابداع

أ ـ المتابعة ، التقليد
ب ـ حسن الكفاءة
ج ـ العبقرية

٤ ـ عوامل الابداع : العامل الفيزلوجي والاجتماعي والنفسي

٥ ـ تحليل العمل المبدع : عمل الحدس والتفكير

١ — تعريف الخيال

يعرف الخيال بالقول : إنه ملكة استحضار الصور ، اي قدرة النفس على إحياء صورها المختلفة . ولكن الفرق كبير في ذلك بين :

أ - التخيل التمثيلي : الذي يكتفي باستحضار الصور المحفوظة من قبل ، كأن نستعيد صورة منظر مألوف او نغم معروف ، او غير ذلك :

ب - والتخيل الابتداعي : الذي يؤلف الصور الجديدة بالاستناد الى الصور القديمة واستعمال مادتها .

ولكن هذا الانفصال لاينسينا وحدة الحياة النفسية ، واختلاط جملة وظائفها ، بعضها ببعض ، فمن المعروف ان الخيال التمثيلي ليس الانوعاً خاصاً من انواع الذاكرة أو هو ذاكرة الصور ، وكذلك الخيال المبدع فانه متصل اكبر الاتصال بالخيال التمثيلي وبالذاكرة والعقل .

ولقد درسنا من قبل ، في بحثنا عن الصور ، كل مايمكن ان يقال ، في مثل هذا الكتاب ، عن الخيال التمثيلي ، فلنقصر بحثنا الآن ، إذن ، على الخيال المبدع ، ولنتكلم عن صوره المختلفة .

٢ — صور التخيل المبدع

إن للخيال المبدع صوراً مختلفة ، بعضها مرضي ، كالوهم ، والخيال الخرافي ، وبعضها ينشأ في النفس بصورة عفوية : كالحلم واحلام اليقظه ، وبعضها ينشأ بنتيجة الجهد والعمل الموجه ، كالابداع الفني والعلمي والعملي . وسنبحث عن كل من هذه الصور ، بكلمة مختصرة .

أ - **الصور المرضية** : نعني بالصور المرضية انواع التخيلات التي تنشأ في النفس بنتيجة حالة مرضية ، ذات اسباب فيزيولوجية في الغالب ، كالتعب او الفساد الدماغي او مايشبه ذلك .

١ - **الوهم** : فالوهم مثلاً صورة مرضية من صور الخيال ، ويعرف بانه ادراك دون مدرك ، كأن تتخيل في الظلام اشباح الجن والشياطين ماثلة امام اعيننا ، دون ان يكون لها وجود في الواقع . وكثيراً مايجادل علماء النفس في هذا الموضوع ، الا انهم في الغالب ، يعترفون بان الوهم ادراك مكبر لاحساس صغير ، ومعنى ذلك ان الانسان يلمح بصيصاً في الظلام ، فيحسبه بتأثير الخوف ، عيناً غريبة شيطانية تنظر اليه ، ثم يكتمل المنظر بجملة تفاصيل الجسم الذي يضم هذه العين ، باضافة الصور المناسبة ، ولهذا نرى انه ليس هنالك من فارق اساسي بين الوهم والادراك ، لان الوهم يستند الى احساس معين كالادراك ، الا ان النفس لاتضيف ، في الادراك الطبيعي ، الا بعض الصور المناسبة للاحساس ، والمألوفة فيه ، اما في الوهم ، فانها تضيف صوراً كثيراً غير متناسبة مع شدة الاحساس وقوته ، ولكنها متناسبة مع حالة النفس واضطرابها .

ب - **الخيال الخرافي** : اما الخيال الخرافي فهو ميل الى تحوير الحقيقة واختراع القصص الملفقة . وقد لايكون هذا الميل الا مجرد عبث خيالي ، وقد يلازمه حب اقناع الآخرين بان مالفق من القصص ان هو الا واقع اكيد .

وللاطفال ميل طبيعي الى مثل هذا الخيال . والواقع ان الطفل سهل التلقين ، وهو يقبل ، دون مقاومة ، سائر مايروى له من القصص ، لانه ضعيف القدرة على النقد ، قليل التمييز بين ادراكاته وخيالاته ورغباته ، ولما كان ضعيفاً ، قليل القوى ، فانه محمول على الدفاع عن نفسه بالكذب واختراع القصص الملفقة ، ولمثل هذه الاسباب ، نرى الخيال الخرافي أنمى عند المرأة منه عند الرجل .

ويميز عادة بين انواع مختلفة لهذا الخيال : فهنالك مثلاً ذلك الخيال الخرافي المدفوع بالغرور ، والذي يبدو تارة بتصنع المرض وأخرى بادعاء الاعتداء ، وثالثة باتهامات يوجهها المريض الى نفسه ، وكل ذلك بقصد اثارة الاهتمام والعطف واسترعاء الانظار . وهنالك ايضاً خيال خرافي مدفوع بالخبث ، وهو خيال النامين والدساسين ، وهو يبدو ، غالباً ، بصورة الرسائل المغفلة ، التي يوجهها المريض الى من يريد الانتقام منهم . وقد يبدو بصورة الاتهام الصريح ، وتقديم الدعوى الى المحاكم . وهنالك اخيراً خيال خرافي مدفوع بالفسق وحب السوء ، وهو يبدو على صورة اعمال تدفعها مثل هذه الدوافع السيئة .

ب — الصور العفوية : ان صور الخيال العفوية ، هي التي تنشأ في النفس بصورة طبيعية ، في حالات الشرود الذهني وضعف التوتر ، اوفي حالات النوم ، وقد تكلمنا في بحث الصور عن جملة الأحلام : الأحلام العادية واحلام اليقظة ، مما يغنينا عن العودة إلى البحث فيها من جديد .

ج — الصور العالية : الابداع : ان الخيال المبدع حقا هو هـذا الخيال الذي ينشأ عن الجهد والتأمل . ويتجلى لنا في قدرة النفس على انشاء صور جديدة ترضي حاجات العقل ، بالاستعانة بالصور القديمة . ومعنى ذلك ان الابداع لايتناول الا الصور التي كانت عليها الاشياء من قبل ، فيهدمها ، وينشيء لها من جديد صورة جديدة ، وعلى هـذا فان الابداع يقتضي عمليتين بآن واحد ، يمكن ملاحظتهما بسهولة ، في قيام المهندس بانشاء مخطط او تصميم ، وتأليف الروائي رواية يخترع لها ابطالها ورجالها . وهاتان العمليتان هما :

١ — عملية تحليل اولا : تحلل بها العناصر السابقة وتخرجها عن صورها القديمة .

٢ — عملية تركيب ثانيا : تجمع فيها هذه العناصر التي انحلت بالعملية السابقـة ، في تكوين جديد او صورة جديدة .

ولا شك أن الابداع أو الاختراع يعني بالدرجة الاولى اكتشاف شيء مخبأ اومجهول ، اما من وجهة علم النفس فانه يعني انتاج تركيب جديـد في عالم الصور او الفكر ، او تأليف مجموعة جديدة من الوسائل لخدمة غاية من الغايات ، ولهذا نرى ان صور احلام اليقظة او الاحلام — بصورة عامة — التي لاتهدف الى خدمة اية غاية ، ليست بابداع .

ونلاحظ مما تقدم ان للابداع انواعاً مختلفة : فمنه ماهو فني ، ومنه ماهو علمي ومنه أخيراً ماهو عملي .

١ — الابداع الفني : يهدف الابداع الفني إلى خلق أعمـــال أو مناظر ترضي الحس البديعي . ولقد اشار العالم ريبو الى جملة صور للابداع الفني . ولن نتكلم في هذا الكتاب إلا عن صورتين أساسيتين ، هما : الاختراع التصويري Plastique والاختراع الرمزي Diffluente .

أ — فأما الاختراع التصويري . فيتميز بوضوح الاشكال وجلائها ، كما يتميز بغلبة

العنصر التمثيلي (او العقلي) على العنصر العاطفي . فاذا كان للكاتب اتجاه تصويري ،فانه سرعان مايقلب الصور الصوتيـة الى صور بصرية اكثر وضوحا ، وابرز أشكالا . ومن المعروف عن بعض الكتاب انهم يعبرون عن كل عاطفـة باحساس مقابل : فاليأس مثلا نهر غارت مياهه ، والامل ربيع زاهر ، والخيبة إنقطاع حبل الارجوحة والوقوع على ماء بارد ... الخ .

ب- واما الاختراع الرمزي،فانه يتميز بغموض الصور وغلبة العنصر العاطفي عن العنصر العقلي: ولقدجرب الشعراء الرمزيون ان يهبوا للكلمات قيمة عاطفية بحتة . واحسن مثال على هذا الاختراع خيال الموسيقيين الذين يعوضون عن العواطف باصوات . ولقد بين ريبو في بعض مباحثه ، ان الخيال الموسيقي يؤدي في العادة الى تضاؤل او فقـدان الخيال التصويري .

ب- الابداع العلمي : كثيراً مايقال ان مقدار الخيال في علم من العلوم ،يعين نسبة نقص هذا العلم وقصوره عن الكمال . ولكنه يمكن القول أيضاً ان تقدم العلم يتناسب مع قوة خيال العالم . والحق ان الخيال مرحلة موقتة في العلم ، الا انهاضرورية .فالخيال هو الذي يوحي الى العـــالم : ١ - بالفرضيات التي يعلل بها الحوادث التي يدرسها ٢ - وبالطرائق التي يستطيع بها تحقيق هذه الفرضيات .

يقول ريبو في كتابه : الخيال المبدع :

« إن الخيال هو الذي يبدع ، وهو الذي يقدم للملكات العقلية مادتهـــا ، ووضع معضلاتها وطريقة حلها ايضاً . اما المحاكمة فليست إلا وسيلة مراقبة وتدقيق وتـبرير ، ووظيفتها ان تحول عمل الخيال إلى نتائج مقبولة ومنطقية » .

ج- الابداع العملي : لهذا الابداع صور عديدة : منها ١) الاختراع الآلي ،او إبداع المخترعين ، مثل اديسون ومار كوني ، ويقتضي هذا الاختراع ، فيما يرى ريبو ، خيالاً انمى من الخيال الفني . ٢) والاختراع التجاري ، أو اختراع رجال الاعمال ، مثل مشاريع الشركات والمعامل وغير ذلك . ٣) والاخـتراع الحربي الذي نراه عند كبار القواد كخالد بن الوليد او نابليون أو هندنبورغ .

٣ — درجات الابداع

من الصعب أن يكون الخيال تمثيلياً بحتاً ، يعيد صور الاشياء كما رئيت في الواقع . ومن الصعب أيضاً ان يكون الخيال مبدعاً كل الابداع ، فالخيال لايمثل ولا يبدع : بل يجول الصور القديمة تحويلاً صغيراً او كبيراً . ويمكننا أن نرى في هذا التحويل مختلف الدرجات ، بدءاً من مجرد المتابعة وانتهاء بالعبقرية .

أ — المتابعة والتقليد : نعني بالمتابعة أن يسير الانسان على طريقة السلف في أعماله المختلفة . ولا شك أن بعض انواع المتابعة من الامور الضرورية للمخترع : لأن من المهم مثلاً ان يكتب الكاتب بصورة صحيحة بحكم العادة او المتابعة . إلا أن المتابعة . مناقضة للاختراع ، لأنها تقتضي تكرار الماضي كما هو من غير تحويل . ولا تقتضي اي خيال ، ولا تنتج أي جديد .

أما التقليد فهو حد متوسط بين المتابعة والاختراع ، لأنه يقتضي التلاؤم مع حالة جديدة ، او شيء جديد . وبهذا نراه يقترب من الابداع . إلا انه ، من ناحية اخرى ، يتلقى هذه الجدة او هذه الطرافة من خارج ، لا من داخل ، وبهذا نراه يقترب من المتابعة : مثال ذلك ان يعارض شوقي قصيدة البحتري السينية ، وينشيء قصيدة جديدة على وزنها . فمن الواضح هنا ان شوقي يبدع ، ولكنه يبدع على مثال البحتري ، او على مثال خارجي لا ذاتي . وهكذا نقول : إن التقليد هو بداية ابداع ، أو هو إبداع الكسول : ينشأ بآن واحد ، عن رغبة في الابداع ، وقصور عنه .

والنفاجة (١) صورة من صور التقليد ، معروفة جداً . وهي في الحقيقة قصور عن العبقرية وإدعاؤها مع ذلك . وصاحبها خروف ، عريض الدعوى ، من خراف بانورج ، يقفز ولكن دون ان يترك محله من القطيع .

والاختراع ، على نقيض ذلك كله ، قدرة على تأليف جديد حقاً ، وقيمته تابعة لقيمة صاحبه ، وماله من كفاءة وعبقرية .

---

(١) النفاجة كلمة نترجم بها كلمة Snobisme الافرنسية ، ومعناها الحر في ان يأخذ الانسان من كل جديد شيئاً سطحياً جداً ، ويكثر من تكراره بقصد ايهام الآخرين بانه على اطلاع على كل جديد .

ب - حسن الكفاءة : ليست الكفاءة التي نمتدح بها رجلاً ، عند قيامه بالاعمال الموكولة اليه ، إلا صورة من صور التقليد . ولكنها تقليد ذكي . وتقتضي هذه الكفاءة : ١ - بعض المواهب الطبيعية ، ٢ - كما تقتضي ثقافة مكتسبة نامية .

ج - العبقرية : العبقرية موهبة طبيعية تقتضي وجود ملكات فطرية عالية جداً ، تستطيع تحطيم الأطر السابقة ، وتجاوز المتابعات المألوفة ، والوصول إلى أشياء جديدة كل الجدة .

٤ - عوامل الابداع

نلاحظ مما تقدم أن الابداع وليد العبقرية . فاذا شئنا تعليل العبقرية وشرحها ، كنا كمن يتساءل عن العوامل التي تهيء الابداع ويساعد على تحقيقه .

أ - ولقد زعم الفيزيولوجيون أن المبدع رجل مريض ، مرهق الاعصاب ، غريب الاطوار والحساسية ، بالمعنى العام والواسع لهذه الكلمة . والحق أن عدداً غير قليل من المبدعين ، كانوا مرضى من هذا النوع . إلا انه يجب ان نتساءل عما إذا كان هذا المرض سبباً للعبقرية ، او عما إذا كانت هذه العبقرية سبباً للمرض . والظاهر انه من الاصح الاخذ برأي الدكتور كراسة « Crasset » القائل : بان هذا المرض او هذا الارهاق العصبي ، يبدو كفداء او كثمن للابداع ، ومعنى ذلك أن جهد الابداع هو الذي يضني الجسد .

ويذهب الاجتماعيون مذهباً آخر ، يسبقهم فيه فلاسفة آخرون مثل تين وسبنسر ، مآل هذا المذهب إن الاختراع وليد العرق والوسط والزمان ، أو هو وليد الوسط الاجتماعي الذي يعيش المبدع فيه

ولا شك أن الابداع ليس بالامر الشخصي البحت ، بل هو عمل يتبع :

١ - حالة العلم والفن . ولقد برهنت الملاحظة التاريخية أن الاختراع العلمي او الفني يتحقق بمجرد توفر الشروط العلمية او الفنية المناسبة لنشوئه . وهكذا اخترع ، ليبنز ونيوتون حساب اللانهايات ، بآن واحد تقريباً ، وهكذا توصل العالم الروسي مندليليف والعالم الالماني لوثارماير Meyer إلى ترتيب الجدول الدوري للعناصر الكيماوية في وقت

واحد تقريباً ، وهكذا قال ويليام جيمس الامريكي ،و« لانج »الدانيمركي بنظرية واحدة في تعليل الهيجان ...

٢ — ويتبع ايضاً حاجات الجماعة ورغائبها . وهكذا دعت حاجات الحرب الى تقدم سريع في الطيران وفي غير ذلك من الاسلحة .

ومع ذلك كله فان الاختراع عمل شخصي بالدرجة الاولى . والواقع :

١ — أن المخترعين ليسوا كل الناس . بل هم أناس قلائل بين مجموعات تسير مع العمياء .

٢ — واكثر من ذلك ، ان الجماعات ، في الغالب ، تغلب عليها روح المحافظة وتبدو معادية للمجددين والمخترعين ٣٠ — ثم ان الاختراع اخيراً وليد العبقرية ، وهذه هبة شخصية .

ولهذا كله نرى ان العامل الاساسي في الابداع ، انما هو عامل العبقرية ، وهو عامل شخصي بحت ، لأنه ينشأ عن وجود بعض المواهب العظيمة ، كالخيال الموسيقى اوالبصري او عن انسجام تام بين مختلف الملكات والمواهب .

٥ — تحليل العمل المبدع

كل عمل مبدع ينشأ عن الحدس والتفكير معاً ، الا أنه قد يغلب الحدس على التفكير او التفكير على الحدس بحسب الظروف وبحسب الاشخاص ، وهكذانستطيع ان نميز بين طريقتين للابداع .

١ — أما الطريقة الحدسية ، فيمكن ان نميز فيها اربع هنيهات او اربع مراحل .

١ — ففي المرحلة الاولى ، مرحلة الجهد الجامع ، نلاحظ ان مواد الابداع يتجمع بعضها الى بعض ، حتى يتضح فيها وضع المشكلة التي نحاول حلها بالابداع .

٢ — والمرحلة الثانية ، هي مرحلة لا شعورية ، يتابع العقل خلالها سعيه وراء حل المشكلة ، وذلك بفضل ما اكتسبه في المرحلة الاولى ، من مرونه واهتمام .

٣ — والمرحلة الثالثة ، مرحلة عمل ملهم ، تظهر فيه نتائج اعمال المرحلة الثانية إلى ساحة الشعور .

٤ — والمرحلة الرابعة ، مرحلة عمل تأملي ، نفحص خلالها ما تراءى لنا من قبل انه حدس صحيح ، او حيالات موفقة ومعنى ذلك ان نخضع فرضياتنا تلك لمراقبة العقل وتدقيق المحاكمة .

ويقول العالم دولا كروا : ان الاختراع يقتضي نوعاً من التراجع ، او من التحليق في الظلام ، ثم يقتضي – بعد ذلك – رجوعاً الى المتميز والبين ، فكانه يتألف من تردد بين التوتر والارتخاء.

ب – اما في الطريقة التأملية ، فـــان العقل يبدأ من بذرة صغيرة ، انبتها الحدس بصورة عفوية ، ويحاول ان ينميها ويغنيها .

١ – اما البذرة فهي احيانا فكرة واضحة ، وهي احيانا اخرى صورة. وهي في اكثر الاحيان ، تأثر غامض يشير الى اتجاه يقتضي ان نسير فيه ، ويمكننا ان نسمي هذا التأثر «بالمثال المحرك». إن هذا المثال هو صورة غامضة الاختراع الذي نريد تحقيقه، فاذا استقر في النفس حركها الى انشاء الاخيلة التي تكمله، وتكسوه بما يجب له مثال ذلك ان نتخيل صورة غامضة لآلة سيارة او طائرة وان نحاول بعد ذلك ايضاح هذه الصورة بتحليلها الى اجزاء مختلفة ، وان نصل بين هذه الاجزاء المختلفة بوسيلة من الوسائل .

٢ – ومما لاشك فيه ان تنميه هذه البذرة امر يقتضي تأملاً طويلاً وصبراً كثيراً . فلا يخترع المخترع إلا بعد ان يلهث من التعب ، ويحبس انفاسه ، ويضيق صدره . والمثال هو الذي يوحي بالتفاصيل التي تكمله ، فعاطفة الشاعر توحي اليه بجملة الفكر والصور المناسبة لها ، وقصة الروائي تزداد لديه وضوحاً عندما يحاول سردها . والموسيقي يندفع ببعض الاصوات الى إنشاء ألحان رائعة .

وقد يتخذ نمو الفكرة المولدة او المثال الموجه ، صوراً عديدة منها التطور الطبيعي، ومعنى ذلك ان تضيف الى الفكرة الموجهة جملة فكر جديدة ، وان تحاول إنشاء الانسجام بين هذه الفكر . فصورة وردة ملقاة على الارض ، توحي بصورة حبيبة جميلة ، يرى الانسان انه مرغم على هجرها ، ثم يوحي هذا ايضاً بصورة ارض خصبة يعجز الانسان عن استثمارها الخ ... ولا نكتفي هنا باضافة هذه الفكر بعضها إلى بعض ، بل لابد من اعمال التفكير حتى نؤمن اتصالها بعضها ببعض وإحكام الانسجام بين مختلف اجزائها .

ولاشك أن الانسان قد يتعمد هذا التطور ويهدف اليه ، ولكنه في أكثر الاحيان يكون تطوراً طبيعياً ، يتم بالحدس والالهام ، وبصورة منفعـــلة محضة ، لا اثر لارادة الانسان فيها . وكثيراً ما نلاحظ أننا نبدأ بفكرة وباتجاه وننتهي بفكرة اخرى لم تكن لتخطر لنا على بال .

ولقد يكون هذا التطور نوعاً من التحول : ومعنى ذلك أن الفكرة الموحية او المثال

الموجه الذي بدأنا به ، يوحي بفكرة جديدة يغلب بعضها عليه ، ويسترعي الاهتمام اكثر من الموجه نفسه و كثيراً ما نلاحظ أن مقدمة كتاب نريد انشاءها تتحول الى كتاب تام او الى قصة كبيرة ، او إلى بحث باريخي واسع ، او الى نظرية عامة يجب تحقيقهـــا والبحث عما يزيدها .

وهنالك اخيراً تطور عن طريق الانحراف ، فقد يعرض علينا موضوع يجب الاجابة عليه ، وتبدو لنا هذه الاجابة على صورتين مختلفتين لانستطيع التوفيق بينهما . فنعرضهما معـاً دون ان نهتدي الى حل وسط جامع . وهذا الانحراف واضح جـداً في كثير من مسابقات الطلاب ، إذ كثيراً ما يجيب الطالب ، بمنـــاسبة السؤال المطروح عليه ، على سؤال آخر يوحي به ذلك السؤال ولكنه يهمل الاجابة على السؤال الرئيسي ، بالرغم من شعوره التام بضرورة الاجابة عليه .

خلاصة عامة

لقد تبين لنا ، من كل ما تقدم ، أن للخيال وظائف عديدة تبدأ من القدرة على إعادة تمثيل الصور السابقة وتنتهي بخلق صور جديدة او طريفة .

ولاشك ان للخيال درجات ينحط فيها الى الحالات المرضية ، كالوهم والوهم الخرافي ، وحالات أخرى تنشأ عن ارتخاء التوتر النفسي كاحلام النوم واحلام اليقظة ، وحـالات ثالثة تنشأ عن شدة التوتر النفسي وتعاليه ، وهذه هي حالات الابـداع الصحيح ، الذي يتخذ صوراً عديدة كالابداع الفني او العلمي او العملي .

ولا شك ايضاً أن الابداع بحاجة إلى المتابعة ، وهذا يعني ان الفعاليات المبدعة تستند إلى الفعاليات المحافظة ، وإذا بدأ الابداع بدأ على صورة التقليد ، الذي يستمد مثاله من خارج ، ثم تأبى العبقرية الا أن تستمد مثلها من داخلها .

ويرى بعض المؤلفين أن العامل الفيزيولوجي هو الاساس في نفسية المبـدع ، ويرى آخرون أن العامل الاجتماعي والحاجات الاجتماعية هي التي تهيء الابداع ونحن نرى أن العامل الفردي او العبقرية هي الأساس الاول في الابداع ، وليست العوامـل الاخرى إلا عوامل مساعدة او نتائج تنشأ عن فعالية العبقرية .

وينشأ الابداع عن فكرة صغيرة ، نضيف اليها ما ينسجم معها ويأتلف مع بنيتهـا

وقد تكون هذه الفكرة محور الابداع ، فتبقى دوماً في المركز ، وتتضخم تدريجياً وتنمو تباعاً بما نضيفه اليها ونزيده عليها .

وقد تكون الفكره هامشية لا تلعب إلا دور الموحي الاول، فاذا انضم اليهاغيرها، أزاحها من المركز وحل محلها على سبيل الاستبدال او الانحراف . وهكذا نرى انه يمكن ان نبدأ من مركز وننتهي بمحيط ، كما يمكن ان نبدأ من نقطة محيطية لننتهي إلى المركز .

ويعني ذلك كله أن الابداع اولاً وآخراً ليس فعالية خاصة ، بل هو مجموعة الفعالية العقلية في حالة شديدة من التوتر ، او هو الذكاء نفسه ، او هو العقل البناء الذي يحاول التلاؤم مع الضرورات المحيطة به .

الفصل الواحد والعشرين

الارادة

La Volonté

خلاصة البحث

١- وصف وتعريف

أ – صفات الفعل الارادي :

١ – الفعل الارادي فعل جديد

٢ – « « « تأملي

٣ – « « « شخصي

٢ – تحليل الفعل الارادي :

أ – تصور الفكرة

ب – مناقشتها

ج – تقريرها

د – تنفيذها

مناقشة هذا التحليل

٣ – عوامل الفعل الارادي :

أ – العامل العضوي

ب – العامل الاجتماعي

ج – العامل النفسي

٤ – امراض الارادة

الارادة

١ — وصف او تعريف

يسمى الفعل ارادياً عندما يصدر فيه صاحبه عن التفكير : ومعنى ذلك انه لايندفع اليه بتأثير الغريزة ، او بتأثير العادة ، مثال ذلك ان نتنزه بعد الشعور بضرورة النزهة او تصور فوائدها ، او ان نقرأ فصلا من كتاب يهمنا ان نقرأه ، او ان نخاطب محدثنا بكلام هيأناه من قبل في عقولنا ... الخ .

أ — **صفات الفعل الارادي** : ويتبين لنا ، مما تقدم ، انه لابد للفعل الارادي من أن يكون :

١ — **جديداً** : ومعنى ذلك انه ليس تقليد الاعمال سابقة تعودناها (العادات) اوفطرنا عليها (الغرائز) بل انه فعل يمتاز بجدته او بطرافته ، فمن يحيينا دوماً بقوله : السلام عليكم ، ومن يجيبنا على سؤالنا عن حاله : انني بخير والحمد لله ، لايكون في الحقيقة قد أتى فعلا ارادياً ، لان هذه الكلمات عادات اتخذناها والفناها لمثل هذه المناسبات . وليس فيها اي جديد ، ولعلنا نسمعها من كل انسان نلقاه ونبادله ويبادلنا التحية . اما اذا حيانا احدهم بقوله : على الصديق سلام ، وله منا المحبة والاحترام ، او اجابنا عند سؤالنا عن حاله : بين بين ، لا انا في الشر كله ولا انا في الخير كله . فلا شك انه يحدثنا باجابات جديدة ، غير مألوفة .

والفعل الارادي جديد ، بمعنى آخر ، ذلك ان محتواه النفسي اغنى من محتوى الافعال الاخرى التي تصدر عن العادة او التقليد او الغريزة ، والحق ان في الفعل الارادي نية تهدف الى العمل وغاية يطلب تحقيقها ، وفي هذا وغيره مما يحتاج اليه الفعل الارادي غنى بالشعور الذي لايتوفر في الغريزة ، ولايظهر ظهورا واضحاً في العادة .

وخلاصة القول ان الفعل الارادي جديد ، لانه ليس بالتقليد ، ولا هو بالعمل الذي يتم بدون شعور او على هامش الشعور .

٢ — **وتأملياً** : ومعنى ذلك ان في كل فعل ارادي تفكيرا سابقاً يتأمل الغاية المطلوبة ، وينظر الى الوسائل التي تحققها ، ويناقش في قيمة الغاية والوسائل معاً . ولكن ليس

معنى هذا أن التأمل في كل فعل ارادي يبلغ اقصى مداه : بل انه تأمل متفاوت الدرجات بحسب الافعال ، فتارة نفكر باعمالنا تفكيراً عميقاً ، وتارة اخرى نكتفي بالفكرة العارضة ونقف عليها .

والامر في الفعل المنعكس والغريزة والعادة على عكس ما هو في الارادة ، لان هذه الافعال تنطلق بالجملة من تلقاء نفسها ، دون تفكير سابق ودون قصد الى غاية واضحة ، أما في الارادة ، فان الفعل لاينطلق الا بعد تفكير ضئيل او كثير ، بحسب الوضع الذي نحن فيه ، والعمل الذي نقدم عليه .

٣ — وللفعل الارادي اخيراً **صفة شخصية** : ومعنى ذلك ان الفعل الارادي ينبجس من ذات معينة ، يصورها ويعبر عنها ، وكأنه بذلك يصور شخصية معينة : لها جملة مواهب وجملة ميول وجملة اتجاهات . ولهذا كانت اعمالنا الارادية صوراً لذواتنا ونزعاتنا .

ولما كان كل فعل من افعالنا رداً طبيعياً على الموقف الواقعي او الاجتماعي الذي نحن فيه ، فانه يسهل علينا ان نلاحظ كيف تعبر افعالنا عن طريقتنا في الرد على المواقف المحيطة بنا : فاذا وجد احدنا مالاً في الطريق ، وانطلقت يده بسرعة الى المال لكي يضعه في الجيب ، فلاشك اننا جميعاً نقدر شخصية هذا الانسان ، ونضع له علامة نقدره بها بين الاشخاص . واذا سارع غيره الى دفع هذا المال الى السلطات المسئولة ، حتى تبحث عن صاحبه ، فلاشك ايضاً اننا نجد صورة جديدة لشخصية اخرى غير الاولى ، ونقدرها بعلامة اخرى .

وسواء أكانت اعمالنا رداً على المواقف التي نحن فيها ، اوكانت اعمالاً ذاتية ليس لها دافع واضح ، فانها بالجملة تعبر عن طرائقنا الخاصة في الحياة ، وعن نوع الشخصية ، الذي نحن من طينته . وبهذا كله يتجلى لنا العمل الارادي شخصياً بالدرجة الاولى .

٢ — تحليل الفعل الارادي

يميز في الفعل الارادي عادة ، اربع مراحل منفصلة بعضها عن بعض .

اولها : التصور او تصور الهدف : ومعنى ذلك اننا في كل فعل ارادي نضع امام اعيننا هدفاً نحاول تحقيقه ، كالتنزه في مثال النزهة السابق ، او الثقافة في مثال قراءة

فصل الكتاب ، وليس في هذا التصور مبدئياً غير فكرة معينة نحاول ان تتحقق .

والثاني : هو **مناقشة الفكرة** Deliberation : ويعني ذلك أننا لاننـدفع من الفكرة الى الفعل ، اندفاعاً آنياً ، بل نقف على الفكرة لنناقش بواعثها العاطفية ، وعواملها العقلية ، اي أننا نناقش محسناتها ومساوئها ، أو مصادرها وموارداها ، ويجب أن نعرف أن الانسان لايناقش في هذا الموضوع مناقشة عقلية خالصة ، بل كثيراً ماتدخل عناصر أخرى في حسابه : كالميول والرغبات والعواطف التي توجهه إلى هذا العمل اوذاك . والنتيجة في المناقشة لاتقتضى الوقوف على الاتجاه الذي يعينه العقل ، دوماً ،بل تقتضي شعور الانسان الواضح بما يحمله على العمل في إتجاه دون آخر ، وتقديره جملة هذه الدوافع ،بقيمة من القيم .

والثالث : هو **التقرير أو العزم** Decision or Resolution ، ويعني ذلك أننا نتخذ ، عندأنتهاء المناقشة ، موقفاً من المواقف ، ونقرر عملاً من الاعمال .

والرابع : **هو التنفيذ** Execution ، أي أن نحقق بالعقل ماقررنا عمله . ومثال ذلك كله أن يفكر الانسان بالزواج مثلاً : فمجرد الفكرة تصور لهدف ، ولكنه لايفكر الآن ، وينفذ بعد دقيقة او ساعة ، بل يناقش الدوافع التي تدفعه إلى التفكير بالزواج ، فيضع مثلاً في إحدى كفتي الميزان ، محاسن الزواج . كالاطمئنان إلى رفيق في الحياة ، والاستقرار في حياة طبيعية سعيدة ، والاستمتاع بلذة الابوة ، ويضع في الكفة الثانية مساوىء الزواج : كالمسئوليات المادية ، وامكان سوء التفاهم ، ووقوع المشاكل العائلية ، وهذا كله يسمى بالمناقشة . إلا أن الحالة الطبيعية هي ان ينتهي الانسان في المناقشة إلى حل معين ، هو هذا الزواج أو عدمه . وهذا هو التقرير ، فاذا أتبع قراره هذا بالعمل المناسب لتحقيق الزواج ، كنا أمام مرحلة التحقيق :

مناقشة هذا التحليل

إن تحليل العمل الاداري ، على هذه الصورة ليس بالامر الذي يتفق مع الواقع النفسي .

أ — فكثيراً مايسبق العزم مناقشة الاسباب والبواعث ، وليس غريباً أن ترى صاحب الهوى قد اتخذ قراره في عمل من الاعمال ، قبل أن يتبين العوامل التي تدفعه اليه ، واذا حاول فحص الاسباب ، والتدقيق فيها ، فانه يفعل ذلك في نوع من العبث الفكري الذي يريد اللهو ، قبل أن يريد تنظيم السلوك . وربما ظهر لصاحب الهوى ان

مناقشته المتأخره للدوافع التي تدفعه الى الفعل، هي التي جعلته يقرره، مع أنه في الواقع لايزيد على أن يرفع بها درجة قناعته بصحة عمله. واذا أنكرت المناقشة عليه وجاهة العمل، تراه يضرب بها عرض الحائط، وينفذ عمله راضياً مسروراً، ومثله في ذلك كل صاحب غرض أو منفعة، أو كل من يحمل في نفسه بعض الافكار الثابتة، أو المألوفة أو التقليدية، أما الرجل العادي الذي يفكر قبل أن يعمل، فكثيراً مايسبق عزمه النهائي، انصاف عزم، أو «أنصاف قرارات» يتخذها على سبيل الفرض ليعين نتائجها، أو ليحاكم على اساسها. والخلاصة إن المناقشة لاتسبق بالضرورة العزم أو التقرير، بل كثيراً ماتأتي متأخرة عنهما.

ب — ثم إن التحليل السابق، يجعل مرحلة العزم بمثابة جوهر العمل الارادي، ولا يقيم لمرحلة التنفيذ قيمة كبيرة. ويرى علماء النفس الآن، أن مرحلة التنفيذ اعظم أهمية في الارادة، من كل مرحلة اخرى، لأنها الشيء الوحيد الذي تمتاز به الارادة عن أية عملية عقلية أخرى، كالمحاكمة مثلاً.

ج — وقد كانوا يحسبون — فيما مضي — أن الارادة تدخل في المناقشة، فتقطعها او توقفها، وتعين للانسان عزمه او تقريره. وكأنهم بذلك يحسبونها ملكة مستقلة، تستمد قوتها من أعلى، وتعمل عملها بغير حساب. أما الآن فقد اصبح الفلاسفة يرون ان تدخل الارادة يكون — اكثر ما يكون — في مناقشة العوامل والبواعث الدافعة إلى الفعل.

والخلاصة إن الارادة تنهج في عملها نهج المحاكمة. والشيء الاول فيها هو عزم او قرار تثيره الرغبة. ثم يتدخل العقل أو الارادة، فيوقف هذا العزم او يحول دون تنفيذه، ريثما يناقشه من جملة وجوهه. فاذا اقرته المناقشة، نفذ، وحقق، وإلافانه يترك ويعدل عنه. ومن ذلك يخلص لنا أن الارادة هي، قبل كل شيء، **ارادة توقف**، Inhibition لانها تحول دون تنفيذنا المباشر لرغباتنا، وترغمنا على البحث فيها، والنظر في امرها. فاذا قمنا بتحقيق هذه الرغبات أخيراً، قمنا بها بعد توقف عنها، على عكس ما نراه في الحالة الطبيعية في الرغبة، لأنها تنفذ، بصورة مباشرة بمجرد ظهورها.

يخلص لنا من المناقشة السابقة أن الفعل الارادي التام النضج هو الذي يقبل الانقسام، بوجه ما، الى هذه المراحل الاربع التي ذكرناها. ولكن هنالك درجات مختلفة للارادة، يصعب تقسيمها إلى هذه المراحل، مثل إرادة الاطفال التي لا تختلف عن رغباتهم، والارادة التي نمت قليلاً، فأصبحت رغبة وتوقفاً معاً، وإرادة الابطال الذين يتعين سلوكهم بحكم

Desire and Inhibition

مبدأ أصيل في نفوسهم لايمكن التخلي عنه . ونلاحظ هنا أن مثل هذه الارادة لا تقبل المناقشة في التزام نوع السلوك الذي يلائمها . وقد تندفع الى جملة أعمالها بقوة تتناسب مع وضوح مبادئها ، وصراحة اتجاهاتها . ولهذا كله ترى ان التقسيم السابق لايتفق ، اكثر الاحيان ، مع الواقع النفسي .

٣ — عوامل الفعل الارادي

يتعلق العمل الطبيعي للارادة ، بجملة عوامل : عضوية واجتماعية نفسية ونحن ذاكرون هنا كلمة عن كل من هذه العوامل :

١ — **العامل العضوي** : يتعلق العمل الارادي ببعض الشروط العضوية ، ولا بد فيه من سلامة المراكز النفسية — الحركية (الفصيص الشبيه بالمركزي ، والتلفيف الجبهي الصاعد) وإذا اصاب الفساد هذه الحركات الآلية او اللاإرادية سليمة ، أما الاعمال الارادية التي تقتضي الفعالية العقلية فانها تفسد او تصبح مستحيلة .

ولقد حاول بعض الفلاسفة ، مثل ريبو خاصة ، إرجاع العمل الارادي الى الفعل المنعكس ، وعنده ان العمل الارادي قد ينشأ عن اشتراك مجموعة من الافعال المنعكسة ، او عن انتظام طائفة من الافعال ، في مجموعات منسجمة ، حتى ليمكن القول بان الفعل الارادي هو ثمرة الجهاز العصبي كله ، او هو آخر مرحلة من تطور بطيء ، اوله الفعل المنعكس ، وآخره الفعل الارادي ، أما شعور الانسان بارادته ، او شعوره كمريد ، فليس — فيما يرى ريبو — إلا حادثة ملحقة لا اهمية لها . ويقول ريبو في ذلك :

« هنالك عنصران متميزان في كل عمل إرادي : الاول منها حالة الشعور ، (او ال = أريد =) التي تلاحظ موقفاً من المواقف ، دون ان يكون لها أي تأثير في سير العمل ؛ والثاني هو آلية نفسية — فيزيولوجية ، معقدة جداً ، هي التي تملك وحدها قدرة العمل أو التوقف . »

ولاشك انه يستحيل علينا نفي علاقة الفعل الارادي بالحالة العضوية العامة ، وخاصة بالدماغ . إلا أن من الصعب أن نذهب ، في تأويل هذه العلاقة ، مذهب ريبو وأتباعه من الفيزيولوجيين ، فالارادة — فيما نرى — ليست عملا فيزيولوجياً معقداً فحسب ، بل هي

أيضاً مناقشة وتردد وتوقف وبحث . وهذا يعني أنها شيء نفسي بالاضافة إلى الشروط الفيزيولوجية .

the sociology theory

٢ — **العامل الاجتماعي** : لنلاحظ الآن ، أن العمل الارادي يتعلق أيضاً ببعض الشروط الاجتماعية . والحق أن التربية والوسط الاجتماعي هما اللذان يفسران الانسان على التوقف عن تنفيذ رغباته المباشرة ، واندفاعاته الآلية ، كما يفسر انه على النظر في عواقب أعماله ، ومغبات افعاله ، وعلى التقيد في ذلك باحكام العقل ، والخضوع له . ولا يعني ذلك شيئاً آخر غير إرغام الانسان على التفكير قبل العمل . وهذه هي الارادة .

ويرى علماء الاجتماع ، في مثل هذه الاعتبارات ، وسيلة لرد الفعل الارادي إلى حادثة إجتماعية — نفسية ، ذلك أن الارادة لاتتدخل في أعمالنا ، إلا لتعوض عن الدوافع النفعية أو الشخصية لها ، بدوافع مثالية عالية . ثم إن هذه الدوافع العالية ليست شيئاً آخر غير high impulses

general behavior

قواعد السلوك العامة التي يفرضها المجتمع على أفراده ، فاذا تحكمت هذه القواعد في السلوك الشخصي ، فمعنى ذلك أن المجتمع هو الذي يتحكم فيه ، وأنه هو الذي يوقف النزوات الفردية ، ويرتقي بها إلى مستوى الافعال الادارية ، ولما كانت هذه القواعد شاملة لجميع انواع السلوك ، وواحدة لجميع الناس ، فانها تصبح بذلك مصدر قوة للسلوك الذي ينقاد لها ، كما تصبح سبب الوحدة والانسجام في سلوك الافراد .

وليس من شك أن هذه الضرورات الاجتماعية التي تتحكم في سلوك الافراد ، تساهم مساهمة كبرى في رفع الانسان عن الخضوع لرغباته الشخصية ، ومصالحه الدنيئة الذاتية والتعويض عنها برغبات مثالية . إلا أنه يجب الاعتراف أيضاً بان هذا التأثير الاجتماعي ليس هو الذي ينشيء رفعة الانسان ، ويرقى باعماله إلى مستوى الأعمال المعقولة ، أو الارادية ، إذ أن الذي يعمل بوحي الرأي العام ، أو خضوعاً لضغطه لايختلف بشيء عن الذي يعمل بوحي معدته أو شهواته . وليس الرأي العام أو الضغط الاجتماعي إلا فرصة تتيح للانسان أن يفكر بعمله ، وأن يتساءل عما إذا كان خيراً أو شراً ، حسناً أو سيئاً ، وأن ينتهي في التساؤل إلى جواب مناسب قد يتفق مع الرأي العام حينا ، ولكنه يختلف عنه في أكثر الاحيان . والعقل وحده حيلة الانسان في هذا التساؤل ، وهو أداته في الوصول إلى الجواب المناسب وليس العقل كله بشيء إجتماعي .

ومثال ذلك : أن يفكر الانسان ، بتعليم بناته ، في مجتمع محافظ ، تمنع تقاليده تعليم

البنات ، فاذا انقاد لرغبته الاولى دون تفكير كاف ، فعمله أقرب مايكون إلى النزوات الفردية ، والرغبات العادية . إلا ان المجتمع المحافظ يرغمه على التفكير بعواقب عمله التي قد تجر عليه السوء والاذى ، فيتوقف قليلا عن تنفيذ رغبته ، ولاشك أن هذا التوقف يعبر عن أول طور من أطوار الارادة . ولكنه إذا انقاد لرأي الجماعة ، وعمل به ، فانه لايكون أقوى إرادة منه وهو ينفذ رغبته الابتدائية ، دون مناقشة . أما إذا فكر في الموضوع حق التفكير ، فانه سيتوقف أولا ، ثم يناقش رأي الجماعة لينتهي أخيراً بالحكم عليه ، لا له ، فاذا نفذ إرادته هذه ، بعد المناقشة والحكم على رأى المجتمع بالخطأ ، فانه ولا شك يكون قد « أراد » حقاً .

٣ — **العامل النفسي** : ويجب الا ننسى اخيراً ان للفعل الارادي جملة شروط نفسية بعضها من نظام عاطفي ، وبعضها الآخر من نظام عقلي . اما من الوجه الاول فلا إرادة بدون ميل اورغبة . والرغبة هي المحرك الذي لاغنى عنه للارادة . اما من الوجه الثاني ، فانه لاإرادة ايضاً بدون معرفة العمل الذي يجب إنجازه ، والنتيجة التي يجب ابتغاؤها .

أ — وقد اراد بعض الفلاسفة إرجاع الارادة إلى الرغبة (وهذا رأي الفلاسفة الحسيين ، مثل كوندياك) . وكما ان الانتباه في رأيه . ليس سوى إحساس مهيمن او منحصر فكذلك الارادة ليست إلا رغبة مسيطرة او مهيمنة . او مطلقة .

ولا شك ان الارادة تقتضي الرغبة . وقد رأينا ان ارادات الاطفال ليست إلا رغباتهم إلا ان الارادة في الغالب غير الرغبة . لاننا عندما نقوم بفعل إرادي نشعر بجهد لا نشعر بمثله عندما نحقق رغبة من الرغبات : فالتعب اللاهث يطلب الماء مباشرة فاذا شرب ، حقق رغبته ولم يقاومها ، ولكنه لايكون في عمله قد حقق إرادة . لأن الارادة هنا تقتضي مقاومة الرغبة حتى لا نقع باضرار الشرب في مثل هذه الاحوال .

ب — وقد أراد فلاسفة آخرون إرجاع الارادة إلى العقل ، وهذا هو رأي افلاطون وأرسطو قديماً . ورأي سبينوزا في القرن السابع عشر ، ورأي الفيلسوف لابي Lapie حديثاً .

ويرى سقراط وأفلاطون أن الانسان لايعمل إلا ما يعلم انه خير ، وليس من رجل شرير بمحض ارادته ، والفضيلة علم ، والرذيلة جهل ، فاذا عرف الانسان الفضيلة حققها ، وإذا جهلها أتى الشر ، لأنه لايعرف الخير .

أما سبينوزا فيرى ان الارادة والعقل شيء واحد لا شيئان .

ويرى لابي أن العمل يكون إرادياً عندما يحكم العقل عليه بأنه حسن وممكن

وعندنا أن الارادة لاترد إلى العقل وحده ، لأنه ليس من شك أن للدوافع العاطفية اثراً كبيراً في الارادة ، وكثيراً ما نلاحظ ان قوة التفكير والاغراق فيه مصحوبان بالتردد وضعف الارادة .

د — وهذا كله مما حدا ببعض الفلاسفة إلى اعتبار الارادة ملكة مستقلة لاعلاقة لها بعواملها ، وهكذا زعم جيمس أن الارادة شيء قائم بذاته : فالعقل يوجه الفعالية والعاطفة تحركها ، ولكن الارادة هي التي تقرر .

entity

وإذا سمينا اصحاب هذا الرأي « بالفلاسفة الاراديين » فانه يمكننا تميز ثلاثة وجوه لآرائهم ، ونرى ثالثها اقرب الوجوه الى الصواب .

١ — أما الوجه الاول ، فهو الرأي القائل بان الارادة مستقلة عن البواعث العاطفية والعوامل العقلية ، أي أنها مستقلة عن الرغبات والتصورات . ولا شك أن في هذا الرأي جانباً من الصواب ، لأنه إذا كانت الرغائب والتصورات لاتكفي وحدها لانشاء العزم أو التقرير الارادي ، اولا تؤدي اليه بصورة آلية ، وإذا كانت هنالك هنيهات تردد ، فذلك يعني اننا نملك على الاقل قدرة على التوقف تستطيع ان تعطل اثر الرغائب والتصورات ، وهذه القدرة على التوقف قد تكفي وحدها لانشاء مفهوم الارادة إلا ان هذا الرأي ليس بمقبول تماماً ، اذ من أين تستمد الارادة قدرتها على مقاومة الدوافع العقلية والعاطفية ؟ فاذا كانت تستمد هذه القدرة من قوة دوافع عقلية وعاطفية أخرى ، فاننا نعود بذلك الى نظريات لايقبلها اصحاب هذا الرأي ، وإذا كانت تستمدها من قوتها الخاصة ، فمعنى ذلك أن الارادة تصبح سراً غامضاً لايمكن تعليله وتحليل عناصره .

٢ — وأما الوجه الثاني فهو اعتبار الارادة محصلة للعوامل العقلية والبواعث العاطفية . والحق ان العقل يقتضي ان يكون كل قرار إرادي نتيجة للحالة النفسية التي يكون فيها الانسان ، حين يتخذه . ثم إن تحليل الشعور يطلعنا على انه كل تغير في اتجاهاتنا الارادية يقابله تغير في حالتنا النفسية ، أوظهور رغبة او فكرة او فكرة حقيقية لم تكونا من قبل فيها ، ومع ذلك كله فان هذا الرأي ليس اكثر وجاهة من الرأي السابق : ذلك اننا في كل لحظة من لحظات الحياة ، نتأثر بطائفة من القوى التي لابد من وجود محصلة لها ، ومع ذلك فاننا لانعمل دائماً ، وقد يعرض لنا ان نعلق قرارنا ونقف دونه ، وإذا عملنا ، فلا

نلاحظ أن كل اعمالنا تعتبر ارادية . وهذا يعني اخيرا بان الارادة شيء آخر غير محصلة القوى التي تدعونا الى العمل .

٣ — ويبقى بعد ذلك ان تكون الارادة تركيبا للعوامل والبواعث . اما المحصلة ، فقد يفهم منها انها تنشأ عن تفاعل القوى ، بصورة آلية ، وبدون ان يكون لذواتنا فيها اثر . اما التركيب فهو عمل الذات او عمل [الانا] ، التي تحبذ العوامل والبواعث الجديرة باثارة فعل يطلبه العقل . ويذكر ريبو حالة كثير من المرضى الذين يرون ، بكل وضوح جملة الاسباب التي توحي باتخاذ قرار من القرارات وتراهم كذلك يرغبون باتخاذ هذا القرار ويفهمون ضرورته ، ولكنهم مع ذلك لايستطيعون إتخاذه . وهنالك ايضاً طائفة من النفوس المترددة التي لاتنتهي من بحث مايدعو ومالا يدعو الى إتخاذ هذا القرار او ذاك . وهنالك ايضاً من يعمل بتأثير الدوافع الحاضرة ، بصورة سريعة ، لاينتظر معها ان يلمح جملة اعتبارات قد تكون غائبة عن البال ، في ساعة العمل ، ولاشك ان هؤلاء جميعاً تنقصهم هذه القدرة على التأليف بين جملة القوى التي يتعاقب تأثيرها في نفوسهم . وليس من عمل إنساني حقاً ، أو إرادي حقاً ، بدون هذه القدرة على التأليف او على التركيب .

ولنلاحظ ان هذا التأليف لايتم بين جملة القوى الشعورية فحسب ، ولايتم كله في دائرة الشعور الواضح ، بل كثيراً ماتأتلف القوى الشعورية واللاشعورية معاً ، في تركيب اداري عال : وكثيراً مايتم هذا التأليف على هامش الشعور . فاذا ماظن إنسان انه يتخذ قراراً مابحكم الاسباب الموجبة البارزة في مسرح الشعور . فان هنالك الف إحتمال للاعتقاد بان الاسباب اللاشعورية المؤيدة ، هي الاقوى والاكبر أثراً ، وان تلك الاسباب البارزة ليست كذلك ، إلا لان وراءها ، في الجانب اللاشعوري من النفس ، ما يؤيدها ويجعلها قوية .

ولنلاحظ الآن ان هذا التركيب الاداري ، مسبوق بتحليل ، تتحطم فيه الآليات المؤتلفة ، والعادات المستحكمة ، لتصبح عناصر بسيطة حرة مرنة ، يمكن إنشاء تركيب جديد منهـــا . ولهذا شبه العمل الارادي بالعمل المبدع ، لانهما جميعاً يشتركان في الحاجة الى تحليل المركبات القديمة ، والخروج على المتابعات التقليدية ، والوصول من ذلك الى مركبات جديدة جامعة .

٤ — امراض الارادة

ان الارادات الطبيعية او المتزنة هي تلك يتم فيها التوازن بين القوى الدافعة الى الفعل ، والقوى المانعة عنه . ومن الواضح أننا لانعني بهذه القوى الاخيرة إلا قدرة الانسان على التوقف عن الفعل ، مادامت المناقشة لم تنضج الرأي فيه . فاذا ضعف التوازن بين هذه القوى ، نشأت لدينا انواع من الارادات ، يمكن تسميتها بالارادات المريضة .

ح) وهنالك إرادات ضعيفة ينشأ ضعفها عن فقدان القدرة على التوقف . وهذه هي الارادات الاندفاعية التي تقرر وتعمل دون مناقشة كافية .

ب) وهنالك ارادات مريضة ، ينشأ ضعفها عن فقدان القدرة على الفعل ، فالمترددون مثلا يقلبون وجوه الرأي الف مرة ، ويمضون من اولها إلى آخرها ، ثم يعيدون الكرة ، دون ان يستطيعوا الوصول إلى اتخاذ قرار مناسب ، بل كثيراً مايلوح لهم أن قراراً ما هو الا نسب في موقف من المواقف ولكنهم لايملكون الانتقال من الحكم بصحة القرار إلى إتخاذ القرار نفسه .

فاذا تضاءلت عند الانسان هاتان القدرتان معاً : أي القدرة على العمل والقدرة على التوقف فقد أصبح من ذوي الارادات الضعيفة الذين يتركون للاخرين أمر اتخاذ القرارات المناسبة عنهم ويمضون على حسب رأيهم .

ح) وهنالك إرادات ينشأ ضعفها عن افراط في بعض عناصر الارادة . كالافراط في التوقف الذي نراه يشل حركة بعض الناس ويجعلهم يتهيبون او يخشون من كل خطوة يخطونها خوفاً من أن يكون وراءها ما لم يقدروا وجوده من قبل . وعن الافراط في التوقف ينشأ ضعف آخر في ارادة بعض الناس يتجلى في العناد أي في ضعف قدرة الانسان على الخروج من وجهة نظره الى وجهة نظر أخرى تبدى له ، كأنما يقدر ايضاً ان وراء هذه الوجهة الجديدة أموراً قد لاتحمد مغبتها أو كالافراط في الاندفاع الذي

نراه في بعض الناس الذين يقدمون على كل المخاطر في سبيل الوصول الى اهدافهم كأن يحاول الانسان شرب الخمرة مثلاً ولو كان دونها ألف خطر وخطر بل ولو كان بينه وبينها الف جندي باسلحتهم وهم مستعدون لقتله قبل الوصول اليها .

فاذا كان الافراط في قوة الاندفاع وقوة التوقف معاً نشأ لدينا نوع من ضعف

الارادة الذي يمكن تسميته بالاضطراب ذلك أن هذا النوع قد يتجلى بارادات اندفاعية أحياناً كما يتجلى بارادات عنيدة احياناً اخرى وكل ذلك بحكم فقدان القواعد التي يمكن للعقل تحكيمها في جملة الافعال .

والخلاصة إن الارادة هي كل عمل مسبوق بتفكير ، ومن صفات هذا العمل انه جديد، تأملي ، شخصي . ولقد رأى الفلاسفة المدرسيون ان في كل فعل ارادي ، اربع موقحل هي تصور الفكرة ومناقشتها وتقرير شيء ما فيها ، وتنفيذه بعد ذلك. وقد رأينا ان العمل الارادي قلما ينقسم بهذا الوضوح .

ويمكن التفكير بارجاع الارادة الى الرغبة ، الاان هذا الارجاع صعب ، ما لم نكن في جو الاطفال نريد ما يريدون او نلهو كما يلهون ، اما ارادة الرجل الراشد فشيء آخر غير الرغبة لأنها تقتضي جهداً ومقاومة ليس في الرغبة مثيل لهما . وكذلك يمكن التفكير بارجاع الارادة الى محصلة الميول المتنازعة ، وهذا غير صحيح ايضاً ، لأن المحصلة تتم وتتكون من غير مشاركة للشخصية المريدة ، في حين أن الفعل الارادي شخصي ، قبل كل شيء ، ثم انه يمكن التفكير برد الارادة الى العقل ، او الى مبدأ مستقل قائم بذاته ، وقد رأينا ان ذلك كله غير صحيح ، لأن الارادة تقتضي مشاركة الشخصية بكل ما فيها: في الجانب الشعوري واللاشعوري على السواء ، كما تقتضي قدرة على التحليل والتركيب، غير ضئيلة .

وللارادة امراض كثيرة ينشأ بعضها من فقدان القدرة على الفعل ، او عن ضعف هاتين القدرتين معاً ، او عن قوة مفرطة في احداهما .

الفصل الثاني والعشرون

الشخصية

la Personalité

خلاصة البحث :

١ - مفهوم الشخصية

٢ - المشاكل النفسية المتعلقة بها :

ا - كيف يتكون مفهوم الشخصية .
ب - ماهي العناصر التي يتألف منها هذا المفهوم .

٣ السجايا والطباع :

أ - تعريفها
ب - تصنيفها

٤ - تطور الشخصية بحسب العمر

٥ - خلاصة عامة

١ - مفهوم الشخصية

لقد يبقى علينا الآن ، بعد أن نظرنا إلى عناصر الحياة النفسية واجزائها ، ان ننظر نظرة جامعة ، لنرى الكائن الانساني المعقد ، أي الفرد كما نراه في الحياة . والحق أننا

لانرى في الواقع أفكاراً او صوراً او عواطف مستقلة ، ولكننا نرى اشخاصاً يحملون بعض الافكار او بعض الصور ، او بعض العواطف .

ولكن يجب ان نتساءل : ما هو الشخص او الفرد ؟ والجواب على ذلك انه كائن يتمتع بوحدة ، لاتتغير من يوم إلى آخر ، ومن سنة إلى أخرى ، وهو كذلك كائن يتميز عن الآخرين من جيرانه واشباهه .

وهذه الوحدة هي مانسميها بالانا ، وهذا التميز عن الآخرين ببعض الصفات هو ماندعوه بالطبع

ومثال ذلك كله الجسد : فلكل منا عضوية هي واحدة من جهة ، وهي مختلفة عن العضويات الاخرى من جهة ثانية ، وذلك لان لها اعضاء تشبه اعضاء الاجسام الأخرى ، الا انها ذات صورة مختلفة عن صور الاجسام الاخرى : والامر كذلك في النفس .

ويظهر لنا مما تقدم أن للشخصية صفات ثلاثاً رئيسية :

الاولى منها هي **الوحدة** ، ومعنى ذلك أن شخصيتنا تحتفظ بوحدتها ، او بوحدة ذاتها على مر الزمن ، والامر في هذه الناحية ، على عكس مايشاهد في الاجسام الاخرى ، إذ نستطيع أن نقسم قطعة الحديد التي بين أيدينا إلى الف قسم وقسم ، وتبقى الاقسام مع ذلك حديداً ، أما نفوسنا فلا يمكنها أن تنقسم على هذه الصورة وتبقى مع ذلك كما هي ، محتفظة بوحدتها .

ويجب أن نلاحظ أن هذه **الوحدة** لاتنافي الكثرة : والحق أن في كل منا الف صورة والف عاطفة والف فكرة ، ونحن نشعر مع ذلك أننا وحدة تامة بالرغم من تعدد العناصر .

والصفة الثانية هي : **الهوية** : ومعنى ذلك اننا وإن اختلفت طباعنا وافكارنا وعواطفنا على مر الزمن ، فاننا نشعر بان كياننا هو هو لم يتغير . وكما أن وحدتنا النفسية لاتنافي كثرة العناصر ، فكذلك الهوية لاتنافي التغير .

والصفة الثالثة هي : **العضوية** ، ومعنى ذلك أن النفس تملك بذاتها مبدأ فعاليتها ونشاطها وكما أن جسمنا قادر على الحركة ، من تلقاء ذاتـــه ، وليس بحاجة إلى مسير خارجي ، فكذلك نفوسنا تبدو قادرة على بذل نشاطها العاطفي او العقلي او الاداري من غير حاجة إلى دافع خارجي .

وليس معنى ذلك أن النفس تبدع نشاطها إبداعاً من لاشيء ، إذ من المؤكد أنها تعتمد في ذلك على المؤثرات الخارجية ، كما أن الجسم يعتمد في حركته على مقومات الطعام

والشراب ، أو المقومات المادية . إلا اننا نلاحظ ، مع ذلك ، أن في الجسم والنفس معاً قدرة على بذل نشاطها من غير أن يلوح لنا مايدل على انهما يفعلان ذلك بتأثير خارجي ، فقد أفكر او أريد ، وليس هنالك مايقسرني على التفكير والارادة . والمعنى الاخير لهذه الفكرة هو أن النفس تتميز عن الاجسام المادية بما فيها من عفوية تقابل عطالة المادة .

ولنلاحظ أن هذه الصفات التي تقدم ذكرها ليست مطلقة الاعتبار ، إذ ان الوحدة والهوية مثلاً ليست بصفات خالصة للنفس ، بل كثيراً ما نرى ان بعض الناس يتميزون بانطوائهم على جملة شخصيات مختلفة بعضها عن بعض ، بمعنى أن العناصر التي تتألف منها نفوسهم لاتصل الى درجة الانصهار التام في وحدة تامة ، ولكن تأتلف بعض العناصر وتنشيء مركبات جزئية تنقسم بينها وحدة النفس .

١) ونلاحظ في الحياة العادية امثلة على ذلك ، إذ قد يكون الانسان جملة شخصيات مختلفة .

فالضابط مثلاً يبدو في عمله ، بارد العاطفة ، قاسي الطبع ، شديداً على جنوده . وهذه الصفات تؤلف الشخصية الحربية . فاذا كان في اسرته بدا عطوفاً مسامحاً ، او ضعيفاً . وهذه الصفات تؤلف شخصيته العائلية ، ولقد تؤثر الظروف في الانسان فتغير من طبعه وصفاته ، حتى ليحسب انه لم يعد كما كان من قبل . فالمرض والغضب مثلاً من الامور التي تغير الانسان تغييراً شديداً حتى ليستغرب الناس كيف بدا صاحبهم بالمرض او بالغضب على الصورة التي يرونه فيها .

وعدا ذلك ، فان الخيال ينسج لنا على هامش الحياة الواقعية ، حياة خاصة من الاحلام ، تحاول الاستقلال بذاتها ، وقد تصل إلى الانفصال التام عن الحياة الواقعية فنكون عندئذ في حالة مرضية .

٢) اما علم الامراض النفسية ، فانه يقدم لنا حالات غريبة لتعدد الشخصية او لأمراض الشخصية ، بصورة عامة .

وهنالك حالات يبدو فيها فقدان الشخصية او انعدامها وعندئذ تبدو « الأنا » غريبة ؛ ويبدو للانسان انه ليس بالشخص الذي يعرفه في نفسه من قبل : مثال ذلك هذا المريض الذي يحدثنا عنه الفيلسوف تين . بقوله إنه كان ينكر صوته ، او هؤلاء المرضى الذين يشكون بوجودهم ويحسبون انهم يحلمون .

ويصادف الانسان في مستشفيات الامراض العقلية حالات كثيرة لانقلاب الشخصية : فيظن المريض مثلا أنه الملك أو النبي او الاله ...

وقد يصادف الانسان حالات تتعدد فيها الشخصية ، مثال ذلك ما يرويه لنا (تين) عن هذا المريض الذي يحسب انه شخصيتان بآن واحد : الواحد منهما في السرير . والثاني في النزهة : ومع أنه قليل الشهية للطعام ، فانه يأكل كثيراً ، لأن عليه ان يغذي جسمين معاً كما يقول .

وأشهر هذه الامراض ، حالات تتبدل فيها الشخصية بين حين وآخر : مثال ذلك هذه المريضة (فيليدا Felida) التي كان يعني بها الدكتور آزام ، في بوردو بين عام ١٨٥٨ وعام ١٨٨٧ . وكذلك حالة الآنسة Miss beauachmps التي وصفها الدكتور مورتون برنس فقد كانت تتعاقب على هذه المريضة ثلاث شخصيات مختلفة ، عدا شخصيتها العادية . وهنالك حالة المريضة هيلين سمت . التي كانت في شخصيتها الثانية علي اتصال بعالم المريخ وأناسه ، كما تقول . واخيراً هنالك حالة المريضة (ليوني) . التي لاحظها الدكتور (بيير جانه) . والتي كانت في شخصيتها الثانيـــة ، تسمي نفسها (لئونتين) . وتتهم شخصيتها الاولى (بانها امرأة طيبة . ولكنها سخيفة) وتبريء نفسها منها .

وليس من شك انه ليس لهذه الاحوال المرضية قيمـــة علمية كبيرة . إذ ان ملوك وانبياء وآلهة المستشفى يتعلقون بادعاءاتهم هذه اندفاعاً مع إرضاء رغبة زوارهم كما سيتعلق سخفاء الناس بالمديح الذي يسمعونه من الساخرين ، ويظنونه حقيقة لاشك فيها . ولقد شك علماء الأمراض العقلية بحالات تعاقب الشخصية حتى قال الدكتور جورج دوما بان بعض هذه الامراض ليست إلا صوراً ضخمة من حب التأثير في الآخرين . وإن الاطباء هم الذين يهيئون مادتها .

ولهذا نرى انه إذا كان من المعقول استعمال هذه الملاحظات في سبيل إيضاح الحوادث النفسية الطبيعية . فانه يكون من غير المعقول ان نستند اليها وحدها – على مافيها من شك – لننشيء نظرية ميتافيزيكية في إنكار وحدة الشخصية وهويتها .

٣ – المشاكل النفسية المتعلقة بالشخصية

يمكننا الآن تعريف الشخصية ، بانها الصورة التي نأخذها عن نفوسنا . ومن شأن هذا التعريف ان يطرح علينا مسألتين :

أ – الاولى منهما هي : كيف يتكون مفهوم الانا أو الشخصية .

ب – والثانية هي التساؤل : عن العناصر التي تتألف منها هذه الانا ، في حالة تكونها .

فلنبحث الآن في كل مسألة على حدة .

أ – كيف يتكون مفهوم الشخصية ، وكيف نصل إلى الشعور بذواتنا ؟ لاشك ان الطفل لايفرق في البداية بين الانا واللاانا أي بين ذاته والعالم الخارجي . ولكنه يصل بالتدريج إلى فصل نفسه عن العالم الخارجي .

١ – والجسم ، بالنسبة إلى الطفل ، هو أول شيء يعرف فيه ذاته . والطفل يفصل جسمه عن الاجسام الاخرى تبعاً للملاحظات الآتية :

أ – إنه يرى أن الاجسام الاخرى يتغير وضعها بالنسبة اليه . أما أطرافه مثلاً أو اجزاء جسمه ، فانها تبقى ماثلة أمامه ، حاضرة امام عينيه . الاجسام الاخرى تغيب وتحضر . اما جسمه فحاضر دوماً .

ب – ثم إن الاجسام الاخرى لاتتحرك إلا بواسطة اليد . اما اجزاء جسم الطفل فانها تتحرك بدون هذه الواسطة ، وكأن هنالك قوة داخلية تحركها .

ج – ثم إن احساسه بالاجسام الاخرى إحساس وحيد ، هو إحساس اللامس مثلاً ، اما احساسه بجسمه فمضاعف . لانه إحساس اللامس والملموس معاً .

٢ – فاذا تم الانتقال إلى مرحلة ثانية ، لايصل اليها عادة كل الناس ، فان الشخصية او الانا ، تصبح في الحياة النفسية بصورة خاصة : وقد يصل الانسان في نهاية هذا التطور إلى وضع الجسم خارج حدود الانا ، لانه يبدو معارضاً لنمو الحياة النفسية ، وعائقاً دون تمام تفتحها . وهذا مايريده المتصوفون بقولهم مثلاً : نريد الخلاص من سجون اجسامنا .

٣ – واخيراً ، لما كانت حياة الانسان متصلة اعمق الاتصال ؛ بحياة الجماعة التي هو احد افرادها ، فانه يمكن ان نخلص من ذلك الى جعل شخصيتنا على مثال صورتنا في الجماعة ، او على مثال الصورة التي نظن اننا نقدمها عن انفسنا للجماعة . ومن المعروف ان بعض الطلاب المشاغبين لايصح سلوكهم الا باقصائهم عن وسطهم المدرسي الاول ، ووضعهم في وسط مدرسي آخر ، لايعرف عنهم مايعرفه الوسط الاول ، ومعنى ذلك انهم مادامو في هذا الوسط فهم مضطرون الى تحقيق نفس الصورة التي عرفت عنهم . اما اذا

انتقلوا الى وسط آخر فانهم يستطيعون ان يغيروا سيرتهم ويصلحوا من امرهم لان الوسط الجديد لاينتظر منهم ولايفرض عليهم ما كان ينتظره ويفرض الوسط الاول .

ولابد من القول ان صورة الفرد الاجتماعية شيء مركب جداً : فيه اسمه وعائلته ومهنته وثروته وماضيه في الجماعة ومايعرف عن مواهبه وميزاته والقابه وخدماته ..؟

ب — والآن : ماهي العناصر التي يتألف منها مفهوم الشخصية او الانا ؟

لقد اظهر التحليل ان الشخصية مركب معقد تبرز فيه العناصر العضوية والنفسية والاجتماعية .

أ) ويجب ان نضع الجسم بين العناصر العضوية في الشخصية في اول موضع . ونحن نرى هذا الجسم على صورة او اخرى ، ونشعر بنشاطه او بخموله . ولكن المهم في ذلك مايراه الآخرون في الجسم لامانراه نحن : وعندئذ يكون الطول واللون ، وتكوين قسمات الوجه ، وهيئة الجسم بصورة عامة ، بين الاشياء البارزة في مظهر الشخصية . وليس من شك ان حدبة الرجل الاحدب ، تحتل مكاناً بارزاً في الصورة التي يكونها عن نفسه وفي الصورة التي نكونها عنه .

ومع ذلك يجب الا ننسى الاشارة الى الاشياء التي تتصل بالجسم عن قرب : كالثياب وكل مايتعلق بحياة الجسم بصورة عامة كالغذاء . فاذا لبس الانسان ثياباً مستعارة مثلاً انكر نفسه . وكذلك الاموال ، فانها في بعض الاحيان تبدو كما لو كانت جزءاً من شخصية مالكها . فاذا فقدها خيل اليه انه يفقد شيئاً من نفسه : فالبيت الذي نعيش فيه والاثاث الذي يفرشه ، امثلة واضحة على ذلك .

ب) واما العناصر النفسية التي تدخل في تركيب شخصيتنا فليست هي — كما يبدو لاول وهلة — جملة الافكار والعواطف الحالية : ذلك ان الحاضر النفسي اضيق من ان يميزنا بصورة واضحة . والطفل والحيوان الذي يعيش في الحاضر وحده لاشخصية له .

إن شخصية الشاب مثلاً ليست حاضره . بل هي قبل كل شيء آماله المقبلة . والواقع انه لاشيء أقرب ذهن الى الشاب من أحلامه وآماله ، لأنها ماثلة دوماً ، متحفزة للظهور ، في هنيهة شرود او لحظة فراغ . فاذا شغل الشاب عن آماله باعماله المعتادة ، لم تغب هذه عن ساحة الشعور إلا لتنساب على هامش الشعور ، اما الشيخ المكتهل ، الذي انعدمت آماله في الحياة ، فان شخصيته في ذكرياته الماضية التي لايفتأ يعيدها لنفسه وللاخرين ، الف مرة ومرة . وهكذا نرى ان شيخاً ما يفخر بانه ذلك الرجل الذي خدم في بلاط السلطان عبد

الحميد ، وشهد آخر دقيقة من حياة بطل ميساون .

ح) ومن الواضح ان العناصر العضوية والنفسية متصلة اوثق الاتصال بالعناصر الاجتماعية : اي بالوسط العائلي ، وبالعلاقات الاجتماعية الاخرى .

ويقول السيد جوسان Gouscain في كتابه « نفسية الجماعات . ص : ١٢٢ » مايلي :

« لقد كتبت لي أمي ذات يوم ، على اثر فقدها احد إخوتي ، بانها عندما تذكر الهنيهات التي كانت تعيشها ، وكل أولادها حولها ، لا تستطيع ان ترى انها كانت فعلا تلك الأم السعيدة قبل ذاك ، وتحسب أن ماضيها ذاك هو ماضي شخص آخر » .

وتؤلف الطبقة الاجتماعية والمهنة جزءاً من شخصيتنا ، وهي تؤدي في الغالب الى اتخاذنا نمطاً من الحياة ، وظهورنا احياناً بنوع من اللباس ، نتميز به و كذلك نرى ان لنا في وسطنا الاجتماعي او المهني وجهاً ما ، او سمعة ما ، وهذا ما يرى الرجل العادي انه « ذاته » او شخصيته ، غير ان وسطنا الاجتماعي المتمدن المصقول ، الذي يطلق علينا ، من بعد ، احكاماً شتى ، لايطلعنا إلا على الاحكام المسرة والملائمة لانانيتنا وغرورنا . وهكذا تضيق الجماعة دائرة شخصيتنا وتجعلها ما نتمنى ان نكونه لا ما نحن عليه حقاً .

يقول سيريتلانج : « اننا نحب ان نحكم على انفسنا بحسب رغائبنا ، على أننا سريعون في الحكم على الآخرين بحسب اعمالهم » .

٣ — السجايا والطباع

١ — **تعريفها :** السجية لغة هي الخلق والطبيعة اي مجموعة الصفات التي فطرنا عليها فطرة طبيعية ، والتي هي مدار اتصالنا بالآخرين .

ومع ذلك فانه يمكن تعريف السجية او الطبع بقولنا : إنها مجموعة انماط الفعل ورد الفعل العادية التي يتميز بها شخص ما او مجموعة من الناس من غيرهم .

ويمكن ان نميز في الطبع مجموعة عناصر فطرية وعناصر اخرى مكتسبة او عادات .

أ — لقد كان علم النفس على الاعتقاد بوجود عنصرين فطريين : **هما المزاج والطبيعة**

ويعرف المزاج بالقول : انه مجموعة السمات العامة التي تتميز بها الحياة العضوية لاحد الافراد .

أما الطبيعة فتعرف بالقول : انها مجموعة السمات العامة التي تتميز بها الحياة النفسية بهذا

الفرد . ولكن القدماء كانوا يحسبون ان بالامكان رد الطبيعة النفسية إلى المزاج العضوي، ولهذا يمكن رد هذين العنصرين الى الوحدة . فطبيعتنا هي الصورة الداخلية لعضويتنا ، اما مزاجنا فهو الصورة الخارجية لهذه العضوية .

ب – اما العناصر المكتسبة فانها تنشأ عن عادات تكتسب بالتمرين ، ويتغير المزاج بحسب العمر (ولهذا كان العصبيون اللمفاويون بين الاطفال اكثر منهم بين الكهول) والاقليم ، ونوع العمل ، وطريقة التغذية . وكذلك الطبيعة فانها تتأثر بالتربية والمحيط ، وقد تتغير بحكم تمرين خاص منظم .

٢ – تصنيفها: لقد صنفت السجايا والطباع تصنيفات شتى الا أنه يمكننا إرجاعها الى تصنيفين : احدهما تصنيف بحسب المزاج ، والآخر تصنيف بحسب الطبيعة .

أ – التصنيف بحسب المزاج :

كان العلماء قديماً يميزون بين الناس بالنظر الى المزاج الغالب : فالدمويون ذو الردود الحارة السريعة واللمفاويون البطيئو الرد والصفراويون العنيدون في ردودهم والعصبيون ذووا الردود المضطربة السطحية ، هم الانواع الاربعة للامزجة المختلفة .

اما الآن فقد اخذ علم الغدد الداخلية يعلل فروق الامزجة واختلافاتها ،بالافرازات الداخلية لهذه الغدد . ولقد لوحظ ان للغدة الدرقية خاصة تأثيرا كبيرا في النمو العضوي والعقلي للافراد .

ويقول الدكتور جورج دوما في مطوله في علم النفس : «لقد اتيحت لنا في مستشفى القديسة آن ، فرصة فحص فتاة في الخامسة عشرة من عمرها مصابة بفساد الغدة الدرقية ،ومتابعة مداواتها ، وكان ذلك بحقنها بخلاصة افرازات هذه الغدة،ولقد رأينا بأم اعيننا كيف كان يتم نمو هذه الفتاة ، عضويا وعقليا ؛ بتأثير هذه المداواة . ولقد اصبحت بهذه الصورة مراهقة ذكية ، محبة للاطلاع .ولكنه كان يكفي ان نقطع المعالجة ثمانية ايام حتى تعود المريضة قليلة الاهتمام بما حولها ، باردة العاطفة ؛ ضيقة التفكير بصورة غريبة »

ومع ذلك فان العلم ما يزال بعيدا عن معرفة الاثر الحقيقي الذي يحدثه في تكوين المزاج افراز كل غدة على حدة . ولهذا مازلنا ، حتى الان، نستعمل المفاهيم القديمة في التعبير عن انواع الامزجة ونقول : هذا دموي او صفراوي او لمفاوي او عصبي .

ب - التصنيف بحسب الطبيعة :

يمكننا بحسب هذا التصنيف ان نصنف الناس في انواع ثلاثة مقابلة للتصنيف التقليدي للحوادث النفسية ، وكما ان هنالك حوادث عاطفية ، واخرى عقلية ، وثالثة إرادية ، فكذلك يمكن ان يكون الانسان عاطفيا او عقلياً او إراديا .

• **أ) اما العقليون** فهم هؤلاء الذين نمت مواهبهم العقلية . إلا ان بين هؤلاء انواعاً ثانوية يختلف بعضها عن بعض .

وينقسم العقليون بحسب موضوع التفكير الذي ينصرفون اليه ، إلى (عقليين متأملين) (كالرياضيين ، والفلاسفة والاقتصاديين) وإلى عقليين عمليين (كالقواد ورجال السياسة والتجار ، وارباب الصناعة) .

وينقسم العقليون بحسب علاقة ذكائهم بالملكات الاخرى ، الى عقليين خلص وهم هؤلاء الذين لايعيشون إلا من اجل افكارهم ، وإلى عقليين عاطفيين يجعلون افكارهم وقفا على خدمة أهوائهم ، وإلى عقليين إراديين من شأنهم ان لايعملوا عملا إلا بصورة مطابقة لتفكيرهم .

ب) اما العاطفيون فتغلب فيهم العاطفة

وينقسم العاطفيون بحسب موضوع العاطفة ، إلى عاطفيين شهوانيين ، يبحثون بل لا يبحثون إلا عن اللذات المادية أو العضويه ، وعاطفيين عذريين الذين لايبحثون إلا عن لذات القلب المعنوية ، وإلى عاطفيين مثاليين ، همهم البحث عن اللذات العالية .

وينقسم العاطفيون ، بحسب قوة العاطفة ، إلى عاطفيين متقلبين ، ذوي عواطف سطحية ومتقلبة ، أو موزعة ، وعاطفيين حارين ،ذوي عواطف حارة ولكنها عرضية سريعة فول ، وعاطفيين اصحاب اهواء ، تتركز عواطفهم في بعض المواضيع ، كحب امرأة او حقيقة او خير أو مايشبه ذلك .

ج) اما الاراديون ، فتغلب فيهم الارادة والاندفاع إلى الفعل .

ويمكن تقسيم هؤلاء إلى إراديين اذكياء يوجهون إرادتهم بالتفكير والتأمل ،وإراديين

عاطفيين ، يوجهون إرادتهم بعواطفهم وأهوائهم ، وإراديين خاص يتميزون بالعناد .

ونلاحظ من عرض هذه المعلومات انها ما تزال تجريبية ابتدائية ، لم يصل فيها العلم إلى درجة أعمق بكثير من مجرد المعرفة العامة .

٤ — تطور النفسية بحسب العمر

يميز الناس عادة بين مراحل مختلفة للحياة الانسانية ، ويقسمونها بين أدوار مختلفة ، كالطفولة ، والمراهقة ، والشباب ، والنضج والهرم . ولا شك ان من الصعب تحديد كل عمر من هذه الأعمار ، بصورة علمية دقيقة ، إلا أن علماء النفس يلاحظون أن الشعور يتطور خلال الزمان . وقد رأينا من قبل أنه تيار دائم الحركة والتبدل ، وان الحوادث النفسية المتتابعة في هذا التيار تتداخل بعضها في بعض ، وتتشابك تشابكاً عميقاً . فالماضي يعيش في الحاضر ، وهذا وذاك يهيئان المستقبل ويطلان عليه . ثم أن الاحساسات والحركات الحاضرة تمتزج بالذكريات السابقة ، وهذه تثير الصور والأخيلة ، أو تثير عواطف قديمة ، أو تبعث هيجانات جديدة ، وهذا كله مما يشير إلى وحدة الحياة النفسية ، واتصالها . ولعل النظر إلى تطور الحياة النفسية من هذه الناحية مما يسمح بتمييز بعض المراحل في حياة النفس ، ذلك أن الشاب يلاحظ أن في طفولته صفات نفسية أخرى ، لم يعد يملكها الآن . والأمر كذلك عند الراشد والهرم . ولهذا كله يصح القول بان لكل مرحلة من مراحل الحياة « نفسية خاصة » لها مميزات تميزها من غيرها ، وان هذه المميزات ليست بالعناصر الثابتة ، لأنها إن سادت في هذه المرحلة من العمر ، فلا شك أنها تسود بصورة موقتة ، ثم تزول أو تتلاشى تدريجياً ، ويحل محلها ميزات أخرى لنفسية جديدة ، لم تكن من قبل موجودة . وهكذا يقال « إن الطفل يعيش في الحاضر ، والمراهق أو الشاب يكتشف المستقبل ، والراشد يعيش في المستقبل ، والشيخ المسن يعيش في الماضي »

ويعتبر علماء النفس أن سن الطفولة يبدأ من زمن الولادة (أو من قبل) وينتهي في السنة الثانية عشرة من العمر ، وأن سن المراهقة يمتد من هذه السنة الأخيرة حتى السنة السادسة أو الثامنة عشرة . ويلي ذلك سن الشباب الذي ينتهي حول الخامسة والعشرين ، ثم تأتي سن الرشد التي تبقى ، في رأي البعض ، حتى الستين . وأخيراً يبدأ دور الانحطاط والشيخوخة ويستمر حتى انقضاء الحياة .

ولنبحث الآن في كل عمر من هذه الأعمار باختصار :

١ — الطفولة

تبدأ الطفولة — كما قدمنا — منذ الولادة وتدوم حتى الثانية عشرة من العمر. إلا أن العلماء يقسمون الطفولة إلى ثلاثة أقسام ، هي الطفولة الأولى والثانية ثم الثالثة والأخيرة.

أ — الطفولة الاولى : (من ٠ — ٣ سنوات) .

يمتاز عهد الطفولة الأولى بأنه زمن الاهتمام بالأمور الحسية والحركية . فالطفل المولود حيوان صغير يعيش في الحاضر أكثر ما يعيش ، والحاجات أول ميوله ظهوراً ، كالحاجة إلى التنفس ، وإلى الغذاء والحرارة والراحة والحركة والاحساس .

وقد ميز العلماء عدداً من الأدوار في حياة الطفل الصغير ، وذلك تبعاً لنوع الحركة السائدة في الأزمنة المختلفة . وهكذا نجد (دور الرضاع) الذي يدوم بقوة حتى اليوم الخامس والعشرين ، ثم يليه (دور النظر) الذي يستمر حتى الشهر الثالث ، ثم (دور القبض) الذي يدوم حتى الشهر الخامس ، ثم (دور التقليد) الذي يدوم حتى الشهر الثاني عشر ، ثم (دور السير) الذي يدوم حتى الشهر الخامس عشر ، ثم (دور النطق والتكلم) الذي يدوم حتى السنة الثالثة . إلا أن هذا التقسيم لا يعني الانقطاع أو الانفصال بين الأدوار المختلفة ، بل يعني أن الاهتمام الأول موجه إلى هذه الناحية أو تلك .

والصفة البارزة لهذه الطفولة ، هي شدة الميل إلى الاحساس والحركة . ولا شك أن جسم الطفل وأطرافه هي المجال الطبيعي لحركاته والعابه. وإذا رأيت الطفل يلهو باصابعه أو بقدميه ، فمعنى ذلك أنه لا يزال يراها كالأشياء الغريبة التي يستطيع النظر اليها ، أو القبض عليها ، أو عضها .. ، الخ .

ب — الطفولة الثانية : (من ٣ — ٧) .

إن عهد الطفولة الثانية هو عهد الاهتمام بالأمور المشخصة والشخصية معاً . ومن المعروف أن الطفل لا يكاد ينتهي من السنة الاولى من عمره ، حتى تراه يحدث بعض الاصوات الشبيهة بمقاطع الكلمات ، ولكن سرعان ما يتزايد اهتمامه بعمله هذا ويبالغ في تكراره ، حتى انه يتصيد الالفاظ تصيداً ، ويقلدها ويكررها كثيراً دون ملل ، كأنما

هو يلهو بها. ويلاحظ العلماء ان الطفل يفهم قبل أن يتكلم خلافاً لما كان معتقداً من قبل.

وإذا بدأ الطفل الكلام، كانت جملته كلمة واحدة، فكلمة (تاتو) عنده لا تعني اسم الحلوى، بل تعني اشياء كثيرة: منها مثلاً أنه يريد قطعة الحلوى، أو انه أكلها او انه يريد ان يقص قصتها ... الخ.

ثم إن الطفل لا يستطيع أن يجتاز مرحلة النطق هذه إلا بعد أن ينضج عقله قليلاً، وينمو ذكاؤه بعض الشيء. وعند ذلك تراه قادراً على ترتيب كلمات الجملة، واستعمال اللغة السائدة من حوله.

ويلاحظ ان الطفل لا يحسن استعمال الضمائر، وضمير المتكلم خاصة، إلا في زمن متأخر، أي بعد ان يكون قد بدأ يشعر بشخصيته. ويرى العلماء ان السنة الثالثة هي السنة التي يبدأ فيها شعور الطفل بشخصيته. وعندئذ تراه ميالاً إلى اثبات هذه الشخصية بمختلف الوسائل، كالعناد، ومقاومة الكبار، والسلوك السلبي.

ومن الخطأ القول بأن الطفل يرى نفسه مركز العالم منذ بداية العمر، ذلك ان السنوات الثلاث الاولى مملوءة، عند الطفل، بعاطفة خاصة، تذيب وجوده في الاشياء المحيطة به، حتى إنه يريق عليها عواطفه الخاصة ومشاعره الذاتية: فطفل Scupin مثلاً يخاف على الدجاجة المذبوحة ان تبرد إذا نزع عنها ريشها، وهذا يدل على انه يرى العالم كله بمنظاره الشخصي، وإذا كان هو يبرد فالدجاجة تبرد ايضاً، وكذلك الاشجار. واذا كان هو كائناً حياً، فالكائنات كلها ذات حياة. ولهذا يمكن القول بان هذه الانانية الخاصة التي يرى فيها نفسه مركزاً للعالم كله لاتبدأ إلا بعد السنة الثالثة من العمر.

ج — الطفولة الثالثة (من ٧ — ١٢)

تبدأ الطفولة الثالثة من آخر السابعة تقريباً، وفيها تبدأ مرحلة نمو جديدة للجسم. وتتميز هذه الطفولة بأنها عهد الاهتمام بالأمور الموضوعية، والتخلي عن التفكير الذاتي، والرجوع الى التفكير الموضوعي. ونلاحظ هنا أن الوظائف النفسية قد بلغت حداً كبيراً من الترقي، وأصبح الطفل قادراً على الادراك والكلام والانتباه والمحاكمة.

ولما كان الطفل في هذه المرحلة تلميذاً في المدرسة، فأنه يكتسب منها جملة عواطف جديدة، كحب التعاون والتناصر، وعاطفة المساواة والصداقة. ثم إن العواطف الخلقية تصبح بالتدريج ذاتية له، بعد ان كانت في المرحلة السابقة غريبة عنه.

وليس من شك أن الطفل في هذه المرحلة يفرط في الحديث عن نفسه ، كما أنه يحب التنقل من مكان الى مكان ، والحركة المنتظمة . وهكذا تبدأ ألعابه الأولى التي كانت مجموعة مضطربة من الحركات ، بالانتظام والخضوع للقواعد ، والاتساق ، ولهذا كله كانت هذه السن أحسن أدوار الطفولة للتربية وغرس العادات الصالحة .

٢ — المراهقة والشباب

يعتبر العلماء أن عهد المراهقة يدوم ست سنواب تقريباً تبدأ من الثانية عشرة وتنتهي في الثامنة عشرة أما عمر الشباب فيبدأ من هذه السنة الأخيرة وتدوم حتى الخامسة والعشرين . ويتميز هذا الدور بالاهتمام بالقيم والمثل العليا .

وتبدأ المراهقة بأزمة عنيفة عضوية يضطرب فيها جسم الانسان ، وتنمو فيه أعضاء جديدة (كالخصيتين عند الرجال والمبيض عند النساء) ويظهر الشعر في مناطق مختلفة من الجسم ، ويحدث تبدل في الصوت . ويرافق هذه التبدلات العضوية تطور في النفسية ، فيتبدل نظر الانسان إلى الحياة ، وتفيض قوى الحياة لديه ، فيشعر بدافع قوي إلى (الخروج من الذات) وميل شديد إلى الحب وهبة الذات . وهذا هو أصل التفكير بالحياة الزوجية .

ولا يكتفي المراهق أو المراهقة بحياة الحاضر ، بل يكتشف كل منهما المستقبل ، ويمر بمرحلة طبيعية نفسية ابرز صفاتها التوقد العاطفي . ويبدو لديه ميل شديد إلى التضحية والكرم برغبة وحماسة ، ويزداد تفكيره تدريجياً بالحب وأحلامه ، ويضيق بالعزلة العاطفية ، فاذا به يفيض بعواطفه على والديه والأصدقاء ، ذلك أن المراهق يفهم منة والديه عليه فيكرمهما ، ويزداد تقديره لعاطفة الأخوة ، فيتعاظم حبه وولاؤه لاخوته واخواته .

ويتبع ذلك كله شعور واضح بالشخصية وضرورة العناية بها وبمظهرها خاصة ، ولهذا ترى الشاب يتأنق في لباسه ، ويعنى بأوضاعه وكلامه ، وتنمو لديه عاطفة الغرور وحب التفوق على الأقران .

ومما يتميز به هذا العمر انه العمر الذي يقوى فيه الميل الى تأليف الجمعيات والنوادي ، وتفضيل الالعاب الجمعية على الالعاب الفردية ، وطلب الثناء والمديح ، وحب الاجتماع مع الاصدقاء ، حتى ليتغلب هذا الميل على عاطفة القرابة وإيثار الحياة مع الاصدقاء على الحياة مع الاسرة .

وهنالك ميزة اخرى لهذا العمر ، وهي ميل المراهق والشاب الى الافضاء باسراره الخاصة إلى الأصدقاء او إلى صديق خاص مفضل على كل الاصدقاء . ولكنه ليس من الضروري أن تستحق هذه الاسرار كل هذا الاحتفال .

٣ — سن النضج او الرشد (من ٢٥ — ٥٠ او ٦٠)

تتميز هذه المرحلة بميل الانسان الى الامور الوضعية ، المادية ، والتخلي التدريجي عن كثير من رغائب الشباب وأحلامه . ويغلب أن يكون الرجل الراشد محافظاً يكره الجديد من الآراء . اما نفسيته فتتصلب . واما عاداته فتنقلب الى تقاليد راسخة وينقضي عهد الكرم والسخاء ، ويحل محله عهد الجمع والحرص والادخار . وتصبح الفضيلة الاولى فضيلة الأناة ، كما يصبح الهم الاول هم الحياة ، والقيام بواجبات المهنة او العمل ، والميل الى ترقيته وتعظيم شأنه . إلا ان هذا لايمنع وجود من يتميز بنفسية الشاب الخالد ، أو وجود من يتميز بنفسية الشيخ الهرم .

٤ — سن الشيخوخة :

يختلف الشيوخ بعضهم عن بعض كما يختلف الشباب ، ولكن الميزة الأولى لهذا العمر هي عجز الشيخ عن إعادة النظر في مبادئه ومحاكماته ، او الخروج منها الى مبادىء اخرى . ومن النادر ان ترى شيخاً يغير شيئاً من معتقداته التي درج عليها منذ عهد الشباب ، ويعزى هذا العجز الى نوع من الضعف العقلي الذي يصيب الشيوخ ، ولكنه مع ذلك يصادف عند شيوخ يحتفظون حتى آخر حياتهم بسلامة عقولهم وقوتها . ثم إن للشيخ طريقته الخاصة في المحافظة على المبادىء اذ يرى أنه لا يليق به أن يغير طرائق تفكيره بعد كل ما مضى من عمره .

ولهذا تجد عنده عناداً هائلا ومقاومة كبيرة لكل تغيير او تجديد في الآراء . ثم إن فعالية الشيخ تصبح محدودة ، الا أن تجربته الطويلة تمده بثروة كبيرة من وسائل تحقيق غاياته . ومع ذلك فان هذا العمر مرحلة أخيرة في طريق الانحلال والفناء . وكثيراما يلاحظ الخرف واضطراب العقل ، وانحلال قوى التأليف والمحاكمة والابداع ، وكل هذه نذر لذلك الفناء .

٥ — خلاصة عامة

لقد اوضحنا فيما سبق اننا لانجد الحياة النفسيه مستقلة الاجزاء بعضها عن بعض ولا نجدها إلا في افراد ، او كائنات عاقلة ، او اشخاص ، وقلنا ان الشخصية هي الذات التي تتمتع بوحدة تامة ، غير قابلة الانقسام .

ولقد رأينا ان من الوحدة والهوية والعضوية هي من صفات هذه الشخصية .

وبدا لنا ايضاً ان الطفل لايفرق بين نفسه وبين العالم الخارجي ، في اول الامر ثم اذا تم هذا الانفصال كان الجسم اول شيء ينفصل ويستقل ويعبر عن الشخصية ثم ينتقل مركز الثقل من الجسم الى الحياة النفسية التي قد تستغني او تحاول الاستغناء عن الجسم ، ولا ننسى انه قد تكون الشخصية كلها في ذلك الوجه الاجتماعي الذي يعرفها به المجتمع .

ولهذا يصح القول بان عناصر الشخصية ثلاثة انواع : عضوية (كالجسم وصفاته والثياب ونوع الغذاء والثروة) ونفسية (كالمواهب والمزايا والعواطف والافكار ، دون تقيد بالزمن الحاضر ، لان الشاب يعيش في المستقبل والكهل يعيش في الماضي) واجتماعية (كالاسم والمهنة والعائلة وجملة الصلات الاجتماعية الاخرى) .

ولقد يكون من المهم هنا ان نتساءل عن هذه الشخصية العجيبة ، وعن كيفية تلاؤم صفاتها المتناقصة : فهي كما رأينا وحدة تقابلها كثرة ، وهوية يقابلها تغير ؛ فكيف يتم لنا اذن ان نشعر بشخصينا الواحدة الثابتة ؟ لقد زعم الفلاسفة القدماء ان السبب الباعث على شعورنا بوحدتنا وهويتنا رغم كثرة الحوادث النفسية وتغيرها ، إنما هو وجود « ذات » روحية يرونها تحمل هذه التغيرات على سطحها ، كما يحمل قضيب من الخشب جملة الالوان التي يتلون بها ، دون ان يتأثر بوجودها . وزعم الفيزيولوجيون ان وحدة الشخصية وثبوت هويتها انما ينشأ عن وحدة الجملة العصبية وثبوت حجيراتها ، بالاضافة الى عمل الذاكرة الذي يؤمن استمرار الماضي في الحاضر وزعم الاجتماعيون ان الشخصية الاولى ليست شخصية الفرد ، بل هي شخصية الجماعة التي تضم هذا الفرد كعضو من اعضائها . واذا كنا نرى انفسنا الآن اشخاصاً مستقلين ، لكل منا ذاته الخاصة ، فما ذلك الا نتيجة تطور اجتماعي طويل ليس هنا مجال بحثه ، وانكر التجريبيون اخيراً ان يكون هنالك شخصية بالمعنى الصحيح ، لان الانسان لا يدرك من نفسه ، كلما نظر اليها ، الا احساسات ومشاعر

جزئيـة كادراك الحرارة والبرودة ، والالم ، واللذة ، وليس هنـالك اي اثر لشخصية جامعة شاملة .

وعندما نرى ان هذه المسألة الغامضة ما يزال حلها ينتظر تقدم العلم وتطوره ، يمكننا على كل حال ، ان نقول ان للجملة العصبية اولاً ، وما فيها من تركز ووحدة ، وللذاكرة ثانياً ، وما تؤمنه من اتصال بين الماضي والحاضر ، وللخيال ثالثاً ، وما يوحي به من صور مستقبلة ، أثراً كبيراً في الشعور بوحدة الشخصية وهويتهـا . غير اننا لا ننكر في هـذا الموضوع اثر العوامل المساعدة الاخرى ، كالعوامل الاجتماعيـة وما تفرضه من تفرد ، والعوامل النفسية كالتوتر النفسي ، وقوة التـأليف وما يفرضانه من وحـدة وائتلاف في جملة عناصر مستقلة يكاد ان يؤلف كل منها جملة مستقلة ، في حالات الشرود الذهني ، او حالات ضعف التوتر .

ولا يجب ان ننسى ان الحياة النفسية تتطور بتطور العمر . فالطفولة غير الكهولة وهـذه غير عمر الشباب ، وقد رأينا ان لكل من هـذه الاعمار طابعاً خاصاً يميزه ، بدءاً من مرونة الاطفال ، حتى محافظة الشيوخ .

واما الطباع والسجايا ، فقد رأينـا انه يمكن تعريفها بقولنا : انهـا مجموعة انماط الفعل ورد الفعل الثابتة التي تميز شخصاً ما ، او مجموعة اشخاص ، من الآخرين ، ورأينا بعد ذلك ان في الطبع عنصراً فطرياً وآخر مكتسباً . فاما العنصر الفطري فقد كان ينحل قديماً الى المزاج (اي التكوين العضوي) ، والى الطبيعة (اي التكوين العقلي) مع العلم ان احد هذين العنصرين نتيجة للاخر . واما العنصر المكتسب فهو مجموعة العادات المكتسبة بالتمرين ، سواء ما اتصل منها بالعمر او بالاقليم ، او بنوع العمل او بطريقة الغذاء ، وما اتصل بالتربية او بالوسط الاجتماعي .

ولقد رأينا ان الطباع تصنف باحدى صورتين إذ قد تصنف بحسب المزاج . ونكون عندئذ امـام مزاج دموي ، او لمفاوي ، او صفراوي او عصبي ، واما ان تصنف بحسب الطبيعة ، وعندئذ نكون امام نماذج عقلية ، او عاطفية ، او إرادية .

ولا شك ان العلم الحديث يبحث عن تعليل هذه الامزجة او هذه الطبائع على صورة فيزيولوجية ، وذلك بردها إلى اثر الافرازات الداخلية . غير انه من الصعب ان نقول ان هذه المشكلة تعد الآن منتهية .

الفصل الثالث والعشرون

الشعور واللاشعور

خلاصة البحث:

١ – طبيعة الشعور

أ – الشعور معرفة مباشرة

ب – الشعور معرفة شخصية

ج – شروطه الفيزيولوجية

د – انواعه : عفوي وتأملي

٢ – الحوادث النفسية اللاشعورية وتحت الشعورية

أ – درجات الشعور المختلفة

١ – حالة الانتباه العميق

٢ – الاحساسات العفويه

٣ – الاحساسات الغامضة

٤ – الاحساسات البعيدة عن متناول الشعور

ب – الانواع الرئيسية للحوادث اللاشعورية

١ – حوادث طبيعية

٢ – حوادث غير طبيعية

٣ – اثر الحوادث اللاشعورية وتحت الشعورية

أ – تغيرات المزاج

ب – التصميمات الارادية

ج – العطف والنفور

د – ميول الطبع العميقة

٤ – خلاصة عامة

الشعور واللاشعور

كان علم النفس التقليدي ، يحسب ان الشعور صفة ملازمة لكل حادثة نفسية إلا ان الملاحظة البسيطة تكفي للاقتناع بان هـذا التلازم غير صحيح وان من الممكن ان يخف الشعور قليلًا فقليلًا حتى ينحسر عن الحادثة النفسية تمامـاً ، وتبقى هنالك حوادث نفسية لا شعورية .

ولنحاول الآن ان ندرس الشعور اولاً ، ثم نتبعه بدراسة الحالات الضعيفة الشعور او اللاشعورية

١ — طبيعة الشعور Nature of Consciousness

أ ـ الشعور معرفة مباشرة : ويعني ذلك انه معرفة حدسية Intuitive تطلعنا رأساً على مايجري في نفوسنا ، وكما ان الاحساس معرفة مباشرة تطلعنا على ما يجري في العـالم الخارجي ، فكذلك الشعور يطلعنـا مباشرة على ما يجري في نفوسنا : العين تعرف بسرعة لون الاشياء التي تراهـا ، والشعور كذلك يعرف بسرعة ما نحن فيه من عواطف او افكار او اشياء اخرى .

والمعرفة الشعورية عفوية spontaneous ايضـاً ، لا تكلف فيهـا ، بمعنى اننا لا نحتاج إلى جهد نبذله في سبيل معرفة ما يجري في نفوسنـا ، بل نعرف ذلك كله بصورة طبيعية . ويجب أن نلاحظ ان هذا الشعور يغيب في حالة النوم الخالي من الاحلام .

والشعور هو المعرفة المبـاشرة الوحيدة ، لان الاحساس ينقل صورة المحسوس الى النفس بعد جملة مراحل لا بد منها لوصوله : فاحساسنا بلون البرتقالة مثلًا ناشيء اولاً عن انبعاث حزم ضوئية معينة من هذه البرتقالة ، وسير هذه الحزم في الوسط الهوائي ، وتأثيرها في الحاسة ، وانتقال هـذا التأثير الى المراكز العصبية المناسبة ، وانقلابه إلى احساس . أما الشعور فيتم مباشرة بدون هذه المراحل ، وبدون هـذه الفواصل . فاذا شعرت بلذة او بألم مثـلًا ، شعرت بهما بدون ان اتخيل وجود فاصل بين وجودهمـا في النفس وبين شعوري بهما .

ب - ثم ان هذه المعرفة شخصية محضة ، بمعنى ان الشخص الشاعر وحده ، يطلع على ما يشعر به ، ولا يشاركه بذلك غيره ، فأنا اعرف مثلاً بماذا افكر الآن ، ولكني واثق من ان كل الذين يحيطون بي لا يعرفون شيئاً عن الموضوع الذي افكر به .

ولقد يمكن الاخرين ان يعرفوا ، على وجه التقريب ، حالتي النفسية ، ويحزروا مجموعة الخواطر التي تمر بي ، وذلك عن طريق المظاهر الخارجية التي تتبدى بها الحوادث النفسية ، إذ من الواضح ان الكآبة الخارجية تدل على الحزن الداخلي ، واشراق الوجه يدل على السرور النفسي ، ولكن من الصعب جداً أن يعرف الآخرون ما يجول في خاطري من الافكار ، او ان يقدروا ، على وجه الدقة ، عمق الآلام او اللذات التي اشعر بها .

ومن الممكن اخيراً ان يشعر الآخرون باحوال نفسية مشابهة لاحوالي الخاصة . ومن الواضح ان المحبين واليائسين والمهتاجين ، يتشابهون بما يشعرون به ، لكن مما لاشك فيه ان لشعور كل واحد منهم لوناً خاصاً لايشاركه به غيره .

وهذا هو السبب الذي يحملنا على تشبيه النفس بعالم مغلق ، لايدخله احد ، او بصومعة منعزلة تظهر فيها احساسات وصور وافكار ورغائب ، ثم تغيب ، ولا يرى او يشهد مايتم فيها غير صاحبها .

ج - ولاشك ان للشعور علاقة ببعض الشروط الفيزيولوجية : إذ ان توقف الدورة الدموية في الدماغ ، بالضغط على شرايينه ، او نفخ الهواء في هذه الشرايين ، مما يقضي على الشعور موقتاً . وهذا مايحدث حين يتسمم الدماغ بالمواد المخدرة . ولايعني هذا بالضرورة أن الدماغ يخلق الشعور ، ولكنه يعني على الاقل أن سلامة الجملة العصبية ، والدماغ خاصة ، أمر ضروري للشعور .

د - **أنواع الشعور** : للشعور انواع عديدة نميز منها نوعين ، هما : الشعور البسيط او العفوي ، والشعور التأملي . ويختلف الثاني عن الاول بحاجته الى انتباه الانسان الى احواله الداخلية ، وتعمده ملاحظتها . ولا شك ان دائرة الشعور العفوي اوسع بكثير من دائرة الشعور التأملي لأننا قلما نتعمد الانتباه الى ما يجري في نفوسنا .

٢ - الحوادث اللاشعورية وتحت الشعورية

أ - **درجات الشعور** : كان علماء النفس قديماً ينكرون وجود الحوادث النفسية

اللاشعورية . وظل هذا الرأي سائداً حتى جاء الفيلسوف (ليبنز) فأشار الى وجود هذه المناطق المظلمة في النفس . ومازال الامر بين اخذ ورد ، حتى اصبح اليوم موضع اتفاق جميع العلماء . واصبحنا نعرف ان للشعور درجات مختلفة ينحدر فيهامن الضياءالكامل الى الظلمة المطلقة .

١ ـ **حالة الانتباه العميق** : واعظم الحالات النفسية شعوراً ، هي حالات الانتباه العميق ؛ فاذا انا مثلاً اصغيت بانتباه عظيم الى قطعة شعرية تعجبني ، شعرت بوضوح تام باحساساتي وافكاري وبالجمل التي اسمعها .

٢ ـ **الاحساسات العفوية** : وهذه درجة ثانية دون الاولى . ومثالها أن امشي في طريق ما ، متحدثاً الى رفيق معي . فأنا ارى من الطريق وأشعر بما يجري امامي بالمقدار الذي يساعدني على المسير دون الوقوع في اخطار . ولكن ماأراه وما اشعربه ليس بالشيء الواضح كل الوضوح ؛ بل هو اشبه مايكون بومضات شعورية يتبعها نسيان مباشر .

٣ ـ **الاحساسات الغامضة** : وإذا نحن هبطنا درجة ثالثة في السلم الشعوري ، وجدنا إحساسات مختلفة تعرض علينا وتفوتنا ملاحظاتها ؛ لاننا نكون منهمكين في اعمال اخرى . غير اننا ، مع ذلك ،قادرون على ملاحظتها ،متى اردنا ذلك ،بتوجيه انتباهنا اليها . وهذه الحالات هي الاكثر حدوثاً . ويمكننا ان نسميها (لاشعوراً موقتاً) . وخير مثال عليها جعجعة الطاحون بالنسبة للطاحون او دقات ساعة الحائط التي لانسمعها عادة ، ولكننا نستطيع سماعها متى اردنا بانتباه بسيط نوجه اليها .

وفي درجة اخيرة نجد احساسات وافكار ورغبات لانشعر بها مهما توجهنا اليها بانتباه . مثال ذلك : ضجيج البحر : فنحن لانستطع تبين ضجة كل موجة على حده مهما حاولنا ذلك . ومن المؤكد ،من ناحية اخرى ،ان لكل موجة ضجة خاصة ولولا ذلك لما سمعنا للمجموع اية ضجة اذ ان مجموع الاصفار صفر ايضاً .

— وهذا المثل الاخير يسمح لنا بتحديد كلمتي (لاشعوري) و(تحت شعوري) اللتين لم نميز بينهما حتى الآن ، فنحن نسمي مجموعة الذكريات الغافية التي لاتمثل دوراً مافي الوقت (لاشعورية) ، وذلك بمعنى سلبي محض ، ونحن نسمي : (تحت شعورية) مجموعة الذكريات التي ، تؤثر في تفكيرنا الشعوري ، بالرغم من انها بعيدة عن متناول شعوري .

فهي مثلاً تملي علينا كلاماً ما ، او تساعدنا على معرفة اشخاص او مناظر او اشياء ، إذن فالمعنى هنا **سلبي ايجابي** في آن واحد : سلبي لانها غير شعورية ، وإيجابي لانها موجوة تحت الشعور وإن كانت غير ملحوظة ، فالرغبة المجهولة مني ؛ والتي توجه سلوكي مع ذلك ، هي رغبة تحت شعورية . وهكذا فجعجعة الطاحون تحت شعورية للطحان النائم ؛ وذلك لان انقطاعها يوقظه . وقل مثل هذا عن استيقاظنا صباحاً في الساعة المعينة ، ففكرة الاستيقاظ كانت إذن تحت شعورية لانها ايقظتنا .

وعلى هذا فان في وسعنا ان نتكلم عن حياة لاشعورية وحياة تحت شعورية للنفس ، ولكن بشرط ضروري : وهو بقاء كلمتي «**لاشعورية**» و «**تحت شعورية**» **كصفتين** أما وجود اللاشعور ، فامر ميتافيزيكي ممكن لاعلاقة له بعلم النفس الايجابي .

«ب» الانواع الرئيسية للحوادث اللاشعورية

١٦ — لقد رأينا أن من الممكن وجود حوادث لاشعورية في كل فصول علم النفس التي درسناها . فهناك أعمال ورغبات وإحساسات وصور وأفكار ومحاكمات لاشعورية وتعدادها لانهاية له ولا فائدة منه ، ولكن من الممكن تصنيفها تصنيفاً سريعاً في زمرتين رئيسيتين : الحوادث الطبيعية والحوادث غير الطبيعية او (المرضية) .

١ — **الحوادث الطبيعية** : تنحصر هذه الحوادث بالانواع المهمة الآتية :

آ — **العادة** : وهي تنقل حوادث الشعور الواضح الى الشعور غير الواضح او الى اللاشعور ، وهذا هو الحال في القراءة والكتابة والسير الخ .. التي تبدأ شعورية انتباهية ، ثم تصبح لاشعورية : فانا حين اقرأ لاالحظ كل شيء ، فلا اميز كل الحروف والمقاطع والكلمات ، اوعلى الاقل لاالحظ كل التفاصيل .

ب — **شرود الذهن** : او الوجه الآخر للانتباه العميق الموجه إلى نقطة معينة ، والشرود سبب معروف من اسباب اللاشعور (سبب كثيراً مايخلط بينه وبين العادة) : اخرج ساعتي لاشعورياً لاني افكر في شيء آخر ، واذا كنت منهمكاً في عمل مالا اشعر بضجيج الشارع ، وحين ادخل في مناقشة حادة في الطريق ؛ يمكن ان اصطدم بالمارة او اتجنبها وأرى الدرج واصعده او

انزله وحتى في بعض الاحيان دون ان الحظ اني افعل هذا أوذاك .

ج — **والرغبة** : كثيراً ماتتطور تطوراً لاشعورياً ، كما رأينا ، فانت حين تكبت رغبة بقولك «لن اخضع لهذه الرغبة» لاتقهرها لانها تملي عليك اعمالاً واقوالاً تجهل سببها انت نفسك ، فكم من مره يرى الانسان نفسه امام بيت حبيبه دون ان يقصد اليه .

د — **وفي حوادث الايحاء** : التي كثيراً ماتنسب الى قوة خارجية سامية ، تتمثل الافكار والصور والكلمات واللهجة من تلقاء نفسها ودون اختيار شعوري ، مع انه من المعلوم ان مثولها يحتاج الى عمل توجيهي ، ولو كان تحت الشعور .

٥ — وأخيراً **فالذاكرة** مملكة اللاشعور ، فنحن نحمل في نفوسنا في كل لحظة آلاف الذكريات التي لانشعر بوجودها مطلقاً .

٢ — **الحالات المرضية** : وهـذه حالات نلاحظها في كثير من الأمراض العصبية ، وخاصة فيما يسمى بـ (**الهستريا**) ، وهي حالات لا شعورية ، نجد أحسن وصف لهـا في كتابات بيير جانه Pièrre Janet وهاك أهمها :

أ — **انواع الشلل المسمى بالشلل الهستيري** : يفقد ذراع المريض إحساسه حتى أنه إذا وخز في ذراعه لم يشعر بشيء ، ومع ذلك فاذا سئل فيما بعد — وقد نوم مغناطيسياً — ذكر انه وخز . وبديهي ان هذا الحادث لا يفسر إلا بقولنا : « لقد أحس لا شعورياً » .

ب — **الكتابة الالية** : يكتب المريض صفحات دون أن يشعر ، صفحات فيهـا عقل وعاطفة ، وإذا سئل أنكر ان يكون هو الكاتب . وهذا العمل لا يفسر إلا بقولنـا : « يكتب لا شعورياً » .

ج — **الايحاء المعين وقت تنفيذه** : يطلب إلى شخص منوم مغناطيسياً أن يقوم بعمل معين بعـد وقت محدد من استيقاظه ، ثم يوقظ فاذا هو جاهـل كل شيء يتعلق بالأمر ؛ ثم لا يكاد يحين الوقت حتى ينفذ الأمر الذي طلب اليه ، وهـذا العمل لا يفسر إلا بقولنا : « ان المنوم حسب الوقت لا شعورياً » .

هذه حوادث لوحظت بشكل لا يدع مجالاً للشك في صحتها العلمية ، ولكن يبقى ان نشير إلى ان الاشخاص المصابين بالهستريا كثيراً ما يغشون بكذبهم ولذلك يجب ان نكون يقظين حذرين في مثل هذه الاحوال .

٣ - اثر الحوادث اللاشعورية وتحت الشعورية

ان الحوادث المتصفة بشعور ضعيف او بلا شعور او تحت شعور تلعب في حياتنا العقلية دوراً هاماً .

فهي تفسر كثيراً من تغيرات مزاجنا فمزاجنا الحسن او السيء متعلق بعدد كبير من الانطباعات الغامضة التي لا نستطيع نحن انفسنا معرفتها .

فالانطباعات الغامضة للحياة العضوية مثلاً هي من الانطباعات العظيمة التأثير : تمر بنا بعض الايام التي تكون فيها صحتنا على أحسن ما يرام ، فيكون مزاجنا بالمقابل على خير وجه ، حتى اننا لا نعرف مصدر سعادتنا ، ونشاطنا يتوقف إلى حد بعيد على تعب جسمنا وعلى مقدار نومنا . ثم ان الانطباعات الغامضة للحياة الاخلاقية والاجتماعية تؤثر في طبعنا وتكيفه : يكفينا مديح واحد لتحلو الحياة في نظرنا ويكفينا نجاح واحد لنتمنى الخير لجميع المخلوقات . وهكذا نترجم عطف من حولنا او مشاكساته بسعادتنا او تعاستنا ، ولكننا مع ذلك لا نشعر إلا نادراً بهذه التغيرات العابرة التي تعين حالتنا الاخلاقية .

ب - والحوادث المتصفة بالشعور الضعيف تفسر كثيراً من اعمالنا وتضحياتنا الارادية فكثيراً ما ندهش للحلول التي نتخذها ، ولكن تفسير ذلك أنها كانت تتهيأ في نفوسنا ، فكفت رغبة تحت شعورية لاماله الميزان .

ج - وهذه الحوادث تفسر قسماً كبيراً من حناننا وعطفنا وكراهيتنا ، وإذا تساءلنا لماذا يجذبنا حالاً شخص نلقاه للمرة الاولى ؟ نرى في أغلب الاحيان ، اننا لاندري السبب ولكن لو تمعنا قليلاً لرأينا انه خلق فينا انطباعات مقبولة لذيذة ، او انه أثار فينا

ذكريات عزيزة ، او انه يشبه شخصاً نحبه ، او انه على الاقل يثير فينا رغبة الكلام او التفكير بحيوية كبيرة .

د - واخيراً فان قسما كبيراً من **طبائعنا** نفسها مكون من ميول تحت شعورية . ويجب ان ندع جانباً الفكرة القائلة : بانه من السهل ان يعرف الانسان نفسه ، والحق ان الانسان يجهل في الغالب طبيعته الحقيقية جهلاً عميقاً ، بلى إنه يعرف عن نفسه تفاصيل نجهلها ، ولكن هذه ليست إلا تفصيلات ضئيلة او اسراراً صغيرة ، اما الاساس فقد افلت من يديه ، مع ان اصدقاءه قد يعرفونه .

ونلاحظ صعوبة معرفة النفس من وجهين : فهناك اولا **خطر الكذب على النفس** وهناك **خطر الانخداع على النفس** ، وذلك بسبب عدم الكفاءة للشعور ببعض العواطف المخبوءة او الرغبات تحت الشعورية .

خلاصة عامة

لقد عرفنا حتى الآن ان الشعور ليس بالصفة الملازمة لكل الحوادث النفسية ، بل ان هنالك حوادث نفسية ضعيفة الشعور ، او لا شعورية .

والشعور معرفة مباشرة ، شخصية ، متصلة ببعض الشروط الفيزيولوجية ، كسلامة الدماغ مثلاً ، وهو من ناحية اخرى ، عفوي او تأملي ، إلا ان دائرة الشعور العفوي اوسع واكبر .

والشعور كذلك درجات مختلفه تبدأ من حالة الانتباه العميق ، وتنتهي بالاحساسات البعيدة عن متاول الشعور كضجة كل موجة من امواج البحر ، وخضرة كل ورقة من اوراق الشجر .

والحوادث اللاشعورية طبيعية او مرضية ، فاما الطبيعية منها ، فنلاحظها في كمون العادة وشرود الذهن وكبت الرغبة ، وحوادث الايحاء .

واما المرضية فنلاحظها في الهستريا والشلل الهستري والكتابة الآلية ، والايحاء المعين وقت تنفيذه .

ثم إن الحوادث الضيقة الشعور او اللاشعورية تلعب دوراً هاماً في حياتنا النفسية ، لاننا نستطيع بها تعليل تغيرات امزجتنا ، وتفسير تصميماتنا الارادية ، وعواطفنا المختلفة كما نفسر بها طبائعنا وسجايانا ، في جانب منها على الاقل .

• ولذلك كله كانت دراسة اللاشعور من الدراسات المفيدة جداً في علم النفس ، إذ انها توضح لنا كثيراً من الحوادث الغامضة وتفسر لنا كثيراً من الامور الخبيثة .

الفصل الرابع والعشرون

تطبيقات علم النفس

خلاصة البحث :

١ ـ التطبيقات الطبية

طرائق العلاج النفساني

أ ـ العلاج بالايحاء

ب ـ العلاج بالتحليل النفسي

٢ ـ التطبيقات الحسية

أ ـ التوجيه المهني والاصطفاء المهني

ب ـ تنظيم العمل

٣ ـ التطبيقات المدرسية

أ ـ الاصطفاء والتوجيه

ب ـ تنظيم العمل المدرسي

التطبيقات الحقوقية

٤ ـ الخلاصة

لا شك ان الهدف الرئيسي لعلم النفس هو هدف كل علم بالمعنى الحق ، اعني معرفة الحوادث التي تكون موضوعه ، وهي هنا الحوادث النفسية ، ثم تفسير هذه الحوادث وكشف قوانينها ، إن امكن . غير ان كل علم ، حين يكشف عن موضوع دراسته ويعرفنا به على شكل واف ، يتيح لنا ان نؤثر فيه ونتسلط عليه . كذلك علم النفس حين

يكشف لنا عن موضوعه ويطلعنا على مجرى الحوادث النفسية ، يتيح لنا ان نتعرف بها ونتحكم في مجراها . وعلى ذلك فان لعلم النفس ، كما لغيره من العلوم ، تطبيقات عملية ، آخذة بالازدياد يوماً بعد يوم .

صحيح ان الانسان إذا تأمل نفسه وتأمل غيره ، حصلت لديه مبادىء عملية او خبرة ثمينة ، على اقل تقدير ، تنفعه في توجيه سلوكه وسلوك غيره . إلا ان مثل هذه المعارف لا تعدو ان تكون وليدة الدربة العملية ، فيعوزها دوماً ما تتصف به المعارف العلمية المنهجية الاختبارية من يقين ودقة ومكانة .

ولهذا نرى الطريقة التجريبية ، التي شاع استعمالها في العلوم الطبيعية منذ قرون عديدة ، تدخل ميدان الابحاث النفسية منذ اواخر القرن التاسع عشر ، مما عمل على خلق فن خاص بتطبيقات علم النفس ، في وسعنا ان نضع له التعريف التالي ، فنقول : هو تطبيق علم النفس على مشاكل عملية خالصة ابتغاء حلها .

وسنخصص بالحديث ، من بين هذه التطبيقات ، التطبيقات الطبية ، ثم المهنية ، ثم التربوية .

١ - التطبيقات الطبية : العلاج النفساني

نقصد بالعلاج النفساني مداواة الامراض بوسائل نفسية ، سواء أكانت هذه الامراض نفسية ام جسدية ، ولا نقصد به ، كما يظن عادة ، علاج الاضطرابات النفسية فحسب .

ونريد ان نخص بالذكر من بين هذه الوسائل النفسية وسيلتين هما الايحاء والتحليل النفسي .

أ - الايحاء

١ - معناه والاساس الذي يقوم عليه

أ - معناه : تثير كلمة « إيحاء » من حيث اشتقاقها اللغوي واستعمالها الشائع ، فكرة إدخال شيء ما في ذهن رجل آخر دون أن ينتبه هو إليه . ونقصد بها في علم النفس الفعل الذي يتم لنا عن طريقه إدخال فكرة ما في النفس وقبولها منها .

ب - الاساس الذي يقوم عليه : يقوم العلاج عن طريق الايحاء ،على ما للصور والافكار من قوة محركة ، إذ كل فكرة نوحي بها وتحمل الموحى اليه على قبولها ، وتنزع إلى ان تصير فعلا .

أما من الوجهة الحسية ، فنحن نعلم ان التصور يغدو إحساساً واقعياً . ومن التجارب التقليدية في هذا الباب ، أن نقرر أمام اشخاص وضعوا في غرفة أننا مقدمون على فتح زجاجة يفوح منها عطر شديد ، وهي في واقع الامر فارغة من كل سيء إلا من مستحضر لا رائحة له . فاذا بنا حقاً نثير لدى الجمع إحساساً بعطر ينتشر . وعلى العكس من هذا ، فان في وسع فكرة ان تمنع إحساساً أو حركة : فاذا قدمت لنا مادة غير قابلة للهضم وادعي لنا أنها غذاء ، استطاعت هذه الفكرة ان تمحو إحساسنا بالجوع .

وأما من الوجهة النفسية الخالصة ، فنرى ان هنالك ضرباً من الدوار يحدثه فينا تصورنا العنيف لفعل ممكن . والافكار الخبيثة ، كما يقول كويه Coué أشبه بهوة يزل فيها من لا يعرف الابتعاد عنها » .

٢ اشكاله المختلفة

(أ) قد يحدث الايحاء ويدس الفكرة شخص غير شخص المريض ، فيسمى الايحاء إيحاء غير ذاتي ، وهو اصدق أشكال الايحاء . ويتم هذا الايحاء في حال اليقظة احياناً ، إلا ان المريض في مثل هذه الحال يقاوم ما يوحى اليه ، لذا يفضل اللجوء أحياناً اخرى إلى حال السبات المصطنع او التنويم المغناطيسي ، ففيه يتم الايحاء بيسر تام .

(ب) وقد يستوحي المريض الفكرة المفيدة له من نفسه ، فيسمى الايحاء إيحاء ذاتياً إلا انه في مثل هذه الحال يحتاج إلى مرشد يوحي اليه بالايحاءات اللازمة .

٣ بعض نتائجه :

(أ) قدر للتنويم المغناطيسي الذي مارسه كثير من العلماء ومارسه في فرانسا خاصة في القرن التاسع عشر « ريشيه » و « جانيه » و « بيرنهايم » ، ان يشفي بعض الامراض . الا أنه هجر أخيراً لما يقود اليه من اضرار . فهو يزيد من قابلية الشخص للايحاء شيئاً بعد شيء ويضعف لديه الارادة ، حتى ينقلب منفذاً لكل ما يوحى اليه ، لارأي له ولاحول .

(ب) اما الايحاء العادي فطريقة تتبع دوماً. ولنذكر على سبيل المثال ، اميل كويه Emile Couè ، الذي كان يطلب من مرضاه ان يرددوا امثال هذه العبارة :« انا اسير من حسن الى احسن ، من كل الوجوه ». ولنذكر ايضاً الفيلسوف الغربي ابن سينا ، الذي يحدث الناس كثيراً عن طريق الايحاء ، او الاستهواء في لغتهم ، والذي كان ممن بين كيف تطيع الطبيعة الاوهام النفسانية ، وممن طبق الايحاء في كثير من الاحوال . ومما يحكيه النظامي العروضي السمرقندي في كتابه « جهار مقالة » : أن فتى من بني بويه اصيب بالماليخوليا ، واشتدت به العلة حتى اعتقد انه قد صار بقرة ، وكان يردد الصياح طول النهار ويقول : اذبحوني ، فان طعاماً شهياً يمكن ان يتخذ من لحمي . وقد امتنع عن الطعام والشراب ، فساءت حاله ، وخارت قواه ، ونحل جسمه وعجز الاطباء عن معالجته . وكان الشيخ الرئيس ابن سينا عالي الشأن ... فهرع اهل المريض الى علاء الدولة ، وتوسلوا به لدى ابن سينا ، وعرض الامير الحالة على الشيخ ، فقبل ان يتولى العلاج ، ثم قال : بشروا الفتى ان القصاب آت ليذبحه . وعلم المريض بذلك فسر ايما سرور .

ثم ان ابن سينا دخل دار المريض ، ومعه رجلان ، وفي يده سكين ، وقال : اروني اين هذه البقرة كي اذبحها . فخار الفتى خوار البقر ، كأنما يريد ان يقول : هأنذا . فقال ابن سينا : اخرجوه الى فناء الدار ، وشدوا وثاقه ، ثم اطرحوه ارضاً . وسمع المريض ذلك فأسرع الى فناء الدار ، واضطجع على جانبه الايمن . ولما شدوا وثاقه اقبل ابن سينا عليه ، وفي يده سكينان يسن احدهما على الآخر ، ثم اهوى على المريض ، وامسك بجنبه ، كما هي عادة القصابين ، ثم قال : عجباً ! ان هذه البقرة لهزيلة لاتصلح للذبح ، قدموا لها العلف ، واطعموها حتى تسمن . ثم نهض وخرج وقال للقوم : فكوا وثاقه ، وضعوا امامه ما اصفه من طعام ، وقولوا له كل حتى تسمن بسرعة ، ففعلوا وكان المريض يأكل كل ما يقدم له من طعام ، على امل ان يسمن ويصلح للذبح ، وقد اشرف الاطباء على علاجه طبقاً لارشاد الشيخ ، وفي شهر واحد صلحت حاله وبريء من مرضه » . (١)

الا ان من الواضح ان مثل هذا العلاج لا يؤثر تأثيراً مباشراً الا في الامراض الوهمية ، اما تأثيره في الامراض العضوية الحقيقية فغير مباشر . وذلك بما يحدثه من ارتياح عام وطمانينة روحية ، تنشط لها وظائف الأعضاء وافعال الحياة .

ولقد انشئت في القرن التاسع عشر ، في مدينة بوستون الاميركية مدرسة خاصة للعلاج عن طريق الايحاء وقد اقامتها « السيدة إيدي Eady » التي عرضت مذهبها الذي دعته بالعلم المسيحي في كتاب سمته « العلم والصحة » . وتجد في هذا الكتاب مذاهب متباينة جداً تمتزج بالطب النفسي ، ونرى ان مؤلفته تريد أن تظهر فيه بمظهر المتنبئة لا بمظهر العالمة . ومما تقوله : « ان الكتاب الذي أكتبه عن العلم المسيحي هو الحقيقة المطلقة ، وهو روح الفلسفة الالهية ، وما تجد بعد هذه الفلسفة فلسفة أخرى . فحين يتكلم الاله اسكت وأصغى » .

---

(١) نقلا عن كتاب العلاج النفساني لحامد عبد القادر .

ب — العلاج عن طريق التحليل النفسي

(أ) معناه والاساس الذي يقوم عليه :

أ — معناه : التحليل النفسى علاج للامراض العصبية يقوم على جعل المريض قادراً على وعي الحالات النفسية اللاشعورية التي هي مبعث اضطرابه .

ورأس من يمثل هذا المذهب الطبيب التمسوي « سيغمون فرويد » فهو الذي أشاع هذه الطريقة ووهب لها الذيوع الذي اصابته منذ سنين عديدة . على ان هنالك علماء سبقوه في هذا المضمار ، وطبقوا طريقته هذه من قبل . مثل « شاركو » و « بيير جانيه » و « بير نهايم » .

ب — الاساس الذي يقوم عليه : ان التحليل النفسي تطبيق لذلك الاكتشاف الذي وصفه جيمس بأنه أكبر اكتشاف نفسي في القرن التاسع عشر الا وهو اكتشاف اللاشعور . ومن الواضح ان لكثير من الاضطرابات المستيرية ؛ ولكثير من انواع العصاب ، مصدرا نفسياً ، إذ تنشأ عن عواطف وأفكار كبتت ، ولكنها مازالت تتابع نموها في أعماق اللاشعور ، مكونة فيه مايدعوه فرويد بالعقد النفسية . والعقدة النفسية زمرة من عناصر فكرية يرتبط كل منها بالآخر ، وتصحبها عوارض انفعالية . وهذه العقدة النفسية هي التي تحدث تلك الآثار السيئه في الحياة النفسية والجسدية لدى الشخص الذي أصابته وأقامت فيه .

وللقضاء على هذه الاضطرابات ، ينبغي باديء ذي بدء ان نعرف أسبابها : لذا كان التحليل النفسي يهدف الى الكشف عن هذه الاسباب ، وكان قائماً على تحليل للنفس يجاوز الشعور الى اللاشعور .

٢ — الوسائل :

لما كانت الغايه من التحليل النفسي ان نبلغ ذكريات وعواطف مكبوتة كبتا منظما كان من غير الجائز ان نلجأ إلى المشاهدة الباطنية : إذ تكون القوة الرقيبة التي تعمل على إخفاء الحوادث وكبتها ؛ بالغة أقصى عنفها وقوتها في تلك الفترات التي يتأمل فيها المريض

ذاته ، وينتبه الى مايحدث فيها انتباها واعيا . لذا كان على الطبيب ان يلاحظ المريض في اوقات عدم انتباهه : اذ تكون الرقابة النفسية مفككة منحلة ، فتستطيع العواطف المكبوتة ان تفلت منها ، ولو في حلل مستعارة . واكثر الحوادث فائدة بهذا الصدد ، واشدها تحقيقا لهذه الغاية ،الأحلام . « والافعال التي أخطأت مقصدها » « والتداعيات الحرة » .

أ - الاحلام : كلنا يعلم اننا نشبع احيانا في الحلم رغبة لم نشبعها في اليقظة . اما « فرويد» فيعمم هذه الملاحظة ويقرر ان الحلم ما هو الا اشباع لرغبة ،ولرغبات مكبوتة على نحو خاص تغتنم فرصة الكرى لتجتاح الشعور وتظهر فيه . فاذا طعمت في المساء سمكا مجففاً وزيتونا وبعض المقبلات الملحة ، اصدى اثناء الليل واستيقظ . ولكنني قبل ان استيقظ ارى دوما حلماً واحداً: وهو انني اشرب. وهكذا يولد الاحساس الرغبة في الشرب ويظهر الحلم هذه الرغبة وقد تحققت »

ولكن ، لما كانت الرقابة النفسية تمارس عملها حتى في الاحلام ؛ وإن تك فيها ضعيفة ، كانت الرغبات المكبوتة غير قادرة على الظهور الى حيز الشعور الا في حلل مستعارة وكانت لا تتحقق في الغالب اثناء الحلم إلا تحققا رمزيا . لذا كان من الواجب تفسير معظم الاحلام ، وقد خصص « فرويد » لهذه الغاية مؤلفا برأسه هو : « تأويل الاحلام » .

ب - الافعال التي اخطأت مقصدها : وفي وسع الطبيب النفسي ان يستهدي ايضاً ما دعاه « فرويد » الافعال التي اخطأت مقصدها : كسقطات اللسان وسقطات القلم ، والنسيان الآني وفقدان الاشياء . ففي حالات الذهول ، تغتنم العاطفة التي لا يجرؤ على البوح بها لنفسه فرصة هذا الذهول ، فتنسل خفية ، مثال ذلك ان : « يقول استاذ في درسه الافتتاحي : لست على استعداد لان اقدر محاسن سلفي في التدريس حق قدرها . بينما يريد في الواقع ان يقول : لا أراني كفئاً لأن أقدر محاسن سلفي » . وهـذا مثال يذكره فرويد .

قيمة هذه الطريقة

من المآخذ التي تؤخذ على « فرويد » مبالغته في اثر الغريزة الجنسية

(الليبيدو) اذ يرى عدد كبير من الاطباء « ان ينبوع النشاط الانساني ليس هو الغريزة الجنسية وانما هو غريزة اعم منها «هي المحافظة على البقاء» او ما يدعوه « آدلر » احد خصوم « فرويد » ومن قبله « نتيشه » « ارادة القوة » فالغريزة الجنسية في نظر هؤلاء ، رغم كل ما تحدثه من فساد ،ليست سبباً للاضطرابات العصبية النفسية . ٢) ومما يؤخذ عليه ايضاً مفهومه الخاص عن الامراض العصبية التي يعدها من طبيعة نفسية محضة : بينما تستطيع التجربة أن تبين ان لها اساساً جسدياً ايضاً٣) ويؤخذ عليه كذلك ما تقود اليه طريقته من أخطار ، اذ هي سيف ذو حدين يعمل احياناً على زيادة وطأة المرض بدلا من تخفيفها .

٢ - التطبيقات المهنية

ان المثل الأعلى الذي يهدف اليه الانسان في كل مشروع هو ان يحصل على احسن نتيجة ممكنة باقل الجهود الممكنة . ولتحقيق هذا المثل الأعلى . ينبغي اولا ان نضع كل انسان في الموضع الذي يتفق وميوله (وهذا ما يعرف بالتوجيه المهني) وان نصطفي لكل عمل خاص احسن الاشخاص استعداداً له (وهذا ما يعرف بالاصطفاء المهني) . وينبغي ثانياً ان ننظم العمل بحيث يستطيع العامل ، بجد ادنى من الوقت والتعب ، ان يحصل على اقصى ردود (وهذا ما يعرف بتنظيم العمل المهني) .

أ - التوجيه والاصطفاء المهني

يمكن من الوجهة النظرية ان نوجه ونصطفي في آن واحد ونتيجة لاختبار واحد . اما في الواقع ، فالتوجيه والاصطفاء عمليتان متباينتان . فالاصطفاء غايته الرئيسية مصلحة الانتاج ، لا مصلحة العمال المنتجين . فهو يكون لاجتلاب العمال الصالحين لعمل معين ، لهذا كان محدوداً لانه يفحص الراغبين إلا من وجهة واحدة هي الوظيفة المطلوبة . اما التوجيه ، فغايته المباشرة مصلحة الفرد العامل . ويقوم به العامل نفسه اومن يدافع عن مصالحه ، لذا كان اوسع نطاقاً ، وكان غرضه تحديد الكفاءات والمواهب التي تتيح لنا ان نحكم فيما إذا كان الفرد المتقدم للفحص صالحاً لمختلف المهن التي تستعرض، أو غير صالح لها .

فيمنزها :

أ - التوجيه: كان اصطفاء المهنة حتى زمن قريب لايستند إلى مواهب الطفل الخاصة، ولكن الى مواهبه العامة اولاً : اعني الى نجاحه المدرسي ،وثانياً: الى الصدفة التي كانت تجمعه برفيق له اصطفى لنفسه مهنه ما او بفرد نجح في عمله فيحذو هو حذوه. ثالثاً :وخاصة الى رغبة الآباء الذين يودون ان يصطفي ابنهم المهنة التقليدية التي جرت عليها الاسرة او ان يصطفي عملاً أشرف وأجل . لذا كنا نلقى دوماً كثيراً من ضروب الاخفاق وعدم النجاح ، وكثيراً من المخفقين كان في وسع التوجيه المهني ان يجنبهم مثل هذا الفشل .

٢ - الاصطفاء : ان قبول عمال لايملكون المواهب الكافية للقيام بعملهم وادخالنا اياهم في المشاريع العملية ، مما يعرض لكثير من المحاذير : ١ - فالعمال الذين يكثرون من تبديل مهنتهم يظلون طوال حياتهم مبتدئين لايقومون الا مردوداً ضئيلاً من العمل: ٢- إن تبديل العمال على الدوام لايجعل الشخص ابداً كامل التلاؤم مع عمله ولايتيح له بالتالي ان ينتج ابداً اقصى مايستطيع : وهذا التقلب في الايدي العاملة يكبد إنكلترا خسارة قدرها ١٢ - ١٥ ملياراً من الفرنكات في العام : ٣- ازدياد الكوارث : فلقد تبين ان ٤٣ بالمائة من كوارث العمل (التي تتجاوز قيمة اضرارها ملياراً من الفرنكات في العام) يتأتى عن نقص في التلاؤم مع العمل .

٢ - بعض التحقيقات :

أ - في الجيش ان أوسع محاولة في الاصطفاء والتوجيه كانت تلك المحاولة التي قامت بها الولايات المتحدة ، حين أرادت ان تنشيء جيشاً بكامله ، فوزعت الاعمال وفق الارشادات التي قدمتها الاختبارات . وقد قام بهذا العمل الفني ، تحت رعاية العالم النفسي «يركس Yerkes» ١٢٠ ضابطاً ، و ٣٥٠ جندياً ، و ٥٠٠ مساعد ، وذلك باستهداء أعمال «الفريدبينه» . واختبر هؤلاء في ايام الهدنة ١٧٢٦٩٦٦ شخصاً .

اما في الجيوش الاخرى ، فتلجأ الحكومات الى الاختبارات النفسية لاصطفاء اصلح الاشخاص لبعض اعمال الاختصاص : كالبرق اللاسلكي ، والايصال عن طريق الامن ،

ولاسيما الطيران ، وقد كان لانتقاء الطيارين الملائمين اثناء الحرب اثر كبير ؛ جعل الحوادث الناجمة عن غلطات السائقين تهبط من ٨٠ بالمائة الى ٢٠ بالمائة .

ب - **في المشاريع الخاصة** : نذكر على سبيل المثال انتقاء الاشخاص من قبل «شركة النقليات المساهمة في منطقة باريس» . إذ يختبر الراغب قبل ان يبدأ بالتعلم ، بسلسلة من الاختبارات تكشف عما إذا كان يتصف بالصفات الاساسية اللازمة للسائق : كسرعه الرجع (رد الفعل) وسلامة قدرته على التمييز . وبهذا استطاعت هذه الشركة في سنوات اربع (من عام ١٩٢٣ - ١٩٢٦)١ - ان تنقص عدد الكوارث بنسبة ١٦ بالمائة ؛ مما ينجم عنه ربح قدره ١٣٠٠٠٠٠ فرنك . ٢-ان تنقص عدد المتدربين الذين ينبغي إبعادهم عن التعليم النصفي في استعدادهم ، من ٢٠ الى ٣٤ بالمائة ، مما ينجم عنه ربح قدره ١٥٠٠٠٠ فرنك .

ومنذ ذلك الحين ، أخذت النتائج الحسنة تزداد ، كما تدل على ذلك الارقام التالية :

من عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٣٢ على حين ازداد عدد السيارات الكبيرة وحافلات الترام في باريس ٣٤ ٪ مما ينبغي ان يؤدي الى زيادة في الكوارث ، بسبب زيادة حركة السير زيادة هائلة كان الامر على عكس ذلك [بفضل طرق الاصطفاء] : إذ نقص عدد الكوارث التي يسببها السائقون ؛ بنسبة ٣٣ ٪ ، كما غداً عدد الكيلو مترات التي يقطعها سائق سيارة كبيرة أو حافلة ترام قبل ان يحدث حادثاً ، عام ١٩٣٢ ثلاثة اضعاف ونصف ما كان عليه عام ١٩٢٣ ارتفع هذا العدد عام ١٩٣٣ الى ٤٦٤٠٠٠ . وفي الوقت نفسه ، وبفصل تطبيق هذه الطرق ، أصبح عدد الراغبين الذين كانوا يقصون اثناء التعليم ، لايتجاوز ٣ ٪ من العدد الاصلي ، بعد ان كان في البدء ٢٠ ٪ .

ومنذ عهد اقرب ، قام الاستاذ هنري لوجييه بتنظيم مخبر للعمل في مصلحة الخطوط الحديدية لدى الحكومة الفرنسية .

ولنضرب مثالا على هذه الاختبارات : تقدم تلميذ في مدرسة سائقي السكك الحديدية ، الى سيارات الامتحان بالسجل الكهربائي لنبضات القلب . فسجل الفيلم المسجل منحنياً مفصلاً جداً لدقات قلبه . وفجأة « وفقاً للخطة الموضوعة » دوى صوت ضربة مزمار . ولربما كان الطالب يتوقع مثل الصدمة الانفعالية . فلم يرتعش ، الا ان المسجل يكشف عن الجهد الذي بذله كيما لا يرتعش . فيسجل الصدمة الانفعالية الناجمة عن ضربة المزمار ، ويشير خاصة الى الزمن الذي يحتاجه ليستعيد الايقاع العادي لدقات قلبه .)

ومن الواضح اننا اذا كنا امام شخصين لم يبد كلاهما اي رد فعل محسوس على الصدمة السمعية ، كان اصلحهما واقدرهما على التعرض للضربات المفاجئة ، من كان اضطراب دقات قلبه وانحرافها عن نظامها الطبيعي اقل ، اما في حياتنا العادية فنعد الآخر على العكس اصلح واضمن .

ب - تنظيم العمل

لقد ظل تنظيم العمل الصناعي وليد الخبرة العملية حتى القرن التاسع عشر ، اي حين ظهر « تايلور » [١٨٥٦ - ١٩١٥] و « فايول » [١٨٤١ - ١٩٢٥] .

أ - تنظيم العمل عامة

من الامور التي تلاحظ في الصناعة انه ليس بين التعب والعمل الذي يؤديه العامل صلة متينة : فالعمل الذي يؤديه عامل مصنع يتراوح ، في نظر « تايلور » بين ٤٣ و ١٤٠٠٠٠ كيلو غرامتر في اليوم . كما ان من الملاحظ ايضاً ان ليست هناك علاقة متينة بين عدد ساعات العمل والمردود : فلقد كان العمال (اثناء الحرب) يعملون ١٣ ساعة في اليوم بل ١٥ ساعة احياناً ، إلا ان النتاج الفردي هبط نتيجة لذلك هبوطاً اضطر القائمين على الامر ، حفظاً لمردود احسن ، ان ينقصوا عدد ساعات العمل . وقد كان في وسع الفن النفسي ان يكتشف هذه الاشياء التي كشفت عنها التجربة العملية ، دو ان يتكبد هذه الخسائر .

(أ) فعلم النفس الفني ، او الفن النفسي ، يحدد باديء ذي بدء احسن الشروط الطبعيية للعمل : كالحرارة : ففي درجة ٣٠ تكون نسبة الخسارة بالقياس الى اقصى مردود يمكن ان ينتجه العامل ٢٨ ٪ وفي درجة ٢٤ تكون هذه الخسارة ١٥ ٪ فقط ، أما درجة الحرارة المثالية فهي من ٦ الى ٢٠ وينبغي الا تتجاوز درجة الحرارة ٢٠ درجة في الاعمال التي تحتاج الى فعالية متوسطة ؛ والا تزيد على ١٨ درجة في الاعمال التي تحتاج الى فعالية كبيرة . وكالتهوية ، والاضاءة : اذ ثبت ان ٢٣،٨ ٪ من الكوارث التي تقع في الحوانيت ترجع في شكل مباشر او غير مباشر ، الى سوء في الاضاءة . وكالسكون والضجيج :

فقد يكفي ان نحذف قاطرة تمر في كل حين امام منضدة تعمل عليها نسوة عملاً دقيقاً مرهقاً كيما نزيد مردود عملهم بنسبة ٣٥٪

ومما يبينه الفن النفسي ايضاً ان المردود يكون في ادناه حين تكون درجة الحرارة رتيبة ، لا تتغير من يوم الى يوم . اما تقلب الحرارة فيزيد من هذا المردود ، وخير تغير في الحرارة هو ما لايتجاوز ٣ – ٤ درجات بين اليوم والآخر . هـذا ويكون المردود اقل في فترات صعود الحرارة منه، في فترات هبوطها.

(ب) وهو يبحث ايضاً عن احسن الشروط الفيزيولوجية للعمل: كشدة الجهد اللازم، وحجم المعاول والاكياس التي يطبقها العامل ، وسرعة الحركات وإيقاعها ، وتوزيع اوقات العمل والراحة .

(ج) وهو يدرس اخيراً احسن الشروط النفسية ملاءمة للمردود : فالعمل في الغرف يدخل الاهتمام إلى نفوس العمال ، فيضاعف الانتاج ، إلا ان التعب الذي ينجم عن هـذا التوتر وزيادة الطاقة قد يؤديان الى تشويه العمل . اما جعل العمل آلياً خالصاً فيسمح أيضاً بزيادة الانتاج مع إقلال الجهد ، إلا أنه في نظر علماء النفس يسيء إلى شخصية العامل، إذ يقلب العمال الى آلات .

٢ المفاهيم المختلفة لتنظيم العمل :

[أ] هنالك نظام ينزع عن الفرد كل مبادهة وكل عمل ذاتي، هو نظام تايلور. فمصلحة تهيئة العمل ، التي اوصى هذا العالم بانشائها ، تحدد سبيل العمل في جميع تفاصيلها ، وما على العامل إلا أن ينفذها آليا : فهنالك دليل مكتوب يشير على العامل بجميع الحركات التي عليه ان يقوم بها ، فينزع بهذا عنه كل تردد ، الا انه ينزع عنه ايضاً كل تفكير، وكل عمل ذاتي . وهكذا يقوم مكتب مؤلف من بضع مستخدمين بالتفكير نيابة عن مئات العمال او الوفهم .

(ب) لهذا أثار هذا النظام رد فعل ، كان من نتائجه ان وجد علم النفس الفني، الذي كان اول مؤسس له العالم الالماني « مونستربوغ » . وعلى حين يخضع (تايلور) العامل لقواعد في العمل قاسية محددة ، فيجعل الانسان هو الذي يتآلف مع الآلة ، نرى

(مو نستربرغ) يقر بما بين العمال من فروق فردية ؛ نفسية وفيزيولوجية، فيحاول أن يؤالف الآلة مع الفرد .

٣ — التطبيقات المدرسية

إن الصلة بين المدرسة والمهنة صلة وثيقة : فالمدرسة تمهد للمهنة ؛ كما ان التكوين المدرسي الصالح يحتاج إلى نفس الشروط التي يحتاج اليها النجاح في المهنة : ففي المهنة ينبغي ان يتوفر كل إنسان على العمل الذي يتلاءم ومواهبه ، وفي المدرسة ينبغي ان يكون العمل المدرسي منظماً بحيث يؤدي الى أقصى مردود .

أ — الاصطفاء والتوجيه

١ ـ نقائص الاصطفاء والتوجيه العمليين :

أ — في وسع الآباء والمعلمين والفاحصين أن يقدموا بهذا العدد نصائح ثمينة وآراء قيمة : يقدمها الآباء ، لصلتهم الدائمة بابنائهم ؛ ولمعرفتهم بميول من سبقهم من افراد الاسرة . ويقدمها المعلمون ، لاتصالهم المعهود بالطلاب ، ولقدرتهم على مقارنة الطفل بغيره من اقرانه ؛ ولما أوتوا من حسن النظر في تصنيف الافراد . ويقدمها الفاحصون ، لما ييسر لهم من مقارنة الطفل بعدد كبير ومتنوع جداً من الافراد الذين يختلفون عليهم في الفحوص .

ب — بيد اننا لانستطيع أن نركن الى هذه النصائح وهذه الآراء الركون كله : إذ ان يميلون الآباء ميلاً طبيعياً الى امتداح اطفالهم ؛ كما ان المعلمين غالباً ، يكتفون بان يقرروا ان الطالب ناجح في دراسته او فحصه ، وقلما يبحثون عن اسباب النجاح او الاخفاق . وهم يقررون نجاح الطالب فقط ، ولا يتبينون استعداده الطبيعي ، وما يرجى لهذا الاستعداد من تقدم او تأخر اذا امدته العاطفة مثلاً او الارادة . أما الفاحصون فيقدرون ما اكتسبه الطالب اكثر من تقديرهم لملكة الاكتساب لديه . بل تراهم في تقديرهم لما كسب ، لا يكادون يفصلون بين المعارف التي يملكها ، وبين قدرته على اعطائها قيمة ومعنى . هذا وكلنا يعلم كم يختلف التقدير من معلم الى آخر ، وما للمعادلة الشخصية من اهمية كبرى في الفحوص .

وجملة القول ، إن المجتمع حتى اليوم يقتصر على ان يقرر فيما إذا كان فرد من الافراد قد نجح في تكوينه المدرسي أم لا . وانجع من هذا بكثير ان يتنبأ عمن سيكون تكوينه المدرسي ناجحاً وعمن سيكون تكوينه على العكس مخفقاً . وهذا ما يهدف اليه علم النفس التجريبي الحديث ويصل اليه عن طريق الاختبارات العقلية التي سبق ان تحدثنا عنها في بحث الذكاء مما يصرفنا عن اثباتها هنا من جديد . ونكتفي بعود مفصل الى قيمة هذه الاختبارات .

٢ — قيمة طريقة الاختبارات النفسية

(أ) يصطدم الاصطفاء والتوجيه المهني للاطفال عن طريق الاختبارات النفسية بنوعين اساسيين من الصعوبات :

آ — الاول انه سيكون من الصعب دوماً تطبيق الاختبارات تطبيقاً يؤدي الى نتائج واضحة . ذلك ان عالم النفس أمام أمرين : فاما أن يستخدم اختبارات واحدة لجميع المختبرين . وفي هذه الحال يكون القياس الذي يلجأ اليه مشتركاً فعلا إلا أن الاختبارات اذ ذاك ما تلبث حتى تعرف ويغدو الاطفال مهيئين للاجابة الصحيحة تهيئة منظمة ؛ وإما أن يستخدم اختبارات متباينة وإذ ذاك لا يلعب حفظ الاختبار دوراً ؛ إلا انه يغدو من الصعب عندئذ تصنيف الاطفال واصطفاؤهم ؛ لعدم وجود وحدة قياس مشتركة بينهم .

٢ — والثاني أن من المستحيل التنبؤ بالتطور الذي سيبلغه الطفل : إذ هنالك انواع من التطور تأتي متأخرة ؛ وانواع من التوقف عن التطور تأتي مبكرة . ولا تقوى الاختبارات على اكثر من ان تبين فيما اذا كان الطفل متقدماً او متأخراً عن الاطفال الذين هم في مثل سنه .

واليك ما قرره بهذا الصدد المؤتمر الفرنسي للطب العام ، الذي انعقد في باريس عام ١٩٣٦ : « تطرأ على الطفل ، في بدء المراهقة ، بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، تحولات جسدية ونفسية ، تتوقف عليها مواهبه حين يغدو رجلاً في المستقبل . لذلك كان اصطفاء الاطفال ، في سن العاشرة ، لعمل في المستقبل ، سابقاً لاوانه » .

٣ — ثم إن الاختبارات العقلية لا تسمح بتصنيف جميع الاطفال ، وإنما تسمح فقط

بتصنيف الاطفال الذين يعيشون في بيئة واحدة : ولقد اجرى « كروغر » اختبارات عقلية على اطفال ريفيين كانوا يتسابقون للدخول في مدرسة تضم ابناء المدينة . فتبين ان الاطفال الريفيين ادنى بكثير من ابناء المدينة ، لاسيما في اختبارات الذكاء . ومع ذلك ، فقد استطاع هؤلاء الاطفال الريفيون ، بعد سنة من التعليم ، اعني بعد ان تمت الوحدة في البيئة عن طريق المدرسة ، أن يبلغوا شأو ابناء المدينة وان يضاهوهم .

(ب) ومع ذلك تستطيع الاختبارات العقلية ان تقدم لنا إرشادات ثمينة جداً :

١ – فلئن كانت هذه الطرق الاختبارية غير كافية بذاتها لمعرفة قيمة الطفل ، فهي على الاقل صالحة لنخص بها الارشادات التي يقدمها لنا الاساتذة والآباء .

٢ – وإذا كانت الاختبارات بعجز عن ان تجعلنا نتنبأ عما سيصير اليه فرد معين في سن الاربعين ، فهي تستطيع على اقل تقدير ان تعرفنا بالاطفال الذين يرجى لهم النمو اكثر من غيرهم . ومن الاكيد ان سيظهر بين مائه طفل مبكر عددمن الرجال اصحاب الشأن اكبر من الذين يظهرون بين مائة طفل متأخر .

٣ – اضف الى ذلك انه إذاأجري القياس على نحومنظم وفي اوقات منظمة ،نستطيع ان نتحقق إذا كان هنالك تقدم ام تقهقر ؛ وان نخمن ان كان ثمة تأخر ، هل من الممكن تلافي هذا التأخر أم لا .

ب – تنظيم العمل المدرسي

قليلون هم الطلاب الذين يفيدون من الدراسة فائدة كافية ، وذلك بسبب اجتماع طلاب متباييني الكفاءات في صف واحد . فالمناهج توجه انظارها الى « الطفل المجرد » بينما ينبغي على العكس ؛ ان نفصل لكل إنسان عملاً على حدة . صحيح إننا لا نستطيع ان نجعل التعليم فردياً تماماً : إذ مثل هذا التعليم صعب التنظيم ومردوده لن يكون مرتفعاً جداً . إلا ان في وسعنا على اقل تقدير :

١ ان نحدد الشرود العامة التي تجعل المردود احسن مرود ممكن .

٢ ان نصنف الطلاب في زمر ، حسب مواهبهم .

٣ أن نجعل مناهج الدراسة والفحوص مسايرة للمواهب والميول .

١ ـ الشروط العامة التي تجعل المردود احسن مردود ممكن

إن الشخص الراشد ينزع بطبعه إلى الحكم على حاجات الطفل وكفاءاته من خلال حاجاته هو ومواهبه ، وأن يفرض عليه نظاماً من الحياة كنظامه . صحيح ان التجربة تعلم الاستاذ ان يأتلف مع الطفل ، الا ان هذا التآلف وليد الخبرة العملية فقط ، اما التعليم فما زال يتم عن طريق تمارين تقليدية ، لم يثبت العلم ابداً فائدتها . لذا كانت مهمة إقامة تربوي علمي بالمعنى الصحيح منوطة بعلم النفس التجريبي .

أ ـ فيمكننا عن طريق التجربة ان نحدد احسن الشروط الطبيعية والفيزيولوجية ملاءمة للعمل المدرسي : فمن المفيد ان نعرف ما هي درجة الحرارة والاضاءة التي تلائم التفكير اكثر من غيرها ، وان نعرف اوفق وضع وجلسة اثناء العمل ، وان نعرف خير انماط الامة الفكرية والالعاب المعرضة عن الجهد الذهني .

ب ـ ويمكننا ايضاً ان نحدد القيمة النسبية لمختلف شروط العمل النفسية : هكذا انتهت التجارب الى تفضيل طرق الدراسة التي تهيب بمبادهة الطالب وعمله الذاتي . فاخفاق بعض الطلاب ؛ وازدراؤهم من قبل اساتذتهم وآبائهم احيانا ، يخلق لديهم مركب نقص ، يحرمهم كل نشاط وقدرة . ولاجتناب هذا ، ينصح بعضهم بالغاء التنافس بين الطلاب وحذف الدرجات وكل تصنيف ، وقد يكون من الاجدى ، كما تفعل بعض المدارس المحدثة ، ألا يقارن الطالب مع غيره من الطلاب وأن يقارن مع نفسه ويرسم له خط بياني يوضح تقدمه .

وقد قارن احد العلماء بين النتائج التي نحصل عليها بمقاييس اختبارية واحدة ، لدى فريقين من صف واحد ، انب اولهما ، ووبخ في اختبار اول ، بينما امتدح الثاني . فوجد في الاختبار الثاني ، أن الفريق الذي امتدح قد ابدى تحسناً بنسبة ٧٠ بالمائة ، بينما كانت النتائج التي اسفر عنها اختبار الفريق الثاني الذي وبخ ادنى بقليل من نتائج الاختبار الاول .

ج ـ ينبغي ان نخضع مناهج التعليم لطرق الاختبار . فنصل عن طريق الاختبارات النفسية إلى الاجابة عن مثل الاسئلة التالية : هل الدرس الذي يمليه الاستاذ إملاء اصلح ، أم الدرس الذي يلقيه إلقاء ؛ ويسجل الطلاب خلاله بعض رؤوس الأقلام ؟ أم أن الاجدى من هذا وذاك شرح كتاب مدرسي ؟ وهل التعليم عن طريق البصر يفضل التعليم الشفوي

المعتمد على السماع، وهل على الاستاذ ان يلجأ إلى اللوح الاسود أو الصور الخ ...؟ وهل من الأحسن، لاغناء المفردات لدى الطالب، أن يلجأ إلى حفظ قوائم من الكلمات، أم الاجدى أن يتعلم مقاطع لكتاب مشهورين، أو ان يقرأ ويترجم كثيراً من النصوص ؟

د — ثم إن الاختبارات تهدينا الى خير توزيع للعمل إذ ينبغي باديء ذي بداءة أن نعين السن التي يكون فيها الانسان اسهل قبولا للعمل ووعياً له . فهنالك اطفال إذا وجدوا في بيئة يتحدث أصحابها بلغات عدة، وصلوا في شهور معدودات إلى التحدث بثلاث لغات او أربع، بينما يصل آباؤهم ويحارون بين هذه الالسنة المتباينة كما ينبغي أيضاً أن نحدد لكل سن عقلية اقصى مدة للجهد العقلي الذي يمكن ان يقوم به الطفل إذ هنالك مرحلة من العمل تضنيه، لاتعوض فيها النتيجة الحاصلة القدرة المفقودة، لذا ينبغي ان نقف العمل حينما يغدو المردود غير كاف. ويمكننا ايضاً عن طريق الاختبارات ان نحدد مدة الدرس تحديداً صحيحاً، ونعين أوقات الراحة والفرص، وعدد أيام العطل ومدة العطلة الصيفية .

٢ — تجانس الصفوف

منذ سنين، قد لا تجاوز الخمسين، فكر علماء التربية بان يرفعوا عن كاهل الصفوف العبء الثقيل الذي يحملها إياه الاطفال غير السويين والمتأخرون عقلياً؛ وأن يعزلوهم في صفوف خاصة . اما اصطفاء الموهوبين وعزلهم فلم يبدأ إلا اثناء الحرب العالمية الأولى، وكان ذلك في برلين وهامبورغ بواسطة الاختبارات النفسية . إلا أن علينا مع ذلك ان نذهب بهذا الصدد الى أبعد من ذلك . ذلك ان الصف لايغدو متجانساً « وإن نحن عزلنا الموهوبين والمتأخرين » فهنالك اولا اختلافات في النمو النفسي وفي الاستعداد التام : فقد يستطيع الاول في الصف ان يقدم جهداً أكبر وان يفيد من التعليم بالتالي فائدة أحسن، بينما الجهد المطلوب من الاخير غير متناسب معه وفوق طاقته، ويظل ما يبذله من جهة اخرى غير مثمر . وهنالك أيضاً فوارق عميقة في الاستعدادات والمواهب الخاصة : فبعض الطلاب يغلب عليهم الخيال، وبعضهم الآخر يغلب عليه التفكير، وبعضهم بصري والآخر سمعي ... لذا كان من المرجى ان يتحقق التنوع والتباين في طرق التعليم ومناهجه، بحيث يجد كل طفل تعليماً جاهزاً مفصلاً على قده .

٣ - المناهج والفحوص

إن معظم البرامج السائدة حتى الآن تهدف : أ - إلى تزويد الطلاب بالمعلومات اكثر مما تهدف إلى تكوينهم تكويناً صحيحاً . ٢ - وخلق افراد من نمط واحد متشابه ، لا ان تنمي شخصية كل فرد ، وتقيم التمايز بين الافراد .

أ - اما مناهج الدراسة المهيئة وفق نصائح علم النفس التجريبي فمهمتها الاساسية تكوين الفكر وإنماء الحياة النفسية لدى كل فرد، بحيث تصلح النقائص الطبيعية وتنمي في شكل واسع المواهب الايجابية .

ب - ومثلها الفحوص ، إذ ينبغي أن توضع مقاييسها بحيث تعرض صعوبات واحدة أمام الطلاب الذين ينتسبون إلى فئة واحـــدة ، وبحيث تكشف عن الجوانب المختلفة للشخص وتبين القيمة الحقيقية له .

هـذه نماذج عن بعض تطبيقات علم النفس ولا شك ان لهذا العلم تطبيقـات أخرى كثيرة ، لم نشر اليها ، نخص بالذكر منها تطبيقاته المقبـــلة باكتشاف الجرائم التي كانت موضوع بحوث خاصة أطلق عليها اسم علم النفس الجنائي (وكلمة الجنائي هنا مستعملة تجوزاً او بالمعنى العام) إذ لقد يسأل المجرم مثلاً عما تثيره في نفسه بعض الكلمات المنتقاة المتعلقـــة بالجريمة ، من تداعيات ، قد تستطيع الاشارة إلى اشتراكه في الجريمـه ، او براءته منها . ولقد يفحص جسمه أثناء الاجابه ، فحصاً طبياً عاماً ، حتى يتضح للسائل مـــا إذا كانت اجوبة المتهم أجوبة طبيعية لا تكلف فيها ، أو أجوبة مصطنعة ، إلى غير ذلك من الحيل المبتكرة لاكتشاف الجرائم وانتزاع إقرار المجرم . ونخص بالذكر أيضاً تطبيقاته المقبلة بالشئون الحربية وشئون الدعاية وشئون الحكم ... وتطبيقات اخرى عديدة تتسع يوماً بعد يوم وتغنى كلما غني علم النفس ، واستبانت قيمته في تعريف كثير من امور الحياة .

الفهرس

		صفحة
مفاهيم علم النفس وطرائقه	الفصل الاول	٥ — ١٤
الحوادث النفسية وطرائق دراستها	« الثاني	١٥ — ٣٠
علاقة الحوادث الفيزيولوجية والاجتماعية	« الثالث	٣١ — ٤٦
الحساسية والفعالية	« الرابع	٤٧ — ٦٨
الاحساسات	« الخامس	٦٩ — ٨٦
الصور	« السادس	٨٧ — ٩٧
اللذة والألم	« السابع	٩٨ — ١١٤
الهيجان	« الثامن	١١٥ — ١٣٧
الاهواء	« التاسع	١٣٨ — ١٥٤
الغرائز	« العاشر	١٥٥ — ١٧٩
العادة	« الحادي عشر	١٨٠ — ١٩٥
تداعي الافكار	« الثاني «	١٩٦ — ٢١٣
الانتباه	« الثالث «	٢١٤ — ٢٢٥
الذاكرة	« الرابع «	٢٢٦ — ٢٤٤
الادراك	« الخامس «	٢٤٥ — ٢٦٢
الحكم والاعتقاد	« السادس «	٢٦٣ — ٢٧٤
التجريد والتعميم	« السابع «	٢٧٥ — ٢٩٠
المحاكمة	« الثامن «	٢٩١ — ٣٠٧
الذكاء	« التاسع «	٣٠٨ — ٣١٩
التخيل المبدع	« العشرون	٣٢٠ — ٣٣٠
الارادة	« الواحد والعشرون	٣٣١ — ٣٤٢
الشخصية	« الثاني والعشرون	٣٤٣ — ٣٥٨
الشعور واللاشعور	« الثالث والعشرون	٣٥٩ — ٣٦٧
تطبيقات علم النفس	« الرابع والعشرون	٣٦٨ — ٣٨٤

الحركات الغريزية: هي أكثر تعقداً من الافعال المنعكسة وهي فطرية غير مكتسبة

الافعال العادية: فهي مكتسبة بالتكرار، غير فطرية، يرجع تاريخها الى بداية حياة الفرد.

الافعال الإرادية: فهي التي ينتخبها الإنسان بعقله ويفضلها على غيرها من الحركات

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT